جلال الدين السيوطى

عصره و حياته وآثاره و جهود فى الدرس اللغوى

طاهر سليمان حموده

بسم الله الرحمن الرحيم

جلال‌الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی

کاتب:

طاهر سلیمان حموده

نشرت فی الطباعة:

المکتب الاسلامی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
هویة الکتاب ----- ۱۳
تصدیر ----- ۱۳
مقدمة ----- ۱۴
الباب الأول عصر السیوطی و حیاته، و آثاره ----- ۱۹
الفصل الأول ----- ۱۹
الحیاة السیاسیة و الاجتماعیة ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
الخلافة: ----- ۲۵
نظم الحکم: ----- ۲۷
القضاء: ----- ۲۷
الحیاة الاجتماعیة ----- ۲۸
اشارة ----- ۲۸
بناء المجتمع: ----- ۲۹
أرباب القلم: ----- ۳۰
التجار: ----- ۳۱
الصناع و أرباب الحرف: ----- ۳۱
العوام «۴»: ----- ۳۱
أهل الذمة: «۳» ----- ۳۲
الفلاحون: ----- ۳۲
الأعراب: ----- ۳۲

الأقليات الأجنبية: ۳۳
الحياة فی المدن: ۳۴
القلق الاقتصادی: ۳۵
المجاعات و الأوبئة: ۳۶
التصوف و المجتمع: ۳۸
الفصل الثانی ۴۰
الحياة الثقافية ۴۰
اشارة ۴۰
دور العلم: ۴۲
اشارة ۴۲
۱- المدارس: ۴۳
اشارة ۴۳
المدرسة الصلاحية «۱»: ۴۳
مدرسة السلطان حسن «۲»: ۴۳
مدرسة صرغنمش: ۴۳
خزائن الكتب: ۴۳
۲- الخوانق و الربط و الزوايا: ۴۴
اشارة ۴۴
خانقاه سعيد السعداء «۳»: ۴۴
خانقاه شيخو «۳»: ۴۵
الخانقاه البيبرسية «۱»: ۴۶
۳- الجوامع: ۴۶
اشارة ۴۶
جامع عمرو «۲»: ۴۷

جامع ابن طولون «۱»: ۴۸
الجامع الأزهر: ۴۸
[نتائج نشاط الحرکة العلمیة] ۵۰
۱- وفود الطلاب إلی معاهد العلم: ۵۰
۲- کثرة العلماء و الأدباء: ۵۱
۳- نشاط الحرکة التألیفیة: ۵۱
[منهج التالیف فی العصر] ۵۲
۱- الاتجاه الموسوعی: ۵۲
۲- ظاهرة التقلید: ۵۳
۳- ظاهرة المتون و الشروح: ۵۳
۴- الاکمالات و التذییلات: ۵۴
۵- تنظیم العلوم و استقرار المصطلحات: ۵۵
۶- العنایة بتاریخ مصر: ۵۶
الحیاة الأدبیة ۵۶
اشارة ۵۶
الخطبة: ۵۸
الرسائل «۲»: ۵۹
المقامة: ۵۹
الفصل الثالث ۵۹
حیاته و ثقافته و آثاره ۵۹
مولده و نسبه: ۶۰
والده: ۶۰
نشأته و حیاته العلمیة و العملیة ۶۱
نشأته: ۶۱

دراسته: ----- ۶۲
شیوخه: ----- ۶۳
اشارة ----- ۶۳
۱- ابن حجر العسقلانی: ----- ۶۴
۲- علم الدین البلقینی: ----- ۶۴
۳- شرف الدین یحیی المناوی: ----- ۶۵
۴- تقی الدین الشّمنیّ الحنفی: ----- ۶۵
۵- محیی الدین الکافیجی: ----- ۶۶
۶- سیف الدین الحنفی: ----- ۶۷
مراحل حیاته ----- ۶۷
اشارة ----- ۶۷
العزلة الأخیرة: ----- ۷۴
وفاته: ----- ۷۶
قبر السیوطی: ----- ۷۶
صفة المقام: ----- ۷۷
مکانه فی المجتمع ----- ۷۷
اشارة ----- ۷۷
السیوطی بین أنصاره و خصومه: ----- ۸۰
دعوی الاجتهاد: ----- ۸۴
خلقه و شخصیته: ----- ۸۶
منهجه فی التفکیر و أصول هذا المنهج ----- ۸۸
اشارة ----- ۸۹
فکرة المبعوثیة: ----- ۹۰
السیوطی و علوم الحدیث ----- ۹۲

السیوطی و التصوف: ۹۴
السیوطی الفقیه: ۹۶
السیوطی و الأدب: ۹۷
السیوطی الشاعر: ۹۹
آثار السیوطی ۱۰۱
الباب الثانی جهوده اللغویة ۱۰۴
تقدیم: ۱۰۴
الفصل الأول ۱۰۵
فقه اللغة أو: «الدراسات اللغویة غیر النحو و الصرف» ۱۰۵
تقدیم: ۱۰۵
آثاره اللغویة و مکانها من حیاة الدرس اللغوی ۱۱۱
اشارة ۱۱۱
۱- المتوکلی فیما ورد فی القرآن باللغة ۱۱۱
۲- المهذّب فیما ورد فی القرآن من المعرّب: ۱۱۶
۳- بعض الأبحاث اللغویة المتصلة بالقرآن الکریم: ۱۱۸
۴- رسالة فی أصول الکلمات: ۱۱۹
۵- التبری من معرّة المعری: ۱۲۰
۶- التهذیب فی أسماء الذیب: ۱۲۲
۷- فطام اللسد فی أسماء الأسد: ۱۲۳
۸- الافصاح فی أسماء النکاح: ۱۲۳
۹- الافصاح فی زوائد القاموس علی الصحاح: ۱۲۳
۱۰- الالماع فی الاتباع کحسن بسن فی اللغة: ۱۲۳
۱۱- حسن السیر فیما فی الفرس من أسماء الطیر: ۱۲۴
۱۲- غایة الاحسان فی خلق الانسان: ۱۲۵

۱۳- شرح قصیدة بانت سعاد: ۱۲۶
۱۴- الریاض الأنیقة فی شرح أسماء خیر الخلیقة: ۱۲۷
۱۵- الشماریخ فی علم التاریخ: ۱۲۸
۱۶- المزهر فی علوم اللغة و أنواعها: ۱۲۹
اشارة ۱۲۹
منهج السیوطی فی المزهر: ۱۳۰
وضع أصول لنقد الروایة اللغویة ۱۳۵
اشارة ۱۳۵
المرحلة الأولی: النقد الخارجی: ۱۳۹
أ- رواة اللغة: ۱۳۹
ب- الأسانید: ۱۴۵
المرحلة الثانیة: النقد الداخلی أو نقد المتن: ۱۵۲
مفهوم اللغة عند السیوطی ۱۵۳
الألفاظ ۱۵۵
المعنی أو الدلالة اللغویة ۱۶۱
اشارة ۱۶۱
الأضداد: ۱۶۶
ضبط اللغة ۱۶۶
نشأة اللغة ۱۶۷
الصلة بین اللفظ و المعنی ۱۶۹
الوضع اللغوی ۱۷۱
المعاجم اللغویة ۱۷۳
اثبات الأسماء بالقیاس ۱۷۴
الفصل الثانی ۱۷۵

النحو ----- ۱۷۵
اشارة ----- ۱۷۵
آثاره النحویة ----- ۱۷۶
اشارة ----- ۱۷۶
۱- الأخبار المرویة فی سبب وضع علم العربیة: ----- ۱۷۶
۲- الأشباه و النظائر فی النحو: ----- ۱۷۷
۳- الاقتراح فی علم أصول النحو: ----- ۱۷۸
۴- الفریدة: ----- ۱۷۸
۵- المطالع السعیدة فی شرح الفریدة: ----- ۱۷۹
۶- شرح ألفیة ابن مالک، ----- ۱۸۱
۷- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع: ----- ۱۸۲
۸- النکت علی الألفیة لابن مالک، و الکافیة و الشافیة لابن الحاجب، و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام: ----- ۱۸۳
۹- الفتح القریب علی مغنی اللبیب: ----- ۱۸۴
۱۰- شرح شواهد المغنی: ----- ۱۸۴
۱۱- الشمعة المضیة فی علم العربیة: ----- ۱۸۵
۱۲- الموشح فی علم النحو: ----- ۱۸۵
الفتاوی النحویة: ----- ۱۸۶
رسائل الحاوی: ----- ۱۸۷
اشارة ----- ۱۸۷
۱- فجر الثمد فی إعراب أکمل الحمد «۲»: ----- ۱۸۸
۲- ألویة النصر فی «خصیصی» بالقصر «۱»: ----- ۱۸۸
۳- الزّند الوری فی الجوانب عن السؤال السکندری «۱»: ----- ۱۸۹
۴- رفع السنة فی نصب الزّنة «۲»: ----- ۱۸۹
بقیة الآثار: ----- ۱۹۰

السیوطی و علم أصول النحو ---- ۱۹۱
مذهبه النحوی ---- ۲۰۰
خاتمة ---- ۲۰۷
ثبت المصادر و المراجع ---- ۲۱۲
أولا- أسماء مؤلفات السیوطی ---- ۲۱۲
ثانیا: المصادر العربیة و المترجمة (لغیر السیوطی) ---- ۲۳۳
ثالثا: المصادر الأجنبیة ---- ۲۳۸
مسرد محتویات البحث ---- ۲۳۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۲۴۱

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى

اشارة

سرشناسه : حموده طاهرسليمان

عنوان و نام پديدآور : جلال‌الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى تاليف طاهر سليمان حموده

مشخصات نشر : بيروت المكتب الاسلامى ۱۴۱۰ق = ۱۹۸۹ م =۱۳۶۸ .

مشخصات ظاهرى : ۴۳۶ص وضعيت فهرست نويسى : old catalog

يادداشت : كتابنامه ص ۴۲۶-۳۸۱ ؛ همچنين به صورت زيرنويس

موضوع : سيوطى عبدالرحمن‌بن ابى‌بكر، ۸۴۹ - ۹۱۱ ق -- سرگذشتنامه

موضوع : سيوطى عبدالرحمن‌بن ابى‌بكر، ۸۴۹ - ۹۱۱ ق -- كتابشناسى

موضوع : محدثان اهل سنت -- سرگذشتنامه

رده بندى كنگره : BP۵۴/۱/س۹ح۸ ۱۳۶۹

شماره كتابشناسى ملى : م۵۵۱

هوية الكتاب

جلال الدّين السّيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدّرس اللغوى تأليف د. طاهر سليمان حمودة أستاذ العلوم اللغويّة بجامعة الاسكندرية و جامعة الملك سعود بالرياض المكتب الاسلامى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲

جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى ۱۴۱۰ ه- ۱۹۸۹ م المكتب الإسلامى بيروت: ص. ب ۳۷۷۱/ ۱۱- هاتف ۴۵۰۶۳۸- برقيا: إسلاميا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳

تصدير

بسم اللّه الرحمن الرحيم كان هذا البحث الذى أقدّمه للنشر اليوم عملا تقدّمت به للحصول على درجة الدكتوراة من قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية بعنوان «السيوطىّ اللغوى»، و كنت قد أتممت كتابته فى شهر المحرم من عام ۱۳۹۱ ه الموافق مارس ۱۹۷۱ م، و قد تمت المناقشة فى مايو من العام نفسه.

و كانت هذه أول دراسة علمية عن السيوطى تقدّم فى جامعة من الجامعات العربية، و كان من الواجب علىّ، أو من الأنسب لهذه الدراسة أن أبادر بنشرها صونا و إبرازا لما أتصوره من جهود مضنية بذلتها فى البحث و الدّراسة عاكفا على التفتيش فى المخطوط و المطبوع من آثار السيوطى و آثار الأقدمين.

و لقد ظهرت بعدها دراسات تناولت بعض جوانب السيوطى لا- أشك فى اعتمادها أو اعتماد بعضها على هذه الدراسة مع إغفال الإشارة إليها.

و قد عاودت النظر قبيل النشر فيما كتبت من قبل، فرأيت أننى قد قمت فى هذا البحث بدراسة وافية لعصر السيوطى و حياته و آثاره، و

هى فى نظرى دراسة ضرورية لا تعدّ مقدّمة للدراسة اللغوية فحسب و إنما تزيد على ذلك إذ توفّى معظم جوانب عصر السيوطى و حياته و ثقافته و منهجه العلمى حقّها من الدّراسة، و لذلك رأيت أن أجعل عنوان الكتاب «جلال الدّين السيوطى:

عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى».

و قد قمت بإجراء بعض التصويبات أو التعديلات التى رأيت من الأفضل القيام بها عند المراجعة، و هى قليلة نسبيا، و لم أحاول إجراء تعديلات تتصل بالمنهج أو التصنيف لاقتناعى بسلامتهما و مناسبتهما لموضوع البحث.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴

و اللّه أسأل أن يوفقنا لما فيه الصواب فى العمل و السّداد فى القول.

ربيع الأول ۱۴۰۹ ه تشرين الأول (اكتوبر) ۱۹۸۸ م طاهر سليمان حمورة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵

مقدمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد صلى اللّه عليه و على آله و أصحابه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و بعد فهذا البحث الذى قصدت به دراسة «السيوطى اللغوى» يتناول شخصية هامة فى تاريخ الفكر الاسلامى بعامة، و الدرس اللغوى بخاصة، و قد أردت بهذا البحث الذى يتناول شخصية قدر لها أن تحيا فى عصر متأخر، و فى بيئة متميزة ورثت البيئات الاسلامية المتقدمة أن أعرض صورة لما آل إليه أمر الدرس اللغوى بعد تدرج طويل مرّ به فى أحقاب متتالية، و الدرس اللغوى متصل أشد الاتصال بسائر فروع المعرفة الانسانية، لأن اللغة هى أداة التعبير فى سائر العلوم، و لأن العلوم الاسلامية من فقه و أصول و حديث و تفسير و غير ذلك تعتمد أشد الاعتماد على اللغة و يهمها ما يصل إليه البحث اللغوى من نتائج، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن جميع هذه الفروع بما فيها البحث اللغوى قد امتزجت أمشاجها عند أولئك القوم و تأثر بعضها ببعض، و لا يعنى ذلك اختلاطها عليهم و لكن يعنى إفادة كل فرع من الآخر بالقدر الذى تقتضيه طبيعته.

و السيوطى عالم متعدد الجوانب لم يدع فرعا من فروع المعرفة دون أن يطرقه و يترك لنا فيه آثارا تزيد أو تنقص بمقدار عنايته بذلك الفرع، و قد ترك اهتمامه المتعدد بشتى ألوان البحث أثرا بالغا فى تفكيره و طبع عقليته بطابع متميز، كما أن حياته فى عصر متأخر و فى البيئة المصرية التى تميزت فى عهد المماليك بمميزات خاصة حضارية و ثقافية، كل أولئك قد ظهر أثره فى إنتاجه و آثاره، لذلك رأيت لزاما على لكى أستجلى معالم شخصيته و فكره و طابعه العقلى أن أبدأ أولا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶

باستجلاء الصورة العامة لذلك العصر، فمن الخطأ البين أن نحكم على السيوطى بموازين عصرنا اللاحق له و مفاهيمه، كما أنه من الخطأ أيضا أن نقيمه من منظور العصور السابقة، ذلك أن صورة العصر تفسر لنا كثيرا مما نجده عنده.

و السيوطى- فى حقيقة الأمر- يعطى أصدق صورة للعلوم الإسلامية بصفة عامة فى نهاية تدرجها، كما أننا نلحظ فى كتاباته العديدة صورة حية للمجتمع الذى يعيش فيه و يتفاعل معه، و كون الرجل فقيها يحيا فى مجتمع مسلم و يرى نفسه من مجتهدى مذهبه أو من المجتهدين على الاطلاق قد حتم عليه أن يكون على صلة وثيقة بالمجتمع و حاجاته العلمية و ما ينتابه من أحداث يحتاج فيها الناس إلى حكم اللّه فيلجئون إليه، و قد طبقت فتاواه البلاد الاسلامية جميعا، و كان لها أثر فى حياة المجتمع على عهده.

و يتصل بما قدمنا من تحديد جوانبه العقلية ما نلاحظه فى رسائله و كتاباته العديدة التى لم يدع فيها خاطرا يمر به إلا دونه و نبه عليه أو وضع فيه مؤلفا، و كثير من الموضوعات التى قد نعتبرها تافهة ترك فيها آثارا.

على أن فحص هذه الكثرة الكاثرة من الآثار يبين لنا إلى حد بعيد غلبة الطابع النقلى على منهج الرجل فى جميع دراساته، و لكن ذلك لا ينفى الجهود التى بذلها فى الترتيب و التنسيق و الجمع، و لا ينفى بعض ابتكاراته الهامة، كما أنه يصور فى أحيان كثيرة عقليته الواعية و درايته بما يتعرض له من موضوعات.

و أهم الصعاب التى واجهتها فى هذا البحث ما يتصل بآثاره التى لم يطبع جانب كبير منها و لم يصلنا جانب آخر، كما أن هذه الآثار ما بين مختصر و مطول و متن و شرح و منظوم و موشح و مقامة، فضلا عن تعدد ما يتناول منها موضوعا واحدا بحيث يخشى المرء من التباس الأمر عليه، كما أن بعض رسائله الصغيرة قد ضمنها فى ثنايا كتبه الكبيرة إما تضمينا متميزا أو ممزوجا.

و النقطة الثانية أن الرجل قد غلب عليه الطابع النقلى الذى استلزم منى أن أبحث فى دوافع سلوكه هذا المنهج، و أن أنظر فى جملة من المصادر التى نقل عنها لكى أحدد منهجه فى النقل و أصف أمانته.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷

كل أولئك قد جعلنى أسير فى البحث على النسق الذى رأيته موفيا بما قصدت إليه من أغراض فجعلته فى بابين يحوى أولهما ثلاثة فصول يتناول كل فصل جملة من الموضوعات المترابطة و يحوى الثانى فصلين أحدهما فى فقه اللغة و الثانى فى النحو.

أردت فى الباب الأول «عصره و حياته و آثاره» أن أخلص إلى الحديث عن منهجه فى التفكير موضحا أصول هذا المنهج، و أن أدرس آثاره بصفة عامة، و قد اقتضى ذلك أن أبدأ بالحديث عن عصره، و الحديث عن العصر يستلزم من الدارس أن يوضح إطاره السياسى و الاجتماعى، فالحياة العقلية ترتبط بالاطارين السياسى و الاجتماعى ارتباطا وثيقا، تتأثر بهما و تؤثر فيهما، و لا يمكننا تفسير بعض الظواهر الثقافية إلا إذا رددناها إلى المؤثرات السياسية و الاجتماعية الملابسة لها.

لذلك خصصت الفصل الأول لتحديد الاطارين السياسى و الاجتماعى لهذه الفترة، فبدأت بالحديث عن الحياة السياسية و اقتضى ذلك الرجوع قليلا عبر السنين للتنبيه على حادثة هزت كيان العالم الإسلامى كله، و هى سقوط بغداد و انتقال الخلافة إلى القاهرة، و هذه الحوادث كان لها أثر بعيد فى توجيه الحياة فى البيئة المصرية طيلة عصر المماليك.

ثم انتقلت إلى الحديث عن السلاطين الذين عاصرهم السيوطى لما كان بينه و بينهم من صلات أثرت فى توجيه حياته و فيما ترك من آثار، و انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن خلفاء بنى العباس بمصر حياة السيوطى، لما كان له و لأبيه من قبل من حظوة عندهم جعلتهم لا يبخلون عليه بالعون و المؤازرة.

ثم أردت تحديد الاطار الاجتماعى لأتبين المكان الذى تنزله طبقة العلماء أمثال السيوطى من المجتمع، و لم تكن تتضح هذه المكانة إلا بمقارنة هذه الفئة بغيرها من فئات المجتمع و من ثم فقد عرضت لأنواع هذه الفئات مبينا درجتها فى المجتمع و فعلها فيه، كما أوضحت صورة الحياة فى المدن و خصصت القاهرة بيئة السيوطى بالتفصيل الكبير، و عرضت لبعض الظواهر الاجتماعية و الحيوية الهامة التى تميز بها المجتمع آنذاك و أهمها ظاهرة التصوف، و كل ذلك إنما تناولته لما للسيوطى و آثاره من صلة وثيقة به، فالرجل كما قلت صورة حية لمجتمعه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸

تمثله أصدق تمثيل، و قد نبهت أحيانا على تفاعل السيوطى مع ما عرضت من أحداث و صور سياسية و اجتماعية.

و فى الفصل الثانى تناولت الحياة الثقافية و قد أردت أن أوضح الظواهر التى تميز بها التأليف فى ذلك العصر، و العرف الذى اتبع فى التلقى و التدريس و التأليف حتى يسهل علينا مقارنة آثار السيوطى بما وضع فى عصره، و حتى يمكننا رد كثير من الظواهر التى نلحظها فى منهجه إلى أصولها، و قد دفعنى ذلك إلى بيان نشاط الحركة العقلية و مظاهر هذا النشاط المتمثلة فى مراكز العلم بأنواعها المختلفة و فى الكثرة الكاثرة من مؤلفات العصر، و فى كثرة الطلبة و الشيوخ، و قد مثلت لكل من هذه المظاهر بمثال أو ببعض الأمثلة و تقصيت عوامل نشاط الحياة الثقافية ثم صببت اهتماما أكثر فى الحديث عن الملاحظات التى أمكن لى الوقوف عليها فيما يتصل

بمؤلفات العصر بصفة عامة ليساعدنى ذلك فى الحكم على مؤلفات السيوطى التى طبعت فى الغالب بما طبعت به مؤلفات العصر، و قد نبهت على تأثر السيوطى بعصره و روحه بين حين و آخر، و لما كانت الحياة الأدبية جزء لا يتجزأ من الحياة الفكرية بعامة فقد رأيت أن أختم هذا الفصل بالحديث عن هذه الحياة و مميزاتها، لما ذلك من أثر لاحظته على كتابات السيوطى بصفة عامة و على إنتاجه الأدبى بصفة خاصة، فأسلوبه متأثر بروح العصر فى الكتابة و التى من أهم خصائصها الحرص على ضروب البديع، كما أن إنتاجه يمثل الأنواع الأدبية المتنوعة التى عرفها العصر، و يدل على حرص السيوطى على أن يسهم فى جميعها.

و فى الفصل الثالث تناول البحث «حياة السيوطى و ثقافته و آثاره» و قد اتضح فيه أهمية الارتكاز على الفصلين السابقين فى سبيل استجلاء كثير من جوانب الموضوع، و قد بدأت ببيان مولده و نسبه و نسبته و تحدثت عن والده، ثم عرضت بعد ذلك لنشأته و دراسته و قد اقتضى ذلك أن أترجم باختصار لأهم الأساتذة الذين أخذ عنهم و كان لهم فعل و أثر فى عقله و حياته، ثم خلصت بعد ذلك إلى الحديث عن مراحل حياته، و قد أردت بهذا الموضوع أن أبين المراحل التى مرت بها حياة السيوطى العملية، و أهم البواعث و المؤثرات التى وجهت هذه الحياة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹

و لذلك فقد تحدثت فى ختام هذا الموضوع عن وفاته باعتبارها نهاية هذه المراحل التى مر بها. و أردت بعد ذلك أن ألقى الضوء على بعض الموضوعات، فتناولت مكانته فى المجتمع و قد أخرتها بعد عرض مراحل حياته و بعد الحديث عن وفاته لأننى حينئذ أتناول بالدراسة تجربة قد انتهت، و اكتملت و أصبح من الواضح البين إمكان الحكم على جوانبها المختلفة مع الاستعانة بالحوادث التى مرت فى خلال فترة الحياة، و قد بينت فى حديثى منزلته الاجتماعية و صلته بالمجتمع و أهم الأحداث العامة التى خاضها و أثره فى مجتمعه. و بعد أن بينت هذا الجانب كان لزاما على أن أتبعها بالحديث عن خصومات السيوطى التى تعرض لها و التى فرضها عليه مكانه من المجتمع و تبوؤه درجة لها قدرها، و قد عرضت بعض النماذج القولية التى هاجم بها خصومه، كما عرضت نماذج لهجومهم عليه، و حاولت استجلاء طبيعة هذه الخصومات و تلمست القول المنصف فيها، و أهم الموضوعات التى كانت مجالا لهذه الخصومات. و كان لزاما على بعد عرض الخصومات و ما تعرض له السيوطى من قدح و هجوم و ما تناول به خصومه من قدح. و ما قمت به من استجلاء للحقائق أن أعرض لخلقه و شخصيته نظرا لأن الخلق العلمى و الأمانة إنما هما جزء لا يتجزأ من سلوك المرء العام فى حياته العملية، و قد عرضت من الحوادث التى مرت به و من أقواله و أفعاله ما يعين على وصف شخصه و خلقه و صفا دقيقا، و من هنا خلصت إلى ما أريده من بحث منهجه فى التفكير و تحديد أصول هذا المنهج معتمدا على ما سبق أن قدمته، و قد اقتضى بحث أصول منهجه فى التفكير أن أتناول ثقافته، و لما كان السيوطى عالما متعدد الجوانب فقد لاحظت أن بعض العلوم قد استحوذ على الجانب الأكبر من اهتمامه و ترك بذلك أثرا واضحا فى عقله و فكره و منهجه، و رأيت أن أعرض لصلة السيوطى بعلوم ثلاثة تركت أبلغ الأثر فى نفسه و منهجه، و هى الحديث لما له من أثر فى طبع منهجه بالطابع النقلى و حرصه على الأمانة و شدة تحرجه فى سائر دراساته، و التصوف الذى سلك فيه مسلكا علميا و عمليا لأنه يفسر لنا تساهل السيوطى فى جانب كبير من المرويات التى يقبلها و لا يتعرض لها بالنقد، ثم الفقه لما يطبع به صاحبه من اتصال بالحياة و تعرف على مشكلاتها و دراسة للنص من جميع الوجوه فى سبيل الاستنباط و النظر فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰

النقول نظرة عقلية واعية، و رأيت أن أختتم صلة السيوطى بهذه العلوم التى أثرت فى فكره بالحديث من صلته بالأدب لما له من صلة ببيان أسلوبه التعبيرى و ذوقه، و لما يعكسه من تأثره بالعصر الذى يعيش فيه، ثم عرضت لصلته بالشعر و قد ابتغيت من ذلك أن أتناول موضوعا يهم البحث و هو المنظومات العلمية التى نظمها السيوطى فى جميع الفنون التى تناولها بالتصنيف، و منها منظومات لغوية و نحوية كثيرة و قد أشرت إلى بعض هذه المنظومات، و لقد دهشت من كثرة هذه المنظومات و من قوة عارضى الرجل و قدرته العارمة

على نظم أدق المسائل و أكثرها جفافا.

و كان أمامى بعد ذلك الحديث عن آثاره، و رأيت أن أعرض لها بصفة عامة، و قد أبديت خلال هذا العرض الملاحظات التى لاحظتها من حيث عددها و المدة التى كان يستغرقها المؤلف، و أوقات صدورها عنه، و من ناحية أحجامها و وثاقة نسبتها إليه، و لما كان حصر هذه المصنفات من الكثرة بمكان و قد اختلفت فى تقديرها المصادر القديمة و الحديثة فقد قمت بتصنيف هذه الآثار و ترتيبها، و رأيت أن أجعل هذه القائمة فى آخر البحث حيث إن كثيرا منها قد اعتمدت عليه و قد نبهت على ما رجعت إليه و ما كتبته و لم أتمكن من الوقوف عليه، و قد تجنبت بذلك التكرار فى سرد هذه الآثار.

و قد نتج عما قمت به أن استطال البحث بالباب الأول بالرغم من أن قصدى كان الايجاز أكثر من هذا، و لكن ذلك نتج عما سبق بيانه من أهمية دراسة العصر بنواحيه المختلفة و أحداثه لما لها من صلة عميقة و موجهة لحياة السيوطى، كما أننى لم أجد من الدارسين من خص هذه الفترة بدراسة وصل فيها حياة السيوطى بعصره باستثناء دراسة الأستاذ عبد الوهاب حمودة و قد عرضت لكثير من الجوانب التى أغفلها، كما أننى أردت أن أستوضح عقل الرجل و فكره فى صنوف إنتاجه المتنوعة، و أن أعرض لحياته و أستجلى بعض جوانب الغموض التى اكتنفتها و أنبه على بعض الأوهام التى وقع فيها المترجمون له، و نظرا لكثرة إنتاج السيوطى و كثرة مؤلفاته فقد استطال الحديث فى الباب الأول و لم يكن هناك مندوحة عن ذلك فى نظرى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱

و قد خصصت الباب الثانى لجهوده اللغوية و النحوية، و قد قسمته إلى فصلين أولهما: عنونته بفقه اللغة و عنيت به جميع ما له من دراسات لغوية لا تدخل فى المستوى النحوى بمعناه العامّ الذى يشمل الصرف، أى ما يتصل بمستويات الدرس اللغوى الصوتية و المعجمية و الدلالية و الأبحاث العامّة المتصلة باللغة، و الثانى: للنحو، و فى الفصل الذى عقدته لفقه اللغة كان هدفى تحديد دور السيوطى فى هذا الميدان و فى تاريخ هذه الدراسات، و كان لزاما أن أقارنه بأسلافه من اللغويين الذى اعتمد عليهم، و من ثم فقد بدأت باجمال تاريخ الدرس اللغوى و تدرجه قبل السيوطى، و بينت أنواع الدراسات اللغوية التى سبقته و أوضحت أنه لم يظهر فى فقه اللغة بمعناه الحديث كتاب قبل كتاب السيوطى «المزهر» أجمع و أوفى منه.

و لما كان للسيوطى عدد من الآثار اللغوية غير المزهر فقد بدأت بدراسة هذه الآثار، و قد آثرت ترتيبها ترتيبا موضوعيا حيث إننى قد وجدت من العسير أن أرتبها ترتيبا تاريخيا دقيقا لأننى و إن تمكنت من معرفة الأوقات التى صرح السيوطى بصدور بعضها فيها فإن هذه المعرفة لا تتيسر فى سائرها، كما أن الترتيب الموضوعى يسهل علىّ تناول هذه الآثار بالدراسة دون تكرار ما يمكن تجنبه، و قد عرضت ضمن هذه الآثار اللغوية لبعض مباحث السيوطى اللغوية فى كتابه الاتقان، كما أوردت كتابين أحدهما يشرح الأسماء النبوية و الآخر يشرح قصيدة كعب بن زهير ليكونا مثالين لشروحه التى توضح مدى إفادته العملية من الدرس اللغوى، كما عرضت لكتاب فى علم التاريخ ليكون مثالا لثقافته اللغوية التى تخللت ضروب إنتاجه المتنوعة، و قد بلغ عدد الرسائل و الكتب التى سقت الحديث عنها ستة عشر، منها سبعة آثار لم أقف عليها، و قد استطعت بتتبع آثار السيوطى الحديث عن بعضها، و بعضها أمكن لى أن أتكهن بمضمون مبحثه، و لما كان كتاب المزهر أهم هذه الآثار و أكثرها بسطا فقد اقتضى أن يكون الحديث عنه متناسبا مع أهميته، و قد بدأت ببيان أهميته بالنسبة للدرس اللغوى بعامة، و ما تميز به عن غيره من الكتب، ثم تناولت منهج السيوطى فى مؤلفه من خلال موضوعات ثلاثة: هى مصادر الكتاب، و طريقة صاحبه فى النقل و العرض، و كيفية تقسيمه، و قد وجدت من دراستى للكتاب أن أهم ما انفرد به

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲

السيوطى و أعانه عليه ثقافته الاسلامية الواسعة بعامة و الحديثة بخاصة هو تطبيقه منهج المحدّثين فى دراسة اللغة، و قد وضع السيوطى بذلك مهجا لنقد الرواية اللغوية حاول به مضاهاة منهج المحدّثين فى نقد الحديث، و هذه محاولة مبتكرة فى ميدان اللغة سبق إليها

السيوطى محاولا أن يستدرك بعمله نقصا فى حقل الدراسة اللغوية، و قد حاولت أن أستوضح هذه المحاولة مقارنا ما قام به السيوطى بما عرف عند المحدثين من أصول و قواعد و مصطلحات وضعت و تقررت لدراسة الحديث و نقده سندا و متنا و الواقع أن أصول نقد الرواية اللغوية لم تحظ قبل السيوطى ببحث نظرى وافر، و لم تكن سوى عرف غير مكتوب تشير إليه مناهج اللغويين العملية و شذرات مقتضبة و متناثرة فى كتب اللغويين و تراجمهم، و للسيوطى فضل إقامة هذه الأصول فى إطار نظرى منظم واضح المعالم، و نقد الرواية يتمثل فى مرحلتين. أولاهما: النقد الخارجى و هى تبحث الرواة و الأسانيد، و الأخرى تتصل بالنقد الداخلى و قد رأيت أن أنفذ إلى عمل السيوطى من خلال هذا التقسيم فبدأت بالمرحلة الأولى و نظرت فى دراسته لرواة اللغة ثم دراسته للأسانيد، ثم تناولت المرحلة الثانية و بحثت فيها ما قام به فيما يتصل بالنقد الداخلى، و قد قارنت صنيعه بصنيع أصحاب أصول الحديث. و كان علىّ بعد ذلك أن أنظر فى الموضوعات اللغوية التى ساقها السيوطى فى كتابه و أن أحاول التعرف على آرائه تجاه بعض القضايا اللغوية، و فى أحيان غير قليلة كنت أراه يسوق الحديث دون أن يدلى فيه برأى من عنده، و فى أحيان أخرى يقتضب رأيه أو يعلق بتعليقات موجزة، و لكننى كنت أحاول من خلال هذه النقول و طريقة عرضها و موضوعها أن أستوضح وجهة نظره إذا لم أجد له تصريحا بذلك، و قد عرضت لمفهومه للغة و هو يتابع فيه مفهوم ابن جنى و معظم اللغويين العرب، و أردت أن أغطى ما تبقى من مباحث الكتاب لأبين دور السيوطى فيها و آراءه، و قد رأيت أنه من العسير أن أتناول الأنواع التى عرضها فى كتابه مفردا كلا منها بالدراسة فذلك ما لا يسمح به المكان فضلا عما به من تكرار لما سبق لى تناوله فى بحث آثاره، و لذلك حاولت أن أجمل الحديث بقدر الامكان، و رأيت أن أتناول بقية هذه المباحث تحت ثلاثة أقسام أعرض فيها لمعظم الكتاب، فالقسم الأول للألفاظ و قد عرضت فيه لثلاثة عشر نوعا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳

ذكر السيوطى أنها تبحث اللغة من حيث ألفاظها، و الثانى للدلالة اللغوية أو المعنى و قد جمعت فيه ثلاثة عشر نوعا ذكر أنها تبحث اللغة من حيث المعنى، و الثالث يتصل بضبط اللغة و أبنيتها، و قد بينت أن التقسيم الذى وضعه السيوطى لم يكن دقيقا حيث إن بعض المباحث التى وضعها تحت قسم المعانى كان من الأفضل أن توضع فى مباحث الألفاظ، ثم رأيت بعد ذلك أننى لم أستوف القضايا اللغوية التى بحثها الكتاب و من هنا رأيت أن أتناول بعض هذه القضايا محاولا تبين موقف السيوطى منها، فبحثت نشأة اللغة، و قد أخرت البحث فى نشأة اللغة إلى هذا المكان على خلاف المعهود لدى الدارسين لأنه فى الحقيقة بحث غير عملى بالنسبة للدرس اللغوى الحديث، بل ان بعض القدماء قد تنبه إلى عدم جدوى هذا البحث و قالوا إن ذكر هذه المسألة فى الأصول فضول، كما بحثت الوضع اللغوى، و إثبات الأسماء بالقياس، و المعاجم اللغوية، و الصلة بين اللفظ و المعنى، و قد قدر اللغويون العرب هذه الصلة و قد وصلت بحوثهم فيها ببحوث المحدثين، و السيوطى من مثبتى هذه الصلة و قد حاول أن يدلل عليها بعدد كبير من الأمثلة.

و فى جميع ما عرضت له حاولت الافادة من الدراسات السابقة التى اعتمد عليها السيوطى، و من الدراسات الحديثة التى تناولت بعض هذه الموضوعات بيد أننى كنت أقدر أن هدف البحث هو بيان دور السيوطى من هذه الدراسات و موقفه من هذه القضايا لذلك لم أندفع وراء تقصى هذه المباحث و إنما حاولت أن أجعل السيوطى دائما محور الحديث كما هو مقصود البحث.

و فى الفصل الثانى أردت أن أكمل الحديث عن لغوية السيوطى، و رأيت لزاما على أن أبحث الشق الآخر من البحث اللغوى المتمثل فى النحو، و رأيت أن أبدأ ببيان الدور الذى قام به فى تاريخ الدرس النحوى فعرضت لآثاره النحوية و قيمتها و مكانها من الدرس النحوى، و لما كان للسيوطى عدد كبير من الآثار النحوية فقد قصدت إلى استقصائها و عرضت بدراسة موجزة ألقيت فيها الضوء على نحو ستة عشر نوعا من هذه الآثار ما بين مطول و مختصر و منظوم و موشح و مقالة، و سردت بقية الآثار التى ذكرت له و لم أتمكن من الوقوف عليها،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴

و معظمها رسائل صغيرة، و ما عرضت له و وقفت عليه يمثل معظم جهود السيوطى النحوية.

ثم رأيت بعد ذلك أن أطرق موضوعا يعدّ من مبتكرات السيوطى فى الدرس النحوى و هو علم أصول النحو، و قد حاولت بيان الدور الذى قام به السيوطى فى سبيل إرساء قواعد هذا العلم فعرضت لتدرج أصول النحو و ما كتب فيه قبل السيوطى، ثم عرضت لجهود السيوطى و قارنته بما قام به ابن جنى و ابن الأنبارى، و هما أهم من كتب فى الأصول النحوية قبله، و بينت تفرد السيوطى بكثير من المباحث و دوره العظيم الذى قام به و الذى يصوره كتابه «الاقتراح» الذى يعدّ أهم كتاب و أجمعه فى علم أصول النحو، و لم أنس أن أنتقد صنيع أصوليى النحاة بما فيهم السيوطى، و ما شاب أصولهم- فى بعض الأحيان- نتيجة لحملها على أصول الفقه.

ثم اختتمت دراسة السيوطى نحويا بحديثى عن مذهبه فى النحو، و لما كان السيوطى نحويا مصريا متأخرا، فقد عرضت للمدارس النحوية قبله و للمدرسة المصرية و أهم نحاتها و أهم مميزاتها، ثم بينت منهج السيوطى فى النحو، و مثلت ببعض الأمثلة لاختياراته و آرائه الخاصة، و تعليلاته النحوية.

و هذه محاولة قمت بها أرجو أن أكون قد وفقت فيها، و الكمال للّه وحده، و منه نستلهم الرشاد و التوفيق.

طاهر سليمان حمورة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵

الباب الأول عصر السيوطى و حياته، و آثاره

الفصل الأول

الحياة السياسية و الاجتماعية

اشارة

لا بد لنا قبل البدء فى الحديث عن حياة السيوطى و آثاره أن نتناول بالحديث البيئة التى عاش فيها و نبت بين ربوعها و التى انعكست آثارها و مقوماتها- بلا شك- فيها أنتجه من دراسات متنوعة لغوية كانت أو غير لغوية.

و الحديث عن البيئة أعنى به إعطاء صورة واضحة لجوانب الحياة المختلفة، فهذه الجوانب مرتبطة متصلة الأمشاج يؤثر بعضها فى بعض.

و لئن حاولنا أن نبدأ بأحد هذه الجوانب فإن الأمثل فى تصورى أن يكون بالجانب السياسى لهذه البيئة لأنه يمثل الإطار الخارجى لجميع جوانب الحياة الأخرى، و تناول الجانب السياسى يقتضى منا أن نرجع قليلا عبر الزمان لنرى بداية هذا النظام الذى ساد البيئة المصرية و بيئة الشام قرابة ثلاثة قرون من الزمان.

و ليست محاولة الرجوع للتعرف على هذه النشأة رغبة فى الإطالة فيما قد يبدو بعيد الأثر عن بحث يتناول الجانب اللغوى عند عالم من العلماء و يصب عنايته الجلىّ على هذه الناحية، و لكنها فى حقيقة الأمر وقفة على حقيقة معينة كانت ذات أثر بالغ فى هذا العصر كله، و لا يمكن لمن يتصدى لدراسة أى ناحية فيه أن يغفل هذه الحقيقة.

تلك الحقيقة التى نريد التنبيه إليها هى سقوط بغداد على أيدى التتار الذين اجتاح غزوهم العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى، و لقد اتخذت الغزوات المغولية طابعا وحشيا عنيفا يدمر كل ما يجد من حضارات، و يهدم ما يلقى من بناء.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸

و لقد استطاع التتار قبل وصولهم إلى بغداد أن يقضوا على الدولة الخوارزمية و أن يسيطروا على إيران، و بذلك جاء دور بغداد.

و قد تعرضت بغداد لهجوم التتار فى عام ۶۳۵ ه و بعث الخليفة بجيش منى بالهزيمة و قتل أكثر جنوده و فر الباقون من وجه المهاجمين «۱»، و لم يلبث التتر أن عاودوا هجومهم على بغداد فى سنة ۶۵۶ ه بقيادة هولاكو الذى استولى على بغداد و قتل الخليفة المستعصم باللّه آخر الخلفاء العباسيين ببغداد. «۲»

و تفيض المراجع العربية بذكر الفظائع التى ارتكبها المغول بسائر الأقاليم التى تعرضت لغزوهم فقد تعرضت بغداد للتخريب فى شتى مرافقها، و جرت الدماء فى الطرقات و استمرت إباحة المدينة للغزاة أربعين يوما حتى أمر هولاكو بعدّ القتلى فبلغت الألفى ألف قتيل «۳» (أى مليونين من القتلى)، و مهما يكن من أمر هذا العدد و مدى صحته فإنه يعطى صورة لكثرة القتلى و ما أقامه المهاجمون من مذابح بشرية.

و هكذا سقطت الخلافة العباسية فى بغداد، و لم يكن سقوطها فى حقيقة الأمر يعنى نهاية حكم العباسيين و حسب بقدر ما كان يعنى حدثا خطيرا هز كيان العالم الاسلامى كله، ذلك أن الخلافة الاسلامية التى آل أمرها إلى المستعصم آخر خلفاء بغداد كانت تمثل رمزا دينيا لوحدة المسلمين، على الرغم مما كان عليه هؤلاء الخلفاء من ضعف جعل غيرهم ينفرد بالسلطة الفعلية دونهم، و بالرغم من انقسام الأقاليم الاسلامية إلى دويلات متعددة تخضع لحكام متفرقين متناحرين فيما بينهم على ازدياد النفوذ فى كثير من الأحيان.

و لقد شعر المسلمون بمدى الخسارة التى لحقتهم بسقوط بغداد على أيدى التتار الذين دمروا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون «۴»، (۱) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ۱ القسم الثانى ص ۲۷۳.

(۲) المقريزى: السلوك ج ۱ القسم الثانى ص ۴۰۹، تاريخ الخلفاء ص ۳۱۳.

(۳) المقريزى: السلوك ج ۱ القسم الثانى ص ۴۱۰.

(۴) أبو الفداء: مختصر تاريخ البشر: حوادث عام ۶۵۶ ه، ج ۳ ص ۲۰۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹

و لم يقف الغزو المغولى عند هذا الحد بل تعداه إلى بلاد الشام حيث أخذت مدن الشام تتساقط فى أيديهم و يحدث بها من الفظائع و التخريب و سفك الدماء مثلما حدث ببغداد «۱».

و لقد كانت هذه الغزوات تسبق بموجات من الفزع تعترى سكان البلاد مثلما حدث بدمشق بعد سقوط حلب حيث ارتحل أغلب سكانها، و ارتحل كثيرون من غيرها إلى مصر، و تفيض الكتب العربية بوصف المآسى التى حدثت للناس فى هذه الظروف السيئة «۲».

و وصل الغزو المغولى إلى غزة و جاء دور مصر التى كان يحكمها المماليك الذين استطاعوا أن يستأثروا بالسلطة دون البيت الأيوبى، و فى هذه الظروف الحرجة استطاع سيف الدين قطز أن يتملك زمام الأمور و أن ينحى سلفه مستندا إلى أن المسلمين فى حاجة إلى زعيم قوى يوحد صفوفهم ضد الغزو المغولى «۳»، الذى كان يهدد المسلمين فضلا عن مساندته للصليبيين و تقويته جانبهم «۴».

و حضر رسل هولاكو يطلبون من السلطان التسليم بكتاب يتهددون فيه و يتوعدون و يطلبون إليه تسليم مصر لهم «۵»، و كان أن قبض السلطان على الرسل و قتلهم و أبدى كثيرا من الشجاعة و رباطة الجأش فى جمع الصفوف و الدعوة إلى الجهاد على الرغم مما كان يحاوله بعض الأمراء من النكوص عن الجهاد و التخاذل «۶».

و لم يكن ثمة مناص من حدوث الصدام المسلح بين التتار و المماليك، و قد أظهر الأخيرون تماسكا فى وجه عدوهم و تناسوا فى تلك المرحلة الحرجة ما كان بينهم من خلافات، و بدءوا فى الزحف لملاقاة عدوهم حتى انتهى بهم المسير إلى (۱) المقريزى: السلوك ج ۱ القسم الثانى ص ۴۱۸، ۴۱۹.

(۲) المصدر السابق، ص ۴۱۵، ۴۱۶، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ۳۱۴- ۳۱۵.

(۳) المقريزى: السلوك ج ۱ ص ۴۱۸، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ۷ ص ۵۵.

(۴) السلوك: ص ۴۲۵ و سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۲۹.

(۵) نص الكتاب بالسلوك ص ۴۲۷- ۴۲۸.

(۶) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۲۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰

عين جالوت بين بيسان و نابلس حيث حدثت الموقعة التى تعد من أهم معارك المسلمين فى تاريخهم بوجه عام، و قد استطاع المسلمون بقيادة السلطان قطز، و بحسن بلاء بيبرس أن يحرزوا انتصارا ساحقا على عدوهم و أن يتابعوا عدوهم قتلا و أسرا و يلحقوا به هزيمة ثانية قاضية عند بيسان. «۱»

و قد يبدو أننى قد فصلت إلى حد ما القول فى معركة عين جالوت بالرغم من بعدها نسبيا عن العصر الذى نود لو نرسم صورة واضحة لمعالمه و لكن حقيقة الأمور تستدعى أن نلقى الضوء على هذا الحدث لما كان له من أثر فى العصر المملوكى بصفة عامة، فلقد ترتب على هذه الموقعة آثار خطيرة منها أن المماليك قد بسطوا نفوذهم على مصر و الشام كما أنهم بفضل هذا الانتصار أكسبوا حكمهم صفة الشرعية التى كانوا يفتقرون إليها فى نظر الشعب لأنهم مغتصبون للبيت الأيوبى من جهة، و أنهم من أصل غير حر من جهة أخرى، و لقد كانت النقطة الأخيرة سببا فى ثورة الأعراب عليهم قبل هذه الموقعة بقليل «۲».

و إذا كان أثر هذه المعركة هو استتباب الأمر للمماليك حكاما للبلاد فإن لها آثارا أخرى سياسية و حضارية فى البيئة المصرية بوجه عام و فى القاهرة بوجه خاص.

و إذا كانت القاهرة هى المدينة التى نشأ فيها السيوطى و تلقى علمه و تأثر بها و أثر فيها، فإن هذه المدينة قد اكتسبت كثيرا من المميزات على أثر هذا الانتصار، و ظلت تتمتع بهذه المميزات طيلة عصر المماليك، فقد احتفظت القاهرة بما لها من حضارة و حيوية حيث لم تمتد إليها معاول التدمير المغولى التى شملت غيرها من مدن الشرق الاسلامى، و أصبحت ملجأ و ملاذا للعلماء و المفكرين و سائر الناس الفارين من وجه الغزاة، و بحكم الحالة السياسية فقد أصبحت مصر و الشام دولة واحدة قوية تعقد عليها آمال المسلمين فى الشرق (۱) نفس المصدر ج ۱ ص ۴۳۱، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ۷ ص ۷۹، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ۳۱۶.

(۲) المقريزى: السلوك ج ۱ ص ۳۸۶- ۳۸۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱

و الغرب حيث لم يكن للمسلمين دولة ذات شوكة غيرها، فالعراق فى الشرق تحت حوزة المغول و كذلك سائر الممالك الاسلامية الشرقية، و الأندلس فى الغرب تعانى من التفكك و تلفظ أنفاسها الأخيرة، و هكذا فإن الثقل السياسى و الحضارى للمسلمين بصفة عامة قد انتقل إلى القاهرة حيث عاصمة البلاد القادرة على حماية المسلمين.

و حلت القاهرة محل بغداد فى كل شىء و أصبحت وارثة لها فى تركتها سياسيا و حضاريا و ثقافيا، و إكمالا لهذه الصورة فلقد انتقلت الخلافة العباسية كذلك من بغداد إلى القاهرة، و حرص المسلمين على الخلافة التى تمثل وحدتهم جميعا يتضح من حديثهم عن سقوط خلافة بغداد و كيف «أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين و نصف سنة» «۱» حتى تولى الخلافة أحد أبناء الخلفاء السابقين ببغداد حيث قصد إلى القاهرة و تلقاه سلطانها الظاهر بيبرس و استقبله العلماء و الجند و سائر طوائف الشعب أروع استقبال فرحا بإحياء الخلافة «۲». و هكذا انتقلت الخلافة الإسلامية التى كانت فى هذا الحين رمزا دينيا سياسيا و حسب إلى القاهرة منذ عهد بيبرس سنة ۶۵۹ ه و أصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية، و ظل الحال على ذلك حتى آخر هذا العصر إلى حين قدوم السلطان سليم العثمانى فى سنة ۹۲۳ ه. و إذا كان الخليفة فى العصور الإسلامية المبكرة هو صاحب السلطة الحقيقة فى تدبير شئون البلاد التى تتبعه و تولية ولاة الأقاليم و عزلهم و تسيير الجيوش و الغزوات فإن ضعف الخلفاء فى بغداد أواخر عهدهم قد أفقدهم هذه السلطة كما أن الخلافة الجديدة بمصر لم تكن لديها هذه القوة، و على الرغم من ذلك فإن هذه الحقوق كانت لا تزال مكفولة للخلفاء من الناحية الشكلية النظرية، فالخليفة هو الذى يولى السلطان و لا يكون تولى السلطان شرعيا إلا باقرار الخليفة.

و قد روعى ذلك منذ تولى أول خليفة فبعد مبايعة السلطان و العلماء و الأمراء للخليفة قام هو بدوره فألبس «السلطان بيده خلعة سوداء و عمامة سوداء و طوقا (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۵۷.

(۲) السلوك: ج ۱ ص ۴۹۹، حسن المحاضرة ج ۲ ص ۵۸، تاريخ الخلفاء ص ۳۱۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲

فى عنقه من ذهب و قيدا من ذهب فى رجليه، و فوض إليه الأمور فى البلاد الاسلامية، و ما سيفتحه من بلاد الكفر و سماه بقسيم أمير المؤمنين» «۱»، و ظل هذا التقليد ساريا منذ تولى الظاهر بيبرس و حتى آخر سلاطين المماليك و هو السلطان الغورى. «۲»

و هكذا استقرت الخلافة الاسلامية بالقاهرة بالاضافة إلى ما تمتعت به البلاد من قوة سياسية و عسكرية و كان ذلك يعنى ما أشرنا إليه من ازدهارها و اتجاه المسلمين إليها و هو ما أدركه المؤرخون السابقون المعاصرون لهذه الأحداث الذين ذكروا «أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها و كثرت شعائر الاسلام فيها، و علت فيها السنة، و عفت منها البدعة و صارت محل سكن العلماء، و محط رحال الفضلاء» «۳».

و إذ كنا قد أوضحنا جانب الخلافة و بداية هذه الدولة فلا يضيرنا هنا أن نشير إلى سلاطينها و خلفائها و أن نتناول توضيح المعالم السياسية لهذه الدولة لا سيما فى آخر عهدها لنخص بالحديث الفترة التى عاصرها السيوطى.

و قد تميز هذا العصر بصفة عامة بالعصبيات بين طوائف المماليك المختلفة و التناحر من أجل الوصول إلى السلطة، و أهم هذه العصبيات ما كان بين طوائف المماليك الترك و طائفة المماليك الجراكسة و ما لقيه الأخيرون من اضطهاد فى أيام حكم أبناء قلاوون «۴». على أن هذا الاضطراب الداخلى قد استمر أيضا بعد تولى برقوق أول المماليك الجراكسة، فقد كان الوصول إلى العرش يتم دائما عن طريق العصبيات و ازدياد النفوذ بين أمراء المماليك، و لذلك فإن الفتن السياسية الداخلية لم تنقطع خلال هذه المرحلة «۵»، فالأمير القوى الذى يستطيع (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۵۸.

(۲) السيوطى: المصدر السابق ج ۲ ص ۸۷.

(۳) المصدر السابق: ج ۲ ص ۸۶.

(۴) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۱۳۷- ۱۴۵.

(۵) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ۳- ۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳

أن يؤلب طوائف المماليك على غيره و أن يجمع غالبيتهم حوله هو الذى يستطيع الوصول إلى دست السلطنة بعد وفاة السلطان أو بتنحيته عن الحكم.

و هكذا فلقد كانت الفتن الداخلية و المنازعات بين أمراء المماليك من أجل الوصول إلى دست السلطنة هى طابع ذلك العصر «۱»، و لم تكن تخمد هذه الفتن إلا فى خلال حكم سلطان قوى يستطيع بدهائه و قوته مواجهة هذه الصعاب و التغلب عليها. و فضلا عن هذه الفتن الداخلية فلقد طبع هذا العصر ببعض الاضطرابات الخارجية التى تعود سلاطين المماليك مواجهتها و هى خروج أمراء الشام على طاعتهم، و كذلك تعرض البلاد لغزوات المغول، و لغارات الأعراب المتكررة «۲»، ثم ظهرت منافسة سلاطين آل عثمان الذين قويت شوكتهم و اتجهوا للغزو توسيعا لرقعة دولتهم و أصبح سلاطين المماليك يجدون فيهم منافسا خطيرا لهم.

و قد عاصر السيوطى فى طفولته مجموعة من السلاطين الذين كان لهم حكم البلاد «۳»، و قد شهدت هذه الفترة تولية عدد كبير منهم لم يكن يستقر بهم المقام فى دست السلطنة طويلا، حتى أقيم «سلطان العصر الملك الأشرف قايتباى المحمودى» «۴»، و الحقيقة أن أهم السلاطين الذين عاصرهم السيوطى هو قايتباى (۸۷۲- ۹۰۱ ه)، و هو أطول ملوك هذه الفترة حكما، و أصله من مماليك الأشرف برسباى، و غريب ألا نجد لقايتباى ترجمة فى كتاب السيوطى الذى ترجم فيه لأعيان القرن التاسع «۵»، بالرغم من أنه لم يغفل

كثيرا من معاصريه و من سلاطين عصره من الأتراك و المغول و المماليك و يبدو أنه قد أفرده بترجمة.

و قد امتدحه كثير من المؤرخين فأشاد بحسن تدينه و حبه للخير و تعففه عن (۱) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۳۲۳.

(۲) المصدر السابق ص ۴.

(۳) تحدث عنهم فى حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۰۶، و هؤلاء السلاطين ذكرهم ابن إياس فى حوادث تلك الأعوام، راجع: تاريخ مصر ج ۲ ص ۲۹- ۷۰.

(۴) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۰۶، العصر المماليكى ص ۱۷۲.

(۵) كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴

الشهوات و كثرة حسناته فضلا عما لا ينكره أحد من كثرة ما أقام من إنشاءات و إصلاحات «۱»، و يعتبر أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة، فقد امتد حكمه طيلة تسعة و عشرين عاما، و من الجانب السياسى فقد كان ماهرا و موصوفا بأنه كان «كفؤا للسلطنة وافر العقل، سديد الرأى عارفا بأحوال المملكة، يضع الأشياء فى محلها ... موصوفا بالشجاعة عارفا بأنواع الفروسية» «۲» و قد اضطرته حروبه الكثيرة إلى زيادة الضرائب فى كثير من الأحيان، و كان ازدياد قوة آل عثمان سببا فى حدوث بعض المنازعات بينهم و بين قايتباى و قد انتهت بمهادنة الطرفين فى سنة ۸۹۶ ه «۳».

و فى أيام هذا السلطان فى سنة ۸۹۷ ه أصاب البلاد وباء شديد و قد عاصر السيوطى هذا الوباء و ذكر أنه «جمع فى الموت بين كل ألفين، و بلغ عدد الموتى فى كل يوم أزيد من ألفين، و قيل أكثر من ذلك ..» «۴».

و يفيض السيوطى فى وصف هذا الطاعون و ما أحدثه بالبلاد من خراب حتى أن نصف سكان القاهرة قد قضوا نحبهم بسببه، كما أن القرى و الأقاليم لم تسلم منه ثم كان للاسكندرية نصيب فى العام التالى من هذا الطاعون «۵»، و كان الوباء المشار إليه ثالث الأوبئة الجارفة التى أصابت البلاد فى حكم قايتباى فقد كان أولها فى عام ۸۷۳ ه، و حدث الثانى فى عام ۸۸۱ ه، و يبدو أن هذه الأوبئة كانت سمة بارزة فى هذا العصر و كانت تعترى الناس فى فترات غير متباعدة حتى أن مدة خمس عشرة سنة بين وباءين تعتبر فى نظرهم مدة طويلة «۶». (۱) الشوكانى: البدر الطالع ج ۲ ص ۵۵- ۵۶ ترجمة السلطان قايتباى.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۹۸، د. سعيد عاشور، العصر المماليكى ص ۱۷۴.

(۳) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ۶.

(۴) السيوطى: المقامة الطاعونية ضمن مقامات السيوطى ص ۶۹.

(۵) المصدر السابق ص ۷۰- ۷۱.

(۶) المصدر السابق ص ۶۹ حيث يقول «و كان للطاعون نحو خمس عشرة سنة لم يطرق هذين المصرين»، انظر ابن اياس ج ۲ ص ۲۷۲- ۲۷۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵

و إن يكن السيوطى قد أغفل ترجمة السلطان قايتباى على ما يبدو فإنه لم يفته أن ينوه بذكره و أن يمتدحه فى كتابه الذى ألفه بعد وفاته فذكر عنه أنه «سار فى المملكة بشهامة و صرامة ما سار بها قبله ملك من الملوك من عهد الناصر محمد بن قلاوون .. و من سيرته الجميلة أنه لم يولّ بمصر صاحب وظيفة دينية كالقضاة و المشايخ و المدرسين إلا أصلح الموجودين لها بعد طول تروية و تمهلة بحيث تستمر الوظيفة شاغرة الأشهر العديدة و لم يولّ قاضيا و لا شيخا بمال قط» «۱».

و جدير بالذكر هنا أن السخاوى معاصر السيوطى قد أثنى غاية الثناء على قايتباى فى ترجمته له التى يبدو أنه كتبها فى حياته فنوه بقوته و حسن تصرفه كما أشاد بحسن تدينه و اعتقاده، و سيرته الحسنة فى الرعية، و كثرة ما أقام من إصلاحات و انشاءات حتى قال

فيه: «و بالجملة فلم يجتمع لملك ممن أدركناه ما اجتمع له، و لا حوى من الحذق و الذكاء و المحاسن مجمل ما اشتمل عليه و لا مفصله» «۲»، أما ابن اياس الذى كتب تاريخ هذه الحقبة و كان معاصرا لها و الذى كتب عن السلطان قايتباى بعيد وفاته فإنه يبدو فى تاريخه أكثر اعتدالا و موضوعية حيث يشيد بحسناته و لا يغفل ذكر بعض مساويه ثم يقول: «و كانت محاسنه أكثر من مساويه» «۳».

و بالاضافة إلى ما ذكرنا من مميزات الفترة التى حكمها قايتباى من منافسة العثمانيين إلى انتشار الطواعين، فقد تميزت هذه الفترة بكثرة الضرائب و جمع الأموال للحروب و هذا ما جعل مؤرخا كابن إياس يذكر عنه أنه «كان محبا لجمع الأموال ناظرا لما فى أيدى الناس و لو لا ذلك لكان يعد من خيار الملوك» «۴».

كما أن هذه الفترة قد تميزت نسبيا باستقرار الأوضاع السياسية الداخلية و ذلك إذا ما قورنت بالفترات السابقة و اللاحقة، أو بعبارة أخرى إذا ما قورنت بطابع ذلك العصر الذى اصطبغ بالفتن و المؤامرات و الحروب الداخلية بين أمراء (۱) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ۳۴۲.

(۲) السخاوى: الضوء اللامع ج ۶ ص ۲۰۱- ۲۱۰.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۹۸.

(۴) المصدر السابق: ج ۲ ص ۲۹۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶

المماليك الطامعين فى السلطنة. و حين طعن السلطان السابق فى السن اتفق كبار أمراء المماليك على خلعه و تولية ابنه محمد الذى لقب بالناصر «۱»، و قد حاول أحد أمراء المماليك و يدعى قانصوه خمسمائة أن يتولى السلطنة و كاد يتم له الأمر و جمع الخليفة و القضاة الأربعة و الأمراء و تمت له البيعة لو لا أن تعصب بعض المماليك الجلبان بزعامة قانصوه خال السلطان الناصر و استطاعوا هزيمة خصومهم و بذلك عاد الناصر إلى سلطنته «۲»، و لم تطل بالرغم من ذلك سلطنة محمد بن قايتباى فقد تعرض لمؤامرة دبرها له مماليكه أودت بحياته «۳».

و يعطى ابن إياس صورة عن حالة الفوضى التى تعرضت لها البلاد فيذكر عن السلطان السابق أنه «كانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحوا من سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة عشر يوما و كانت أيامه كلها فتنا و شرورا و حروبا قائمة» «۴»، و تولى بعده خاله قانصوه الأشرفى فى ربيع الأول سنة ۹۰۴ ه «۵»، و قد كانت مدة حكمه سنة و ثمانية أشهر، و قد صلحت أحوال البلاد فى أيامه إذا ما قورنت بأيام.

سلفه، و قد كان ملكا لين الجانب «۶». و قد دفع الطمع فى السلطة أحد كبار الأمراء و هو طومان باى إلى أن يثور فى وجه السلطان السابق بعد أن جمع حوله المماليك، و حاول السلطان ترضيته و لكنه لم يفلح و استطاع طومان باى و من معه من الجند أن ينزلوا الهزيمة بمن بقى بالقلعة من الجند عند السلطان بعد حصارها ثلاثة أيام، و كان طومان باى يطمع فى السلطنة لو لا وجود من هو أحق منه و هو جان بلاط، و هنا تعصب له طومان باى و ولاه السلطنة «۷»، غير أنه لم يكن يكنّ له الولاء التام إذ لم يلبث أن ثار عليه و خلعه ليتولى مكانه حين آنس من نفسه قوة بمن معه من الجند الذين كان ذاهبا بهم لاخماد ثورة الشام، و لكنه اتفق مع (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۳، العصر المماليكى ص ۱۷۶.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۹- ۳۱۱.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۴۸.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۳۴۹.

(۵) نفس المصدر ج ۲ ص ۳۵۰.

(۶) نفس المصدر ج ۲ ص ۳۶۹.

(۷) نفس المصدر ج ۲ ص ۳۶۸، ۳۶۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷

أمراء الشام على خلع السلطان و بويع له هناك بالسلطنة و لم يلبث أن جاء بعسكره إلى مصر و استطاع الاستيلاء على مقاليد الأمور «۱».

و لم تطل أيام طومان باى فى السلطنة إذ مكث ثلاثة أشهر «و كانت مدة سلطنته كلها شرور و فتن مع قصرها و آخر الأمر هرب و اختفى و استمر مختفيا حتى ظهر و قبض عليه و قطعت رأسه» «۲»، و قد ثار عليه أمراء المماليك لما رأوا نيته السيئة حيالهم، و آل الأمر إلى أن تولى قانصوه الغورى السلطنة بعد تمنع و إباء خوفا على نفسه أن يحدث له ما حدث لأسلافه «۳»، و ذلك فى مستهل شوال سنة ۹۰۶ ه.

و جميع هؤلاء فيما عدا الغورى قد تولوا فترات قصيرة كما بينا مما يصور حالة الفوضى التى عمت الدولة فى هذه الحقبة، و يفيض ابن اياس مؤرخ هذه الفترة فى شتى المواضع فى وصف الفتن و المؤامرات التى كانت لا تلبث تتحرك بين حين و آخر و الحروب التى اشتعلت نيرانها أكثر من مرة بين الأمراء الطامعين فى السلطنة.

و قد عمل الغورى على إعادة الاستقرار إلى البلاد، و وطّد أركان ملكه و ما زال يحتال بمنافسيه حتى أفناهم «۴»، و قد حاول أن يملأ خزانة الدولة التى كانت فارغة و اتبع فى ذلك صنوف المظالم و انتهب أموال الناس و انقطعت بسببه المواريث، فضج أهل مصر و من تحت طاعته من أخذه لأموالهم «۵».

و لم تحدث قلاقل داخلية فى الفترة الأولى من حكم الغورى باستثناء بعض ثورات المماليك الجلبان، و لكن الخطر الحقيقى الذى هدد الدولة كان آتيا من ناحية البحر حيث اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح. و تحول مرور التجارة عن مصر و فقدت الدولة بذلك أعظم مورد لها، و لم يكتف البرتغاليون (۱) نفس المصدر ج ۲ ص ۳۸۳، ۳۸۴.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۹۵- ۳۹۶.

(۳) المصدر السابق ج ۴ ص ۲- ۴.

(۴) الشوكانى: البدر الطالع ج ۲ ص ۵۴.

(۵) المصدر السابق ص ۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸

بذلك بل هاجموا السفن المصرية فى البحر، و انتصر المماليك فى أول الأمر بأسطولهم و لم يلبث البرتغاليون أن ثأروا لأنفسهم فى موقعة ديو البحرية و هكذا ضاعت مكانة مصر فى الوساطة التجارية بين الشرق و الغرب «۱»، و لم يكن هذا الخطر بأكبر من خطر بنى عثمان الذين قويت دولتهم و علا شأنهم منذ استولوا على القسطنطينية، و قد حدثت منازعات بينهم و بين السلطان قايتباى، و لم تكن هذه الأحداث ذات نتيجة حاسمة حتى كانت أيام السلطان سليم العثمانى الذى كان معاصرا للغورى و انتهى النزاع بينهما إلى انتصار الأتراك فى «مرج دابق» سنة ۹۲۲ ه، ثم دخولهم مصر فى سنة ۹۲۳ ه، و ذلك بعد وفاة السيوطى التى كانت سنة ۹۱۱ ه، و منذ ذلك الحين فقدت البلاد استقلالها و أضحت تابعة للدولة العثمانية و انتهت بذلك سلسلة السلاطين الشراكسة.

الخلافة:

و إذا ما استعرضنا خلفاء الحقبة الأخيرة من هذا العصر و التى شهدها السيوطى فإن أولهم هو المستكفى باللّه أبو الربيع سليمان بن المتوكل المتوفى سنة ۸۵۵ ه على ما يذكر ابن اياس فى الثانى من المحرم «۲»، أو فى أواخر عام ۸۵۴ ه على ما يذكر السيوطى «۳»، و لعل السيوطى قد أدرك هذا الخليفة فى طفولته حيث كان أبوه مقربا منه، و هو الذى كتب له نسخة عهد الخلافة الذى عهد له به أخوه داود «۴»، و قد ذكر السيوطى عنه أنه كان من صلحاء الخلفاء، كما أشار إلى العلاقة التى كانت بين أبيه كمال الدين و بين هذا

الخليفة حيث كان «إماما له و كان عنده بمكان رفيع خصيصا به محترما عنده جدا، و أما نحن فلم ننشأ إلا فى بيته و فضله، و آله خير آل دينا و عبادة و خيرا .... و لم يعش والدى بعده إلا أربعين يوما و مشى السلطان فى جنازته إلى تربته و حمل نعشه بنفسه» «۵»، (۱) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۱۷۸- ۱۸۸.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۳.

(۳) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ۳۴۱.

(۴) المصدر السابق ص ۳۴۰، ۳۴۱.

(۵) نفس المصدر ص ۳۴۱، انظر حسن المحاضرة ج ۲ ص ۸۴، ۸۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹

و بايع السلطان بالخلافة بعده أخاه أبا البقاء حمزة و لقب بالقائم بأمر اللّه، و حدثت جفوة بينه و بين السلطان انتهت بخلعه و تولية أخيه مكانه، و قد حكم بخلعه قاضى القضاة علم الدين البلقينى و ذلك فى سنة ۸۵۹ ه «۱». و بايع السلطان بعده أخاه يوسف و لقب بالمستنجد باللّه و ساعده فى الوصول إلى منصب الخلافة القاضى البلقينى لكونه زوج ابنته «۲»، و قد ظل فى الخلافة إلى أن توفى فى عام ۸۸۴ ه و قد بلغ التسعين أو جاوزها «۳»، و قد قلد خمسة من السلاطين آخرهم قايتباى «۴»، و قد عهد الخليفة السابق لابن أخيه عبد العزيز الذى تلقب بالمتوكل على اللّه و قد طالت أيامه فى الخلافة و كان كفؤا لذلك «۵»، و قد كان هذا الخليفة صديقا للسيوطى و هو آخر من ترجم لهم السيوطى فى تاريخ الخلفاء و قد أشاد بذكره فذكر أنه «نشأ معظما مشارا إليه محبوبا للخاصة و العامة بخصاله الجميلة و مناقبه الحميدة، و تواضعه و حسن سمته و بشاشته لكل أحد و كثرة أدبه، و له اشتغال بالعلم، قرأ على والدى و غيره» «۶». و كانت وفاة المتوكل فى المحرم سنة ۹۰۳ ه، و قد أشاد بذكره ابن اياس و ذكر عنه أنه كان من خيار بنى العباس و كانت خلافته تسع عشرة سنة و أياما «۷»، و قد عهد المتوكل لابنه يعقوب بالخلافة، و قد تولى بعد وفاة أبيه و لقب بالمستمسك باللّه و يقال إن الذى كناه و لقبه هو الجلال السيوطى «۸»، و قد ذكره السيوطى فى تاريخ الخلفاء غير أنه لم يترجم له إذ إن السيوطى قد توفى فى حياة هذا الخليفة «۹»، و قد شهد الخليفة الأخير مبايعة عدد من السلاطين و امتدت به الحياة إلى أن رأى احتلال العثمانيين للبلاد، و كان ابنه هو آخر الخلفاء العباسيين بمصر. (۱) تاريخ الخلفاء ص ۳۴۱، حسن المحاضرة ج ۲ ص ۸۵، ابن إياس ج ۲ ص ۵۲.

(۲) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۸۵، ابن إياس ج ۲ ص ۵۲.

(۳) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ۳۴۲.

(۴) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۸۵، ۱۸۶.

(۵) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۸۶.

(۶) تاريخ الخلفاء ص ۳۴۱.

(۷) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۳۳.

(۸) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۳۳، ۳۳۴.

(۹) تاريخ الخلفاء ص ۳۴۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰

و الملاحظ أنه لم يكن للخليفة سلطة تذكر بجانب السلطان، و قد كان فى مقدور السلطان أن يخلع الخليفة و أن يولى غيره، و كانت مبايعة الخليفة للسلطان تقليدا شكليا و اعترافا من قبل الخليفة بالأمر الواقع الذى لم يكن له فيه خيرة، و بالرغم من ذلك فقد كان منصب الخلافة من المناصب الجليلة بالدولة، كما أن السلاطين راعوا حرمة الخليفة و توقيره فى كثير من الأحيان.

و إكمالا- للحديث عن الحياة السياسية لا- نرى بأسا من أن نشير إلى نظم الحكم و القضاء بالدولة لارتباط هذه الأمور بالنواحى

السياسية:

نظم الحكم:

كانت دولة المماليك إقطاعية كما سبق أن أشرنا، و قد قسمت أراضى مصر إلى أربعة و عشرين قيراطا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط و وزعت بقية الأرض على الأمراء و جندهم، و أجناد الحلقة و العربان و التركمان «۱».

و كان الاقطاع شخصيا لا دخل لأحكام الوراثة أو الملكية فيه، و بموت المقطع أو إخلاله بشروط الاقطاع يمكن للسلطان أن يخرجه عن إقطاعه و يمنح الاقطاع لغيره، و كان السلطان على رأس الهرم الاقطاعى بالبلاد و كذلك على رأس الهرم الإدارى، و وجد إلى جانبه مجلس للمشورة يضم أتابك العسكر و الخليفة العباسى و الوزير و قضاة المذاهب الأربعة و أمراء المائتين، و قد تعددت اختصاصات ذلك المجلس فى شئون الحرب و الصلح، و شغل المناصب الكبرى للدولة، على أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة هذا المجلس أو الأخذ برأيه فهو صاحب الرأى الأخير بوصفه حاكما مطلقا «۲».

و كانت إقامة السلطان و الأمراء و أسرهم بقلعة الجبل، و قد كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية فضلا عن عديد من دواوين الدولة و أجهزتها، و كان بها كثير من القصور و العمائر و المساجد. (۱) القلقشندى: صبح الأعشى ج ۳ ص ۴۵۳، ۴۵۴.

(۲) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۳۵۲.

و قد بلغ النظام الادارى غاية الدقة، و تنوعت الدواوين التى تختص بمختلف الشئون «۱»، و كان هناك نائب السلطنة و هو المنصب الثانى بعد السلطان، و بعده يأتى الأتابك و هو قائد جيش المماليك، ثم يليه الوزير الذى كان نفوذه أقل من سابقيه.

و كان هناك نواب السلطنة بالأقاليم الكبيرة أو التى لها أهمية خاصة، و قد ناب كل منهم عن السلطان فى وحدته الادارية، و كان عليهم الرجوع إلى السلطان فى المسائل التى لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها «۲».

و يأتى بعد هؤلاء فئة الولاة و كان أفرادها يختارون من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة كوظيفة المحافظ الآن أو أكبر شأنا فى الأقسام الادارية، و كان أكبر هؤلاء شأنا هو والى القاهرة الذى عهد إليه بالاشراف على العاصمة و صيانتها و حماية أهلها من عبث المفسدين و اللصوص و مثيرى الفتن، و كان عليه مكافحة الأمراض الاجتماعية كانتشار الخمر و تعاطى الحشيش و عبرها و كان يتخذ لذلك من الوسائل ما يراه كفيلا بتحقيق غرضه «۳».

القضاء:

حظى القضاء باهتمام رجال الدولة، كما تمتع القضاة بمكانة اجتماعية كبيرة بين الناس، و روعى فى اختيارهم شروط معينة، و كان هناك قضاة المذاهب الأربعة و ظل هذا النظام طيلة عصر المماليك، و كان على رأس كل فئة قاضى قضاة المذهب، و كان لقضاة القضاة مكانة عظيمة بالدولة فقد كانوا يحضرون مجالس السلطان، فضلا عن ضرورة حضورهم مبايعة السلطان الجديد، و كان للقاضى الشافعى مكانة ممتازة عن سائر القضاة و له اختصاصات تزيد على نظرائه من قضاة القضاة.

و كان هناك «قضاة العسكر» و هم الذين يختصون بشئون الجند كما كانوا (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۱۱.

(۲) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۳۵۴، ۳۵۵.

(۳) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۳۵۶، ۳۵۷.

يفصلون فى المنازعات القائمة بين العسكر و المدنيين «۱».

و قد كان للقضاة دور هام فى المجتمع، باعتبار المسئوليات الكبيرة الملقاة على عواتقهم و نظرا لتنوع القضايا التى ينظرونها و يفصلون فيها، فضلا عن اضطلاعهم بشئون الوصايا و الأحباس و شئون اليتامى و التدريس بالمدارس «۲».

و كان لكل قاض عدد من النواب الذين يعينونه فى القضاء، كما كان لكل منهم عدد معين من الشهود الذين يتعرفون أحوال الناس و يشهدون فى القضايا و لهم حوانيت معلومة «۳»، و كثيرا ما تعرض النواب و الشهود لنقد مرير من الناس نتيجة لتصرفاتهم المشينة فى بعض الأحيان، بل إن النقد قد تجاوز هؤلاء إلى القضاة أنفسهم لإهمالهم فى شئون الأوقاف و المدارس التى يلون نظارتها «۴».

و قد تعود السلاطين أنفسهم أن يعقدوا جلسات للنظر فى المظالم التى تعرض عليهم، و كان مجلس السلطان يحضره قضاة القضاة الأربعة و عدد كبير من كبار رجال الدولة و كانت هيئة جلوسهم تتم وفق «بروتوكول» معروف دقيق «۵»، و غالبا ما كانت هذه الجلسات تعقد يومين من كل أسبوع.

و قد اقتصر جلوس السلاطين على مدد قصيرة- بمرور الزمن- و يبدو أنه كان من حق أى إنسان أن يتقدم بشكايته إلى السلطان مهما كان موضوع الشكوى، حتى أبطل ذلك قايتباى و أمر بألا يتقدم أحد إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة، فإذا لم ينصفوه فإن من حقه رفع الأمر إلى السلطان «۶».

على أنه كانت هناك وظيفة قريبة الصلة بالقضاء هى الحسبة، و كان يحدث أن تسند الحسبة و القضاء إلى شخص واحد، و كان عمل المحتسب يقوم على (۱) المصدر السابق ص ۳۶۶.

(۲) نفس المصدر ص ۳۶۷.

(۳) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ۱۵۸.

(۴) المصدر السابق ص ۱۵۹.

(۵) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۰۹، ۱۱۰.

(۶) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۲۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳

سرعة البت فى المخالفات التى تتعلق بالآداب العامة و نظام الأسواق و مراعاة الأمانة فى المعاملات و كان يقوم بعقاب الخارجين على النظم الموضوعة «۱» و قد حاول السيوطى أن يمد نفوذه إلى القضاء و أن يجعل من نفسه قاضيا كبيرا أو رئيسا له الحق فى عزل و تولية من يشاء، و استطاع أن يحصل على هذه الوظيفة التى لم تكن موجودة منذ زمن الأيوبيين عن طريق عهد من الخليفة المتوكل على اللّه عبد العزيز و قد كان وثيق الصلة به، و قد ثار ثائر القضاة عليهما، و حاولوا الايقاع بين الخليفة و بين السلطان و انتهى الأمر بأن رجع الخليفة عن ذلك و اعتذر «۲» (۱) القلقشندى: صبح الأعشى ج ۴ ص ۳۶، ۳۷.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴

الحياة الاجتماعية

اشارة

نريد أن نلمس هنا بعض جوانب الحياة داخل البلاد و نتبين أهم العلائم التى تميز ذلك المجتمع عن غيره، و المعالم التى تحدد لنا صورة واضحة للبيئة التى عاش فيها السيوطى، و نستطيع استجلاء ذلك من خلال تعرضنا لبعض الجوانب الهامة فى حياة المجتمع.

بناء المجتمع:

و المجتمع فى عصر المماليك مجتمع طبقى تتضح فيه الفروق بين الطبقات، و تتزيل كل طبقة عن الأخرى بمجموعة من الخصائص و المظاهر.

و أكثر فئات المجتمع تميزا عن غيرها هى فئة المماليك التى كانت تمثل طبقة عسكرية ممتازة تستأثر بالحكم و بشئون الحرب، و لهم من أصلهم و نشأتهم و أسلوبهم فى الحياة و بعدهم عن أهل البلاد سياج يحيط بهم و يميزهم عن غيرهم.

و لم يكن هؤلاء من أصل واحد، بل كانوا مجتلبين من شتى البلاد، و قد بالغ كثير من السلاطين فى شراء المماليك و اعدادهم، و اهتموا بتربيتهم اهتماما كبيرا و لم يضنوا عليهم بتوفير المعيشة الفاخرة، و عند ما يشب المملوك و يخرج من الطباق يقرر له راتب شهرى «جامكية» و يتدرج فى الترقى و ربما أتيح له أن يصبح من أمراء المماليك و كبار رجال الدولة، و ربما يستطيع بعد ذلك الوصول إلى السلطنة.

و قد تمتع المماليك بحظ كبير من الثراء عن طريق الأموال و الاقطاعات الكبيرة التى تصلهم من الدولة «۱»، و ظلت القاعدة فى الإقطاع أن يئول إلى السلطان (۱) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵

بانتهاء مدة الاقطاع أو بسبب وفاة المقطع أو عزله أو إخلاله ببعض الشروط، و قد كان لهذه الطائفة مكانة كبيرة فى المجتمع، و تمتع أمراؤهم بنفوذ عظيم فى البلاد، بل كثيرا ما كان بعضهم يطغى نفوذه على نفوذ السلطان و كثيرا ما نجد بعضهم يتصرفون فى حكم البلاد و جباية الأموال لأنفسهم فى حرية مطلقة كالسلطان سواء بسواء.

و لم يحاول المماليك الزواج من أهل البلاد و الاختلاط بهم بل غالبا ما كانوا يختارون أزواجهم و جواريهم من بنات جنسهم اللائى جلبن معهم «۱»، و لم يحدث الخروج على هذا العرف إلا فى حالات قليلة.

على أن أسس تربية المماليك و اعدادهم التى روعى فيها اختيار السبل التى تضمن طاعتهم و ولاءهم و تخلقهم بالآداب الحسنة و تمسكهم بالدين لم تلبث أن تطرق إليها الخلل فى جوانب عديدة كان لها أثرها فى فقد المماليك روح النظام و الطاعة، و اتضح ذلك جليا فى الفترة التى نهتم بها و هى آخر عصر المماليك، ففضلا عن الثورات و الفتن السياسية و ما فيها نجد لهم حركات افسادية تهدف إلى النهب و السلب أو الحصول على نفقة من الدولة أو تعجلا لنفقة متأخرة أو ما شابه ذلك، و هناك عديد من الأمثلة التى ذكرها ابن اياس المؤرخ المعاصر لهذه الفترة، فمن ذلك ثورة المماليك الجلبان فى عام ۸۷۸ ه حيث هاجموا بولاق و نهبوا ما فيها و قصدوا «شونة» الأمبريشبك الدوادار و نهبوها، و قد استمرت الفتنة أياما هرب خلالها بعض الأمراء خوفا على أنفسهم من النهب «۲»، و تكرر حادث مشابه فى العام التالى «۳»، ثم نجد فتنة تثور بين بعضهم و بين بعض حتى يقع القتال فى صفوفهم «۴»، و اضطراب آخر يحاول فيه المماليك قتل مقدمهم «۵» «۶»، (۱) المصدر السابق ص ۲۳.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۴۹.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۵۱.

(۴) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۸۳.

(۵) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۱۴.

(۶) نفس المصدر ج ۲ ص ۲۱۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶

و تتكرر هذه الاضطرابات التى يقصد بها المماليك النهب و السلب لا سيما طائفة المماليك الجلبان «۱». و الحقيقة أن كثرة هذه

الاضطرابات تدل على فساد هذه المؤسسة العسكرية الحاكمة، و قد نشأ هذا الفساد لا سيما فى طائفة الجلبان بسبب اجتلابهم كبارا فى السنّ، و عدم أخذهم فى التربية الإسلامية مأخذ الجد و قلة تعودهم على الانضباط و الطاعة و الخلق القويم، و لذلك كثر شغبهم و فسادهم، و كان ذلك مؤذنا أو مرهصا بنهاية دولة المماليك بأسرها.

و قد تعود المماليك الثورة بسبب طلب نفقة البيعة و هى تعنى بيعتهم للسلطان الجديد، و يكاد الحديث عن هذه الثورة يكون أمرا معاد مألوفا عند بداية عهد كل سلطان، فضلا عن الثورة بسبب تعجل نفقة متأخرة أو نفقة بسبب الخروج إلى القتال أو العودة بعد الانتصار «۲».

و لقد كانت هذه النفقات تكلف الدولة كثيرا من الأموال فكان السلاطين يصادرون بسببها كثيرا من أموال الأغنياء و الأمراء، و هكذا فلقد ظهرت هذه الطبقة فى هذه الفترة- فضلا عما تمتعت به من حظ لم يتح لغيرها- بمظهر الفئة الباغية المفسدة فى كثير من الأحيان.

أرباب القلم:

و إلى جانب طبقة المماليك- و هم حكام البلاد- وجدت جماعة المعممين أو أرباب القلم، و هذه الطائفة كانت تضم أرباب الوظائف الديوانية و الفقهاء و العلماء و الأدباء و الكتاب، و قد امتازت هذه الفئة طيلة عصر المماليك بمميزات معينة على الرغم مما تعرض له بعض أفرادها من الامتهان أو الاضطهاد فى بعض الأحيان «۳».

و قد أظهر سلاطين المماليك احترامهم و تبجيلهم لرجال الدين و للمتصوفين، (۱) هنا أمثلة عديدة لحوادث النهب و السلب و الفساد التى أحدثها المماليك و يمكن مراجعة أمثلة لها فى بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۱۸، ج ۲ ص ۲۳۰، ج ۲ ص ۳۹، ج ۲ ص ۲۴۰، ۲۴۱، ج ۲ ص ۲۴۷.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۲۷۸، ۲۷۹، ج ۲ ص ۲۵۷، ۲۵۸.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۵۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷

و هناك عديد من الأمثلة تشهد لما نقول طيلة ذلك العصر، و قد تولى الفقهاء مناصب القضاء بالدولة، كما أسند إلى أبناء هذه الفئة بصفة عامة مناصب الوزارة و كاتب السر بالاضافة إلى وظائف التدريس بالمدارس.

و قد اعتد رجال هذه الطائفة بأنفسهم و عمدوا فى كثير من الأحيان إلى معارضة السلطان و الأمراء دفاعا عن الحق أو مطالبة برد بعض المظالم أو رفع بعض المكوس، كما تعود كثير منهم انتقاد السلطان و الأمراء فى المجالس العامة و من فوق منابر المساجد، و لعل أبرز المواقف فى الفترة التى شهدها السيوطى ذلك الموقف الذى وقفه شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى فى وجه السلطان قايتباى حين حاول أن يمد يده إلى أموال الأوقاف و جمع القضاة ليفتوه بذلك فهاجمه الشيخ مهاجمة قوية أشاد بها معاصروه و المؤرخون له «۱» كذلك مواقف الشيخ زكريا الأنصارى من السلطان قايتباى و مهاجمته له من فوق المنبر و السلطان جالس أمامه و لم يكن السلطان يزيد على أن يقبل يد الشيخ بعد الانتهاء من الصلاة، فضلا عن النصائح القوية التى كان الشيخ لا يفتأ يوجهها إلى السلطان «۲».

و كان للسيوطى مثل هذا الاعتداد بالنفس و كانت له مواقف جليلة سنشير إليها بعد، و لم تكن هذه الأوصاف- بطبيعة الحال- مطردة على الدوام، فلقد تعرض الفقهاء و أهل العلم فى بعض الأحيان للاضطهاد أو لحقد طبقة المماليك الذين رأوا فيهم منافسا لهم، و كثيرا ما وقعت المنافسات بين بعض الفقهاء و بين بعض أمراء المماليك.

على أنه ينبغى ألا نغفل بعض مواقف الضعف التى كان يقفها بعض رجال هذه الفئة ترضيه للسلطان أو لكبار الأمراء كما فعل أحدهم حين أفتى بحلّ ما قصد إليه السلطان من فرض الضرائب الجائرة على الناس لجمع أموال يرضى بها مماليكه فتعرض الفقيه بذلك لغضب عامة الناس «۳» (۱) المصدر السابق ج ۲ ص ۹۶، ۹۷.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى (مخطوط بدار الكتب المصرية) ورقة ۲۳.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۵۸ (هو الشهاب الحنبلى).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸

و على أيـة حال فإن المكانـة الكبيرة التى ارتقتها هـذه الطائفـة قـد جعلتهم المعبرين عن الشـعب و المدافعين عن حقوقه لدى الحكام، كما جعلتهم شفعاء للناس فى قضاء حوائجهم لا سيما أن صلتهم بالناس أقوى بكثير من صلة المماليك الحاكمين.

التجار:

و هى الفئـة الثالثـة من فئـات المجتمع، و لقـد تمتع أبناؤهـا بثراء واسع و لاـ سـيما أن مصـر قامت بنشاط كبير فى التجارة بين الشـرق و الغرب قبل اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالـح «۱» و قد عمد السـلاطين إلى تقريب التجار منهم إذ إنهم المصدر الأساسى الـذى يمـد الدولـة بالمال، على أن كثرة الثروة فى أيدى التجار قد جعلتهم فى كثير من الأحيان مطمع سـلاطين المماليك فأكثروا من مصـادرتهم بين حين و آخر إذا ما احتاجوا إلى الأموال بسـبب إرسال تجريـدة «۲»، أو إنفاق نفقـة على الجند أو غير ذلك فضـلا عن الرسوم و الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم.

الصناع و أرباب الحرف:

و وجـد بالمـدن المصـرية فى ذلك العهد طائفة كبيرة من العمال و الصـناع و أصـحاب المهن الذين ينتمون لنظم معينة يدين بها أبناء الحرفـة الواحـدة، و لكل حرفة شـيخ أو رئيس يرجعون إليه فيما يهمهم لا سـيما فى الوساطة بينهم و بين الحكومة، و كان للدخول فى كل حرفة نظم خاصة فقد يقصر أبناء الحرفة حرفتهم على أنفسهم و على أبنائهم من بعدهم و لا يسمح لغيرهم بمزاولتها «۳».

العوام «۴»:

و قـد اكتظت المـدن المصـرية فى ذلك العهـد بجمهور كبير من الباعة و السـقائين (۱) د. سـعيد عاشور: المجتمع المصـرى فى عصر سلاطين المماليك ص ۳۴.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۴۵ حوادث سنة ۸۹۲ ه.

(۳) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ۳۶.

(۴) المصدر السابق ص ۳۷۷، العصر المماليكى ص ۳۱۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹

و المكاريين و المعـدمين الذين يعبر عنهم فى الكتب المعاصـرة لهم بالعوام و الزعر و الحرافيش و المشاعلية، و قد لقى أبناء هذه الفئة ضيقا و عسـرا فى الحياة إذا ما قورنوا بغيرهم من الطبقات المنعمة حتى لاحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الحين أن بالقاهرة عددا كبيرا يعيشون بلا مأوى فى الليل و النهار سوى الطرقات و أجسادهم شـبه عارية، و تفاوتوا فى تقدير ذلك العدد بين خمسـين ألفا و مائـة ألف «۱» و كـان كـثير من هؤلاـء لاـ يجـدون إلاـ مـا يجود لهم به بعض السـلاطين و الأـمراء و ذوى الأـموال من الصـدقات مما دفع بكثيرين منهم إلى أن يمـدوا أيـديهم بالسؤال و أن يجعلوا منه حرفـة لهم، و قـد دفعهم حالهم السـيئ إلى احتراف السلب و النهب و تحين الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم لا سيما فى أيام الفتن و الاضطرابات «۲».

أهل الذمة: «۳»

كان أهل الذمة يكونون أقلية كبيرة فى ذلك الحين، و قد قدر عددهم فى القاهرة وحدها بعشرين ألفا نصفهم من اليهود و النصف الآخر من النصارى.

و يبدو أن ثروة مصر و اتساع تجارتها فى ذلك العهد قد اجتذبت كثيرين منهم من البلاد الأجنبية فاستوطنوا المدن المصرية، و حظى كثيرون منهم بثراء واسع جعلهم أيضا مطمع السلاطين إذ كانوا يصادرون طوائفهم حين احتياجهم إلى الأموال «۴» و قد تعرضوا خلال هذه الفترة لبعض الاضطهادات بين حين و آخر، و تشير مراجع ذلك العصر إلى بعض ألوان الاضطهاد التى كانت تنتابهم «۵»، و إن كنا لا نكاد نجد شيئا من ذلك فى الفترة التى عاشها السيوطى سوى مصادرة أموالهم (۱) المجتمع المصرى ص ۳۸ (و قد رجع إلى أحد المصادر الفرنسية).

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۲.

(۳) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۴۰.

(۴) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۴۹، عام ۸۹۳ ه.

(۵) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۴۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰

فى بعض الأحيان شأنهم فى ذلك شأن الأثرياء من الأمراء و التجار و أرباب الوظائف من المسلمين.

الفلاحون:

و إكمالا لطبقات المجتمع يحسن أن نشير إلى طبقة الفلاحين بالرغم من كونها فئة بعيدة عن حياة المدينة.

و يبدو أن نصيب هذه الفئة لم يكن سوى الاهمال و الاحتقار بالرغم من كونها أكبر فئات المجتمع و لعل وصف ابن خلدون لهذه الفئة كان يصدق عليها من قبله و من بعده حيث وصف مهنتهم بأنها معاش المستضعفين و أن أهلها يختصون بالمذلة «۱»، و قد عاش الفلاحون فى مصر فى ذلك العصر مشدودين إلى أرضهم و ليس لهم من خيراتها إلا القليل لأن الأرض ظلت نهبا موزعا بين السلاطين و الأمراء و مماليكهم و أوقافهم «۲» و كثيرا ما تعرض الفلاحون لنهب أمراء المماليك الذين كانوا يجوبون القرى فضلا عما كان يفرض عليهم من الضرائب الباهظة، و كثيرا ما تعرضوا لظلم ولاة أقاليمهم الذين كانوا يأخذون منهم «غير العادة أضعافا» «۳»، و لم تكفل الدولة لهم الأمن الكافى فكثيرا ما تعرضوا لغزوات الأعراب الذين كانوا ينهبون ضياعهم و مواشيهم و أمتعتهم، فضلا عما كانوا يفرضونه عليهم من إتاوات.

الأعراب:

و لا يسعنا- فى الحقيقة- إلا أن نتحدث عن هذه الطائفة من طوائف المجتمع لما كان لها من أثر كبير فى أحوال البلاد الداخلية.

و قد شهدت الفترة التى ندرسها عديدا من القبائل التى انتشرت فى أرجاء البلاد لا سيما فى الشرقية و البحيرة و المنوفية و الصعيد. (۱) ابن خلدون: المقدمة ص ۳۹۴.

(۲) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۴۹.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱

و قد أحصى القلقشندى و المقريزى قبائلهم بمصر و أماكن كل منها مما يتضح منه أنهم بلغوا عددا عظيما فى ذلك العصر «۱».

و قد حاول الأعراب فى أول عصر المماليك أن يقيموا حاكما من بينهم و أن يتخلصوا من سيطرة المماليك و لكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل أمام جيوش المماليك المدربة، و لكن ذلك لم يمنع حدوث الصدام بين المماليك و الأعراب على شكل أحداث متفرقة طوال العصر.

و قد ظل العربان عنوانا للاخلال بالأمن و الاضرار بالنظام و الاعتداء على أهل البلاد الآمنين فى المدن و القرى، و لم يسلم طريق الحاج من اعتداءاتهم المتكررة.

و المتتبع لحوادث هذه الفترة تأخذه الدهشة من كثرة حوادث الأعراب و شغبهم و هو ما تسميه المراجع المعاصرة لهم بفساد العربان، فبينما يثور الأعراب بالشرقية و يفسدون فى عام ۸۷۵ ه و ترسل الدولة بحملة إليهم «۲»، لا يكاد يمضى وقت حتى يعاودوا الفساد و فى هذه المرة يهاجمون القاهرة نفسها و يعملون بها النهب و السلب و ينشرون الذعر «۳»، ثم يتجدد فسادهم فى عام ۸۷۹ ه و يهاجم بعضهم الجيزة فى نفس العام و ينهبون خيول المماليك و لا يستطيع السلطان الظفر بهم «۴»، و بينما يحدث اضطراب الأعراب حول القاهرة تأتى الأخبار باضطرابات عنيفة يقوم بها الأعراب فى الصعيد حيث ينزلون الهزيمة بكاشف الوجه القبلى «۵»، و تحاول الدولة فى كل ثورة أن ترسل إحدى الحملات لتأديب الأعراب و قد كان إعداد الحملات يكلف الدولة كثيرا من الأموال «۶»، و ربما تقاعس السلطان عن إرسال هذه الحملات مكتفيا بانصراف الأعراب (۱) القلقشندى: صبح الأعشى ج ۱ ص ۳۱۵ و ما بعدها، ج ۴ ص ۶۷، ج ۷ ص ۱۶۰، انظر المقريزى: البيان و الاعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۲۷.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۳۴، ۱۳۵.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۵۶.

(۵) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۸۰ حوادث ذى القعدة ۸۸۲ ه.

(۶) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۶۵، ص ۲۳۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲

و عودة الأمور إلى مجراها الطبيعى كراهة النفقات الباهظة التى تتكلفها الدولة فى إعداد هذه الحملات.

و فى بعض الأحيان كانت تمنى حملات السلطان بالهزيمة أمام قوة الأعراب «۱»، و لذلك فإن المماليك كانوا ينتقمون من الأعراب انتقاما شديدا بعد هزيمتهم، و كانوا يكثرون فيهم القتل و النهب و السلب كما كان سلاطينهم يبالغون فى التمثيل بمن يؤتى به منهم أسيرا «۲» و كثيرا ما اضطربت أحوال البلاد بسبب الأراجيف التى تنتشر بنية الأعراب محاولة الهجوم على القاهرة لا سيما فى أيام الأزمات أو وجود الجند خارج البلاد فى إحدى الحملات «۳».

و كثر قطع طريق الحجاج و الاغارة عليهم و انتهابهم و تعويق بعضهم فى الطريق «۴»، و هناك أمثلة أخرى كثيرة أشار إليها مؤرخو هذه الفترة تدل دلالة واضحة على الاضطراب و الفساد الذى كانت تحدثه تحركات الأعراب و مهاجمتهم للمدن و القرى، و تدل على مبلغ قوتهم فى هذه الآونة «۵»، فضلا عن اشتراكهم فى بعض الأحيان فى الفتن السياسية، و صراع قبائلهم فيما بينهم. و هكذا ظل الأعراب طوال هذه الفترة مصدرا هاما من مصادر القلق و الفساد و عدم الاستقرار بالبلاد.

الأقليات الأجنبية:

بالاضافة إلى الطوائف السابقة وجدت بالبلاد مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية، و قد قدر عدد الأجانب فى بعض الأحيان بالاسكندرية بثلاثة آلاف تاجر مسيحى «۶»، و كان هناك عديد من الجاليات موزعة على المدن المختلفة، (۱) ابن إياس: بدائع

الزهور ج ۲ ص ۲۳۸.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۲۴۰، ج ۲ ص ۲۴۳.

(۳) نفس المصدر ج ۲ ص ۲۵۲.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۲۷۲ حوادث سنة ۸۹۶ ه، ج ۲ ص ۳۷۸.

(۵) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۴۲، ۳۴۶، ۳۵۶، ۳۵۷، ۳۶۶.

(۶) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۳

و كان لأبناء كل جالية فنادق خاصة بهم يقيمون بها، و قد تمتع هؤلاء داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية و لكن المجتمع فرض عليهم نظما معينة فى تصرفاتهم بالخارج فلم يسمح لهم مثلا بركوب الخيل شأن أهل الذمة كما فرض عليهم إغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم و وقت صلاة الجمعة «۱».

و قد اعتبر السلاطين أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة فإذا ما حلّ اعتداء من الدولة الأجنبية ببعض الثغور الإسلامية و أسر من المسلمين أحد أو نهب منهم شىء فان الاقتصاص قد يكون من الفرنجة الموجودين بمصر، أو يكون تهديد الدول المعتدية بذلك و إن تكن هذه الوسيلة غير مجدية فى دفع الاعتداء «۲».

الحياة فى المدن:

و إكمالا لحديثنا عن الجانب الاجتماعى فإنه يحسن أن نشير إلى نظام الحياة فى المدن المصرية لا سيما القاهرة فى ذلك الوقت. و قد اتصفت المدن فى ذلك العصر بتلاصق منازلها و ضيق دروبها و اكتظاظ طرقاتها بالمارة و الدواب، و قد أشاد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر بعظمة المدن المصرية إذا ما قورنت بمثيلاتها من دول أوروبا آنذاك «۳»، و قد فاقت القاهرة فى ذلك العصر جميع مدن العالم تقريبا من حيث السعة و النشاط الحيوى و كثرة السكان، و قد أشاد ابن بطوطة الذى زار مصر فى القرن الثامن الهجرى بعظمة القاهرة «۴».

و بالرغم من ضيق طرقات المدينة فقد زخرت بألوان النشاط الانسانى، يضاف إلى ذلك كثرة الدواب، فالخيول المطهمة يركبها المماليك و يركضون بها وسط الدروب و الأسواق و هم يضربون الناس يمنة و يسرة دون اكتراث بهم، و ليس مباحا لغيرهم من الفئات أن يمتطى الخيل إلا إذا كان من كبار أرباب (۱) المصدر السابق ص ۵۶.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۴۶ حوادث ذى القعدة سنة ۸۹۲ ه، المجتمع المصرى ص ۵۶.

(۳) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۸۲.

(۴) رحلة ابن بطوطة ج ۱ ص ۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۴

الوظائف بالدولة، و الجمال العديدة تحمل القرب و يطوف بها السقاءون على المنازل، و قد قدر عدد جمال القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بمائتى ألف جمل أما الحمير فبلغت عددا كبيرا، و كان جانب كبير منها يستأجر لقضاء الحاجات، و قد قدر ابن بطوطة عدد المكاريين فى القاهرة بثلاثين ألف مكارى. «۱»

و كان على المحتسب أن يتولى تنظيم الطرقات و أن يضمن سلامة السير فيها، و كانت هذه الطرقات تضاء فى الليل بالمصابيح، و قد ذكر بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى هذه الفترة أن بالقاهرة أربعة آلاف شارع و درب كل منها له بابان و حارسان، و فى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن، و لكل منها سوق كبير. «۲»

و كانت الحراسة تشدد ليلا على هذه الشوارع، و من سار فى الليل لغير سبب معقول قبض عليه.

و قد لقيت المدينة حظا لا بأس به من العناية بنظافة دروبها و طرقاتها كما زخرت بالأسواق العديدة التى حوت مختلف أصناف البضائع، و كان كل سوق ينفرد بنوع معين من البضائع فسوق للشماعين و آخر للدجّاجين ... و هكذا «۳»، أما الأسواق الخاصة بالمآكل و المشارب فقد كانت عديدة، و قد قدر عدد المطاعم و المطابخ فى القاهرة بما يزيد على اثنى عشر ألف مطعم عدا الباعة الجائلين الذين يقدمون بعض أنواع الطعام، و قد وضع هؤلاء تحت رقابة المحتسب حرصا على صحة الناس. «۴»

و قد اشتهرت الحياة فى المدن فى ذلك العصر بالحفلات الصاخبة منها ما هو خاص كحفلات الزواج و الختان و الولادة، و منها ما هو عام شعبى كالاحتفال بالمولد النبوى أو بموالد بعض كبار الأولياء أو غير ذلك من المناسبات الدينية و الدنيوية، و قد بالغ السلطان و الأمراء فى إحياء هذه الاحتفالات على اختلافها (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۹.

(۲) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۸۴.

(۳) المصدر السابق ص ۸۶.

(۴) نفس المصدر ص ۸۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۵

عامة كانت أو خاصة، و فى بعض الأحيان كان السلطان يحضر الاحتفال بالمولد بالقاهرة ثم يسافر لحضور الاحتفال بالاسكندرية «۱».

و حين قدوم السلطان من أسفاره كان يقابل بكثير من مظاهر الحفاوة و وجوه الاصلاح و الزينة فى الطرقات فضلا عن المواكب الكبيرة. «۲»

و قد عرفت هذه الفترة عديدا من أنواع الاحتفالات التى كانت لا تفتأ تقام بالمدينة بين حين و آخر كما عرفت صنوفا من المواكب التى كانت تشق القاهرة آنا بعد آن احتفالا بمناسبة دينية أو وطنية أو استقبالا للسلطان أو أحد الأمراء أو استقبالا لزائر أجنبى «۳»، أو فى حالات الزواج و الختان و الولادة أو لولاية ولاها السلطان أحدا من الناس.

و كانت هناك مبالغات كبيرة فى إعداد هذه الحفلات التى كانت تكلف الدولة أو تكلف أصحابها نفقات باهظة، و كانت حفلات الزواج تلقى عناية خاصة و يكلفها أصحابها أموالا طائلة «۴».

القلق الاقتصادى:

على أن القاهرة و أسواقها لم تبق على حال ثابتة من الهدوء و السكينة فى ذلك العصر، بل كثيرا ما تأثرت المدينة و أسواقها بعوامل سياسية أو اقتصادية أو اعتبارات أمن أدت إلى اضطراب الأحوال فيها، فقد أدت كثرة المنازعات و الفتن بين أمراء المماليك و أحزابهم كما أدت ثوراتهم المستمرة فى وجه السلطان إلى اضطراب الأمن فى كثير من الأحيان، و تعرضت الأسواق لهجماتهم التى تقصد إلى السلب و النهب، و تكاد تكون جميع حوادث الفتن السياسية مصحوبة بمهاجمة الأسواق و نهب ما فيها الأمر الذى كان يترتب عليه أن تغلق المتاجر و تتوقف الحياة داخل الأسواق لعدة أيام حتى يعود الهدوء، و كان يكفى أن (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۷۲، ۱۷۳.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۷۷.

(۳) نفس المصدر ج ۲ ص ۲۰۷.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۲۴۵ و انظر ج ۲ ص ۲۰۸، ص ۱۸۷، ص ۳۶۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۶

يرجف بموت سلطان أو بهزيمة جنوده حتى يحل الفزع و الاضطراب فى جميع أرجاء المدينة.

و بالاضافة إلى عامل الفوضى الناتج عن الفتن السياسية نجد ثمة عاملا آخر هو اختلال الأمن نتيجة لهجوم العصابات المسلحة الكبيرة على المدينة بين حين و آخر، و بالرغم من الاحتياطات و التدابير التى كان يقوم بها المسئولون بالمدينة فإن أخبار هذه الحوادث و كثرتها يعطى صورة للقلق و عدم الاستقرار و عدم التمكن من السيطرة على المفسدين حتى عدّ القبض على بعضهم «من النوادر» «۱». و قد كان لذلك أثره فى إشاعة القلق و الاضطراب.

و فضلا عن ذلك فهناك العوامل الاقتصادية المتصلة حينا بانخفاض النيل و ما يترتب عليه من نقص الأقوات «۲»، و حينا آخر بتلاعب السلاطين بالعملة، و التلاعب بالعملة مشهور فى ذلك العصر، فكان السلطان يعمد إلى ضرب نقود جديدة و يجعل قيمتها أكبر مما فى أيدى الناس فيخسرون بذلك أموالا طائلة و يكون هو المستفيد بفروق القيمة «۳»، و يحدث الاضطراب و القلق بين التجار و فى الأسواق.

و حوادث تغيير العملة و إبطالها و التلاعب بها كثيرة فى ذلك العهد «۴»، و قد تناول السيوطى ذلك فى مبحث فقهى رائع عن أحكام الدّين بعد تغيير العملة و هل يطالب من عليه الدين بقيمته يوم اللزوم أو يوم المطالبة؟ و هل يأخذ الدائن من الفلوس الجدد المتعامل بها عددا بالوزن أو بالعدد؟ و قد تقصى بذلك إجابة على ما ورد عليه من الأسئلة فى ذلك الحين. «۵» (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۴ ص ۳۹، ۴۰، و هناك عدد من الأمثلة التى أوردها لهجوم العصابات على أسواق المدينة و أحيائها ج ۲ ص ۲۲۹، ص ۲۹۴.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۲۲۶، ۲۴۰، ۲۴۱، ۲۴۲، ۳۳۶.

(۳) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۵۷ ذو الحجة سنة ۸۷۹ ه.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۹۶، ص ۳۱۰.

(۵) رسالة للجلال السيوطى بعنوان «قطع المجادلة عند تغيير المعاملة» و هى مطبوعة بكتاب الحاوى ج ۱ ص ۱۴۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۷

المجاعات و الأوبئة:

و يتصل بالقلق الاقتصادى ما كان يحدث بالبلاد من مجاعات نتيجة لانخفاض النيل و قلة الأقوات، أو نتيجة لاغتصاب المماليك أقوات الناس و دوابهم لا سيما فى أوقات الاعداد لبعض الحملات الحربية كما حدث فى عام ۸۹۰ ه «۱».

و أخبار المجاعات و الغلاء كثيرة فى هذه الفترة و تعكس كثرتها صورة للاضطراب الاقتصادى بالبلاد و عدم استقرار الأمور على حال واحدة. «۲»

أما عن الأوبئة فقد انتشرت عدة مرات خلال هذه الفترة، و قد حدث أن انتشر الطاعون فى عهد قايتباى وحده ثلاث مرات كان أولها فى عام ۸۷۳ ه «۳»، و قد تزايد أمره بالقاهرة فى شعبان من ذلك العام «و عمل فى الأطفال و المماليك و العبيد و الجوارى و الغرباء عملا بليغا ذريعا» «۴»، و قد كان من الشدة بحيث «صارت الغرباء يموتون فى الطرقات بعضهم على بعض» «۵».

و حدث الطاعون الثانى فى عام ۸۸۱ ه أى بعد قرابة ثمانى سنوات من انتشار الطاعون الأول و قد «كان طاعونا مهولا يموت فيه الانسان من يومه ...

و مات فيه من الأعيان جماعة كثيرة» «۶»، و قد عدد ابن اياس معاصر هذه الفترة جملة من الأمراء الذين لقوا حتفهم بسبب هذا الطاعون و ذكر أنه قضى به «من الأمراء و الخاصكية ما لا يحصى عددهم» «۷»، هذا فضلا عن نحو ألفى مملوك من مماليك السلطان عدا من مات من مماليك الطوائف الأخرى «۸». (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۳۲،

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۱۸ غلاء عام ۸۷۵ ه، ص ۱۹۴ عام ۸۸۵ ه، ص ۲۴۱ عام ۸۹۲ ه.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۰۱، ۱۰۵، ۱۰۶.

(۴) نفس المصدر: ص ۱۰۶، ۱۰۷.

(۵) نفس المصدر: ج ۲ ص ۱۰۷.

(۶) نفس المصدر: ج ۲ ص ۱۶۹.

(۷) نفس المصدر ج ۳ ص ۱۷۰.

(۸) نفس المصدر: ج ۲ ص ۱۶۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۸

و فى عام ۸۹۷ ه كان ثالث الأوبئة فى عهد قايتباى، و يبدو أن الناس قد ألفوا هذه الأوبئة التى تنتاب البلاد و العباد بين حين و آخر، حتى اعتبروا أن مدة خمس عشرة سنة بين الوباءين فترة طويلة «۱».

و كان اعتقادهم أن حلول الطواعين إنما يكون بسبب ما أحدثوا فى دينهم من الفساد، و يعبر ابن اياس عن ذلك بقوله: ان الطاعون «كان فى مدة انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا و اللواط و شرب الخمر و أكل الربا و جور المماليك فى حق الناس» «۲».

و كان هذا الطاعون أشد من سابقيه إذ يذكر أن من مات به بمدينة القاهرة وحدها يقدر بمائتى ألف «۳»، و يؤكد السيوطى ذلك حيث يذكر أنه «ذهب فيه من القاهرة النصف أو أشد» «۴». و لا نلبث أن نجد بعد قليل أخبار طاعون رابع حدث بعد وفاة قايتباى و فى حياة السيوطى أيضا و ذلك فى عام ۹۰۳ ه، و قد مات فيه «من المماليك و الأطفال و العبيد و الجوارى جانب» «۵»، و مات فيه من هؤلاء قرابة ثمانية آلاف فضلا عن موت جماعة من الأعيان، هذا إلى جانب ما يقدر بمائتى ألف إنسان بالقاهرة، و قد مكث بالمدينة نحوا من ثلاثة أشهر «۶».

و الذى يحق أن نقوله هو أن البلاد المصرية لم تكن أسوأ بكثير من غيرها فى الاصابة بالأوبئة، بل كثيرا ما كانت هذه الأوبئة تنتاب كثيرا من بلاد العالم «۷»، و لكن يبدو أن إصابة البلاد المصرية و فعل الأوبئة بها كان أكثر قوة و وضوحا نظرا لكثرة السكان، و لم يكن فى مقدور الناس و مستواهم آنذاك حكاما أو محكومين أن يفعلوا شيئا، بل كان مشهورا عند كثير من علماء ذلك العصر أن

الطواعين (۱) السيوطى: المقامة الطاعونية، مقامات السيوطى ص ۶۹.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۷۳.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۲۷۵.

(۴) مقامات السيوطى: المقامة الطاعونية ص ۷۰.

(۵) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۳۹.

(۶) المصدر السابق: ج ۲ ص ۳۴۰، ۳۴۱.

(۷) المقامة الطاعونية.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۹

من الأمراض التى ليس لها دافع من الأدوية، و قد أنشد السيوطى لذلك فى مقامته منكرا على المتداوين:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة و الطاعون و الهرما «۱»

و إكمالا للحديث عن الحياة فى المدن بصفة عامة و فى القاهرة بصفة خاصة يقتضى تناول بعض الظواهر الاجتماعية التى تميزت بها القاهرة فى ذلك الوقت منها طرائق الاحتفال بالأعياد المختلفة و وصف مواكب السلاطين كذلك الحديث عن الألقاب و الخلع و الملابس التى تميز بها ذلك العصر ثم تناول الأمراض الاجتماعية التى منى بها المجتمع و أهمها الرشوة و الزنا و الخمر و بعض المعتقدات الفاسدة، ثم تناول روح المرح و وسائل التسلية، و تجنبا للاطالة فى هذه الموضوعات رأيت أن أشير إليها بالحديث أثناء تناول حياة السيوطى و آثاره ذلك أنه قد عالج فى كثير من رسائله جوانب تهم المجتمع فى عصره و تعبر عن روحه و طابعه.

على أن دارس الحياة الاجتماعية لا يستطيع بحال أن يغفل ظاهرة هامة تعدّ من أهم الظواهر الاجتماعية السائدة فى مصر فى تلك الفترة و هى ظاهرة التصوف، فقد اتخذ التصوف آنذاك طابعا اجتماعيا، و وجه حياة المجتمع و أثر فيها تأثيرا بالغا، لذلك فإننا نرى أن نتناول هذه الظاهرة و نحن نختتم الحديث عن الحياة الاجتماعية.

التصوف و المجتمع:

عرفت البيئة المصرية التصوف منذ عصر مبكر فى الاسلام، فقد ظهر بها كثير من المتصوفة منهم ذو النون المصرى، و قد عرفت هذه البيئة منذ ذلك الحين دراسة النفس الانسانية فى صورة إشراقية تصلها بالملإ الأعلى عن طريق المقامات «۲».

على أن قوة تيار التصوف و أثره فى الجانبين الدينى و الاجتماعى و فعله القوى (۱) المقامة الطاعونية ص ۷۰.

(۲) د. سيد خليل: الليث بن سعد ص ۳۲، انظر حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۹۲.

فى الحياة لم يأخذ صورة واضحة إلا فى عصر المماليك.

و قد ساعدت عوامل كثيرة على ازدهار التصوف بالبيئة المصرية و تغلغله إلى أعماقها، فهناك عامل البيئة و حب الشعب المصرى و ميله الطبيعى إلى التدين بما يحتويه من تصوف فضلا عن الميراث الحضارى و الثقافى لهذه البيئة، يضاف إلى ذلك ما اختصت به هذه الفترة من ظروف، منها تعرض المسلمين فى هذا العصر للغزوات المستمرة من التتار المشركين من جهة الشرق، و من الصليبيين من جهة الغرب، بالاضافة إلى الأحوال الاجتماعية القاسية التى عاشها الناس و التى سبق أن أشرنا إليها، كذلك الأوبئة و الأزمات المستمرة، كل أولئك وجه أنظار كثير من الناس إلى التصوف و الانقطاع للعبادة التماسا للعدالة و النعيم فيما وراء الدنيا حيث افتقدوهما فى حياتهم الأولى.

و قد وفد على مصر فى عصر المماليك كثير من مشايخ الصوفية المغاربة و الأندلسيين كالسيد أحمد البدوى و أبى الحسن الشاذلى و أبى العباس المرسى، و قد لقيت مسالكهم قبولا لدى المصريين، كما ظهر بمصر كثير من المتصوفين كابن الفارض «۱»، و ساعد على انتشار التصوف كثرة البيوت الخاصة بالصوفية و التى أقيمت لهم و هى ما عرفت بالخوانق و الربط و الزوايا.

و قد انقسم الصوفية إلى طرق عديدة لكل منها شيخها و شعارها، فالأحمدية- مثلا- نسبة إلى السيد أحمد البدوى و شعارها اللون الأحمر.

على أن كلمات «الخوانق و الربط و الزوايا» تحمل دلالات مختلفة و متقاربة لا حاجة بنا إلى تقصيها «۲»، فهى جميعا تدل على بيوت أنشئت لتقيم بها جماعات من الصوفية الذين انقطعوا للعبادة بشروط معينة.

و قد شهد عصر السيوطى بالقاهرة عديدا من الخوانق و تحدث عنها فى كتابه حسن المحاضرة خلال حديثه العام عن هذه المنشآت، فتحدث عن خانقاه سعيد السعداء التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى و وقف عليها أوقافا و استمرت (۱) حسن المحاضرة، ج ۱ ص ۲۹۲ و ما بعدها.

(۲) عبد الوهاب حمود: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ۲۰، ۲۱.

عامرة إلى عهد السيوطى «۱»، و من بعده «۲»، كما تحدث عن الخانقاه البيبرسية التى اعتبرت أعظم خانقاه بالقاهرة «۳»، كما ذكر خانقاه شيخو «۴»، و رباط الآثار «۵»، و لم يفرد حديثا لخانقاه سرياقوس إلا ضمن حديثه عن الخانقاه الأولى.

و قد جرت العادة بأن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر و عدد من الصوفية، كما كانت هذه المنشآت معاهد ثقافية تدرس فيها العلوم الشائعة و وقتذاك، فالشيخونية كان بها أربعة دروس للمذاهب الأربعة و درس للحديث و درس للقراءات، و مشيخة لسماع الصحيحين

و قد تولى السيوطى تدريس الحديث بهذه الخانقاه منذ وقت مبكر فى حياته (شعبان سنة ۸۷۷ ه) «۶»، كما تولى مشيخة البيبرسية فيما بعد.

و قد كان لكل خانقاه أوقاف سخية تفى بأجور القائمين بالتدريس فيها، كما ينفق منها على الصوفية، و قد حرصت الحجج المعاصرة الخاصة بأوقاف هذه المنشآت على وضع الشروط التى تكفل انقطاع الصوفية للعبادة و عدم تغيبهم عن الخانقاه.

و قد كان للصوفية آداب و تقاليد مرعية، و كثيرا ما اجتمع الناس لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عند ذهابهم إلى صلاة الجمعة فى خشوع و نظام تبركا بهم، و قد كان الصوفية بصفة عامة موضع إجلال الناس و تقديرهم فى ذلك العصر، و كان الأمراء يتنافسون فى بناء الزوايا لهم.

غير أن الحال لم يبق على ذلك إذ تغير فى أواخر ذلك العصر من الصلاح إلى الفساد، و تخلوا عن كثير من النظم و الآداب التى عرفوا بها بين الناس كما أنشأ (۱) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۷.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى، ترجمة الشيخ زكريا الأنصارى ورقة ۲۳ و ما بعدها.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۴) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۹۱.

(۵) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۹۵.

(۶) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۴۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۲

شيوخهم يمدون الأسمطة الحافلة و ينفقون أموال الأوقاف فى غير وجوهها.

و يبدو أن انتشار الفقر و سوء الأحوال الاجتماعية الذى سبق الاشارة إليه قد حدا بكثير من الناس إلى أن ينتظموا فى سلك الصوفية عن غير استعداد حقيقى الأمر الذى جعل هذه المنشآت الصوفية تضم كثيرا من الدخلاء و الأدعياء «۱».

و لما رأى السيوطى حين توليه مشيخة البيبرسية ما آل إليه أمر هؤلاء قطع اعطاء بعضهم و رأى أنه لا حق لهم فيه و هم لا يتخلقون بأخلاق الأولياء و «من يأكل المعلوم بغير تخلق بأخلاقهم حرام» «۲»، فثار ثائرهم عليه و كادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه و رموه فى الفسقية و شكوه إلى الأمير طومان باى الذى كان مبغضا له «۳».

و قد كان لكبار المتصوفة فى هذه الفترة مكانة كبيرة فى المجتمع، و لم تحجب الظلال المنفرة التى خلقها وجود الأدعياء فى صفوفهم من أن يبقى للصوفية مكانة مرموقة مبجلة فى المجتمع، و هناك عديد من الأمثلة التى تدل على تلك المكانة التى تبوأها الصوفية منها أن السلطان قايتباى قبل قدمى رجل اعتقد أنه الشيخ عبد القادر الدشطوطى و شكا إليه ما بينه و بين ابن عثمان سلطان العثمانيين «۴»، و قد ذكر الشعرانى عن الشيخ أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف و ثلاثين و تسعمائة أنه كان له «القبول التام عند الخاص و العام و الملوك و الوزراء و كانوا يحضرون بين يديه خاضعين و عملوا بأيديهم فى عمارة زاويته فى حمل الطوب و الطين» «۵»، و ذكر عن غيره أنه كان «كثير الشفاعات عند السلطان و الأمراء» «۶». و قد بلغ من نفوذ أبى السعود الجارحى بالبلاد أنه بعد موت الغورى اختار الأمراء طومان باى ليلى السلطنة فامتنع بسبب قلة الأموال و لا (۱) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۱۷۴، ۱۷۵.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۳۹، شعبان سنة ۹۰۳ ه.

(۴) المصدر السابق، ج ۲ ص ۲۵۶.

(۵) الشعرانى: لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار ج ۲ ص ۱۰۴.

(۶) المصدر السابق ترجمة الشيخ تاج الدين الذاكر المتوفى سنة نيف و عشرين و تسعمائة ج ۲ ص ۱۰۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۳

ينتظر أن يمتثل الأمراء لرأيه دون أن ينفق عليهم الأموال، فذهب الأمراء إلى الشيخ أبى السعود فأحضر مصحفا و طلب من الأمراء أن يقسموا عليه بطاعة طومان باى، و ألا يخونوه ففعلوا فاستقر بالسلطنة «۱». و فى هذا دلالته على أنه كان آثر عند الحكام و الشعب من كبار الفقهاء و العلماء المعاصرين. و قد حظى هؤلاء الصوفية لدى العامة بنفوذ أكبر و كان اعتقادهم فيهم أعظم، و إذا تعرض لهم أحد بما يمسهم قام العامة عليه و أرادوا قتله «۲».

و هكذا يتضح لنا كيف تمتع الصوفية فى هذا العصر بنفوذ كبير بين جميع فئات المجتمع بما فيهم العلماء و الفقهاء الذين نصبوا أقلامهم و ألسنتهم فى كثير من الأحيان للدفاع عن التصوف و رجاله، و قد كان السيوطى أحد هؤلاء العلماء الذين مالوا إلى التصوف و انتظموا فى سلكه و نافحوا بأقلامهم عن أعتابه. (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۳ ص ۶۹.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۲۱ الحديث عن ابن الفارض بين المدافعين عنه و المهاجمين له و قد كان البقاعى الفقيه من بين المهاجمين و يقول ابن إياس: «و أما البقاعى فكادت العوام أن تقتله و حصل له من الأمراء ما لا خير فيه، فهرب و اختفى حتى توجه إلى مكة».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۵

الفصل الثانى

الحياة الثقافية

اشارة

أشرنا من قبل إلى المكانة التى احتلتها مصر بين دول العالم الاسلامى، و إلى المنزلة التى تبوأتها القاهرة بعد سقوط بغداد.

و النشاط العقلى غالبا ما يرتبط بألوان النشاط الأخرى فى بيئة ما، فيزدهر بازدهارها و يخمل بخمولها، إذ إن عناصر الحياة و النماء فى سائر الأنشطة متصلة الأسباب مختلطة الأمشاج.

و قد شهدت مصر قبيل سقوط بغداد حركة علمية نشطة فى العصر الأيوبى، و قد شجع ملوك بنى أيوب هذه الحركة و بعثوا فيها الحياة و النشاط و كان هدفهم من ذلك بعث المذهب السنى فى البلاد و إحيائه و القضاء على ما خلف الفاطميون من آثار التشيع.

و قد عرف كثير من ملوك الأيوبيين بميلهم إلى العلم و مشاركتهم فيه، و إغداقهم على العلماء و تكريمهم، فكان صلاح الدين شديد الكلف بعلوم الدين، و كان يحضر مع أبنائه دروس الحافظ السلفى بالاسكندرية، كما سمع من غيره و حضر كثيرا من مجالس العلماء المشهورين «۱»، و قد سلك ملوك بنى أيوب مسلك صلاح الدّين فى تشجيع العلم و تقريب العلماء، و قد أنشأ صلاح الدين عديدا من المدارس لنشر المذهب السنى و لم يكن بالبلاد مدارس قبل ذلك، فابتنى مدرسة بالقرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى، و أنشأ أخرى بجوار المشهد الحسينى، و أقام ثالثة و خصصها للحنفية و قد عرفت هذه فى عهد السيوطى بالسيوفية، كما خصص للشافعية مدرسة عرفت بزين التجار و كانت (۱) د. عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر ص ۱۴۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۶

على عهد السيوطى تعرف بالشريفية، و بنى مدرسة للمالكية عرفت على عهد السيوطى بالقمحية، كما أنشأ خانقاه سعيد السعداء حيث أقام بها الصوفية و كان بها دروس علمية «۱».

و كان لكل مدرسة مدرسون و معيدون و طلبة تجرى عليهم الأرزاق من الأوقاف التى وقفها السلطان لذلك، و قد اتبع كثير من ملوك بنى أيوب هذه السنة فى إنشاء المدارس و الخوانق و المساجد.

و حين خلف المماليك بنى أيوب فى حكم مصر فانهم لم يكونوا أقل تحمسا للعلم و أهله و للمذهب السنى من أسلافهم، لذلك دأب ملوكهم على إنشاء المساجد و المدارس و الخوانق و وقفوا عليها الأوقاف السخية التى تمدها بما تحتاج إليه من الأموال، هذا فضلا عن أن مصر قد غدت فى أيامهم محور النشاط العلمى و الدينى فى العالم الاسلامى بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار و أصبحت القاهرة قبلة علماء المسلمين و محط رحالهم و مركز علمهم، و غدت تموج بألوان النشاط العقلى المتنوعة.

و لقد حرص كثير من سلاطين المماليك على تشجيع الحركة العلمية بالبلاد و المشاركة فى العلوم فى بعض الأحيان و إن تكن مشاركتهم لا تقاس إلى مشاركة أسلافهم الأيوبيين. و كان للغورى- و هو آخر من عاصرهم السيوطى- مجالس علمية تعقد مرتين أو أكثر فى كل أسبوع «۲».

و هكذا شهد العصر المملوكى نشاطا ثقافيا واسعا كما شهد كثيرا من المنشآت العلمية التى تمثلت فى المدارس و الخوانق و الأربطة و الزوايا و المساجد، و جميع هذه المنشآت- غير المدارس- كانت أماكن للدرس فضلا عن وظائفها الأساسية، أما المدارس فلقد كان غرضها الأساس أن تكون أماكن لالقاء الدروس و إقامة الطلاب، و قد ذكر ابن بطوطة أن مدارس مصر فى القرن الثامن- و هو القرن السابق للقرن الذى عاش فيه السيوطى- «لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها» «۳». (۱) السيوطى: حسن المحاصرة ج ۲ ص ۱۸۵.

(۲) عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى.

(۳) رحلة ابن بطوطة ج ۱ ص ۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۷

و كان إلى جانب هذه المدارس مكاتب صغيرة ملحقة بها تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة و الكتابة و طرفا من العلوم الأولية و تحفيظ القرآن، و كانت هذه المكاتب تمهد للالتحاق بالمدارس الكبيرة.

و كانت هذه المدارس بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن من حيث طريقة التدريس و مستوى الدراسة و نظم التلقى و الإقامة، و كان لها نظم و قواعد محكمة و مرعية فى مختلف مناحيها، بل إنها تمتاز عن الجامعات الحديثة بأن طلابها كانوا لا يجدون من العقبات و العوائق ما يحول بينهم و بين تحصيل العلوم فضلا عما كانوا ينالونه من ضروب التيسير و المساعدة.

و قد روعى فى تصميم المدارس الأغراض التعليمية و عدد المذاهب و مساكن الطلبة و المعيدين فضلا عن خزائن الكتب و المصاحف، و لم يكن بناء المدرسة مستقلا فى كثير من الأحيان، بل كان بناء ملحقا بالقبة التى بناها السلطان أو الأمير منشئ المدرسة ليدفن فيها بعد وفاته، و مبعث اختيارهم أن يدفنوا إلى جوار المدارس هو طلب الرحمة باعتبار المدارس أماكن تدرس فيها العلوم الدينية «۱»، و كان بالمدرسة مسجد و له عدد من المؤذنين و كان يؤم المصلين بها أحد القائمين بالتدريس أو المعيدين «۲».

و جرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة للسلطان أن يحتفل بافتتاحها فى حفل كبير يحضره الأمراء و الفقهاء و القضاة و الأعيان و يأكلون من سماط يزخر بألوان الأطعمة، ثم يخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة «۳»، و يعيرى لها موظفيها من المدرسين و المعيدين و المؤذنين و القراء و غيرهم.

أما العلوم الأساسية التى كانت تدرس فى هذه المدارس فقد ارتبطت بأصول الدين كالفقه و الحديث و التفسير أو العلوم اللغوية و ما يتصل بها كالنحو و الصرف و البيان، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة و المنطق أو العلوم العملية كالفلك و الكيمياء و الطب.

(۱) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ۱۴۹.

(۲) راجع: ابن دقماق: الانتصار: الكلام عن المدرسة الطيبرسية ج ۴ ص ۹۶.

(۳) راجع على سبيل المثال افتتاح مدرسة السلطان حسن: بدائع الزهور ج ۱ ص ۲۰۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۸

و بطبيعة الحال فلقد تفاوتت هذه المدارس بحسب ما رصد لكل منها من أوقاف و ما كان لكلّ من الشهرة بحسب شهرة العلماء

القائمين بالتدريس فيها، و لذلك فكثيرا ما نرى من علماء العصر من قام بالتدريس بإحدى المدارس الصغيرة ثم تركها و انتقل إلى مدرسة أخرى أكثر شهرة و أوسع أوقافا.

أما فيما يخص الطلبة فقد كان الواحد منهم يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ منه كفايته ثم ينتقل إلى الآخر حتى يصل من يأخذ العلم عنهم بضع مئات فى بعض الأحيان، و نلاحظ ذلك من مطالعة تراجم كثيرين من علماء ذلك العصر، و كثيرا ما تطلبت هذه الطريقة من طالب العلم أن يرحل إلى مختلف المدن فإذا أتم الطالب دراسته و تأهل للفتيا و التدريس أجاز له شيخه ذلك و كتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب و شيخه و مذهبه و تاريخ الاجازة «۱»، و لا شك أن لهذه الطريقة مزايا متعددة تتمثل فى حرص الطالب على حضور دروس أكبر عدد من الشيوخ و السماع منهم، كذلك الحرص على حضور دروس كبار الأساتذة و العناية بها للحصول على إجازات منهم، و قد كان الحصول على الاجازات يستلزم من الطالب إتقان ما درسه على الشيخ و استيعابه و تفهمه و حفظه فى بعض الأحيان فإذا ما أتم ذلك استوجب أن يمنح إجازة بتدريس كتاب ما أو الافتاء فى مذهب من المذاهب الفقهية، و قد ظل هذا التقليد ذائعا و مرعيا طيلة هذه الفترة.

و عرف فى هذه المدارس نظام المحاضرات التى عرفت بالمجالس إذ كان بعض المدرسين يملى مجالسه على طلبته، و قد ذكر السيوطى عن الحافظ العراقى أن اللّه تعالى أحيا به سنة الاملاء فأملى أكثر من أربعمائة مجلس «۲»، كما ذكر أن ابن حجر أملى أكثر من ألف مجلس و أن اللّه قد أحيا به و بشيخه العراقى سنة الاملاء «۳». (۱) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر ص ۴۴.

(۲) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۰۴.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۰۶، نظم العقيان فى أعيان الأعيان: ترجمة ابن حجر ص ۴۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۵۹

و كانت وظيفة التدريس بالمشهور من هذه المدارس جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها فى كثير من الأحيان، أى أن تعيين المدرس لا يتم إلا بموافقة السلطان نفسه و علمه.

و لم تكن فى دور التعليم نظم محددة و مناهج موضوعة يلتزم بها القائمون بالتدريس أو الطلبة، بل ثمة كتب فى الفقه أو الحديث أو النحو أو اللغة أو غير ذلك يدرسها الشيوخ حسب اختياراتهم و يسمعها من الشيخ من شاء من الطلاب و غيرهم، و لم تكن المساجد أو غيرها من دور العلم تفترق فى ذلك عن المدارس، غير أن الحصول على الاجازة هو الذى كان يستلزم مواظبة الطلاب فى السماع و حضور الدروس.

و كانت هناك عناية فائقة بحفظ عدد من الكتب المشهورة فى كل فن من الفنون، و نرى فى تراجم علماء العصر أسماء الكتب التى حفظوها، و قد كان ذلك بالطبع أثرا من آثار العناية بعلم الحديث و حفظه حيث انتقلت العناية بالحفظ من الحديث إلى غيره من العلوم.

دور العلم:

اشارة

كانت مراكز العلم فى ذلك العصر منحصرة فى ثلاثة أنواع من المنشآت هى المدارس و الخوانق و ما يشبهها من الربط و الزوايا و المساجد، و سنعرض هنا لكل منها باعتباره مركزا علميا ذاكرين بعض الأمثلة:

۱- المدارس:

اشارة

و قد أشرت من قبل إلى بداية إنشائها فى عهد الأيوبيين، ثم كثرتها فى عهد المماليك حتى أصبح من العسير إحصاؤها إذ بلغت عددا كبيرا، و وجد بالمدن المصرية غير القاهرة عديد من المدارس، و لكن القاهرة قد حظيت بالحظ الأوفر منها، و قد أشار السيوطى إلى بعض هذه المدارس منها ما كان قائما فى عهده، و منها ما انتهى أمره و بقى أثرا بعد عين، و نشير هنا إلى بعض المدارس التى كانت لا تزال قائمة إلى عهد السيوطى:

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۰

المدرسة الصلاحية «۱»:

أنشئت بجوار الامام الشافعى، بناها صلاح الدين الأيوبى و جعل التدريس و النظر بها للشيخ نجم الدين الخبوشانى و حدث أن خلت من مدرس ثلاثين سنة و اكتفى فيها بالمعيدين و كانوا عشرة، و ممن ولى التدريس بها من شيوخ السيوطى ابن حجر العسقلانى و القاياتى شيخ والده، و الشرف المناوى، و كان قائما بالتدريس بها على عهد السيوطى الشيخ زكريا الأنصارى.

مدرسة السلطان حسن «۲»:

أنشأها السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، و هى أكبر مدارس مصر فى عمارتها و حسن هندامها، و قد شرع فى بنائها سنة ۷۵۸ ه، و تم بناؤها بعد ثلاث سنوات، و بها أربعة دروس للمذاهب الأربعة، و قد تعرضت للتخريب و نهب محتوياتها فى فتنة أقبردى الدوادار «۳»، و يفهم من ذلك أنها كانت لا تزال عامرة إلى ذلك الوقت الذى شهده السيوطى.

مدرسة صرغمش:

كانت تقع خارج القاهرة بجوار جامع ابن طولون، أنشأها الأمير سيف الدين صرغمش الناصرى، و قد تمت عمارتها عام ۷۵۷ ه، و قد رتب بها درس للحنفية و آخر فى الحديث «۴». و قد بقيت هذه المدرسة عامرة إلى عهد السيوطى كما يفهم مما ذكره عنها ابن إياس فى تاريخه «۵».

إلى جانب هذه المدارس كان هناك كثرة كاثرة من المدارس فى عهد السيوطى تؤدى دورها فى خدمة العلم و أهله منها المدرسة الأشرفية و الايتمشية (۱) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۶.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۹۲.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۲۸.

(۴) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۹۲.

(۵) بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۵۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۱

و الجانبكية «۱»، و غيرها من المدارس التى لا حاجة بنا إلى تقصيها فى هذا المكان لضيقه عن ذلك «۲».

خزائن الكتب:

و كان بكثير من هذه المدارس خزائن كتب حفلت بالكتب الثمينة فى شتى العلوم و الفنون و كانت على درجة كبيرة من الاعداد و التنظيم، «۳» فكان بالمدرسة الظاهرية القديمة خزانة كتب جليلة، و كان للمدرسة المحمودية خزانة كتب ضخمة و قد أفاد منها السيوطى، و كذلك المدرسة الجمالية و عديد من المدارس غير ما ذكرنا، كما ألحقت خزائن كتب ببعض الخوانق و المساجد.

و قد عنى المماليك أنفسهم بالكتب عناية فائقة دل عليها احتفاظهم فى قلعة الجبل بمكتبة ضخمة بها أكبر عدد من الكتب «۴».

۲- الخوانق و الربط و الزوايا:

اشارة

رأينا من قبل فى حديثنا عن التصوف و المجتمع كيف انتشر التصوف فى البلاد المصرية، و قد استتبع ذلك و ساعد عليه فى نفس الوقت كثرة البيوت التى أنشئت للصوفية و عرف بعضها بالخوانق و بعضها الآخر بالربط كما عرف قسم ثالث بالزوايا.

و تكاد تنعدم التفرقة بين مسميات هذه الأسماء حتى وقع خلط فيها لدى المؤرخين فذكر ابن بطوطة أن الخانقاه هى الزاوية و أن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق «۵». (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۵۸. الحديث عن الشيخ أمين الدين الأقصرائى.

(۲) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۴- ۱۹۴، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ۳۷- ۵۷.

(۳) د. سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ۳۳۳، عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر ص ۱۰۲، ۱۰۳.

(۴) العصر المماليكى ص ۳۳۳.

(۵) رحلة ابن بطوطة ج ۱ ص ۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۲

و الذى يهمنا الآن هو أن نذكر أن هذه المنشآت التى أنشئت لإقامة الصوفية لم تخل من الجوانب العلمية، بل إنها جعلت- على مر الأيام- تحل محل المدرسة تدريجيا، و سنرى الآن أن بعض هذه الخوانق فضلا عن قيامها بوظيفتها الأولى و هى إيواء الصوفية و إقامة شعائرهم قد أصبحت دورا للعلم تضارع أعظم المدارس فى عصرها، و وجد بها تدريس كثير من المواد الدراسية المعروفة، و لعل هذا الاتجاه العلمى للخوانق هو الذى جعل بعض المؤرخين يطلق على بعضها اسم المدرسة مرادفا للخانقاه «۱»، و هو كذلك ما حدا بالسيوطى إلى أن يذكر الخوانق المصرية أثناء حديثه عن المدارس فى الفصل الذى عقده عن المدارس و الخوانق حيث لم يفصل المدارس عن الخوانق «۲»، مما يدل على كونها من الناحية العلمية كالمدارس سواء بسواء، و سنشير هنا إلى بعض هذه الخوانق التى تولى السيوطى مشيخة اثنتين منها.

خانقاه سعيد السعداء «۳»:

كانت دارا لرجل اسمه قنبر أو عنبر و لقبه سعيد السعداء، و هو أحد الأساتذة الذين خدموا فى قصور الفاطميين و كان له شأن فى دولتهم، فلما آلت سلطنة مصر إلى صلاح الدين الأيوبى وقفها على الصوفية فى سنة تسع و تسعين و خمسمائة و كان شيخها يلقب بشيخ الشيوخ، و ظل ينعت بهذا اللقب حتى بنى محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس فدعى شيخها بشيخ الشيوخ، إلى أن كانت الحوادث عام ۸۰۶ ه و تلاشت الرتب أو فقدت شيئا من مدلولاتها فتلقب شيخ كل خانقاه بشيخ الشيوخ.

و كان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم و الصلاح و ترجى بركتهم.

و ممن ولى مشيختها قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز و القاضى بدر الدين بن جماعة و القاياتى و القلقشندى. (۱) راجع ابن

إياس فى حديثه عن خانقاه شيخو أو المدرسة الشيخونية، بدائع الزهور ج ۳ ص ۲۲۲.

(۲) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۴.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۸۷، ۱۸۸، بدائع الزهور ج ۱ ص ۷۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۳

و انتهى السيوطى فى ذكر شيوخها إلى الكورانى الذى يذكر ابن اياس وفاته فى رجب عام ۸۹۴ ه فهو من معاصرى السيوطى ثم جاء بعده السنتاوى و ليس الفتاوى كما هو محرف فى كتاب ابن اياس، و هو الشيخ زين الدين عبد الرحمن السنتاوى الذى تولى مشيختها فى شعبان من نفس العام «۱»، و هو آخر من أوردهم السيوطى من شيوخ هذه الخانقاه.

و قد ذكر ابن إياس بعد ذلك تولى عبد القادر بن النقيب مشيختها فى عام ۹۰۳ ه «۲». و فيما أوردنا دلالة على أن هذه الخانقاه ظلت منذ زمن إنشائها و طيلة عهد السيوطى قائمة تؤدى دورها الذى أنشئت من أجله.

و يتضح من أسماء الذين تولوا مشيختها أنهم كانوا من فضلاء أهل العلم و الفقه فى ذلك الحين و لا ريب فى أن ذلك قد جعل من هذه الخانقاه مركزا من مراكز العلم فضلا عن إيواء الصوفية و إقامة شعائرهم، نستطيع أن نذهب إلى ذلك بالرغم من عدم وجود نصوص لدينا تدل على وجود دروس علمية منظمة بها.

خانقاه شيخو «۳»:

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمرى فى حى الصليبة تجاه جامعه فى عام ۷۵۶ ه و رتب بها دروسا عديدة، منها أربعة دروس فى الفقه على المذاهب الأربعة، و درس فى الحديث و درس فى القراءات، و مشيخة لاسماع الصحيحين و الشفاء.

و قد اشترط فى شيخها الأكبر حضور التصوف و تدريس الحنفية و أن يكون عارفا بالتفسير و الأصول و ألا يكون قاضيا.

و أول من تولى مشيختها الكبرى الشيخ أكمل الدين البابرتى، و هكذا يلاحظ (۱) بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۶۰.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۳۲.

(۳) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۲۸۳، السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۹۱، ۱۹۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۴

أن مدرس الحنفية هو الذى كان يتولى مشيختها فى الغالب وفقا لشروط الواقف، و قد أورد السيوطى أسماء جميع من تولى مشيختها الكبرى حتى انتهى إلى الشيخ باكير «۱»، و لم يرد بكتاب السيوطى الذى بين أيدينا بعد الشيخ باكير أحد، بالرغم من أن الذين ولوا مشيختها بعد ذلك كانوا معاصرين للسيوطى و كان بعضهم من شيوخه، فمنهم الشيخ محيى الدين الكافيجى المتوفى عام ۸۷۹ ه «۲»، ثم وليها الشيخ سيف الدين الحنفى المتوفى عام ۸۸۱ ه «۳»، و بعد ذلك وليها الشيخ محب الدين بن الشحنة «۴»، و قد نص السيوطى فى أماكن أخرى على تولى هؤلاء مشيخة الشيخونية «۵». و يبدو أن كتاب حسن المحاضرة الذى بين أيدينا لم يسلم من نقص تعرض له كما لم يسلم من زيادات دخلت فيه، و ما قدمنا دليل على ما نقول، فلعل السيوطى كان حريصا كل الحرص على ذكر أسماء شيوخه و معاصريه الذين تولوا مشيخة الشيخونية، يدل على ذلك ذكره لهم فى أماكن أخر و سنشير إلى هذه النقطة مرة أخرى فى مناسبتها.

و جدير بالذكر هنا أن السيوطى قد تولى منذ وقت مبكر تدريس الحديث بهذه الخانقاه و ذلك فى شعبان عام ۸۷۷ ه «۶»، بعد وفاة فخر الدين المقسمى.

و هكذا يتضح لنا أن خانقاه شيخو كانت تعد مدرسة كبيرة لها وزنها فى المجتمع آنذاك فضلا عما كانت تؤديه من إيواء الطلبة و الصوفية، و قد كان لها أوقاف سخية ينفق منها على شيوخها و طلبتها و سائر مرافقها و قد عظم قدرها و تخرج فيها كثير من أهل العلم، و سنشير إلى هذه الخانقاه عند الحديث عن حياة السيوطى لأن والده كان من صوفيتها و قد تولى تدريس الفقه الشافعى بالجامع

الشيخونى المقابل للخانقاه كما أن السيوطى قد تولى أول وظائفه العلمية بها. (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۳۱۷.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۵۲.

(۳) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۶۸، ۱۶۹.

(۴) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۷۵.

(۵) السيوطى: نظم العقيان فى أعيان الأعيان ترجمة ابن الشحنة ص ۱۷۱.

(۶) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۴۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۵

الخانقاه البيبرسية «۱»:

بناها الأمير بيبرس الجاشنكير فى عام ۷۰۷ ه و أغلقها الناصر بن قلاوون مدة ثم أمر بفتحها، و قد ذكر المقريزى أنها أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا و أوسعها مقدارا و أتقنها صنعة و الشباك الكبير الذى بها هو الشباك الذى كان بدار الخلافة ببغداد و كانت الخلفاء تجلس فيه، و يبدو من وصف المقريزى أنها ضمت من الصوفية عددا بلغ أربعمائة يجرى عليهم من أوقافها ما يكفيهم فى معيشتهم، و مما يذكر أنه كان بها درس للحديث و كان بها مجموعة من القراء و كان لها أوقاف عديدة بدمشق و حماة و بمواضع متفرقة فى مصر.

و يبدو أن أوقافها الواسعة و مبانيها الضخمة فضلا عن كثرة صوفيتها و مدرسيها قد أضفى عليها مسحة من الجلال و العظمة بين سائر المدارس و الخوانق المعاصرة لها و جعل مشيختها منصبا يطمح إليه شيوخ المدارس الأخرى.

و الجدير بالذكر أن السيوطى قد تولى مشيختها بعد وفاة الجلال البكرى و قد ساعده فى بلوغ هذا المنصب الخليفة عبد العزيز «۲»، و كان ذلك فى ربيع الآخر عام ۸۹۱ ه.

و أقام السيوطى فى وظيفته بهذه الخانقاه حتى كانت سلطنة طومان باى و كان بينه و بين السيوطى عداوة فاختفى فى رجب عام ۹۰۶ ه و عزل من وظيفته و قرر فيها الشيخ يس البلبيسى، و سنشير إلى ذلك عند حديثنا من حياة السيوطى، و هذه الخانقاه هى المعروفة الآن بجامع بيبرس بشارع الجمالية بالقاهرة «۳».

و هناك عدد من الخوانق شهدها عصر السيوطى غير ما قدمنا منها خانقاه سرياقوس التى أشار إليها السيوطى عرضا و لم يفرد لها ذكرا مع نصه على أن (۱) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۲۷۶، السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۲۷۶.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۳۶.

(۳) عبد الوهاب حمودة. صفحات من تاريخ مصر ص ۷۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۶

شيخها كان يلقب بشيخ الشيوخ «۱»، و قد جدّد الناصر محمد بن قلاوون عمارتها فى عام ۷۲۳ ه «۲»، و كانت عامرة تؤدى دورها فى حياة السيوطى.

۳- الجوامع:

اشارة

استقر العرف اللغوى على إطلاق «الجامع» على المسجد الذى تقام فيه الجمعة، و «الجامع» فى الأصل وصف للمسجد كان يلفظ به

مقترنا بموصوفه فيقال المسجد الجامع أو مسجد الجامع، ثم حذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه أو حذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه فاستعملت الكلمة وحدها لكل مسجد تقام به الجمعة.

و لم يقتصر الغرض فى إنشاء المساجد عند المسلمين منذ أوائل عهودهم على إقامة الصلوات فحسب و إنما امتد إلى الأغراض العلمية و السياسية.

و قد عرفت مصر فى عصر المماليك عددا ضخما من المساجد قدّرت بالقاهرة على عهد المقريزى بمائة و ثلاثين مسجدا تقام بها الجمعة «۳»، على حين قدرها غيره بأكثر من ألف مسجد «۴». و قد شهد كثير من هذه المساجد ألوانا متنوعة من النشاط العلمى، و قام بالتدريس فيها كبار علماء العصر، و كثيرا ما نرى فى تراجمهم أسماء المساجد التى كانوا يترددون عليها. فالكمال السيوطى كان يدرس الفقه بالجامع الشيخونى المقابل للخانقاه، و ابنه الجلال السيوطى قام بالتدريس فى نفس المسجد مكان أبيه «۵»، كذلك تردد السيوطى على جامع ابن طولون يملى الحديث «۶».

و كان لكل مسجد أوقاف سخية تقوم بسداد احتياجات المسجد و الإنفاق على مرافقه و العاملين به كما تكفل أموال القائمين بالتدريس فيه فى بعض الأحيان. (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۷.

(۲) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۲۸۴، بدائع الزهور ج ۱ ص ۱۶۳.

(۳) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۲.

(۴) خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك ص ۳۱.

(۵) السخاوى: الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۶) أحكام قراقوش ورقة رقم ۱۶۷ و هى رسالة مخطوطة للسيوطى ضمن مجموعة رسائل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۷

و قد أفرد السيوطى فى كتابه «۱»، فصلا للحديث عن جوامع مصر، فذكر أربعة منها هى جامع عمرو و جامع ابن طولون و الجامع الأزهر و جامع الحاكم، و سنشير هنا إلى المساجد الثلاثة الأول باعتبارها دورا للعلم لم تكن تقل شأنا عن المدارس أو الخوانق، بل اننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن بعضها قد بذّ جميع المدارس و تفوق عليها فى ضروب نشاطه العلمى فى بعض الأحيان.

و لم تكن الدراسة بهذه المساجد مقصورة على العلوم الدينية و اللغوية فحسب، بل تعدتها إلى غيرها من العلوم كالطب و الفلك و الحساب و غيرها، و كانت مشيخة الجامع لا سيما إذا كان كبيرا من الوظائف الهامة بالدولة و كانت تسند إلى المبرزين فى العلوم الدينية.

جامع عمرو «۲»:

أسسه عمرو بن العاص بعد فتح مصر و لا يزال قائما إلى اليوم، و قد عنى بتجديده و توسيعه كثيرون من أولى الأمر بمصر، و هو أول مسجد أسس بالديار المصرية و يسمى أيضا بالجامع العتيق.

و قد أفاض السيوطى فى ذكر تاريخه و المعتنين بأمره و القائمين على صيانته، و كانت تعقد به حلقات تدرس فيها شتى العلوم بلغ تعداد هذه الحلقات قبل عام ۷۴۹ ه بضعا و أربعين حلقة لا- تكاد تبرح منه، و كان بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه منها زاوية الامام الشافعى التى يقال إنها عرفت باسمه لأنه درس بها بعد مجيئه إلى مصر، و منها الزاوية الصاحبية رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن بهاء الدين و وقف عليها و جعل لها مدرسين أحدهما مالكى و الآخر شافعى، و من ذلك يبدو أن الحركة العلمية بجامع عمرو كانت قوية نشطة، و يبدو أن النشاط العلمى ظل على حاله بالمسجد فى عهد السيوطى حيث لم يذكر انقطاع هذا النشاط. (۱) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۷۶.

(۲) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۴، حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۷۷، ۱۷۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۸

جامع ابن طولون «۱»:

بناه أحمد بن طولون بالقطائع عام ۲۶۳ ه، و فرغ من بنائه فى عام ۲۶۶ ه، و قد لبث هذا المسجد منارة تشع نور المعرفة و العلم فى مصر زمنا طويلا، و قد اتخذ المسجد طابعه العلمى منذ أول يوم أنشئ فيه إذ خطب فيه أبو يعقوب البلخى و أملى به الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى، و قد قرر به ابن طولون جماعة من العلماء و الفقهاء و أجرى عليهم الرواتب و الصدقات و قد بلغ ما ينفق من الرواتب و الصدقات فى اليوم الواحد ألفا و مائتا دينار و كان هناك «مارستان» ملحق بالمسجد لايواء المرضى و الضعفاء «۲».

و قد لقى المسجد عناية السلطان لاجين الذى تولى عام ۶۹۶ ه بعد أن ناله غبار الاهمال فوقف عليه السلطان أوقافا ثمينة و رتب فيه دروسا عديدة للحديث و التفسير و الفقه على المذاهب الأربعة و القراءات و الطب و الميقات.

و قد عدد السيوطى أسماء الذين تولوا نظر المسجد منذ اعتنى به السلطان لاجين فكان بعض نظاره من أمراء المماليك و بعضهم من القضاة، و استقر الأمر بأن يلى القضاة نظره و هو ما كان فى عهد السيوطى إذ يذكر أن نظره عاد «إلى القضاة بعد الصفوى و هو بأيديهم إلى اليوم» «۳»، و قد سبقت الاشارة إلى أن السيوطى كان يختلف إلى هذا الجامع يملى به الحديث.

الجامع الأزهر:

أنشأه بالقاهرة القائد جوهر الصقلى مولى المعز لدين اللّه الفاطمى و قد تم بناؤه فى رمضان عام ۳۶۱ ه، ثم جدده الحاكم بأمر اللّه و وقف عليه أوقافا.

و كانت الحكمة واضحة فى إنشاء هذا المسجد لأن الدولة الفاطمية دولة الشيعة الامامية و قد عملت على نشر مذهبها فأقامت هذا المسجد، و قد مكث يتمتع برعاية الدولة الفاطمية طيلة عصرها مسجدا لإقامة الشعائر و معهدا (۱) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۰- ۱۸۳.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۱ ص ۳۸.

(۳) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۶۹

تدرس فيه العلوم المختلفة. و لما تولى صلاح الدين أبطل الجمعة بالجامع الأزهر و أقرها بالجامع الحاكمى غير أن صفة المسجد العلمية ظلت قائمة فكان مقصد كثير من العلماء المبرزين و مستقرهم زمن الأيوبيين و قد لبثت الجمعة مطلة بالمسجد حتى أيام الظاهر بيبرس «۱»، و قد كان للجامع أهمية كبيرة فى عصر المماليك كما قام بدور كبير فى الحياة الثقافية فى تلك الأيام بالرغم من المنافسة القوية بين المدارس و الجوامع المختلفة فى اجتذاب العلماء و الطلبة إليها.

و قد بلغ عدد الفقراء الذين أقاموا به أوائل القرن التاسع الهجرى سبعمائة و خمسين رجلا من مختلف البلاد، و كان لكل طائفة رواق يعرف بهم و يشتغلون فيه بالعبادة و العلوم الدينية، كما قصده كثير من الناس بألوان البر إعانة لطلبته «۲»، و قد أبدى سلاطين المماليك عناية خاصة بالجامع الأزهر فكانت الأحباس و الهبات الثابتة تتوالى على الجامع و طلبته، و كان أكثرهم تحمسا السلطان قايتباى معاصر السيوطى الذى قام بتجديد المسجد و إصلاحه و أنفق عليه الأموال، و أنفق على طلبته «۳».

و هكذا فلقد كان القرن التاسع الهجرى عصر الأزهر الذهبى حيث شهد الجامع عددا كبيرا من العلماء فى كل علم و فن، و إذا كان هذا القرن يمثل نهاية ازدهار العلوم و تنوعها و اتساع آفاقها و كثرة العلماء المبرزين فى كل علم فلقد كان بينهم كثيرون يترددون

على الجامع الأزهر لالقاء الدروس أو الخطب و يكفى أن الحافظ ابن حجر فى أوج مكانته العلمية قد تولى الخطابة بالأزهر مدة طويلة «۴».

و المتتبع لتراجم رجال هذا القرن التى كتبها معاصروهم يرى حرصهم على ذكر وظائف التدريس التى تولوها بالجوامع و المدارس و الخوانق دون تفرقة، إذ كانت كلها من الوظائف الجليلة التى يخلع السلطان على صاحبها، كما يلاحظ (۱) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۸۳، ۱۸۴.

(۲) المقريزى: الخطط ج ۴ ص ۵۳، ۵۴.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۶۹.

(۴) السخاوى: التبر المسبوك ص ۲۳۱، عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر ص ۸۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۰

كثرة هذه الدور التى كانت بمثابة معاهد علمية عالية الشأن، و ثمة ملاحظة ثالثة يمكن إدراكها و هى أن شهرة العالم و مواهبه كانت تجعله أهلا لأن يجمع فى يده أكثر من وظيفة واحدة فنراه يلى مشيخة مدرسة ما و يدرس إحدى مواد الدراسة بغيرها، و يختلف إلى أحد الجوامع لإلقاء بعض الدروس و نحو ذلك.

كما نرى منهم من ولى التدريس بالجامع الطولونى و الجامع الحاكمى و مدرسة السلطان حسن و الشيخونية و الجمالية و المؤيدية و الأشرفية و غيرها «۱»، و نرى عالما كبيرا طبقت شهرته الآفاق كابن حجر تسند إليه وظائف تدريس الحديث بالشيخونية و بجامع القلعة و بالجمالية و البيبرسية، و يسند إليه تدريس الفقه بالمؤيدية و الشيخونية إلى غير ذلك من وظائف القضاء التى تولاها.

و فيما أوردنا دليل على كثرة معاهد الدرس و تنوعها و العناية العظيمة التى لقيتها فى هذا العهد، كما كانت وظائف التدريس بمكانتها المرموقة فى المجتمع حافزا للعلماء على الإجادة و الاجتهاد فى علومهم فضلا عن الحوافز الدينية المخلصة التى وجدت عند كثيرين منهم و التى دفعتهم إلى الانتاج فى العلوم الدينية و اللغوية حسبة للّه و رغبة فى ثوابه فلا عجب أن تقوى الحركة العلمية فى ذلك العصر و أن تبلغ أوج ازدهارها فى أواخره أى فى الفترة التى عاش فيها الجلال السيوطى، حيث شهدت هذه الحقبة من الزمن عددا ضخما من العلماء فى كل فن.

بالاضافة إلى ما سبق كانت هناك عوامل عديدة سبقت الاشارة إلى بعضها ضمنا و إلى بعضها تصريحا، ساعدت هذه العوامل على نشاط الحركة الثقافية و ازدهارها أولها انتقال النشاط العلمى إلى القاهرة بعد سقوط بغداد، و قد بينا من قبل مكانة القاهرة فى العالم الاسلامى بعد سقوط الخلافة فى بغداد و انتقالها إلى القاهرة، و كان لما قام به التتر من تخريب بغداد و تبديد الكتب الاسلامية و إلقائها فى دجلة و قتل كثير من العلماء أثره البالغ فى نفوس علماء عصر المماليك بصفة عامة إذ شعر هؤلاء بأن عليهم تبعة كبيرة و رأوا أنفسهم مسئولين أمام اللّه (۱) السيوطى: نظم العقيان فى أعيان الأعيان ترجمة عز الدين العسقلانى ص ۳۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۱

تعالى عن دينه و أمام التاريخ و أمام ضمائرهم عن إنهاض العلم و إقالة عثاره و جمع ما تفرق منه فدفعهم هذا الشعور إلى الجد فى العمل و التحصيل، و كان لهذا الشعور نفسه أثر فى ظاهرة شاعت فى مؤلفات ذلك العصر و هى ظاهرة الموسوعات العلمية.

و قد اجتذبت البيئة المصرية و عاصمتها القاهرة بما لها من مكانة إسلامية و حضارة مزدهرة و ما بها من تشجيع للعلم و أهله كثيرا من العلماء و الطلاب الذين هوت أفئدتهم إليها من مختلف بلدان العالم الاسلامى، و قد ظل وفود هؤلاء العلماء إلى مصر مستمرا طيلة عصر المماليك، و من هؤلاء ابن مالك الأندلسى و ابن أبى حجلة المغربى، و ابن خلدون و كثيرون غيرهم ممن وفدوا على البلاد و ازدهرت بهم الحياة العلمية بها. و قد وصف ابن خلدون نشاط الحركة العلمية بالقاهرة و علل هذه الظاهرة تعليلا دقيقا فقال: «و نحن لهذا العهد نرى أن العلم و التعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، و حضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين،

فاستحكمت فيها الصنائع و تفننت، و من جملتها تعلم العلم، و أكد ذلك و حفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب و هلم جرا و ذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، و لما يخشى من معاطب الملك و نكباته، فاستكثروا من بناء المدارس و الزوايا و الربط، و وقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها، أو نصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير، و التماس الأجور فى المقاصد و الأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، و عظمت الغلات و الفوائد و كثر طلب العلم و معلمه، بكثرة جرايتهم، و ارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق و المغرب، و نفقت بها أسواق العلوم، و زخرت بحارها، و اللّه يخلق ما يشاء» «۱».

و لئن كان هذا الوصف الدقيق صادقا على القرن الثامن الهجرى الذى عاش (۱) ابن خلدون: المقدمة ص ۴۳۴، ۴۳۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۲

فيه ابن خلدون فلقد كان القرن التاسع الهجرى الذى عاش فيه السيوطى وارثا لحضارة القرن السابق عليه مع ما فيه من زيادة عليه ما يعطى صورة للحركة الثقافية المزدهرة فى تلك الأيام.

و لا ننسى ما كان لتشجيع السلطان و الأمراء من أثر فى ازدهار الحياة العلمية فقد حرص ولاة الأمر على إظهار غيرتهم على الاسلام و المسلمين فى كثير من الأحيان، كما شجع كثير منهم العلماء و أغدق عليهم و أقام لهم المدارس و الخوانق و المساجد، كما وجد العلماء- كما سبق أن أشرنا فى الحديث عن طبقات المجتمع- كثيرا من مظاهر التكريم و الحفاوة و كان لهم كلمة مسموعة بالبلاد، و قد تولوا كثيرا من المناصب الهامة بالدولة لا سيما مناصب القضاء و دواوين الانشاء و التدريس.

كما أن إنشاء دور الكتب الجديدة التى ألحقت بالمدارس و المساجد و الخوانق كان له أثره فى نشاط الحركة العلمية، فقلّ أن تجد دارا للعلم لا يلحق بها خزانة للكتب.

و قد عنى السلاطين و الأمراء و منشئو المدارس باختيار مدرسيها من بين العلماء الأفذاذ المعروفين فى عصرهم، و لذلك فقد كانت وظائف التدريس فى المدارس المشهورة محتفظة- فى الغالب- بمكانتها العالية فى المجتمع.

و قد كان لتنافس العلماء فى سبيل بلوغ المناصب الهامة المتاحة لهم أثره المباشر فى نشاط الحركة العلمية، إذ كان على كل طامح إلى أحد المناصب أن يسعى إلى مطمحه من ناحية العلم أولا فكان عليه أن يتتلمذ و ينتقل من شيخ إلى شيخ و أن يدأب على الدرس و المطالعة و الحفظ، و أن يلم بشتات من علوم عدة، ثم عليه أن يتصدى للتدريس و الفتيا بعد ذلك و أن يتصدى للنفع العام بعلمه فإذا ذاع صيته و كثر ذكره دعى من قبل الملوك و الأمراء إلى تولى المناصب الكبيرة، و إذا لم يدع فإن من اليسير عليه أن يسعى لديهم بواسطة أحد أولئك الأمراء أو الأعيان فى سبيل بلوغ حاجته.

و هكذا نشطت الحركة العلمية فى العصر الذى نتحدث عنه، و كان لنشاطها

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۳

مظاهر ثلاثة أولها: وفود الطلبة إلى دور التعليم. و ثانيها: كثرة العلماء و الأدباء، و ثالثها نشاط الحركة التأليفية «۱»، و سنشير هنا إلى كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة:

[نتائج نشاط الحركة العلمية]

۱- وفود الطلاب إلى معاهد العلم:

كان للعناية البالغة بدور التعليم أثره الكبير فى اجتذاب الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين وجدوا البيئة المهيأة للاقامة و المعينة على التفرغ لطلب العلم، و لم تقتصر المدارس كما أشرنا من قبل على الطلبة المنتظمين بها و المنقطعين للعلم مقابل ما يجدونه من أموال

الأوقاف، و إنما امتدت لتشمل عددا كبيرا من طلبة العلم الذين يتفرغون من أعمالهم بين حين و آخر و يحضرون من الدروس ما يشاءون حضوره مما تتيحه لهم أوقات فراغهم و بهؤلاء و هؤلاء زخرت المدارس و المساجد و الخوانق و جميع معاهد العلم، و كان لذلك أثره فى نشر الثقافة و المعرفة.

۲- كثرة العلماء و الأدباء:

زخر العصر بعدد وافر من العلماء فى شتى العلوم: فى الفقه على المذاهب الأربعة، و فى علم الكلام و التصوف و اللغة و النحو و الأدب و الطب و التنجيم و التاريخ و الفلك و غير ذلك من العلوم.

و قد قام كثير من هؤلاء العلماء بالفتوى و التدريس و الوعظ و التأليف و شغلوا مناصب القضاء و الكتابة و ما إليها فنتج عن ذلك حركة فكرية نشطة سنرى شواهد عليها عند الحديث عن حياة السيوطى و ما شهده عصره من منازعات فكرية و منافسات بين العلماء.

و كانت هناك مناظرات بين كثير من العلماء فى شتى الموضوعات، كما كانت هناك رسائل ألفها بعضهم ردا على أقرانه.

و قد شجع السلطان الغورى- و هو آخر السلاطين الذين عاصرهم (۱) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ص ۸۷ و ما بعدها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۴

السيوطى- المناظرات العلمية بين العلماء فى مجالسه التى تعوّد عقدها يومين كل أسبوع «۱».

۳- نشاط الحركة التأليفية:

و هى أهم مظاهر النشاط العلمى و أهم نتائجه كذلك و أبقاها، فلقد أنتج علماء هذه الحقبة آلافا من الكتب فى مختلف ألوان المعرفة، و قد عرف عن بعضهم أنه ألف مئات من الكتب وحده كابن تيمية الذى قيل إن مؤلفاته أربت على خمسمائة، و ابن حجر الذى زادت مؤلفاته على مائة و خمسين، و السيوطى الذى وصلت مؤلفاته إلى نحو ستمائة.

و كانت هذه الكتب تملأ خزائن العصر، و قد ضاع عدد كبير منها بعد فتح العثمانيين لمصر و خمود الحركة العلمية بالبلاد، و نقل كثير من الكتب إلى القسطنطينية.

و الذى يعنينا أن هذا العصر قد شهد مجموعات من الكتب الضخمة التى وضعت به فى كل ناحية من نواحى المعرفة، و كنا نود أن نشير إلى بعض هذه الكتب فى شىء من الايجاز لا سيما ما تناول منها التاريخ بفروعه و الحديث و مصطلحه و اللغة و النحو و الفقه و التصوف، و لكننا نكتفى دفعا للاطالة و تجنبا للاستطراد بأن نذكر هنا أن هذه الفروع و غيرها من فروع المعرفة قد حظيت بعدد ضخم من الكتب التى وضعت فيها و كانت بمثابة مراجع للطلاب و الشيوخ، و نكتفى بالاحالة إلى ما ذكره محمود رزق سليم عن مؤلفات هذا العصر فى التاريخ و ما يتصل به من تراجم و سير و كتب عن المدن و الأمصار و الخطط «۲»، و ما ألف فى فقه المذاهب الأربعة «۳»، و ما ألف فى التفسير و ما يتصل به «۴»، و فى الحديث و مصطلحه «۵»، و فى التصوف و العقائد و ما ألف فى القراءات (۱) عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى: مقدمة الكتاب.

(۲) عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ۹۲- ۱۲۵.

(۳) المصدر السابق، المجلد الثالث ص ۱۲۶- ۱۳۸.

(۴) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ۱۳۹.

(۵) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ۱۴۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۵

و النحو و الصرف و علوم العربية و فى العلوم الكونية، ثم ما ألف من كتب جامعة «۱».

و لا نرى داعيا لتكرار ما سبق إليه الباحث و نكتفى بالاحالة إليه، و يكفينا أن نخلص إلى أن العصر قد شهد حركة تأليفية و عرفت خزائن الكتب آلافا من الكتب المتنوعة فى شتى فروع المعرفة لا سيما الفقه و الحديث و اللغة و النحو.

و مما يؤسف له أن كثيرا من هذه الكتب رغم قرب عهدها منا قد ضاع و اندثر و لا نجد له ذكرا فى فهارس المكتبات المصرية مخطوطا أو مطبوعا، على أن كثيرا مما تبقى لا يزال إلى اليوم مخطوطا لم تمتد إليه يد النشر.

و يمكننا أن نذكر عدة ملاحظات عامة على التأليف و المؤلفات فى ذلك العصر نجملها فى النقاط التالية:

[منهج التاليف فى العصر]

۱- الاتجاه الموسوعى:

اتجه المؤلفون إلى وضع موسوعات علمية تجمع أشتاتا من علوم مختلفة، و يستطرد المؤلف فيها إلى كثير من الميادين حسب المناسبات، فنرى فيها التقويم و التاريخ و الأدب شعرا و نثرا إلى جانب الفكاهة أو الحديث عن الحيوان و النبات أو الحديث فى الطب و ما شاكل ذلك و هى فى جملتها تفى بجمع المعلومات المختلفة و الحقائق المتفرقة، و النصوص المتباعدة المبعثرة التى تجمعها أدنى جامعة، و يربط بينها رباط يبدو واهيا، و يظهر فيها الاستطراد و التسلسل من موضوع إلى موضوع.

و يدل وضع هذه الموسوعات على سعة علم واضعيها و مقدار اطلاعهم الواسع و صبرهم على تدوين ما لديهم من العلوم و تنسيقه، و ليس وضع الموسوعات عملا آليا خاليا من الجهد العقلى كما يتهم أصحابه بذلك من قبل بعض المحدثين، و إن كان يؤخذ على هذه الطريقة خلطها بين المواد العلمية المختلفة و قلة العناية بوحدة الموضوع فإننا لا نستطيع أن ننكر ما لها من فوائد فى حفظ هذه العلوم و الأفكار من الضياع. (۱) نفس المصدر، المجلد الثالث ص ۱۴۶- ۱۷۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۶

و لعل الدافع إلى وضع هذه الموسوعات و الإكثار منها هو شعور علماء العصر بمسئوليتهم تجاه المسلمين فى المشرق و المغرب بعد سقوط بغداد و ضياع كثير من كنوزها العلمية على أيدى التتر.

على أن كثيرا من المؤلفات التى وضعت فى ميدان من ميادين المعرفة لم تخل من أثر الاتجاه الموسوعى فى منهج تأليفها فنجد فيها الاستطراد إلى موضوعات خارجة، و التسلسل من موضوع إلى غيره، و هناك كثير من كتب اللغة و الحديث و التاريخ و النحو و الأدب لم تسلم من أثر النزعة الموسوعية إن قليلا و إن كثيرا و أشهر الكتب التى يتضح فيها الاتجاه الموسوعى هى:

أ- لسان العرب: و هو المعجم اللغوى المشهور الذى ألفه ابن منظور المتوفى عام ۷۱۱ ه، و فيه إلى جانب اللغة تطرق إلى كثير من مواد المعرفة.

ب- إرشاد السارى إلى شرح البخارى لشهاب الدين القسطلانى المتوفى عام ۹۲۳ ه و هو من معاصرى السيوطى، و فى كتابه إلى جانب شرح الحديث بحوث تاريخية و فقهية و تطرق إلى موضوعات شتى، و الكتاب فى عشر مجلدات.

ج- فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ۸۵۲ ه، و هو كتاب ضخم و فى ثناياه بحوث فقهية و تاريخية.

د- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء لشهاب الدين القلقشندى المتوفى عام ۸۲۱ ه، و هو فى عشرين مجلدا و فيه استطرادات تاريخية و تراجم و نصوص أدبية و تطرق إلى كثير من الموضوعات المتنوعة.

إلى غير ذلك من الكتب التى يضيق المقام هنا عن ذكرها و إنما مثلنا بما قدمنا منها، و سنرى عند الحديث عن مؤلفات السيوطى أثر هذه النزعة الموسوعية فى مؤلفاته.

۲- ظاهرة التقليد:

يبدو أن كثرة المؤلفات التى وضعت فى هذه الحقبة و ذيوع شهرة بعضها جعلت كثيرا من المؤلفين يتجهون إلى تقليد ما اشتهر منها لدى أشياخهم، و لهذا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۷

التقليد فى التأليف صور عديدة فقد نرى التقليد فى تسمية الكتاب، أو فى أسلوب التأليف، و قد يبدو التقليد واضحا حين يكون فى الموضوع باعتماد المؤلف على كتاب أو عدد قليل من الكتب السابقة اعتمادا ظاهرا فى مؤلفه الجديد دون إشارة إليها أو بإشارات قليلة بحيث يدرك الباحث مدى اعتماد المؤلف اللاحق على السابق.

۳- ظاهرة المتون و الشروح:

كانت هذه الظاهرة نتيجة للحركة التثقيفية النشطة بالبلاد، فقد اتجه الشيوخ تيسيرا على طلابهم إلى وضع المتون التى تجمع مسائل الموضوعات فى قليل من اللفظ حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريق و فى زمن قليل، و قد غلا بعضهم فى الايجاز و فى ضغط العبارة فى هذه المتون حتى بلغت حد الرموز فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب و احتاجت إلى شروح، فوضعت لها كتب شارحة ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفصيلا تشرح الكتب الشارحة، و من ثم تعددت الشروح التى تتناول المتن الواحد ما بين شرح مطول و آخر يميل إلى الايجاز كما نظمت كثير من العلوم فى منظومات تعليمية احتاجت أيضا إلى وضع الشروح لها.

و قد استفرغت المتون و الشروح و المنظومات التعليمية جلّ مجهود قرائح العلماء فى ذلك العصر، بل أصبح وضع هذه الأنواع يبدو فى كثير من الأحيان تمرينات عقلية يريد بها الشيوخ إثبات مقدرتهم على التأليف و لكى يزداد عدد ما أنتجوا من كتب.

و هكذا فقد امتلأ العصر بالمتون و الشروح نثرا و نظما، فللمؤلف الواحد متن و شرح و هو بدوره يتناول متون السابقين و منظوماتهم بالشرح و البيان، و لعل أشهر المنظومات التى لقيت عناية الشارحين فى ذلك العصر هى ألفية ابن مالك فى النحو.

ثم نرى إلى جانب ذلك الحواشى و التعليقات التى يتكفل بها كثير من العلماء على الشروح السابقة أو يضعها واضعوها الأصليون، و سنرى جميع هذه الصور

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۸

من المؤلفات فى إنتاج السيوطى، على أن الاتجاه إلى الإكثار من الحواشى و التعليقات و التقريرات قد ازداد بعد ذلك العصر و كان الاتجاه السائد فى مؤلفات العصر العثمانى بمصر.

و قد كان هذا الأسلوب الذى بيناه فى مؤلفات عصر السيوطى يمثل ظاهرة واضحة و عرفا متبعا فى التأليف لا يحيد عنه المؤلفون، و ربما دفعهم التمسك بالشكل المنهجى إلى وضع المتون و الشروح و المنظومات فيما لا تدفع إليه حاجة عملية، و لكن هكذا درجوا و على هذا المنهج ساروا كما هو عرف التأليف فى عصرهم.

و قد كان لهذا المنهج فى التأليف أثره الخطير فى الإنتاج العلمى لهذا العصر، فقد ضاع جهد المؤلفين و استفرغت ثمار أذهانهم فى نظم المنظومات التعليمية التى احتذوا فيها حذو سابقيهم، و ربما زادوا عليهم ما لم يذكروه، و ربما لم يزيدوا شيئا له قيمته العلمية، كما تبددت جهودهم فى الاختصار و التطويل و الجمع و التنظيم و التبويب و التقسيم.

و لعل طابع الزخرفة و التنسيق الذى ظهر فى فنون العصر و أثر فى الشعر و النثر و طبع الأدب بصنعة متكلفة ثقيلة، هذا الطابع ظهر أثره فى المؤلفات العلمية و فى طريقة وضعها و تصنيفها بحيث نجد الاهتمام الأول لدى المؤلف ينصب على التنظيم و التبويب فى مؤلفه، و قد يبتكر تنظيما لم يسبق إليه فى علم من العلوم.

على أن هذا الاهتمام بالناحية الشكلية فى المؤلفات لم يقض قضاء تاما على الاهتمام بالقيمة العلمية فى المؤلفات، و لم يصرف

المؤلفين فى بعض الأحيان عن التجديد و الابتكار. و الحقيقة أنه من العسير أن نجزم بطرافة بعض الأفكار و أوليتها لدى مؤلف من مؤلفى ذلك العصر، أو أن نجزم بأن صاحب المؤلّف هو أول من طرق فكرة ما أو نبه إلى حقيقة من الحقائق العلمية وسط هذا الركام الضخم من الكتب التى وجدت آنذاك، و التى وصل إلينا بعضها و كثير منها لم تنله أيدينا. غير أنه فى إمكاننا أن نقرر أن عالما ما هو الذى اتضحت لديه فكرة معينة لم تتضح لدى سابقيه أو أنه هو الذى طرق بابا من الأبواب يظن أن غيره لم يعمد إلى طرقه.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۷۹

و لكن هناك أمرا لا ينبغى أن نغفله و هو التجديد فى التصنيف و التبويب فى العلوم، فليس هذا عملا شكليا بحتا كما قد يتوهم لأول وهلة، بل إنه عمل تمليه عقلية علمية لها صفات تميزها عن غيرها، و تتجه بها وجهة فريدة فى نوعها، بالاضافة إلى ما نجده لأصحاب هذه الكتب من الأفكار المبتكرة بين حين و آخر، و سنشير إلى ذلك فى حديثنا عن مؤلفات السيوطى، و مهما يكن من شىء فإن هذه المؤلفات بطريقة وضعها تدل على مقدرة علمية كبيرة، و قدرة على الفهم و التحصيل عميقة، كما تدل فى أحيان كثيرة على المقدرة الفائقة على تمثل أفكار السابقين و استيعابها و إخراجها فى صورة جديدة. و ليس من الانصاف أن نصف هذه الكتب بالتقليد و الجمع دون تمحيص و نرمى أصحابها بأنهم محتطبون جماعون ليس لهم من الجهد العقلى شىء إذ تبدو كتبهم خالية من الابتكار، ذلك أن وضع هذه الكتب على محك النقد الصحيح الذى يضع فى اعتباره الحقائق العلمية فى المرتبة الأولى، ثم حالة العصر العقلية و منهجه فى التأليف فى المرتبة الثانية، يجعلنا نعيد النظر فيما يلصق بهذه المؤلفات و أصحابها من اتهامات. لقد كان تأثر التأليف بروح الحفظ التى شاعت فى العصر و التى تأثرت بحفظ الحديث، ثم تأثر المؤلفون بمنهج المحدّثين فى النقل ذا أثر كبير فى أن تعج المؤلفات بروايات عديدة و أسانيد تملأ أرجاءها بحيث يبدو كثير من المؤلفات مجموعات من النقول حشد كل منها إلى جوار الآخر. و لقد كان من الميسور على كثير من المؤلفين أو على بعضهم- إذا لم يقدروا الأمانة العلمية و يتبعوا المنهج العلمى الصحيح- أن يرسلوا القول فيما يؤلفون دون إشارة إلى من ينقلون عنه مع تغيير فى العبارة حتى يتوهم القارئ أن هذه الأفكار لمن يقرأ لهم لا لمن ينقلون عنه و لن يتنبه لحقيقة الأمر إلا قلة من الممحصين، فلا ينبغى أن يكون الحرص على الأمانة فى النقل دافعا لأن نصف هذه الكتب من قبلنا بخلوها من الابتكار، و بانصرافها إلى الجمع و الترتيب دون تمحيص لما ينقلون، و إنما المنصف من القول أن نذكر ما عليه أصحابها من مقدرة علمية كبيرة على التمثل و التحصيل و التنسيق فى العلوم، ثم ما لهم من فضل فى حفظ كثير من الأفكار و النقول منسوبة إلى أصحابها الأوائل، ثم نتتبع بعد ذلك ما ذكروه من حقائق علمية نقلوها عن غيرهم، فما أقروهم عليه منه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۰

فهو يدل على عقلية فالاختيار يدل على عقل صاحبه، و ما عارضوا سابقيهم فيه له نفس الدلالة، كما يمكننا أن نتتبع ما ذكروه من تعليقات على ما نقلوه من النصوص، و سنثير هذه المسألة مرة أخرى عند بحث الجانب اللغوى عند السيوطى و هو ما يهتم به البحث.

ذلك أن بعض هؤلاء كانت له فى بحوثه شخصية و قوة تشعرنا بعمق الفهم و كمال الادراك و حسن التوجيه و التعليل.

و فى كثير من ميادين البحث: فى الحديث و أصوله، و فى اللغة و النحو و الفقه و أصوله و غيرها من العلوم نبغ فى هذه الحقبة لا سيما فى مصر رجال كانت لهم اليد الطولى فى إرساء قواعد هذه العلوم و استقرارها و لم تخل بحوثهم من جدة و حسن اختيار و شخصية تظهر بوضوح خلال البحث.

۴- الاكمالات و التذييلات:

قريب من المتون و الشروح ما نراه من إكمالات و تذييلات، و هى ظاهرة شاعت فى مؤلفات ذلك العصر لا سيما فى كتب التراجم و التاريخ، و قد أفادت هذه الظاهرة العلم بأن وصلت حلقات الزمن المختلفة و حفظت لنا كثيرا مما كان مهددا بالضياع، فنرى على سبيل المثال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى عام ۶۸۱ ه و به أكثر من ثمانمائة ترجمة بينها تراجم بعض أعيان القرن السابع، نرى

ذلك الكتاب و قد ذيّله عالم متأخر هو ابن شاكر الكتبى المتوفى عام ۷۶۴ ه بوضعه كتاب فوات الوفيات الذى ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن.

و نجد هذه الظاهرة فى بعض كتب التاريخ التى أكملها بعض المتأخرين لوفاة مؤلفيها السابقين كما صنع أبو المحاسن فى كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ جعل كتابه ذيلا- لكتاب السلوك للمقريزى فيبدأ فيه من حيث انتهى المقريزى فى سلوكه عام ۸۵۶ ه، و به تاريخ مصر مدة اثنى عشر عاما مع كثير من التراجم، و سنرى اتباع السيوطى أيضا لهذا العرف عند إكماله التفسير الذى وضعه جلال الدين المحلى فقد أكمله على نفس المنهج و التنظيم

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۱

الذى اتبعه المفسر السابق.

و المتتبع لكتب الطبقات يجدها حلقات يكمل كل منها الآخر، فهناك طبقات لمشاهير القرن السابع يضعها البرزانى المتوفى عام ۷۳۹ ه، و الأدفوى المتوفى عام ۷۴۸ ه، يليها طبقات لرجال القرن الثامن يضعها ابن حجر العسقلانى (۸۵۲ ه) معتمدا على الصلاح الصفدى (۷۶۴ ه) سابقه و مضيفا إليه ما فاته.

ثم هناك طبقات لرجال القرن التاسع يضعها السخاوى (۹۰۲ ه) و السيوطى كذلك، هذا على سبيل التمثيل فضلا عن عديد من كتب الطبقات التى ترجمت لرجال كل علم على حدة، أو ترجمت لرجال مصر من الأمصار، و قد أنتج السيوطى مجموعة من هذه التراجم ترجم فيها لكل طائفة فى كتاب مستقل و سنشير إليها فيما بعد.

و بصفة عامة فإن هذا المنهج فى التأليف بما شاع فيه من ظواهر و ما استقر فيه من أعراف قد خلف لنا عديدا من المختصرات و المتون و الشروح و المنظومات و التذييلات و الاكمالات و الحواشى و التعليقات.

و قد حظيت بعض المؤلفات بكثير من الشروح و التعليقات، و اعتمد عليها المدرسون فى دروسهم و لقيت رواجا بين الطلبة، يتضح ذلك من تتبع تراجم كثير من رجال العصر إذ يرى الناظر أن أكثر الكتب المدروسة بين الطلبة ذكرا هى الكافية لابن الحاجب فى النحو و قد حظيت بشروح عديدة و مختصرات متنوعة، كذلك ألفية ابن مالك و كتاب الملحة فى النحو أيضا، و فى الفقه و أصوله المنهاج الأصلى و المنهاج الفرعى و هما للنووى، و مختصر القدورى و جمع الجوامع، و فى اللغة فصيح تعلب، و فى الحديث ألفية العراقى و الأربعون حديثا النووية، و صحيح البخارى و صحيح مسلم، و الشاطبيتان فى القراءات، و العمدة للنسفى فى العقائد، و سنرى فى ترجمة السيوطى حفظه لكثير من هذه الكتب فى مقتبل حياته العلمية.

۵- تنظيم العلوم و استقرار المصطلحات:

نلاحظ فيما أنتجه العصر من مؤلفات ظاهرة واضحة تبدو فى جميع ميادين

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۲

البحث تقريبا، فهناك أولا محاولات عديدة لتنظيم العلوم و تقسيمها و التعريف بها و بمصطلحاتها و قد ألف فى ذلك مؤلفات كان هدفها- على ما يبدو- أن تتيح للمتخصصين من أبناء كل علم أن يلموا بأطراف من العلوم الأخرى و أن يعرفوا عنها ما يريدون معرفته فى وقت يسير، و حين أتى السيوطى و وجد قبله مجموعة من هذه الكتب فإنه على عادته أراد أن يدلى بدلوه بين الدلاء فألف كتابه «إتمام الدراية لقراء النقاية» و يسمى أيضا «الأصول المهمة فى علوم جمة» و قد عرف فيه بأربعة عشر علما ذاكرا مبادئها و أصولها الأساسية. و نلاحظ أيضا استقرار مصطلحات العلوم فى ذلك العصر، و يمكن إدراك ذلك مثلا فى علم النحو بمقارنة ما وضع فى ذلك العصر من كتب مثل الكافية لابن الحاجب و الألفية لابن مالك و شروحها العديدة لكثير من رجال العصر كابن الصائغ (۷۷۷ ه)، و البابرتى (۷۸۶ ه) و ناظر الجيش (۷۷۸ ه)، و ابن عقيل (۷۶۹ ه)، و السيوطى (۹۱۱ ه)، و غير ذلك من الشروح لنجد أن

المصطلحات النحوية لا تتغير بين نحوى و آخر، فهى مستقرة متعارف عليها لديهم، و قد ندرك ذلك بوضوح إذا ما قارنا هذه الكتب بكتاب سيبويه و ما وضع فى النحو من الكتب الأولى، إذ يتضح لنا تغير اصطلاحات المتأخرين عن اصطلاحات السابقين فى بعض المواضع، ذلك أن المصطلحات النحوية كانت إلى عهد سيبويه و معاصريه من الكوفيين كالفرّاء لم يكتب لها الاستقرار و الثبات، كما أن علم النحو إلى عهده كان علما غضا لم يتم نضجه بعد، أما عند هؤلاء فقد نضج و احترق، و نستطيع إدراك ذلك أيضا فى كثير من العلوم الإسلامية إذ كانت فى ذلك العصر فى طور نضجها و كمالها.

۶- العناية بتاريخ مصر:

عنى مؤرخو العصر بالكتابة عن تاريخ مصر بعامة و تاريخ القاهرة بخاصة، و قد بدأت هذه العناية عند المصريين قبل عصر المماليك، و قد اتضحت هذه الظاهرة فى هذا العصر فظهرت موسوعات تاريخية ضخمة لتاريخ مصر و قاهرتها و أهم هذه المؤلفات:

۱- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى المتوفى عام ۸۴۵ ه، و هو تاريخ

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۳

مصر من عام ۵۷۷ ه- إلى عام ۸۴۴ ه مرتبا حسب السنين.

۲- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ۸۷۴ ه، و هو فى تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى حتى عام ۸۵۷ ه.

۳- حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور لأبى المحاسن و قد جعله ذيلا لكتاب السلوك للمقريزى فيبدأ به من حيث انتهى المقريزى فى سلوكه عام ۸۵۶ ه كما بينا.

و هنا عديد من الكتب غير ذلك، و يأتى السيوطى فيؤلف فى التاريخ كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة» و من بعده يضع ابن إياس كتابه المشهور «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» و يؤرخ فيه حوادث مصر حسب ترتيب السنين، و تمتد به الحياة حتى يشهد نهاية ذلك العصر و دخول العثمانيين مصر فيؤرخ فترة من حكمهم.

و يبدو أن هذه النزعة فى التأريخ لمصر كانت وليدة حب المؤلفين لمصر و لكونها أصبحت فى هذا العهد ممثلة للزعامة الاسلامية بعد سقوط بغداد و انتقال الخلافة إليها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۴

الحياة الأدبية

اشارة

لست هنا بصدد دراسة الحياة الأدبية دراسة متعمقة فذلك أمر يطول شأنه و يحتاج إلى بحث مستقل، و إنما مقصودنا أن نعرض لهذه الحياة عرضا نستجلى به صورتها العامة و الشكل الذى كانت عليه فى عصر السيوطى، و نتعرف على الأنواع الأدبية من الشعر و النثر فى ذلك الحين، و تجنبا للاطالة فإننا نكتفى بعرض سريع نتبين فيه الملامح العامة للنشاط الأدبى.

و قد حرم الشعر و الشعراء فى هذه الفترة الحفاوة التى وجدها أسلافهم القدماء، ذلك أن رجال الدولة و كبراءها كانوا من الأتراك الذين لا تهتز أعطافهم للأشعار العربية على الرغم من أن لغة الدولة العربية و لغة العلم هى العربية كذلك.

لذلك لا نجد من الشعراء من اتصل بالدولة أو بالسلاطين، و إنما اندس هؤلاء بين الناس و تناولوا حرفهم.

و قد كان شعر هذه الفترة تقليدا لا استقلال فيه فى أحيان كثيرة، و كان الشعراء يتتبعون فى أشعارهم آثار أسلافهم الأولين مصيبين

حينا و مخطئين أحيانا.

و يمكن تقسيم شعر هذه الفترة إلى قسمين أولهما: شعر المناسبات و هو ما يخاطب به الحاكم و الجماعة، و الآخر الشعر الذاتى و هو ما يعبر به الشاعر عن مشاعره الذاتية بغض النظر عن الجماعة «۱».

و فى الأول نجد العناية باللفظ و لكنها عناية متغالية تجلب على الشعر التكلف (۱) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية ص ۱۰۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۵

و الصنعة و التقيد بالشكل فى صوره المتعددة التى حرص عليها الشعراء، و فى الثانى نجد الميل إلى البساطة و التحلل من قيود الصنعة اللفظية إلا ما كان منها بغير تكلف.

و هناك مذهبان فى التعبير أولهما المذهب البديعى المتأثر بمذهب الكتاب، و قد كان للقاضى الفاضل أثر فى إضفاء ألوان جديدة عليه حرص عليها الشعراء و الكتاب من بعده بيد أنهم أسرفوا فى حرصهم على المحسنات اللفظية، و لقيت العناية اللفظية بجميع ألوانها الاهتمام الأول لديهم على حساب المعانى «۱»، و كان الشعراء يعمدون إلى المذهب البديعى فى شعر المناسبات أو فى قصائد المديح النبوى التقليدية.

أما المذهب الآخر و هو مذهب المعانى فيظهر بوضوح فى الشعر الشعبى و يتمثل فى احتفال بالأفكار و عناية تامة بتصوير العواطف و المشاعر التى ينفعل بها الناس انفعالا صادقا بريئا من التكلف. «۲»

و هناك بعض ظواهر يمكن ملاحظتها على الشعر و الشعراء فى ذلك العصر أولها قصائد المديح النبوى العديدة التى أنشأها شعراء العصر المملوكى معارضين بها بردة البوصيرى فقل أن نجد شاعرا منهم لم يعارضها، بالاضافة إلى القصائد التى أنشئت فى المديح النبوى فى غير معارضة للبردة، و الملاحظة الثانية هى أن كثيرا من علماء العصر و فقهائه كانوا ينظمون الشعر فى أغراض كثيرة و أشهر هؤلاء ابن حجر ثم السيوطى، و ثالثها شيوع الشعر التعليمى فى دوائر العلماء و الطلاب و سنشير إليه عند الحديث عن شعر السيوطى. و قد شهدت الفترة التى عاشها السيوطى عددا كبيرا من الشعراء و قد ذكر ابن اياس أنه كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد و كل منهم لقب بشهاب الدين، فكان يقال لهم السبعة الشهب و هم الشهاب ابن حجر و ابن الشاب التائب، و ابن أبى السعود، و ابن مبارك شاه الدمشقى، و ابن صالح، و الشهاب (۱) أفاض الرافعى فى دراسة الصناعات اللفظية فى هذا العصر فى الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ص ۳۷۰- ۴۶۶.

(۲) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى ص ۱۰۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۶

الحجازى، و الشهاب المنصورى، فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بقوله:

خلت سماء المعانى من سنا الشهب فالآن أظلم أفق الشعر و الأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من تجاذبوا بالمعانى مركز القطب «۱»

و أشهر هؤلاء جميعا الشهاب المنصورى الذى توفى عام ۸۸۷ ه و كان جيد الشعر.

و قد أصل جورجى زيدان الحديث عن شعر هذه الفترة بقوله: «ان الشعر أصبح صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية، و اختلط الشعر بالأدب، و قلما نبغ شاعر لم يشتغل بغير الشعر، فإن أكثرهم ألفوا الكتب فى الأدب و جمع الشعر و النكات و المواعظ و الحكم و نحو ذلك، و ابتذلت الصناعة الشعرية، و تعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ فقط، و كثر الناظمون من الباعة و أرباب الحرف كالخياطين و النجارين و الدهانين و نحوهم و ليس ذلك خاصا بهذا العصر إذ كثيرا ما ظهرت القرائح الشعرية فى طبقات العامة لكنهم كانوا إذا نبغوا استغنوا عن صنائعهم بتقربهم من بعض الأمراء أو الخلفاء فتشحذ قرائحهم و يأتون بالمعجزات كما اتفق لكثيرين من شعراء العصر

الأموى و العباسى». «۲»

و الحق أن هـذه الأوصاف تنطبق إلى حـد كبير على العصـر الذى نسـتوضح ملامحه، و لكن ينبغى التحفظ فى إطلاق الأحكام، إذ إن العصـر لم يعدم كثيرا من الشـعر الجيد و الشـعراء الذين أجادوا فى كثير من أشـعارهم على الرغم من أن شاعرا منهم لم يخل شعره من الإسفاف و الانحدار فى بعض الأحيان، و من تكلف الصنعة فى أحيان أكثر، و ذلك هو السبب فى تعميم وصف الانحدار على العصر و شعرائه.

أمـا النثر فله أنواع عديـدة و صور متنوعـة، و يمكن أن ينـدرج النثر بـدوره من ناحيـة أسـلوبه و طريقـة التعبير فيه فى قسـمين رئيسـيين أولهما: قسم تلقى فيه العناية (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۲۶.

(۲) جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ۳ ص ۱۲۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۷

اللفظيـة الحـظ الأـوفر من الكاتب، و تصل هـذه العنايـة إلى حـد التكلف مع الاسـراف فى اسـتعمال المحسـنات اللفظيـة على اختلاف ضروبها و هو ما نسـميه بمدرسـة البـديع، و القسم الآخر ما لا يحفل الكاتب بالعناية اللفظية فيه بل يرسل قوله على عواهنه و لكن عيب هذا القسم الأخير كان يأتيه من انحدار الأسلوب و كثرة اللحن و استعمال العامية و هذا القسم يسمى بمدرسة المعانى.

و الأنواع الأدبيـة النثرية التى أنتجها العصـر كثيرة و متنوعة نكتفى منها بالحديث عن الخطبة و الرسالة و المقامة لكونها أشـهر الأنواع و لاحتفال الكتاب بها أكثر من غيرها، فهناك إلى جانبها الموازنات و التوقيعات و الحكم و الوصايا.

الخطبة:

كانت الطبقـة الحاكمـة بالبلاد كما رأينا من الأتراك الذين ديفت بالعجمة ألسـنتهم و بالرغم من تعلم كثيرين منهم العربية لكونها لغة الـدين و العلوم فإنهم- فى الغالب- افتقروا إلى الفصاحـة فيها- و بذلك فقد تغير الحال فى الخطابة عما كان عليه زمن الخلافة العربية فى عهـد الأـمويين و العباسـيين، يضـاف إلى ذلك ما أصاب اللغـة من دخول كثير من الألفاظ التركيـة بها و انحـدار كثير من أساليب الكتاب نحو العامية.

و إذا كـان العصـر قـد خلا من الخطب الرسـمية التى كان يلقيها الحكام باسـتثناء بعض خطب خلفاء العباسـيين فى مصـر فإنه لم يعـدم وجود أنواع معينـة من الخطب التى خلت فى الغالب من أهم عناصـر الخطبـة و هو الارتجال، فكانت الخطب تعـد إعدادا كالرسائل، و قل أن نجد الارتجال فى غير المناظرات التى كانت تعقد بين العلماء حيث يضم جماعة منهم أحد المجالس.

لهـذا نلحظ على الخطب سـمات الرسائل «۱» حيث سـلك الخطباء مسـلك الكتاب فاتبعوا الأسـلوب البـديعى المسـجوع و أكثروا من الاقتباس من آيات القرآن الكريم و من أحاديث الرسول صلى اللّه عليه و سلم و من أقوال السلف الصالح.

و أهم الخطب التى نزعت هـذا المنزع الخطب المنبريـة التى كانت تعدّ من قبل (۱) عبد الوهاب حمود: صـفحات من تاريخ مصر ص ۱۰۵، ۱۰۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۸

أصحابها قبل القائها أو من قبل غيرهم، و من دواوين الخطب ديوان خطب الشيخ زكريا الأنصارى و هو معاصر للسيوطى، و قد امتد به العمر فتوفى عام ۹۲۶ ه، و اسم ديوانه «التحفة السنية» و هو مجموعة من الخطب المنبرية مرتبة حسب جمع الشهور العربية. «۱»

و هناك خطب كانت تقال فى المناسبات التقليدية كالأعياد و أوائل الشهور الهجرية، و الكسوف و الخسوف و الحفلات الاجتماعية و غير ذلك من المناسبات، و قد طبعت الخطب بما طبعت به الآثار الأدبية جميعها من احتفال بالصنعة اللفظية و حرص من الخطباء على الجمـل المسـجوعة التى تشـيع فى الخطبـة و يبـدو التكلف فى إيرادهـا واضـحا، فضـلا عما تتحمله الخطبـة من حشو لمراعاة السـجع و

الجناس و سائر ضروب الصنعة اللفظية.

الرسائل «۲»:

حظيت الرسائل الديوانية و الاخوانية بعناية بالغة من كتابها، بيد أن هذه العناية كانت منصرفة فى غالبها إلى الألفاظ على حساب المعانى، و جرى الكتاب على تقليد من سبقهم فى التزام المحسنات اللفظية بجميع ضروبها، و قد أدى ذلك إلى انحدار الأساليب و شيوع التكلف فيها، بل حرص الكتاب على وضع العناوين المسجوعة لرسائلهم فضلا عن عناوين الكتب المسجوعة، و بإجمال فإننا يمكن أن نلاحظ على كتابة ذلك العصر ما يلى:

۱- التزام السجع فى جميع الرسالة، و ربما تكررت قافية السجعة فى عدة فقرات.

۲- الاحتفال بأنواع البديع و لا سيما براعة الاستهلال و التورية و التضمين و الاقتباس و التلميع إلى الحوادث الشهيرة و حل الأبيات و إدماج الأمثال، و الاكثار من أنواع الاستعارة و ضروب التشبيهات.

۳- كثرة الحشو مراعاة للسجع و الجناس و مراعاة لغيرهما من ضروب (۱) المصدر السابق ص ۱۰۶.

(۲) د. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى ص ۱۷۷ و ما بعدها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۸۹

المحسنات اللفظية.

۴- استعمال الدخيل و عدم تحاشيه فى المفردات و التراكيب، و قد كانت ألفاظ كثيرة من التركية و الفارسية قد دخلت إلى العربية بعد غلبة العنصر التركى، و نتيجة لحكم الأتراك للبلاد.

غير أن أساليب الكتاب المصريين بالرغم من ذلك كانت تمتاز بميزة تتضح لقارئها و هى السهولة و الوضوح اللذان يدلان على ذوق سمح و فطرة مواتية، و لم تكن تميل- فى الغالب- إلى الغموض أو التعقيد، و سنرى هذه الخصوصية واضحة فى رسائل السيوطى جميعها على الرغم من أنها لم تخل من احتفال بالمحسنات اللفظية و حرص عليها شأن كتابات العصر. و الكتاب- بطبيعة الحال- فى ميدان السهولة و الوضوح درجات يتميز أسلوب كل منهم بخصائص فردية تقربه أو تبعده عن السهولة و الوضوح.

المقامة:

لم تكن المقامات فى ذلك العصر تختلف عن الرسائل كثيرا، بيد أنها كانت أكثر احتفالا بالمحسنات اللفظية حتى ليبدو أمام القارئ أن أصحابها قد وضعوها ليحشدوا بها ضروب الصناعات اللفظية و ليبينوا مهارتهم فى ذلك، و إذا كانت المقامات العربية عند بديع الزمان و الحريرى قد اعتمدت على تسلسل القصة و الحدث فى تطور فنى و عقدة تسلم غالبا إلى حل ذى مغزى و هدف، فإن المقامة فى هذا العصر لم يراع فيها هذا التسلسل الفنى فى كثير من الأحيان.

و قد تنوعت أغراض المقامات فى ذلك العصر فتناول أصحابها فى مقاماتهم شتى الموضوعات و سنرى مصداقا لما نقول عند الاشارة إلى بعض مقامات السيوطى التى تعددت أغراضها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۱

الفصل الثالث

حياته و ثقافته و آثاره

مولده و نسبه:

فى العصر الذى بينا من قبل معالمه السياسية و الاجتماعية و العقلية، و فى النصف الثانى من القرن التاسع و أوائل القرن العاشر كانت حياة السيوطى، فقد ولد ليلة الأحد مستهل رجب عام ۸۴۹ ه «۱»، و يوافق هذا التاريخ ۳ من أكتوبر عام ۱۴۴۵ م «۲». و يجمع المترجمون له: من عاصره و من جاء بعده على صحة هذا التاريخ فلا يحيدون عنه «۳»، إلا شيئا من الاختلاف اليسير حين يذكر ابن اياس أن مولده كان فى جمادى الآخرة «۴»، و يمكن توجيه قوله بأنه كان فى آخر جمادى الآخرة و فى ليلة أول رجب كما نصوا عليه.

و اسمه عبد الرحمن بن الكمال بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى «۵».

و قد سماه والده عبد الرحمن، و لقبه بجلال الدين ثم عرضه على شيخه قاضى (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۲) « ituyuS « smalsIfoaideapol cycnEehT

(۳) السخاوى: الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۵، العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ۵۴، الشوكانى: البدر الطالع ج ۱ ص ۳۲۸، ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۱.

(۴) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۹.

(۵) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۲

القضاة عز الدين أحمد الكنانى فيما بعد فكناه بأبى الفضل «۱».

و ينتهى نسبه من جهة أبيه إلى أصل أعجمى، و قد رجح ذلك حين ذكر أن جده الأعلى كان أعجميا أو من الشرق و أن النسبة بالخضيرى هى إلى الخضيرية محلة ببغداد «۲».

و ترجع نسبته إلى أسيوط لاستقرار أجداده بها، و قد ولد أبوه كمال الدين بها، و كان جده الأعلى همام الدين متصوفا، و من دونه من آبائه كانوا من ذوى الوجاهة و الرئاسة بأسيوط، منهم من ولى الحسبة أو الحكم، و منهم من كان صاحب ثروة، أما والده فقد كان من المشتغلين بالعلم «۳».

و النسبة إلى أسيوط أسيوطى بضم أولها، و قد ذكر صاحب القاموس «سيوط و أسيوط بضمهما بلدة بصعيد مصر»، فالنسبة على ذلك سيوطى و أسيوطى بالضم «۴»، و زاد ابن علان الكسر فى ضبط النسبة إلى «سيوط» «۵».

والده:

ترجم السيوطى لأبيه كمال الدين ضمن الفقهاء الشافعية بمصر «۶»، كما ترجم له السخاوى معاصره «۷»، و قد ولد بأسيوط عام ۸۰۰ ه، و تولى قضاءها زمنا، و درس على بعض نابغى العصر كالقاياتى «۸»، و الحافظ ابن حجر، و نبغ فى علوم عدة منها فقه الشافعى و الأصول و الكلام و النحو و الحديث، و أجيز بالتدريس (۱) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ۵۴، ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۱.

(۲) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۴) القاموس المحيط مادة «ساط» و لم يذكرها صاحب اللسان، ضبط هذه النسبة كذلك الشيخ سليمان الجمل فى حاشيته على تفسير

الجلالين ص ۵.

(۵) ابن علان: شرح على الاقتراح (مخطوط) ص ۳.

(۶) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۵۱.

(۷) السخاوى: الضوء اللامع ج ۱۱ ص ۷۲، ۷۳.

(۸) السخاوى: الذيل على رفع الاصر عن قضاة مصر ص ۲۹۲ ضمن الحديث عن القاياتى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۳

عام ۸۲۹ ه، و برّز فى الانشاء و درّس الفقه بالجامع الطولونى، و برع فى الخط و كان يخطب من إنشائه، و صنف بعض التصانيف و توفى عام ۸۵۵ ه.

و كان لوالد السيوطى صلة طيبة بخلفاء بنى العباس بمصر، و قد كتب صورة العهد بالخلافة لأحدهم كما سبق أن أشرنا «۱»، و قد ذكر السيوطى أن والده كان إماما لهذا الخليفة و كان خصيصا به ثم يقول: «و أما نحن فلم ننشأ إلا فى بيته و فضله» كما يذكر عن أبيه أنه لم يعش بعد وفاته إلا أربعين عاما «۱».

و لا ريب أن هذه الصلة فضلا عن المكانة العلمية، كانت تجعل منه رجلا له قدره فى الحياة العامة، و قد كان الرجل من صوفية الخانقاه الشيخونية، و قد ولى تدريس الفقه بالجامع الشيخونى المقابل للخانقاه «۳»، بالاضافة إلى قيامه بالتدريس فى جامع ابن طولون كما ذكرنا.

و لم يذكر السيوطى فى ترجمته لنفسه شيئا عن أمه، فى حين ذكر السخاوى معاصره أنها أمة تركية «۴»، و قد تابعه فى ذلك بعض المترجمين للسيوطى «۵»، على حين أغفل كثير منهم الحديث عنها لاغفال السيوطى ذلك، كما أغفلت التراجم الحديثة التى كتبت عن السيوطى الحديث عن أمّه تبعا لاغفال السيوطى ذكرها «۶». (۱) تاريخ الخلفاء ص ۳۴۰، ۳۴۱.

(۳) السخاوى: الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۴) المصدر السابق ج ۴ ص ۶۵.

(۵) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ۵۴.

(۶) ممن ترجم للسيوطى من المحدثين و أغفل الحديث عن أمه. ۲۱ .VacinatirB aideapolcycnEehT» ituyuSlA «malsIfo aideapolcycnEehT»

جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج ۳ ص ۲۴۴، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ص ۳۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۴

نشأته و حياته العلمية و العملية

نشأته:

ولد السيوطى بالقاهرة بعد انتقال أبيه إليها بمدة طويلة حيث كان يعمل مدرسا للفقه الشافعى بالجامع الشيخونى، و قد سبق بيان ما كانت عليه بيئة القاهرة من عظمة فى نواحيها الفكرية و الحضارية، و نتيجة لغلبة الطابع الصوفى على البلاد من ناحية، و لكون والده من صوفية الشيخونية من ناحية أخرى حمله بعد مولده إلى أحد كبار الأولياء بجوار المشهد النفيس، و هو الشيخ محمد المجذوب فباركه «۱»، و كان والده قد قارب الخمسين من عمره فى ذلك الحين.

و عند ما بلغ السيوطى الثالثة من عمره و كانت شهرة الحافظ ابن حجر تملأ الدنيا و كان شيخا لأبيه اصطحبه والده إلى مجلس الحافظ

ابن حجر فى إحدى المرات «۲»، و قد كان لحضور هذا المجلس أثره العميق فى نفسية السيوطى و فى حياته العلمية فيما بعد.

و لم يلبث والده أن توفى بعد قليل فى صفر عام ۸۵۵ ه- مارس ۱۴۵۱ م «۳»، حين كان ابنه لم يتمّ السادسة من عمره، و قد ولى الوصاية عليه بعد أبيه أحد أصدقائه من الصوفية و هو الشيخ جمال الدين بن الهمام «۴».

و قد أنشأ السيوطى يحفظ القرآن قبل وفاة أبيه، و قد بلغ فى الحفظ عند وفاته إلى سورة التحريم «۵»، و قد واصل الحفظ بعد وفاته فأتم القرآن الكريم و لم يبلغ (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۲) تاريخ النور السافر ص ۵۴.

(۳) «ycnEehT malsIfoaideapolc» «ituyuS».

(۴) العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ۵۴، ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۲.

(۵) شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۵

الثامنة من عمره «۱».

دراسته:

دلّ السيوطى بحفظه المبكر للقرآن الكريم على ذكاء متوقد، و ذاكرة قوية و قد حفظ بعد ذلك عمدة الأحكام، و المنهاج الفرعى فى الفقه للنووى، و المنهاج فى الأصول له أيضا على ما ذكر، و إن كان السخاوى ينص على أنه لم يحفظه كله و إنما حفظ بعضه «۲»، و ألفية ابن مالك فى النحو «۳»، و منهاج البيضاوى «۴»، و قد أتم حفظ هذه الكتب و عرضها على شيوخ عصره، و من ثم فقد أصبح أهلا لأن يطلب العلم على أيدى علماء العصر فى مختلف مناحى العلم.

و منذ مستهل عام ۸۴۶ ه و حين كان السيوطى لم يتم الخامسة عشرة من عمره أنشأ يطلب العلم، فأخذ الفقه و النحو عن جماعة من الشيوخ منهم الشمس محمد بن موسى الحنفى إمام الشيخونية فى النحو، و عن الفخر عثمان المقسى و الشموس البامى و ابن الفالاتى و ابن يوسف أحد فضلاء الشيخونية، و البرهانين العجلونى و النعمانى بعضهم فى الفقه و بعضهم فى النحو «۵»، و أخذ الفرائض عن العلامة فرض زمانه شهاب الدين الشارمساحى الذى كان قد بلغ المائة من العمر «۶».

و قد أجيز بتدريس العربية فى مستهل عام ۸۶۶ ه أى حين كان فى السابعة عشرة من عمره «۷»، و قد ابتدأ التأليف فى هذه السنة فكتب شرحا للاستعاذة و البسملة و أطلع عليه شيخه علم الدين البلقينى شيخ الاسلام فكتب عليه تقريظا «۷»، و قد لزم عليه كثيرا من أبواب الفقه و أجازه بالتدريس و الافتاء فى عام (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸، شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۲.

(۲) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۵.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۴) شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۲.

(۵) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۵.

(۶) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۸.

(۷) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۶

۸۷۶ ه حين كان السيوطى فى السابعة و العشرين من عمره، و حضر تصديره، و قد توفى البلقينى عام ۸۷۸ ه.

كما لزم السيوطى شيخ الاسلام شرف الدين المناوى فقرأ عليه بعض كتبه فى الفقه و التفسير «۱». و لزم فى الحديث و العربية العلامة

تقى الدين الشمنّى أربع سنين و كتب له تقريظا على شرح ألفية ابن مالك و على جمع الجوامع فى العربية، و كان شيخه يشهد له بالتقدم و يثق فى علمه وسعة اطلاعه «۱».

و قد أخذ جملة من العلوم منها التفسير و الأصول و العربية و المعانى عن العلامة محيى الدين الكافيجى الذى لازمه السيوطى أربع عشرة سنة، و كتب له الكافيجى إجازة عظيمة بذلك، كما حضر دروسا عديدة عند الشيخ سيف الدين الحنفى «۳».

و قد أغفل السيوطى حين ترجم لنفسه كثيرا من الشيوخ الذين درس على أيديهم، و يبدو أنه قد اكتفى فى ذلك بالمعجم الذى وضعه لهم فى حين ذكر المترجمون له من خصومه و أنصاره أسماء بعض الذين أغفل ذكرهم، و يمكننا من دراسة ترجمته الذاتية و مقارنتها بما كتبه عنه معاصره و خصمه السخاوى و بما كتبه المحايدون من المترجمين و بما كتبه أنصاره من معاصريه أو لاحقيه أن نخلص إلى استجلاء المعالم الرئيسية فى حياة السيوطى فى وضوح نطمئن إليه، و أن نقف على الأصول و البواعث التى كان لها أثرها فى توجيه حياته، و تكوين عقليته و كل أولئك نسترفده عند حديثنا عن منهجه فى التفكير و أصول هذا المنهج.

حاض السيوطى كما رأينا حياة دراسية شاقة بالقاهرة درس فيها على كثير من النابهين من علماء عصره، و يلاحظ أن الشيوخ الذين لزمهم مدة طويلة كانوا من شيوخ الخانقاه الشيخونية، حيث كان لأبيه من قبل صلة بها و حيث عمل هو بعد ذلك بها، و لم يكتف بذلك بل رحل طلبا للعلم إلى بعض البلاد فسافر إلى دمياط و الاسكندرية و الفيوم و المحلة ثم حج إلى مكة عام ۸۶۹ ه و جاور بها

(۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۹.

(۳) الضّوء اللامع ج ۴ ص ۶۵- ۶۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۷

سنة كاملة كما انتقل إلى بلاد الشام و اليمن و الهند و المغرب و التكرور (غينيا الآن) و قد حصل على إجازات كثيرة من الشيوخ الذين درس عليهم و رحل إليهم «۱».

شيوخه:

اشارة

ذكر الداوديّ تلميذ السيوطى أسماء شيوخ السيوطى قراءة و سماعا مرتبين على حروف المعجم فبلغت عدتهم واحدا و خمسين «۲»، و قد حاولت العثور على ترجمة الداوديّ لشيخه فى طبقات المفسرين فلم أجد لها ذكرا، و لعله ترجم له فى مكان آخر اطلع عليه الناقلون عنه و لم يصل إلينا «۳»، و قد ذكر السيوطى أن شيوخه فى الرواية سماعا و إجازة يبلغون مائة و خمسين «۴»، أما عدة من درس عليهم و أخذ عنهم فقد بلغت ستمائة شيخ، و قد وضع السيوطى كتابين فى أسماء شيوخه هما معجم الشيوخ الكبير و يسمى حاطب ليل و جارف سيل، و معجم صغير يسمى المنتقى، و لم أتمكن من الوقوف على أحد المعجمين، و ليس هذا بالأمر الخطير إذا عرفنا أن أهم الذين درس عليهم قد ذكرهم فى ترجمته الذاتية، كما ترجم لهم فى بعض كتبه الأخرى، كما تناولهم غيره بالترجمة.

و قد روى الشعرانى تلميذ السيوطى عن شيخه أن شيوخه بلغوا ستمائة و قد نظمهم فى أرجوزة، و قسمهم إلى طبقات أربعة: الأولى: من يروى عن أصحاب الفخر بن النجار و الشرف الدمياطى و وزيره و الحجار و سليمان بن حمزة و أبى النصر بن الشيرازى و نحوهم، و الثانية: من يروى عن السراج البلقينى و الحافظ أبى الفضل العراقى و نحوهما و هى دون التى قبلها فى العلوم، و الثالثة:

من يروى عن الشرف بن الكويك و الجمال البجيلى و نحوهما و هى دون الثانية، و الرابعة: من يروى عن أبى زرعة العراقى و ابن الجزرى و نحوهما. (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۹، ۱۹۰.

(۲) ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۳.

(۳) طبقات المفسرين (مخطوط)، و يبدو أن للداودى ترجمة مستقلة لشيخه السيوطى لم تصل إلينا، انظر الأعلام للزركلى ترجمة الداوديّ.

(۴) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۸

و لئن كان أساتذة السيوطى من الكثرة بحيث يتعذر علينا لضيق المكان التعريف بهم على الوجه الأكمل فليس أمامنا سوى التعريف بأكثرهم تأثيرا فى نفسه و عقله و أقواهم فعلا فى حياته و ألصقهم به.

۱- ابن حجر العسقلانى:

و أول هؤلاء الأساتذة ابن حجر العسقلانى، و بالرغم من أن السيوطى- على وجه التحقيق- لا يعد من تلاميذه إذ إنه لم يحضر مجلسه إلا فى طفولته صحبة والده «۱»، فإنه تأثر به تأثرا كبيرا، و قد كان أمله فى يوم من الأيام أن يصل إلى مرتبته فى الحديث «۲»، و قد كان السيوطى بعد نفسه من تلامذة ابن حجر العسقلانى و يتحدث عنه أحيانا بعبارة «شيخنا» و قد روى عنه متعمدا على الاجازة العامة، و قد قال عن نفسه: «ولى منه إجازة عامة، و لا أستبعد أن يكون لى منه إجازة خاصة، فإن والدى كان يتردد إليه و ينوب فى الحكم عنه، و إن يكن فاتنى حضور مجالسه و الفوز بسماع كلامه، و الأخذ عنه فقد انتفعت فى الفن بتصانيفه، و استفدت منها الكثير، و قد غلق و ختم به هذا الشأن» «۳».

و قد ترجم السيوطى لابن حجر فى كتابه نظم العقيان فذكر أنه «فريد زمانه و حامل لواء السنة فى أوانه ... إمام لهذا الفن للمتقدمين، و مقدم عساكر المحدثين، و عمدة الوجود فى التوهية و التصحيح، و أعظم الشهود و الحكام فى بابى التعديل و التجريح» «۴».

كان ابن حجر أولا و قبل كل شىء إماما فى الحديث و حسبه شرح البخارى الذى نبه ابن خلدون من قبل على أنه دين على هذه الأمة، و له إلى جانب جهوده فى علوم الحديث مشاركة فى كثير من العلوم و الفنون، و هو شاعر مجيد و أحد السبعة الشهب الذين سبقت الاشارة إليهم، و قد ولى فى حياته وظائف (۱) ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۲، العيدروسى: تاريخ النور السافر ص ۵۴.

(۲) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۳) السيوطى: ذيل طبقات الحفاظ للذهبى ص ۳۸۱، ۳۸۲.

(۴) نظم العقيان فى أعيان الأعيان ص ۴۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۹۹

سنية منها «تدريس الحديث بالشيخونية و بجامع القلعة و بالجمالية، و بالبيبرسية، و تدريس الفقه بالمؤيدية و بالشيخونية و ولى مشيخة الشيوخ بالبيبرسية، و مشيخة الصلاحية بجوار مشهد الامام الشافعى رحمه اللّه تعالى، و ولى قضاء القضاة بالديار المصرية» «۱»، و له عدد كبير من المصنفات.

۲- علم الدين البلقينى:

هو علم الدين صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر، ترجم له السيوطى فى أماكن متفرقة من كتبه فأوجز فيما أورده عنه فى نظم

العقيان «۲»، و بسط القول بعض البسط فى حسن المحاضرة «۳»، و قد خصه بترجمة مفردة لم تصلنا، كما ترجم له تلميذه السخاوى «۴».

و قد أخذ السيوطى عنه الفقه و أشاد بتمكن شيخه فيه فذكر أنه إمام الفقهاء فى عصره و حامل لواء مذهب الشافعى فى عراقه و حجازه و شامه و مصره.

ولد البلقينى عام ۷۹۱ ه، و تلقى العلم على يد مشاهير عصره و من بينهم أبوه، و قد تولى عدة وظائف قام فيها بتدريس الفقه و الحديث و التفسير، ثم تولى القضاء الأكبر سنة ۸۲۶ ه، و تكرر عزله و إعادته، و قد اختتم السيوطى ترجمته بقوله: «و أخذ عنه الجم الغفير و ألحق الأصاغر بالأكابر و الأحفاد بالأجداد ...

قرأت عليه الفقه و أجازنى بالتدريس و حضر تصديرى، و قد أفردت ترجمته بالتأليف، مات يوم الأربعاء خامس رجب سنة ۸۶۸ ه» «۵»، و قد ذكر ابن إياس وفاته عام ۸۶۹ ه «۶» و الصواب ما ذكره السيوطى.

۳- شرف الدين يحيى المناوى:

ولد سنة ۷۹۸ ه، و لازم أعيان شيوخ عصره، و تصدى للإقراء و الافتاء، (۱) المصدر السابق ص ۴۶.

(۲) نظم العقيان ص ۱۱۹.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۵۳.

(۴) الضوء اللامع ج ۳ ص ۳۱۲- ۳۱۴.

(۵) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۵۳، ۲۵۴.

(۶) بدائع الزهور ج ۲ ص ۷۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۰

و ولى تدريس الشافعية و قضاء الديار المصرية، و له عدة مصنفات قال عنه السيوطى: «هو آخر علماء الشافعية و محققيهم»، و قد رثاه ببعض الشعر «۱»، و قد سمع السيوطى عليه دروسا فى الفقه و التفسير يبدو أنها غير قليلة «۲»، بالرغم مما يغمز به السخاوى معاصره السيوطى بأنه «حضر عند الشرف المناوى يسيرا جدا» «۳».

و قد كان المناوى معاصرا للبلقينى و كانا يتعاقبان قضاء الشافعية يعزل أحدهما فيولى «۴» الآخر.

۴- تقى الدين الشّمنىّ الحنفى:

ذكر السيوطى أنه لزمه فى الحديث و العربية أربع سنين، و قد كتب له تقريظا على شرح ألفية ابن مالك و على جميع الجوامع فى العربية و المؤلفان للسيوطى، كما شهد له بالتقدم فى العلوم «۵».

و الشمنى هو تقى الدين أبو العباس أحمد بن كمال الدين، ترجمه السيوطى فى كتابيه حسن المحاضرة «۶»، و بغية الوعاة «۷»، ترجمة تفيض بالاعجاب نعته فيها بأبلغ الأوصاف التى تدل على تنوع معارفه.

ولد الشمنىّ بالاسكندرية عام ۸۰۱ ه، و قدم القاهرة مع والده، و أخذ عن جماعة من أعيان علماء عصره منهم العراقى و البلقينى، ثم استحصدت قوته فتعرض للنفع العام بعلمه فأقرأ التفسير و الحديث و الفقه و العربية و المعانى و البيان و غيرها، و تزاحم الناس عليه، و افتخروا بالأخذ عنه، و قد تولى مشيخة عديد من المدارس، و طلب لقضاء الحنفية فامتنع، و له مصنفات عديدة منها حاشية على (۱)

حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۵۳، ۲۵۴.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۸۹.

(۳) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۴) بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۵، ۷۵.

(۵) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۹.

(۶) المصدر السابق ج ۱ ص ۲۷۱.

(۷) بغية الوعاة ص ۱۶۳- ۱۶۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۱

مغنى ابن هشام سماها «المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام» تعقب فيها الدمامينى كثيرا «۱»، و له نظم حسن. و قد سمع السيوطى عليه قطعة كبيرة من المطول للشيخ سعد الدين، و من التوضيح لابن هشام، و سمع و قرأ عليه فى الحديث عدة أجزاء، و كانت صلة السيوطى بشيخه طيبة طيلة حياته، و قد مدحه بشعره، و رثاه بمرثية طويلة بعد وفاته التى كانت فى ذى الحجة عام ۸۷۲ ه.

و يعد الشمنى شيخ السيوطى من أشهر نحاة القرن التاسع و قد رزق مؤلفه «المنصف من الكلام» رواجا كبيرا فى عصره.

۵- محيى الدين الكافيجى:

لقب بالكافيجى على ما يقال لكثرة اشتغاله بكافية ابن الحاجب فى النحو، و قد لازمه السيوطى أطول مدة إذ بلغت أربع عشرة سنة، و أخذ عنه أكثر ما أخذ، و قد جمعتهما صلات طيبة يوضحها قول السيوطى: «ما كنت أعد الشيخ إلا والدا بعد والدى لكثرة ما له على من الشفقة و الافادة، و كان يذكر أن بينه و بين والدى صداقة تامة، و أن والدى كان منصفا له بخلاف أكثر أهل مصر» «۲».

و قد ترجم له السيوطى ترجمة تفيض بالاعجاب و التقدير «۳»، شأن الترجمة السابقة للشّمنىّ، و هو محيى الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى، و قد اشتهر بأنه علامة وقته فى المعقولات: «الكلام و أصول اللغة و النحو و التصريف و الاعراب و المعانى و البيان و الجدل و المنطق و الفلسفة و الهيئة بحيث لا يشق أحد غباره فى شىء من هذه العلوم «۴»، هذا إلى جانب دراسته للعلوم النقلية و معرفته بها كالتفسير و الحديث و الفقه و قد صنف كثيرا من الكتب فى العلوم العقلية و يبدو أن كثيرا منها قد أتت عليه يد الحدثان و أكثر تآليفه مختصرات. (۱) د. شوقى ضيف: المدارس النحوية ص ۳۵۷.

(۲) السيوطى: بغية الوعاة ص ۴۸.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۳۱۷، ۳۱۸، بغية الوعاة ص ۴۸ و ما بعدها.

(۴) بغية الوعاة ص ۴۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۲

و قد تولى مشيخة التصوف بتربة الأشرف برسباى، و تولى مشيخة الشيخونية بعد أن رغب عنها ابن الهمام، و قد عاصره السيوطى بالشيخونية إذ كان السيوطى يلى تدريس الحديث بها.

و يعد الكافيجى من أشهر علماء عصره، و يعد هو و الشّمنى أشهر نحاة القرن التاسع، و قد نص السيوطى على أنهما أنحى من رآه من الشيوخ «۱»، و قد أورد لهما فى كتابه جمع الجوامع بعض الآراء و الاختيارات النحوية، و خالفهما فى بعض الأحيان، و قد توفى الكافيجى عام ۸۷۹ ه، و قد رثاه الشهاب المنصورى شاعر وقته «۲».

۶- سيف الدين الحنفى:

حضر السيوطى عنده دروسا عديدة كما ذكر عن نفسه فى الكشاف و التوضيح و حاشيته عليه و تلخيص المفتاح.

و هو محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكترى «۳»، ولد فى عام ۸۰۰ ه، و أخذ عن شيوخ عصره و لازم الكمال بن الهمام الذى كان يلى مشيخة الشيخونية، و برع فى الفقه و الأصول و النحو، و قد ولى التدريس بكثير من المدارس، و استنابه ابن الهمام فى مشيخة الشيخونية مدة حجه، و قد ولى مشيخة المؤيدية ثم آلت إليه فيما بعد مشيخة الشيخونية، و من ثم فلقد عاصر السيوطى بها حين كان يقوم بتدريس الحديث، توفى السيف الحنفى فى ذى القعدة عام ۸۸۱ ه، و قد ذكر السيوطى أنه آخر شيوخه موتا لم يتأخر بعده أحد ممن أخذ عنهم، و قد رثاه بعد موته، و أهم مصنفاته حاشية على توضيح ابن هشام.

هؤلاء أهم شيوخ السيوطى الذين درس على أيديهم و تلقى عنهم و كان لهم تأثير فى عقليته و منهجه الفكرى و توجيه حياته، و قد كان من تحدثنا عنهم- فى حقيقة الأمر- أشهر رجال عصرهم فى الفنون التى ثقفها على أيديهم السيوطى، (۱) المصدر السابق ص ۳۰۹، ۳۱۰ ترجمة عبد القادر بن أبى القاسم نحوى مكة.

(۲) بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۵۱، ۱۵۲.

(۳) بغية الوعاة ص ۹۲، حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۷۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۳

فابن حجر أكبر علماء العصر فى الحديث، و البلقينى أكبر فقهاء الشافعية فى وقته، كذلك كان الشرف المناوى فى التفسير و الفقه، أما الكافيجى فهو أكبر علماء وقته فى المعقولات، و يعد هو و الشمنى أكبر النحاة الذين عرفهم ذلك القرن، و كان السيف الحنفى من العلماء المبرزين، و كان لهؤلاء جميعا مكان مرموق بالمجتمع و قد تولى عدد منهم قضاء القضاة و رشح بعضهم لذلك و امتنع بمحض اختياره.

و هناك إلى جانب هؤلاء عدد كبير من الشيوخ الذين درس السيوطى على أيديهم أو لقيهم، و لكنا لا نرى موجبا لإيرادهم لما فى ذلك من الاطالة فضلا عن أثرهم القليل نسبيا فى عقله و تفكيره، و قد اكتفيت فيما تقدم بايراد أهمهم و أكثرهم تأثيرا فى حياته و عقله.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۴

مراحل حياته

اشارة

سبق لنا بيان المرحلة الأولى من حياة السيوطى التى ابتدأت بمولده و ما تبعه من دراسته و تلقيه عن الشيوخ حتى أجيز بتدريس العربية و من ثم فقد أصبح مشاركا فى الحياة بصورة أخرى، و منذ ذلك التاريخ تبدأ مرحلة متميزة من مراحل حياته دأب فيها على التلقى و الدراسة مع مشاركة فى الحياة العامّة.

و قد أجيز بتدريس العربية منذ وقت مبكر (عام ۸۶۶ ه) إذ لم يكن قد أتم السابعة عشرة، و قد ابتدأ التأليف منذ ذلك الوقت، و لهذا دلالته على قدرته الفائقة و نبوغه المبكر. و قد أسهم الرجل منذ ذلك الحين فى الحياة العملية و تصدى للنفع العام بعد قليل فقصد مسجد ابن طولون و أملى به الحديث من مستهل عام ۸۷۲ ه «۱»، فكان يملى به الحديث يوم الجمعة بعد الصلاة اتباعا للخطيب البغدادى و ابن السمعانى و ابن عساكر، و خلافا للعراقى و ولده و ابن حجر فإنهم كانوا يملون يوم الثلاثاء «۲»، و يحاول السخاوى

الغض من قيمة عمل السيوطى فيتهمه بأنه كان يدرس لجمع من العوام أملى عليهم الحديث و أنه توسل بذلك إلى الوصول إلى منصب التدريس بالشيخونية «۳».

و قد حصل السيوطى على إجازة بالتدريس و الافتاء من شيخه البلقينى عام ۸۷۶ ه، تصدر على أثرها للتدريس و الافتاء، و حضر شيخه تصديره «۴»، و كانت سنه آنذاك تقترب من السابعة و العشرين، و هى سن صغيرة لمن يتصدى لمثل ذلك، و قد ساعده شيخه البلقينى فى تولى وظيفة تصدير الفقه بالجامع (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى (مخطوط) ورقة ۴ ص ۸.

(۳) السخاوى: الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶، ۶۷.

(۴) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۸۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۵

الشيخونى و هى الوظيفة التى كان بها أبوه من قبل «۱».

و فى العام التالى (شعبان ۸۷۷ ه)، تولى السيوطى تدريس الحديث بالخانقاه الشيخونية بعد وفاة الفخر المقسى «۲»، و قد أعانه فى الوصول إلى هذه الوظيفة.

الأمير إينال الأشقر «۳». كما تولى السيوطى إلى جانب ذلك وظيفة أخرى هى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام بالقرافة، و قد ساعده فى توليها أبو الطيب السيوطى «۴»، و بقى السيوطى يجمع هذه الوظائف فى يده حتى ناهز الأربعين من عمره.

و تبدأ مرحلة ثالثة من حياة السيوطى حين بلغ الأربعين من عمره يلاحظ عليه فيها ميله إلى الهدوء و زهده فى الدنيا، و قد حاول فى بداية هذه المرحلة أن يعتكف و ينقطع إلى اللّه تعالى، فترك وظائفه السابقة بيد أن اعتزاله التام لم يدم سوى بضعة شهور انتقل بعدها إلى وظيفة أكبر شأنا مما كان تحت يده و هى مشيخة الخانقاه البيبرسية و ذلك فى ربيع الآخر عام ۸۹۱ ه بعد وفاة الجلال البكرى، و قد ساعده فى الوصول إلى منصبه الأخير صديقه الخليفة المتوكل على اللّه عبد العزيز «۵».

و بالرغم من أن مشيخة البيبرسية كانت أعظم الوظائف التى تولاها السيوطى و أكبرها أجرا فإنه كان يميل آنذاك إلى الزهد، و كان يتجه بحياته نحو الاعتكاف (۱) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۲) بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۴۲.

(۳) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۷، اينال الأشقر أحد أمراء المماليك، ترجم له السخاوى و ذمه كثيرا حتى قال فيه «مات غير مأسوف عليه فقد كنت أشهد فى وجهه المقت و كان من سيئات الدهر»، الضوء اللامع ج ۲ ص ۳۳۰، انظر بدائع الزهور ج ۲ ص ۵۹.

(۴) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۷، كان أبو الطيب السيوطى (۸۲۸ ه- ۸۹۳ ه) من أعيان موقعى الحكم و كان عالما فاضلا وجيها عند الأمراء و أرباب الدولة، ترجم له السخاوى (ج ۱۱ ص ۱۱۸) و ذكر أنه كان يقصد السلطان و الأمراء لقضاء حاجات الناس و كان يميل إلى الاحسان.

(۵) بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۳۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۶

و الانقطاع إلى العبادة و التأليف.

و الذى يدلنا على تميز هذه الفترة من حياة السيوطى بالميل إلى العزلة و الانقطاع أنه قد حاول العزلة التامة لبضعة أشهر قبل توليه مشيخة البيبرسية ترك فيها الاقراء و الافتاء و قد اتهمه معاصره السخاوى بأنه بعد استقراره فى البيبرسية «خمد من ثمّ بل جمد بحيث رام ستر نفسه بقوله: تركت الافتاء و الاقراء و أقبلت على اللّه» «۱».

و هناك ما يلقى الضوء على هذا التحول فى حياة السيوطى بعد بلوغه الأربعين، ذلك أنه قد تعرض لأزمة بينه و بين السلطان قايتباى

بسبب صعوده إليه بالطيلسان، و لم يستحسن السلطان ذلك منه، و تمسك السيوطى بموقفه و كادت الأمور تسير سيرا حسنا لو لا أن ابن الكركى خصم السيوطى أوفر صدر السلطان و زين له البطش بالسيوطى مما دعاه إلى أن يحجم بعد ذلك عن الصعود إلى السلطان و ألف رسالة سماها «ما رواه الأساطين فى عدم المجىء إلى السلاطين»، و قد ألف فى لبس الطيلسان رسالة سابقة يدعم بها موقفه و استفتى السلطان العلماء فى شأن موقف السيوطى، و لكنهم لم ينصروا الحق مما دعاه إلى أن يعتزل وظائفه السابقة «۲».

و هنا نستطيع أن نقرر أن اعتزال السيوطى و اعتكافه حين بلوغه الأربعين كما روى ذلك المترجمون له «۳»، كان فى الفترة التى أعقبت اعتزاله لوظائفه السابقة و قبل توليه مشيخة البيبرسية، و قد كان اعتزالا موقوتا، و لم يكن دائما كما توهم التراجم السابقة، و إلا فإننا لا نستطيع أن نفسر اعتكافه مع توليه فيما بعد مشيخة البيبرسية و مكوثه بها نحو خمسة عشر عاما (۸۹۱ ه- ۹۰۶ ه) مع مشاركته فى الحياة العامة.

و نحن نقول إنه مال إلى الزهد و العبادة منذ ذلك التاريخ و لكن اعتزاله (۱) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۹.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۸، ۱۹.

(۳) المصدر السابق ورقة ۱۷، شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۳، تاريخ النور السافر ص ۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۷

و انقطاعه عن الناس فى بيته بالروضة كان فى مرتين أولاهما لم تدم أكثر من بضعة أشهر كتب فيها مقامته اللؤلؤية التى تسمى أيضا «التنفيس فى الاعتذار عن ترك الفتيا و التدريس». و اعتزاله الثانى و اعتكافه كان بعد عز له عن مشيخة البيبرسية فى عام ۹۰۶ ه، و قد صمم فى هذه المرة على عزلته و انقطاعه حتى وفاته عام ۹۱۱ ه.

على أن المقامة التى كتبها فى الاعتذار عن الافتاء و التدريس تطلعنا على الآلام التى كان يعانيها من معاصريه و الأذى الذى تعرض له من بعض من يكيدون له، كما تبين لنا حالة الفساد التى ظهرت بالبيئات العلمية و جعلت الرجل يفكر فى اعتزالها، و فى هذه المقامة يعتذر السيوطى إلى أصدقائه عن تركه الحياة العامة فيذكر كثيرا من الأعذار مجملها أن الزمان قد فسد و ظهر به من العلامات «ما أمر النبى صلى اللّه عليه و سلم بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه، و يجلس فى بيته و يسكت و يدع أمر الحياة من ذلك الشح المطاع، و دنيا مؤثرة، و هوى له ذو أتباع، و إعجاب كل ذى رأى برأيه، و ذلك عين الابتداع، و قد مزجت الأمانات و العهود، و كثر القائلون بالزور و الشهود ... الخ» «۱».

و يتضح من حديث السيوطى كثير من أوجه الفساد التى عانى منها عصره و التى تطرقت إلى الحياة العلمية، كما يدافع عن نفسه و يروى أن كثيرا من علماء السلف المعروفين قد اعتزلوا الحياة العامة حين شاهدوا فسادها، و يتحدث عن اعتزاله للتدريس فيذكر أن تلامذته طبقات ثلاث: أولاها كان فيها خير، و الثانية كان بها خير و شر، و الثالثة كانت شرا كلها و ساء حالها، و هو يحاول بذلك تصوير استشراء الفساد شيئا فشيئا.

و يذكر السيوطى أن فتاواه قد ملأت الأرض و أنه أهل للفتيا و قد انتفع الناس بعلمه، و يبدو من أسلوبه العنيف فى آخر رسالته مدى العداء الذى كان يناصبه أعداؤه، فهو يهاجمهم هجوما لا هوادة فيه إذ يصف نفسه و ما يبذله من الجهد فى العلم و ما يأتى به من أمور يعجز غيره عنها ثم ينظر فيجد نفسه بعد ذلك «بين (۱) المقامة اللؤلؤية ص ۱ (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۱۷۴ ب).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۸

راء بجهام، و رام بسهام و طاعن بكلام، و ظاعن بملام، و راجم بسلام غير راحم بسلام» «۱».

كما يشيع فى الرسالة اعتداد السيوطى بنفسه و علمه، فهو يعبر عن ذلك نثرا ثم لا يلبث أن ينظم شعرا يقول فيه:

إذا المشكلات تصدين لى كشفت حقائقها بالنظر

إلى أن يقول:

و لست بإمعة فى الرجال أسائل هذا و ذا ما الخبر

و لكننى مدره الأصغرين أقضى بما قد مضى ما غبر

ثم يهاجم السيوطى أعداءه الكثيرين و يبدو من رسالته أنه يخص بالهجوم ابن الكركى الذى كان يشى به آنذاك عند السلطان، و كان ابن الكركى إمام السلطان قايتباى، و يشتد السيوطى فى هجومه حتى يقول عن خصمه «كلما سمع منى بمسألة يجهلها أكثر النعيق، و تابع النهيق ... فيا سبحان اللّه ما أنت و ذا هل أنت إلا مغنّ وراء الزفف ... الخ» «۲».

و هكذا يستمر السيوطى فى مهاجمة ابن الكركى و مهاجمة غيره بأعنف أسلوب يمكن أن يكتب فى الهجوم، و يعتمد السيوطى على ثروته اللغوية فى هجومه الشديد و هجائه لخصومه فهو يصفهم بأنهم «حثالة حقالة حفالة رذالة بذالة نخالة سحالة وصالة هزالة نقالة غسالة بوالة زيالة ... الخ» «۳».

و قد أورد السيوطى فى رسالته مجموعة من الأشعار صور بها نواحى الفساد التى تخللت البيئات العلمية مما جعله يؤثر الابتعاد عنها و الانقطاع فى بيته فمن ذلك قول الشاعر:

رأيت فقيه الشكل لا علم عنده و يقنع من حال الفقاهة بالاسم

فقلت و قد وافى بتضليع عمّة تضلّع جهلا ما تضلع من علم

(۱) المقامة اللؤلؤية ص ۴.

(۲) المصدر السابق ص ۴، ۵.

(۳) نفس المصدر ص ۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۰۹

و قول القائل:

دهر علا قدر الوضيع به و غدا الشريف يحطّه شرفه

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا و يطفو فوقه جيفه

و قول القائل:

و عاش بدعوى العلم قوم و ما لهم من العلم حظ لا بعقل و لا نقل

فوا عجبا للعلم يحرم رزقه عليم و للأغمار ترزق بالجهل «۱»

و يبدو أن حالة السيوطى النفسية و ما عاناه من آلام تسبب فى إذكاء نيرانها خصومة، و ما آل إليه أمره بعد ترك وظائفه السابقة التى كانت تأتيه بنصيب لا بأس به من أوقافها، هذه الحالة قد دفعته لأن ينفث فى رسالته تعبيرا عما يحس به داخل نفسه، و تخفيفا لآلامه. فهى تصور حالة نفسية فى وقت من أوقات الشدة التى مر بها و لجأ إلى قلمه عساه يجد فيه صديقا يشكو إليه ألمه بعد أن اعتزل جميع الأصدقاء.

و لا تخلو هذه الرسالة من مبالغات فى وصف الفساد و اتهام الخصوم، و يبدو أن الخليفة عبد العزيز المتوكل على اللّه الذى كان صديقا للسيوطى و مخالطا له فى أكثر الأحيان قد آلمه ما آل إليه أمر صديقه، و كان يعرف عنه اعتداده بنفسه، فسعى له فى تولى مشيخة البيبرسية.

و الواقع أن مشيخة البيبرسية- فى ذلك الحين- كانت أكبر الوظائف التى يتولاها القائمون بالتدريس لأنها كانت أعظم الخوانق المصرية و أوسعها أوقافا، و أكثرها صوفية، و لا نستطيع أن ننكر أن السيوطى قد قرت عينه بهذا المنصب الجديد، و ربما يكون قد سعى فى سبيل الوصول إليه، و لعله كان يرى نفسه أكفأ و أصلح من غيره لأن يوضع فى هذا المكان، و أيا ما كان الأمر فإن ذلك لا ينفى عنه نزعة التصوف الحقيقى التى كانت تخالط وجدانه و التى تمثلت فى ميله إلى العزلة. (۱) المقامة اللؤلؤية ص ۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۰

و بالرغم من الوظائف الجليلة التى تولاها السيوطى فإنه- على ما يبدو- لم يقنع بها بل كان يرى نفسه أهلا لأن يلى من الأعمال ما هو أجل مما وصل إليه لا سيما بعد أن بلغ من العلم مبلغا، و كانت وظائف القضاء- كما أشرنا من قبل- لها شأنها فى المجتمع، و كانت وظيفة قاضى قضاة الشافعية التى يمكن للسيوطى باعتباره فقيها شافعيا أن يطمح إليها فى يد الشيخ زكريا الأنصارى (۸۲۴ ه- ۹۲۶ ه) و كان أسنّ من السيوطى و قد تولى هذا المنصب منذ وقت مبكر (۸۸۶ ه)، و كان معروفا بالنزاهة و العدالة و الميل إلى الزهد و التمسك بالحق «۱»، و قد قبل منصب القضاء بعد تمنع و إباء و قد مكث به نحو عشرين عاما حتى ضعف و اعتزل بنفسه عام ۹۰۶ ه «۲»، ثم أعيد إليه مرة ثانية، لذلك لم يشأ السيوطى أن ينافسه لزهده و عفته و صافته الحميدة التى جعلت منه صديقا له و مؤيدا فى بعض المواقف «۳» و كان سلوك الشيخ زكريا لا يدفع أحدا إلى منافسته لا سيما أنه كان عزوفا عن الدنيا غير راغب فيها، مألفا يحبه الناس و يجتمعون إليه.

لم يحاول السيوطى أن ينافسه فى الوصول إلى منصب القضاء برغم صلاته القوية بالخلفاء و بعض رجال الدولة لما قدمنا من أسباب، و لأن هذه المحاولة من شأنها أن تسىء إلى السيوطى و تبغضه إلى الناس و إلى أولى الأمر إذا أقدم عليها.

و لكن طموح السيوطى و تطلعه إلى منصب القضاء جعله يتخذ وسيلة أخرى لذلك إذ اتصل بصديقه المتوكل على اللّه الخليفة العباسى فى ذلك الوقت (صفر ۹۰۲ ه)، و اقترح عليه أن يجعله رئيسا لجميع القضاة بمذاهبهم الأربعة، و لم تكن هذه الوظيفة معروفة بمصر آنذاك إذ إن قضاة كل مذهب كانوا يتبعون قاضى قضاة المذهب، و بذلك فإن أعلى مراتب القضاء كانت وظائف قضاة القضاة الأربعة، و لكن السيوطى أفهم الخليفة بأن وظيفته التى يقترحها كانت بمصر زمن الأيوبيين، و قد تولاها القاضى ابن بنت الأعز، و أن من حق الخليفة (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى: ترجمة الشيخ زكريا الأنصارى ورقة ۲۳.

(۲) بدائع الزهور ج ۴ ص ۱۲.

(۳) ذيل الطبقات ورقة ۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۱

أن يكلها إلى من يراه أهلا لذلك، و من ثم فإن صاحب هذه الوظيفة تكون له السلطة على قضاة القضاة الأربعة فمن دونهم.

و قد مال الخليفة إلى اقتراح السيوطى، و كان السيوطى فى ذلك الحين قد بلغ مكانة علمية ممتازة فضلا عن مكانته الاجتماعية و نشاطه السابق و مشاركته فى الحياة العامة بمصر، و أعلن الخليفة أنه عهد للسيوطى بهذه الوظيفة فى صفر عام ۹۰۲ ه «۱».

و لم يكن هذا التصرف- بطبيعة الحال- مرضيا للقضاة بل كان سببا لثورتهم و معارضتهم و هاجموا الخليفة و قالوا: ليس للخليفة مع وجود السلطان حلّ و لا عقد و لا ولاية و لا عزل و لكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا. و كان السلطان آنذاك الناصر محمد بن قايتباى، و لم يكن يبلغ أن العشرين من عمره، و كان على ما وصفه المؤرخون به طيش و ظلم، و يبدو أن الخليفة تخوف من مساعى القضاة لدى السلطان و تأليبهم السلطان عليه بحجة أنه فعل أمرا ليس من حقه، و إنما هو من حق السلطان، و قد شرحنا من قبل ما كان عليه أمر الخلافة العباسية فى مصر طيلة ذلك العهد، لذلك لم يستطع الخليفة الصمود فى وجه تيار الثائرين عليه من القضاة فرجع عن ذلك و تعلل بأن الشيخ جلال الدين السيوطى هو الذى حسن له ما فعل، و أشهد على الخليفة بالرجوع عن العهد الذى عهد به إلى السيوطى و يبدو من سياق ما أورده ابن إياس عن هذه القصة أن السيوطى بعلمه و عقليته الكبيرة و لما بينه و بين الخليفة من صلات طيبة قد استطاع التأثير على الخليفة و إقناعه بأن يقدم على عمل لم يكن معهودا فى عصره، و لم يقدر عاقبته، و لم يحتط لما سيترتب عليه من ثورة القضاة.

و لنترك جانبا هذه القصة التى تدل على طموح السيوطى إلى تولى القضاء، و لعله كان يبغى شيئا من الاصلاح، و لنتجه مرة أخرى إلى السيوطى حيث لا يزال يشغل مشيخة البيبرسية كبرى الخوانق و أوسعها أوقافا فى عهده، و كانت البيبرسية تضم أكبر عدد من

المتصوفة الذين تجرى عليهم الأرزاق من جنى (۱) بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۰۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۲

أوقافها، و قد رأى السيوطى ما آل إليه أمر التصوف فى عهده من كثرة الأدعياء الذين استمرءوا العيش داخل الخوانق دون عمل، و لم يقوموا بواجباتهم فى العبادة و التخلق بأخلاق التصوف الحقيقة، لذلك فقد وجه إليهم السيوطى نصحه بأن «الصوفى من تخلق بأخلاق الأولياء ... و من يأكل المعلوم بغير تخلق بأخلاقهم حرام» «۱».

و قد عمد السيوطى إلى قطع جعلية هؤلاء الصوفية، و لكنهم ثاروا عليه، و كادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه و رموه فى الفسقية «۲»، و كانت هذه الحادثة فى جمادى الآخرة عام ۹۰۳ ه، و لم يكتف الصوفية بإهانتهم للشيخ بل إنهم شكوه إلى السلطان وسعوا لديه فى سبيل قتله، و قد شجعهم و أعانهم على ذلك الأمير طومان باى الذى كان يلى «الدوادارية الكبرى» و يعد صاحب المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان، و كان بين السيوطى و بين طومان باى عداوة، و قد مر السيوطى ببعض المحن خلال هذه الأزمة، و قد سعى طومان باى جاهدا فى سبيل قتله كما لم يكف أعداؤه عن تأليب ذوى الشأن من العلماء و الأمراء عليه، و يبدو أن السيوطى أبدى من الشجاعة و رباطة الجأش خلال أزمته ما جعل تلميذه الشعرانى يذكر أنه «لم يتغير منه شعرة واحدة» «۳»، و يدافع الشعرانى عن السيوطى و يهاجم الذين ثاروا عليه كثيرا حتى يقول: «إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد و مات على أسوأ حال» «۴».

و يستدل بعض الباحثين بهذه الحادثة على فساد التصوف، و انتشار الجهل بين الصوفية الذين ارتفع قدرهم بين العامة على قدر العلماء، كما يرى أن السيوطى كان على حق فى سلوكه مع هؤلاء الصوفية «۵».

و لم ينل أعداء السيوطى الذين انتهزوا هذه الأزمة للايقاع به ما يبتغون، (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱.

(۲) ابن إياس: ج ۲ ص ۳۳۹.

(۳) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱ ص ۴۲.

(۴) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱ ص ۴۲.

(۵) عبد المتعال الصعيدى: المجددون فى الاسلام ص ۳۴۲- ۳۲۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۳

و مرت الفتنة و ظل السيوطى فى مشيخة البيبرسية، و لم تكن هذه الحادثة سببا فى فقده لمشيخة البيبرسية كما توهم كاتب ترجمته فى دائرة المعارف الاسلامية «۱»، و قد وقع فى هذا الوهم أيضا عبد الوهاب حمودة «۲»، و ليس الأمر كما ذهبا إليه لأن هذه الحادثة كانت فى جمادى الآخرة عام ۹۰۳ ه، و قد نص عليها ابن إياس المؤرخ المعاصر لهذه الفترة، ثم إن تركه لمشيخة البيبرسية لم يكن إلا فى رجب عام ۹۰۶ ه أى بعد ثلاث سنوات من الحادثة السابقة، و لم يكن سبب تركه لها هو أصداء الحادثة المذكورة، بل كان سبب عزله من مشيخة الخانقاه كما سنرى هو تولى طومان باى السلطنة بعد أن كان يشغل منصب الدوادارية الكبرى، و حينئذ تخوف السيوطى على نفسه فاختفى فى جهة غير معلومة و كان السلطان قد طلبه ليفتك به «فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البلبيسى فى مشيخة الخانقاه البيبرسية عوضا عن الجلال السيوطى بحكم صرفه عنها»، و قد نص على ذلك ابن اياس فى حوادث جمادى الآخرة عام ۹۰۶ ه «۳».

و هكذا فلقد ظل الرجل بعد حادثة الصوفية فى مشيخة البيبرسية بالرغم من كثرة الأذى الذى تعرض له، و الثورة الجامحة التى شارك فيها أعداؤه المتربصون به و التى كادت تعصف به.

و يبدو أنه قد تعرض لبعض الأذى من أعدائه بعد هذه الحادثة مما جعله ينفث ما يشعر به من ظلم فى رسالته «تأخير الظلامة إلى يوم القيامة» «۴»، و بالرغم من اتباعه فى رسالته منهجه فى التأليف الذى يكثر فيه من النقول، و على الرغم من أن الرسالة فى جملتها

مجموعة من النقول و القصص التى تذكر ليكون للمؤتسى بأصحابها أسوة حسنة فإن روح الرسالة تشعرنا بمدى ما تعرض له و أحس به خلال هذه الفتنة و بعدها.

و قد تطورت الأحداث بعد ذلك على غير ما يهوى السيوطى، فقد آلت (۱). «ituyuSlA« malsIfoaideapolc ycnEehT

(۲) صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ۱۵۵.

(۳) بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۹۱، ۳۹۲.

(۴) تأخير الظلامة إلى يوم القيامة (مخطوط بدار الكتب المصرية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۴

السلطنة إلى طومان باى ألدّ أعدائه، و الذى تولى كبر الحملة عليه إبان أزمته السابقة، و كان طومان باى عسوفا سفاكا للدماء كثير التدبير للمؤامرات، و قد قتل كثيرا من خصومه من أمراء المماليك أثناء حكمه، و بالرغم من ذلك فقد كان يظهر العدل فى بعض الأمور مما حببه إلى العامة من الناس و إن كان يخفى فى نفسه غير ما يظهر «۱»، و هذه الصفات بطبيعتها كفيلة بأن تجعل رجلا مثل السيوطى يخشى على نفسه منذ اليوم الذى ولى فيه طومان باى السلطنة.

لذلك اختفى السيوطى بعد توليه فى عام ۹۰۶ ه «۲»، و كان حصيفا فى تصرفه إذ إن السلطان قد طلبه ليفتك به، و قد كثر الواشون لديه، و قد أوغروا صدره عليه مما جعله يتهدد بتقطيعه إربا إربا «۳».

و مكث السيوطى مختفيا منذ جمادى الآخرة عام ۹۰۶ ه، لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر، و فى خلال هذه الفترة فقد وظيفته بالبيبرسية إذ صرف عنها و تولى مكانه الشيخ يس البلبيسى «۴».

و يبدو أن السيوطى قد عانى مدة اختفائه كثيرا من الآلام لما كان يبلغه من وعيد السلطان و تهديده، بيد أنه قابل هذه المحن بالصبر و الشجاعة التى أثرها عنه تلامذته الذين شاهدوه فى محنته أو نقلوا عنه فيما بعد أخبار هذه المحنة.

و يترجم الشعرانى لشيخه السيوطى ترجمة تفيض بالحب و الاعجاب، و يذكر له كثيرا من المواقف الحسنة، و ما أظهره اللّه على يده من الكرامات، و مهما يكن من شىء فى أمر الخوارق التى أوردها السيوطى، و سواء أ كانت قد حدثت بالفعل أم كانت من قبيل المنقبيات فإننا نستطيع أن نستدل منها دلالات تعيننا على تعرف الأحداث التى مر بها المترجم له و المواقف التى وقفها.

و مما رواه الشعرانى من أخبار هذه المحنة أن أعداء السيوطى قد أججوا النار (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۴ ص ۱۱، ج ۲ ص ۳۹۵، ۳۹۶.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۳۹۱، ۳۹۲.

(۳) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۲ ص ۴۳.

(۴) بدائع الزهور ج ۲ ص ۳۹۱، ۳۹۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۱۵

عليه عند السلطان الذى كان يضمر له الكراهية من قبل فأقسم السلطان أن يقطعه قطعا فبلغ ذلك السيوطى فقال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أخبرنى أن رأسه تقطع فى يوم كذا و كذا، فكان الأمر كما قال «۱».

كما روى الشعرانى عن الشيخ عبد القادر الشاذلى أن السيوطى امتحن «المحن الكثيرة و ما سمعته يوما واحدا ينحو على من آذاه من الحسدة و لا يقابله بسوء و إنما يقول: حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و صنف فى ذلك كتابا سماه تأخير الظلامة إلى يوم القيامة» «۲».

على أن دياجير الظلمة التى اكتنفت السيوطى فى محنته السابقة و فرضت عليه أن يعيش فيها لم تلبث أن تبددت، و انقشعت السحب القاتمة التى ظللت سماء حياته لثلاثة أشهر، فقد دالت دولة طومان باى بعد ثورة المماليك عليه، و اضطر إلى الهرب، و آلت السلطنة إلى الغورى الذى بويع فى مستهل شوال عام ۹۰۶ ه و فى ذلك اليوم ظهر السيوطى بعد اختفائه و قد كفاه اللّه شر السلطان السابق «۳».

و تقبل الدنيا مرة ثانية على السيوطى فيرى بعينيه ما يحل بخصمه طومان باى إذ هرب و اختفى و كثر التفتيش عنه من قبل السلطان الجديد، و ظل مختفيا نحو ثلاثة أشهر ثم انتهى أمره بأن حصره المماليك فى أحد المنازل و ألقى بنفسه يحاول الفرار و لكنهم اهتبروه بسيوفهم و مزقوه شر ممزق «۴».

و قد تحول السيوطى بعد هذه المحنة تحولا كبيرا، و لا شك أن هذه الأحداث كان لها دور كبير فى تحوله الأخير، و لكن الباعث على هذا التحول كان كامنا فى نفسه من قبل، فلقد سبق له أن اعتزل الناس و اعتكف فى بيته فترة من الوقت بعد بلوغه الأربعين و اعتزاله وظائفه، ثم إن اتجاه الزهد و الانقطاع كان مؤثرا فى حياته طيلة المدة التى تولى فيها مشيخة البيبرسية، بالرغم من مشاركته فى الحياة العامة و إسهامه فى النفع العام بالتدريس حيث ظل إلى ذلك الحين يملى الحديث (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱، ۲۲ ص ۴۲، ۴۳.

(۲) المصدر السابق ورقة ۲۲ ص ۴۳.

(۳) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۴ ص ۵.

(۴) المصدر السابق ج ۴ ص ۹، ۱۰.

بالجامع الطولونى «۱» و كان يتردد على المسجد كما سبقت الاشارة يوم الجمعة من كل أسبوع.

العزلة الأخيرة:

و لكنه بعد هذه المحنة اتجه إلى الاعتكاف و اعتزال الناس، و نحن نقرر أن اعتزاله و اعتكافه الذى ذكره المترجمون له إنما كان بعد هذه المحنة فى عام ۹۰۶ ه، و يصف المترجمون ذلك بأنه «لمّا بلغ أربعين سنة أخذ فى التجرد للعبادة و الانقطاع إلى اللّه تعالى و الاشتغال به صرفا، و الاعراض عن الدنيا و أهلها كأنه لم يعرف أحدا منهم، و شرع فى تحرير مؤلفاته و ترك الافتاء و اعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه بالتنفيس، و أقام فى روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات» «۲».

فصاحب هذا النص و غيره من المترجمين «۳»، يوقتون انقطاع السيوطى و اعتكافه و ميله للعزلة و مقامه بالروضة ببلوغه الأربعين، و قد سبق أن رأينا أن ذلك يتنافى مع ما قدمنا من ترجمة حياته بعد الأربعين و توليه مشيخة البيبرسية و قيامه بالقاء الدروس بالجامع الطولونى و غير ذلك من أنواع الأنشطة، و أظهر من ذلك سعيه لتولى منصب رئاسة القضاء.

و الحق أن ما يذكره أصحاب هذه التراجم من أمر هذا الاعتكاف إنما كان بعد المحنة الأخيرة التى واجهها السيوطى عام ۹۰۶ ه و هو فى السابعة و الخمسين من عمره، و منذ ذلك الحين اتجه إلى الاعتكاف تماما و ابتعد عن المشاركة فى الحياة العامّة، و انقطع للعبادة و التأليف بمنزله بالروضة حتى وافته المنية. (۱) أحكام قراقوش، رسالة مخطوطة ضمن مجموعة رسائل برقم ۲۵ مجاميع قوله، و فى مقدمتها ما يدل على أنه كان إلى عام ۸۹۹ يختلف إلى المسجد الطولونى ورقة رقم ۱۶۷.

(۲) شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۳.

(۳) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۷، ۱۸، ص ۳۴، ۳۵.

و قد زهد السيوطى فى الحياة و رغب عن المناصب التى كان يشغلها من قبل أو التى حدثته نفسه بالطموح إليها فى وقت من الأوقات، و صمم هذه المرة و قد بلغ السابعة و الخمسين من عمره على أن يعتكف فى بيته و أن يبتعد عن الحياة بما فيها من زينة بدت زائفة أمام عينيه، و ما بها من مظاهر أصبحت نفسه لا تطيقها، لا سيما أنه رجل صوفى درس التصوف و انطبعت به نفسه فأحب أن يطبق الجانب العملى منه بعد أن أحاط بالجانب النظرى، فالتصوف كما يعرفه أهله علم و عمل، و لا يجوز للمتصوف الحقيقى أن يسلك

أحدهما دون الآخر و إلا كان عمله مبتورا.

و نحن نقرر هنا أن الرجل الذى دافع عن التصوف طيلة حياته، و ألف فيه عديدا من الكتب و الرسائل و ولى مشيخته فى بعض الخوانق قد أراد أن يسلك طريق الصوفية عملا بالتجرد و الزهد و الاعتكاف، و الانقطاع إلى اللّه و العبادة.

و لم يكن هذا الاتجاه- فى حقيقة الأمر- شاغلا للسيوطى عن العلم و المشاركة فيه بل إنه ألف فى هذه الفترة من حياته كثيرا من المؤلفات، و قد أتاح له الاعتكاف و الاعتزال و الابتعاد عن الحياة بمشاغلها الفرصة للعلم و التأليف.

و كان السيوطى يقيم فى منزل يطل على النيل بجزيرة الروضة بجنوب القاهرة، و كانت جزيرة الروضة من الأماكن المفضلة فى السكنى آنذاك، و قد أشاد السيوطى بالروضة و جمالها و فضلها فى السكنى على غيرها من الأحياء الأخرى «۱»، بيد أنه بعد اعتكافه الأخير و انقطاعه كلية فى منزله بها لم يكن يفتح طاقات بيته المطلة على النيل «۲».

و تجلت صور العزوف عن الدنيا و أهلها و زينتها و سلطانها فى سلوك السيوطى فى عزلته الأخيرة حين كان يأتى الأمراء و الأغنياء و يعرضون عليه الأموال فيردها، و حين أرسل إليه الغورى خصيا و ألف دينار فأخذ الخصى و أعتقه و جعله خادما فى الحجرة النبوية، و ردّ الألف دينار و قال لقاصد السلطان: لا تعد تأتينا قط (۱) مقامة الروضة: روضة مصر، مقامات السيوطى ص ۶۳- ۶۸.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۸ ص ۳۵.

بهدية فإن اللّه أغنانى عن مثل ذلك «۱»، و قد كان السيوطى يرى منذ وقت مبكر فى حياته و بعد اصطدامه بالسلطان قايتباى أن عدم التردد إلى السلاطين و الأمراء أسلم للمسلم و كذلك رد أموالهم عليهم.

و فى هذه الفترة الأخيرة من حياة السيوطى عرض عليه الغورى أن يلى مشيخة مدرسته التى ابتناها بالقبة الزرقاء فلم يقبل، و يبدو أن السلطان قد ألح عليه، و لكن الرجل قد ثبت على رأيه و آثر البقاء فى عزلته «۲».

و لقد كان السيوطى يحاول أن يعتزل منذ وقت مبكر، و كان ينفث فى كتاباته ما يدل على ميله إلى الزهد و إحساسه بدنو الأجل، فهو حين يترجم لنفسه و قد كتب هذه الترجمة و هو فى الحلقة الخامسة من عمره يقول بعد أن يعدد العلوم التى حصلها و أنه اكتملت لديه آلات الاجتهاد: «أقول ذلك تحدثا بنعمة اللّه تعالى لا فخرا، و أى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر، و قد أزف الرحيل، و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر» «۳».

و ظل السيوطى فى عزلته و انقطاعه إلى العبادة و التأليف، و ابتعاده عن الحياة العامة بالرغم من ميل السلطان الغورى إلى إشراكه فى الحياة العامة و توليته بعض المناصب لما كان يكنه له من إكبار فى نفسه، حتى إذا ما انقضت سنوات ثلاث على هذه العزلة و توفى الشيخ يس البلبيسى شيخ البيبرسية (ذو الحجة عام ۹۰۹ ه) «۴»، عرض على السيوطى أن يعود مرة ثانية إلى وظيفته السابقة و لكنه رفض «۵».

و قد كان السيوطى فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته يسلك المسلك العملى للصوفية و قد أعرض عن الدنيا و أهلها و امتنع عن الذهاب إلى الأمراء و السلاطين، و قد روى أنه سئل أن يقضى حاجة لإنسان عند الغورى، و كان (۱) المصدر السابق ورقة ۱۸ ص ۳۶، شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۳.

(۲) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۱ ص ۴۱.

(۳) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۴) ابن العماد: شذرات الذهب ج ۸ ص ۴۳ ترجمة البلبيسى.

(۵). « ituyuSlA« malsIfoaideapolc ycnEehT

الغورى يقدره و يعرف مكانته، و لكنه اعتذر عن ذلك بأنه يرى النبى صلى اللّه عليه و سلم يقظة، و يخشى على نفسه أن يجتمع بالغورى فيحتجب النبى صلى اللّه عليه و سلم عنه «۱»، و نحن لا نستبعد صدور مثل هذا القول عن السيوطى، فليست القصة من قبيل المنقبيات التى رواها له الشعرانى، فقد ألف السيوطى رسالة فى «إمكان رؤية النبى و الملك» سماها بتنوير الحلك «۲»، و قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث و الآثار عن الصحابة و التابعين و الأولياء التى يستدل بها على إمكان ذلك، كما أورد أسماء كثيرين ممن وقعت لهم هذه المكاشفات، و بالرغم من أنه لم يصرح فى رسالته بحدوث الرؤية له، فإن ما ذكره و دافع عنه يشهد لصحة ما نذهب إليه من صدق نقل الرواية السابقة عنه.

و لست هنا بصدد مناقشة صحة الموضوع فذلك لا يفيدنا فى شىء، و إنما يهمنا ما يوحى به من دلالات و ما يفسره لنا من الاتجاه الذى سار فيه الرجل فى المرحلة الأخيرة من حياته و هو اتجاه التصوف العملى.

وفاته:

لبث السيوطى فى المرحلة الأخيرة من حياته على حاله التى قدمنا تفصيلها حتى وافاه أجله سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى عام ۹۱۱ ه الموافق (۱۸ أكتوبر عام ۱۵۰۵ م) و كان مرضه سبعة أيام بورم شديد فى ذراعه اليسرى يقال إنه خلط أو انحدار، و قد استكمل من العمر إحدى و ستين سنة و عشرة أشهر و ثمانية عشر يوما، و كان له مشهد عظيم، و دفن بحوش قوصون خارج باب القرافة من جهة الشرق، و قبره ظاهر و عليه قبة «۳».

و قد ذكر ابن اياس هذا التاريخ نفسه بيد أنه جعل وفاته يوم الخميس، كما أخطأ فى حساب عمره حيث جعله اثنين و ستين عاما و أشهرا «۴». و الصحيح ما (۱) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۴ ص ۲۸.

(۲) الرسالة بكتاب الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۳۷- ۴۶۰.

(۳) ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۳ ص ۴۵، شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۵.

(۴) ابن إياس ج ۴ ص ۸۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۰

تقدم ذكره، و قد ذكر ابن اياس أن بعض الناس اشترى قميصه للتبرك به بعد موته «۱»، و هذا يدل على حسن اعتقاد الناس فيه.

قبر السيوطى:

لأحمد تيمور رسالة بعنوان «تحقيق قبر السيوطى»، و يبدو أن الدافع الذى حمله على كتابه بحثه ما تذهب إليه العامة من وجود قبر السيوطى فى أسيوط فى ضريح بأحد المساجد المسماة باسمه، فكان بعض من يسمع أنه دفن فى حوش قوصون يتوهم دفنه فى أشهر المسجدين فقام ببحثه تصحيحا لهذه الأخطاء و تصحيحا لخطأ وقع فى خطط على مبارك «۲». و قد تتبع تيمور ما قيل فى وفاة السيوطى و موضع دفنه «۳»، و تكلم عن تاريخ القرافة الكبرى و القرافة الصغرى بالقاهرة و عن قرافة الإمام و حوش قوصون «۴»، و ينتهى المحقق بعد ذلك إلى أن «الذى دلت عليه هذه النصوص و الآثار و طابقه أيضا المعروف عن موضع قبره الآن أنه مدفون فى هذه البقعة الواقعة شرقى باب القرافة المعروف اليوم عند العامة ببوابة السيدة عائشة، و عند بعضهم ببوابة حجاج خطأ، فإذا خرج قاصد زيارته من هذا الباب متجها إلى الشرق و سار قليلا مجتازا السكة الحديد الذاهبة من قراميدان إلى طرا اعترضه فى أول هذه الجبانة شارع ممتد من الشمال إلى الجنوب الشرقى كتب على ألواحه (شارع القرافة الكبرى)، ثم يواجهه شارع خارج منه إلى جهة الشرق كتب عليه (شارع سيدى جلال)، و المراد جلال الدين السيوطى لأنه مفض بسالكه إلى حوش قوصون الذى دفن فيه، و قبره مشهور

عنـد أهـل هـذه الناحيـة، يعرفه الخلف عن السـلف من زمن وفـاته إلى اليوم لاـ يشـك فى ذلك شاكّ، و يرجع الفضل فى حفظه من الدثور كل هذه المدة إلى حسن اعتقاد الناس فيه، و قصدهم إياه بالزيارة كل حين، و كانوا يقيمون له حضرة كل أسبوع ثم أبطلوها و اقتصروا على المولد الذى اعتادوا عمله كل سنة (۱) المصدر السابق ج ۴ ص ۸۳.

(۲) مقدمة محيى الدين الخطيب لكتاب تحقيق قبر السيوطى ص ۳.

(۳) أحمد تيمور (باشا): تحقيق قبر السيوطى ص ۴- ۶.

(۴) أحمد تيمور: تحقيق قبر السيوطى ص ۷- ۱۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۱

فى نصف شعبان» «۱».

كـان هـذا زمن المرحوم أحمـد تيمور، أما الآن فقـد أبطلت الحضـرة و المولـد و نزع قضـيب السـكة الحديـد، و قـد ذكر تيمور زيارة النابلسى للقبر فى أوائل القرن الثانى عشر حيث ذكر أنه مدفون و حوله قبور، و هو ما عليه الحال إلى وقتنا.

صفة المقام:

أما صـفة المقام فهو زاوية متوسـطة يقع القبر فيها بجوار حائط القبلة فى مقصورة من خشب تحت قبة صغيرة و فوقه تابوت مغطى بستر أخضـر مطرز بآيـات كريمـة و على بـاب الزاويـة من الخـارج لوح رخـام نقش عليه: «هـذا مسـجد العـارف بـاللّه سـيدى جلال الـدين الأسـيوطى رحمه اللّه»، و فوق هـذا اللوح لوح آخر لاـ صـلة له بهـذا المقام مكتوب فيه: «العرب و العجم و العز و النعم سـنة ۱۲۱۱»، و الظاهر من هيئته أنه بقية لوح كان على أحد القبور فنقله بعض العوام إلى هذا المكان و ليس تاريخ عمارة كما ظن على مبارك «۲».

هـذا ملخص مـا ذكره تيمور، و قـد قمت بزيارة القبر و الضـريح و قـد وجـدت هـذا الوصف لا يزال باقيا كما ذكره المحقق السابق، و الجـدير بالـذكر أن الزاويـة بها قبور من الداخل، و قد منع الدفن فيها منذ أعوام قلائل، و خارج الزاوية توجد قبور كثيرة لا يزال الدفن بها قائما إلى الآن.

و جدير أن نلفت إلى أن المسـجد الموجود بمدينة أسـيوط إلى الآن و المعروف باسم جلال الدين السـيوطى، و به ضريح تزعم العامة أنه له، و من عاداتهم اقامـة مولـد له كل عام، ليس له صـلة بالجلال السـيوطى، و ليس به قبره، و المسـجد قد أنشـئ قبل السـيوطى فى القرن الثامن الهجرى، و النسبة حدثت خطأ «۳». (۱) المصدر السابق ص ۱۶.

(۲) نفس المصدر ص ۲۰، ۲۱.

(۳) أحمد تيمور: تحقيق قبر السيوطى ص ۲۳- ۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۲

مكانه فى المجتمع

اشارة

سبق أن أشـرنا إلى ما كانت تتمتع به طبقة أهل العلم فى المجتمع إذ كان لأبنائها مكانة رفيعة بالمجتمع جعلتهم المعبرين عن الشعب و المدافعين عن حقوقه لدى الحكام، كما اتخذهم الناس وسطاء لقضاء حوائجهم.

و قد كان والد السـيوطى من أبناء هذه الطبقة تمتع بما تمتعت به، بالاضافة إلى ما كان له من صلات طيبة بخلفاء بنى العباس بمصر، و كانت صلته أكثر توثقا بالخليفة المستكفى باللّه و قد بقيت هذه الصّلات الطيبة بعد وفاة والد السيوطى فنشأ منذ صغره مقربا إلى بيوت

الخلفاء العباسيين.

و قد كان كمال الدين بن الهمام وصيا عليه بعد وفاة والده، و كان كمال الدين من كبار فقهاء الحنفية و قد ولى مشيخة الشيخونية حتى عام ۸۵۸ ه، و توفى فى عام ۸۶۱ ه «۱»، و قد أعان السيوطى فى بداية حياته و قرره فى الخانقاه الشيخونية.

و قد استطاع السيوطى بعد أن أتم دراسته، و أجيز بالتدريس أن يأخذ مكانا ذا قدر فى المجتمع، و بعد تصديره فى عام ۸۷۶ ه، أصبح يعد من كبار علماء عصره. و قد ظلت مكانته- بطبيعة الحال- فى تزايد و علو، و كان له شأن و تأثير فى المجتمع طيلة حياته، و نستطيع هنا أن نورد بعض الأمثلة التى تدل على أهميته فى الحياة العامة و اعتباره رجلا له قدره و كلمته المسموعة فى المجتمع.

و أول الأحداث العامة التى كان له فيها دور مشهود ما حدث فى بداية عام ۸۷۵ ه من جدل بين العلماء حول أقوال ابن الفارض، إذ تعصب عليه جماعة من العلماء و رموه بالكفر و الفسق و نسبوه إلى من يقول بالحلول و الاتحاد، و كان (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۵۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۳

«رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعى، و قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة و ولده عبد البر، و نور الدين المحلى، و قاضى القضاة عز الدين المحلى، و تبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه، و أما من تعصب من العلماء للشيخ فهم الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى، و الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، و الشيخ بدر الدين بن الغرس، و نجم الدين يحيى بن حجى و شيخنا الجلال بن الكمال الأسيوطى و الشيخ زكريا الأنصارى و تاج الدين بن شرف» «۱».

و هكذا وقف السيوطى بين مجموعة من كبار علماء عصره يدافع عن ابن الفارض، فوقف إلى جانب شيخيه الكافيجى و السيف الحنفى، و قد ألف الكافيجى فى الدفاع عن ابن الفارض، و ألف السيوطى رسالة سماها «قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض» و يذكر أن العلماء قد وقع بينهم صدامات عنيفة حول هذا الموضوع، و تعرض البقاعى و ابن الشحنة لهجوم عنيف من أنصار ابن الفارض، و قد هجا الشهاب المنصورى شاعر عصره البقاعى بقوله:

إن البقاعىّ بما قد قاله مطالب

لا تحسبوه سالما فقلبه يعاقب «۲»،

و هجاه بقصيدة أخرى، و قد تعصب السلطان و بعض الأمراء لابن الفارض، و قد استفتى السلطان الشيخ زكريا الأنصارى فى هذه المسألة فأفتاه بتبرئة ابن الفارض مما نسب إليه، و أن للصوفية تعبيراتهم و مصطلحاتهم الخاصة بهم، و التى لا ينبغى أن تؤخذ ألفاظهم فيها على ظاهرها، و قد انتهت هذه الفتنة بانتصار العلماء الذين دافعوا عن ابن الفارض و من بينهم السيوطى انتصارا كبيرا. (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۱۹.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۱۹، و هو يريد أنّ لفظ «يعاقب» هو مقلوب لفظ «بقاعى» و يتصور أن فى ذلك دلالة على عقابه بسبب هجومه على ابن الفارض، و تدل هذه الحادثة على مكانة التصوف فى المجتمع و نصرة الحكام لأهله، فضلا عن تعصب العوام للصوفية، و هو ما جعل الصراع غير متكافئ بين أنصار ابن الفارض و أعدائه.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۴

و لقد ساعد على هذا الانتصار اعتقاد العوام البالغ فى الشيخ عمر بن الفارض حتى ذكر أنهم حاولوا قتل البقاعى و رجموه بالحجارة، كما أن السلطان انتصر له و عزل ابن الشحنة من القضاء «۱» و تدلنا هذه الحادثة على منزلة السيوطى منذ بداية حياته العلمية بين العلماء، و مشاركته فى الأحداث العامة، و الحقيقة أن السيوطى كانت له مبادئ و آراء تمسك بها طيلة حياته و دافع عنها، و قد نصب من نفسه مدافعا عن رجال التصوف المعروفين فصار ينفى عنهم كل شبهة أثيرت حولهم و يحاول أن يبين التزامهم بالكتاب و السنة و موافقتهم فى مسالكهم لهما. فهو لا- يفتأ يذكر بعد ذلك فى موضع آخر أنه «ما زالت العلماء و محققو الصوفية يبينون بطلان القول

بالحلول و الاتحاد، و ينبهون على فساده، و يحذرون من ضلاله» «۲».

و غدا السيوطى عالما يشار إليه بالبنان فى القاهرة منذ ذلك الوقت، و قد وردت عليه كثير من الأسئلة التى أجاب عليها أحسن إجابة، و استفتى فى كثير من المعضلات فأفتى فيها، و من الأسئلة المبكرة التى تدل على تمكنه و شهرته و ذكائه و عقله ما ورد إليه عام ۸۷۶ ه، و هى مجموعة من الألغاز العلمية المنظومة طلب إليه أن يجيب عنها نثرا و نظما فأجاب أصوب جواب «۳».

و قد طبقت فتاوى السيوطى بلاد مصر و الشام و سائر بلاد الاسلام «۴»، و انتشرت كتبه فى حياته و انتفع بها الناس، و نلاحظ فى فتاواه و كتاباته الكثيرة انتقادا لكثير من نواحى الحياة فى المجتمع و حثا على الاصلاح، و من أوضح الأمثلة على ذلك فتواه بهدم أحد البيوت التى أقيمت إلى جوار أحد المساجد (۱) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۱۲۰، ۱۲۱.

(۲) السيوطى: تنزيه الاعتقاد عن الحلول و الاتحاد، رسالة ضمن كتاب الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۲۳۶.

(۳) الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية، رسالة له طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۹۳.

(۴) انظر مثلا رسالته: المباحث الزكية فى المسألة الدوركية، و هى استفتاء عن وقف بإحدى بلاد خوزستان، الحاوى للفتاوى ج ۱ ص ۲۵۳، انظر رسالته: فتح المطلب المبرور و برد الكبد المحرور فى الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور، الحاوى ج ۱ ص ۴۵۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۵

و اتخذها صاحبها لايواء المفسدين من الزناة و غيرهم، و صارت مقصدا لأهل اللهو و العبث، فأفتى السيوطى بهدمها و كتب فى ذلك رسالته «هدم الجانى على البانى» «۱».

و كانت كتابات السيوطى فى حياته موضع اهتمام عامة الناس و خاصتهم، و كانت فتاواه تحظى بهذا التقدير، و كان السلاطين يقدرونه تقديرا بالغا و يعرفون له منزلته، و يتّبعون ما يفتى به أو يشير إليه، ففى عام ۸۹۶ ه، ذاع بين الناس فتوى السيوطى بعدم جواز البناء على ساحل الروضة لأن الاجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية «۲» و قد كتب فى ذلك رسالة سماها «الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر» «۳»، و قد أذعن لهذه الفتوى القضاة فى عصره بعد أن أرسلها إليهم، و قد نظم السيوطى هذه الرسالة فى منظومه سماها «النهر لمن برز على شاطئ النهر» «۴»، و قد أرسل السيوطى بفتواه إلى السلطان «فأحاط بذلك علما و توعد أهل البروزات منعا و هدما» «۵».

و كانت صلة السيوطى طيبة بالسلطان قايتباى الذى عاصره أطول فترة فى حياته، و كانت العادة فى التهانى أن يصعد إلى السلطان قضاة القضاة و أعيان الدولة لتهنئته بالأعياد أو بأول كل شهر هجرى و كان السيوطى ممن يصعد مع القضاة، و كان يفتقد من قبل السلطان إذا تخلف عن الصعود، و فى إحدى المرات وجه السلطان مسألة للسيوطى عن سنة سنها النبى صلى اللّه عليه و سلم و لم يفعلها، و سكت الجلال السيوطى و لم يجب و أجاب بعد ذلك فى رسالة و كان السلطان عنده كتاب يسمى «حيرة الفقهاء» و كان الجواب عن ذلك هو: الأذان، و يبدو أن سكوت السيوطى مرجعه أن الأصح أن الرسول لم يؤذن إلا عند من يقول بصحة الخبر بأنه أذن فى وقت ما، و قد أضاف السيوطى إلى ذلك ذكر بعض (۱) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۱۷۷.

(۲) ابن إياس: بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۷۱.

(۳) الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر: رسالة له ضمن كتاب الحاوى ج ۱ ص ۲۰۸.

(۴) المصدر السابق ج ۱ ص ۲۲۶.

(۵) نفس المصدر ج ۱ ص ۲۲۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۶

السنن التى سنها الرسول و لم يفعلها «۱».

بيد أن علاقته لم تلبث أن تغيرت بعد صعوده فى إحدى المرات و هو يلبس الطيلسان، و قد تقدم ذكرها، و قد أذكى نيران الوقيعة

بينهما ابن الكركى الذى كان خصما للسيوطى و قد انتهى الأمر بأن امتنع السيوطى عن تهنئة السلطان أو الذهاب إليه و ظل على تمسكه بهذا المبدأ بقية حياته فأصبح لا يقصد السلاطين و الأمراء و لا يسعى إليهم، لأنه كان يرى أن السنة عدم سعى العلماء إلى السلاطين، و من ثم فقد أصبح السلاطين و الأمراء هم الذين يقصدونه و يسعون إلى زيارته أو يرسلون إليه الرّسل.

و هكذا تمتع بمنزلة سامية بين أبناء عصره: حكامهم و محكوميهم، و كان فى القاهرة علما بارزا من أعلامها، و مؤثرا كبيرا فى حياة أبنائها، كما كان معروفا فى سائر بلاد الاسلام.

السيوطى بين أنصاره و خصومه:

و من الطبيعى أن تجر عليه هذه الصلات، و تلك المكانة بعض العداوات التى تفرضها طبيعة الصراع و التنافس بين الناس فى هذه الحياة، لذلك كانت حياته مليئة بالصراع بينه و بين بعض علماء عصره و أمرائه، و قد كانت بداية خصوماته منذ ذلك الوقت الذى وقف يدافع فيه عن ابن الفارض و يهاجم أعداءه، بيد أن الخصوم الذين صمدوا فى وجهه طويلا يناضلونه كانوا غير أولئك الذين هاجمهم و انتصر عليهم من قبل.

و هناك حادثة أخرى يذكر أنها من أوائل الوقائع «۲» التى تعرض فيها لهجوم عنيف من قبل علماء عصره و تلك هى فتواه بتحريم الاشتغال بعلم المنطق و كتبه، و يبدو أن كتابه «صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام»، الذى اعتمد فيه على كتاب ابن تيمية فى الرد على المنطق كان من أول مؤلفاته التى (۱) بدائع الزهور ج ۲ ص ۲۸۰، حوادث عام ۸۹۹ ه.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ۳ ص ۶.

هاجم فيها المنطق الأرسطى، و من أوائل مؤلفاته بصفة عامة، و قد تعرض بسببه لحملة من بعض العلماء كما أشار السخاوى «۱»، و على أية حال فقد تمسك السيوطى بأقواله و أبداها فى كل موضع، و جهر برأيه، و لم يأبه بخصومه «۲». ثم إن الرجل بعد أن استحصدت قوته و ارتفعت درجته، و كثرت وظائفه تألب عليه بعض منافسيه و أقرانه من العلماء و طعنوا فى مواهبه و علمه و مؤلفاته، و تحاملوا عليه، و رموه بما ليس فيه، و بالغوا فى تصوير عيوبه، و عين السخط تبدى من المساوى ما لا تبديه عين الرضا، و المعاصرة كما يقول أهل الجرح و التعديل حجاب، فينبغى أن تؤخذ أقوال المتعاصرين بعضهم فى بعض بحذر شديد.

و قد انقسم عصر السيوطى إلى معسكرين: أحدهما يقوده السخاوى (۹۰۳ ه)، و من أنصاره برهان الدين بن الكركى (۹۲۲ ه)، الذى كان إماما للسلطان، و الشمس الجوجرى و القسطلانى، و شمس الدين البانى و تلاميذ هؤلاء الكثيرون و أتباعهم. و المعسكر الآخر يقوده السيوطى و من أنصاره الفخر الديمى، و الشيخ أمين الدين الأقصرائى، و زين الدين قاسم الحنفى، و سراج الدين العبادى، و غيرهم و تلاميذهم الكثيرون.

و لبثت الخصومة بين الفريقين زمنا طويلا، بل إن هذه الخصومة قد استنفدت أعمار هؤلاء جميعا، و الذى نلاحظه فى كتابات الفريقين المتنوعة و المختلفة تأثرها بهذه الخصومة، فلا نلبث أن نجد بين حين و آخر عبارة أو عبارات يقصد بها الخصوم ردا عليهم أو قدحا فيهم.

و قد ألف السيوطى فى الانتصار لنفسه و مهاجمة خصومه مجموعة من الرسائل فضلا عن هجومه فى كثير من كتاباته الأخرى، و أهم ما ألفه «الكاوى فى الرد على السخاوى»، و «الجواب الذكى عن قمامة ابن الكركى» و «الصارم الهندكى فى عنق ابن الكركى»، و له فى الرد على الجوجرى «الحبل الوثيق فى نصرة الصديق»، و قد هاجمهم أيضا فى رسالته «التنفيس فى الاعتذار عن الفتيا (۱) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۲) القول المشرق فى تحريم الاشتغال بالمنطق: رسالة ضمن كتاب الحاوى للفتاوى ج ۱ ص ۳۹۳- ۳۹۷، و الرسالة مخطوطة ضمن

مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۶۰۶ ب.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۸

و التدريس»، و فى «مسالك الحنفا فى والدى المصطفى»، و فى كثير من المواضع الأخرى.

و قد تعرض السيوطى لهجوم عنيف من قبل خصومه كما تعرض لكيدهم له لدى أولى الأمر و قد ترجم له السخاوى ترجمة مظلمة فى كتابه «الضوء اللامع»، و وجه إليه مجموعة من الاتهامات و الانتقادات كما غمزه فى مواضع كثيرة، و أهم هذه الانتقادات ما يتصل بسرقة المؤلفات فلقد ادعى السخاوى أن السيوطى قد اختلس منه حين كان يتردد إليه كثيرا مما عمله «كالخصال الموجبة للضلال، و الأسماء النبوية، و الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم، و موت الأبناء، و ما لا أحصره، بل أخذ من كتب المكتبة المحمودية و غيرها كثيرا من التصانيف التقدمة التى لا عهد لكثير من العصريين بها فى فنون فغير فيها يسيرا و قدم و أخر و نسبها لنفسه، و هوّل فى مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئا مما لا يوفى ببعضه» «۱».

كما ذكر السخاوى أن هناك مؤلفات للسيوطى اختلسها من مصنفات ابن حجر و هى «لباب النقول فى أسباب النزول، و عين الاصابة فى معرفة الصحابة، و النكت البديعات على الموضوعات، و المدرج إلى المدرج، و تذكرة المؤتسى بمن حدث و نسى، و تحفة النابه بتلخيص المتشابه، و ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون، و الأساس فى مناقب بنى العباس، و جزء فى أسماء المدلسين، و كشف النقاب عن الألقاب، و نشر العبير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير» «۲»، و يعقب على ذلك قائلا: «فكل هذه تصانيف شيخنا، وليته إذ اختلس لم يمسخها، و لو نسخها على وجهها لكان أنفع و فيها مما هو لغيره الكثير» «۳».

تلك أهم الاتهامات التى وجهت إلى السيوطى من قبل أكبر خصومه، و لم يكتف السخاوى بهذه التهمة بل وجه إليه عديدا من الانتقادات القاسية منها أنه كثير المجازفة، و أنه كان يكذب فى بعض الأحيان، و منها أنه كثير الادعاء، يقع (۱) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۶.

(۲) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۸.

(۳) المصدر السابق ج ۴ ص ۶۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۲۹

فى كثير من التصحيف و التحريف لكونه لم يزاحم الفضلاء فى دروسهم بل استبد بأخذه من بطون الدفاتر و الكتب «۱»، كما أنه سريع الكتابة معروف لدى السخاوى بالهوس و مزيد الترفع حتى على أمه، كذلك ترفعه على شيوخه و من أسدى إليه المعروف «۲»، كما هوجم أقسى الهجوم فى دعواه بلوغ درجة الاجتهاد المطلق.

و إذا كان السخاوى قد وجه إليه هذه التهم القاسية و أشباهها فإن أنصار السخاوى لم يفتئوا أيضا يهاجمونه و يكيدون له، فقد كاد له ابن الكركى عند السلطان إبان حادثة الطيلسان التى أشرنا آنفا إليها «۳».

و إن يكن السيوطى قد عانى فى حياته من كيد خصومه الكثيرين له و هجومهم عليه، و انتقادهم له فإنه- فى حقيقة الأمر- كان أقوى منهم عريكة، و أشد بأسا، و لقد كانت قسوة الهجوم عليه كما يتضح فى بعض مواضع ترجمة السخاوى له محاولة للرد على انتقاداته القاسية لخصومه و هجومه عليهم و انتقاصه لهم.

و لئن كان قلم السيوطى سيالا كثير الانتاج فلقد وجهه إلى التعبير عن كل شىء يريده و من هنا فلقد خصص جملة من رسائله لمهاجمة خصومه، كما أن رسائله الأخرى التى لم يخصصها لهذه المعارك لم تخل من تنقصهم و مهاجمتهم فى أحيان كثيرة، و كما ترجم السخاوى للسيوطى فإن الأخير لم ينس أن يترجم له، بيد أن هذه الترجمة كانت موجزة، و يبدو أن السيوطى لم يفصل الهجوم فى ترجمته اعتمادا على كتاباته الكثيرة التى فوّق سهامها إلى أعدائه. و قد ذكر السيوطى عن السخاوى أنه لا- يحسن من غير الفن الحديثى شيئا أصلا، و أنه قد أكب على التاريخ- و هو يقصد بالتاريخ تراجم الرجال- «فأفنى فيه عمره، و أغرق فيه عمله، و سلق فيه

أعراض الناس، و ملأه بمساوئ الخلق و كل ما رموا به ان صدقا و إن كذبا، و زعم أنه قام فى ذلك بواجب، و هو الجرح و التعديل، و هذا (۱) نفس المصدر ج ۴ ص ۶۸.

(۲) نفس المصدر ج ۴ ص ۶۹، ۷۰.

(۳) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۸- ۲۰، ص ۳۶- ۴۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۰

جهل مبين و ضلال و افتراء على اللّه، بل قام بمحرم كبير، و باء بوزر كثير ...

و أنا نبهت على ذلك لئلا يغتر به أو يعتمد على ما فى تاريخه من الإزراء بالناس خصوصا العلماء و لا يلتفت إليه» «۱»، و سنرى بعد قليل أن السيوطى كان على جانب كبير من الصواب فيما اتهم به تراجم السخاوى التى كان صاحبها شديد القسوة فى أحكامه على من يترجم لهم، و لم تخل من اتباع الهوى فى بعض الأحيان.

و يكتب السيوطى ستة رسائل حول موضوع أبوى الرسول صلى اللّه عليه و سلم يتعرض فى جميعها لمسألة أحب التنبيه إليها و تأكيدها، و هى القول بنجاتهما من النار و أنهما من أهل الجنة، و يبدو أن السخاوى قد عارض السيوطى فيما ذهب إليه، أو أنه توقف فى هذه المسألة و لم يجب فيها باثبات النجاة أو نفيها كما صرح فى آخر ترجمته للسيوطى و قد هاجمه السيوطى هجوما شديدا فى بعض رسائله، و أكثر الهجوم فى مقامته السندسية حيث يقول: «ليت شعرى ما الذى أنكره على و فوق بسببه سهامه إلىّ، أ ترجيح جانب النجاة، أما لى فيه من سلف صالح؟

أما تقدمنى إليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجبال فهو عليها راجح؟ فإن اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جليا ... إلى أن يقول من نظمه:

شحّ السخاوى بالانجاء يذكره عن والدى سيد الأنباء و الأمم

إن عزّ أن يبلغ البحر الخضم روى يا ليته يستقى من وابل الديم» «۲»

و قد استمر السيوطى فى هجومه بأسلوب سيال و حجج قوية كما تعرض فى هذه المقامة لمجموعة من المسائل التى كانت مثارا للخلاف بينه و بين خصمه موجها إليه أقسى الانتقادات معتمدا فيها يورده و يحتج به على الأدلة النقلية و العقلية و قد أشار فيها إلى إنكار السخاوى إمكان رؤية الأنبياء يقظة من قبل الأحياء و قد كان السيوطى أفتى بامكانها و قد شدد السيوطى عليه النكير و ذهب إلى أن قول السخاوى يجره إلى التكفير، و عندئذ أحجم السخاوى عن إنكاره (۱) نظم العقيان فى أعيان الأعيان ص ۱۵۲، ۱۵۳.

(۲) المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية ص ۱۲، ۱۳ من ط. حيدرآباد، ص ۹۳ من ط الجوائب.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۱

و تأول ما قاله «۱»، و كان السخاوى قد ألف فى إنكاره على السيوطى مؤلفا سماه «الإرشاد و الموعظة لزاعم رؤية النبى صلى اللّه عليه و سلم بعد موته فى اليقظة» «۲»، و كان ذلك سببا فى أن يؤلف السيوطى رسالة كبيرة فى إمكان رؤية النبى و الملك يسميها بتنوير الحلك و ذلك لأن «طائفة من أهل العصر ممن لا قدم لهم فى العلم بالغوا فى إنكار ذلك و التعجب منه، و ادعوا أنه مستحيل» «۳».

كما دافع السيوطى عن فتاواه التى أفتى بها و تعرض بسببها لانتقاد بعض خصومه أو مخالفتهم فقد أفتى فى رسالته «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء» «۴»، التى تدور كما يتضح من اسمها حول عدم التعريض بالأنبياء و أحوالهم و تشبيه ما يحدث من الأحياء من نقص ببعض أحوال الأنبياء، أو ذكرهم فى مواضع تنقص أقدارهم، و قد أفتى بأن فاعل ذلك يعزر، و قد أورد نقولا عديدة و أدلة متنوعة تؤيد فتواه، ثم نجده يهاجم خصومه قائلا: «المماراة فى مثل هذا الموضع و التدليس و قصد الانتقام بالضغائن الباطنة لا يضر إلا فاعله، و لا يصيب المشنع عليه من ضرره شىء» إلى أن يقول: «لأن يكون كل أهل العصر فى هذه المسألة خصمائى أحب إلى من أن يخاصمنى نبى واحد فضلا عن جميع الأنبياء» «۵».

و يتضح من أقوال السيوطى أن فتاواه كانت تتعرض لنقد من قبل خصومه، و لذلك فهو لا يكل من الدفاع بجميع الأدلة عنها «۶»، و قد رأينا هجومه العنيف من قبل على خصومه حين اعتزم فى وقت من الأوقات أن يعتزل الافتاء و التدريس.

و قد هاجم السيوطى جميع أعدائه و خصص رسائل لمهاجمتهم، بيد أن جانبا كبيرا من انتقاده لخصومه كان موضوعيا بمعنى أنه كان

نتيجة للاختلاف فى (۱) المقامة السندسية ص ۹۲، ۹۳.

(۲) الضوء اللامع ج ۸ ص ۱۹ ترجمة السخاوى.

(۳) الرسالة بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۴۳۷- ۴۶۰، و النص ص ۴۳۷.

(۴) الحاوى ج ۱ ص ۳۵۹ و ما بعدها.

(۵) المصدر السابق ص ۳۷۴.

(۶) المصدر السابق ج ۱ ص ۳۷۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۲

الفتاوى أو الاستنباط، فقد هاجم خصمه الجوجرى و أنكر عليه ما أفتى به فى تفسير قوله تعالى: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى بأن الآية و إن نزلت فى أبى بكر فإنها عامة المعنى إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و قد أفتى الجوجرى بذلك نتيجة لما حدث من خلاف بين بعض أمراء المماليك فى تفضيل أبى بكر على سائر الصحابة، و قد ردّ السيوطى على فتوى الجوجرى بقوله: «هذا شأن من يلقى نفسه فى كل واد، و الرجل فقيه فماله يتكلم فى غير فنه؟ و هذه المسألة تفسيرية حديثية أصولية كلامية نحوية، فمن لم يكن متبحرا فى هذه العلوم الخمسة لم يحسن التكلم فى هذه المسألة» «۱»، ثم يفند السيوطى بالأدلة العلمية النقلية و العقلية قول الجوجرى، و يؤيد ما ذهب إليه من نزول الآية فى حق أبى بكر و اعتباره أفضل الصحابة، و يحمل على الجوجرى حملة قوية يذكر فيها أنه ليس أهلا للفتيا فى هذا الفن لأنه لا يتقنه، و لو جاز له أن يفتى فيه لكان ذلك جائزا لآحاد الطلبة، و للعوام و السوقة إذ «لا يعدم أحد منهم أن يكون عارفا بعدة من المسائل تعلمها من عالم، أو رآها فى كتاب، و لا ريب فى أنه لا يجوز لأحد منهم أن يفتى» «۲»، و يذكر أن مدار الفتوى على التبحر فى العلم «فمن تبحر فى فن أفتى به، و ليس له أن يتعدى إلى فن لم يتبحر فيه» «۳»، و يستمر السيوطى فى بيان التأهل للفتوى فى الفنون المختلفة و يسيل قلمه دافقا و يصرح من حين إلى آخر باسم خصمه الذى كان ينبغى أن يلاحظ هذه الأقوال و يعرفها قبل أن يقدم على الفتوى «۴».

و قد جر التصدى للإفتاء على السيوطى بعض العداوات بيد أنه- فى حقيقة الأمر- لم يكن يأبه بمن يخالفه إذا أثبت له البحث أنه على الحق، و قد خالف فى بعض فتاواه أكثر مفتى عصره، و فى هذه الأحوال كان يعرض للمسائل عرضا موضوعيا علميا يثبت فيه ما يراه حقا و يدفع ما يراه باطلا معبرا عن ذلك (۱) الحبل الوثيق فى نصرة الصديق، رسالة له بكتاب الحاوى ج ۱ ص ۵۰۴، النص ص ۵۰۴، ۵۰۵.

(۲) المصدر السابق ص ۵۰۷.

(۳) نفس المصدر ص ۵۰۸.

(۴) نفس المصدر ص ۵۰۸- ۵۱۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۳

بقوله: «لا أرى السكوت يسعنى فى ذلك فإن هذا عهد النبى صلى اللّه عليه و سلم عند وفاته، فوجب على كل من علمه أن يبينه و لا يراعى فيه صديقا و لا حبيبا و لا بعيدا و لا قريبا» «۱»، و هذا تقدير منه لمسئوليته التى يوجبها عليه كونه مجتهدا.

كما أن السيوطى كان يتعقب فتاوى خصومه أو تفسيراتهم و يبين ما قد يقعون فيه من خطأ فقد ذكر أن السخاوى صحف فى حديث «شفر الحوراء» بمعنى هدب عينها، فجعله «شقر» بالقاف و بين أن ذلك تصحيف للحديث و تبديل لمعناه و أنه فى غاية الركاكة «۲».

كما هاجمه حين صوب قراءة من قرأ فى كتاب الشفا عبارة «و يخصنا بخصيصى زمرة نبينا و جماعته» فى قراءة «خصيصى» بتسكين الياء مع أن صحة القراءة أنها كما ذكر السيوطى بألف القصر، و قد اقتنع جماعة من العلماء بصحة قول السيوطى و رجعوا عن تصويبهم للقارئ و منهم الشيخ أمين الدين الاقصرائى، و زين الدين قاسم الحنفى، و الشيخ سراج الدين العبادى و الفخر الديمى، و لم يكن بين هؤلاء و بين السيوطى إلا الصداقة، أما خصمه السخاوى فإنه لم يقنع بذلك، ورد بأنه مستنده فى ذلك أن عنده نسخة من الكتاب صحيحة قرئت على شيوخ عدة و فيها صورة السكون مرقومة بالقلم على الياء، و كان من اليسير على السيوطى أن يوجه إليه عبارته القاسية: «كفى بهذا الكلام جهلا و من هذا مبلغ علمه فهو غنى عن الرد عليه»، ثم يورد بعد ذلك من الأدلة ما يؤيد صحة فتواه اللغوية «۳».

دعوى الاجتهاد:

و إكمالا لما نحن فيه مما تعرض له السيوطى من خصومه لا مناص من الحديث عما قاله عن نفسه من استكماله أدوات الاجتهاد إذ جعله قوله هدفا لكثير من الهجمات التى وجهها إليه خصومه منكرين عليه دعواه، و قد عدّ السيوطى نفسه ممن بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق و لذلك وضع ترجمته لنفسه آخر (۱) فتواه الخاصة بسد الأبواب الملاصقة للمسجد النبوى، الحاوى ج ۲ ص ۶۱ ضمن رسالته: شد الأثواب فى سد الأبواب ج ۲ ص ۵۳ و ما بعدها.

(۲) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۱۸۰.

(۳) ألوية النصر فى خصيص بالقصر، رسالة له بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۴۷۸- ۴۷۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۴

الفصل الذى عقده عن الأئمة المجتهدين بمصر فى كتابه حسن المحاضرة، و قد صرح ببلوغه رتبة الاجتهاد فى قوله بعد أن عدد أنواع العلوم التى تبحر فيها «و قد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد اللّه تعالى، أقول ذلك تحدثا بنعمة اللّه تعالى لا فخرا» «۱»، و قد تعرض بسبب ذلك لهجوم أعدائه عليه فيذكر السخاوى أنه «قد قام عليه الناس كافة لما ادعى الاجتهاد» «۲»، و قد عبر السيوطى عما تعرض له من الهجوم فى مقدمة إحدى رسائله بقوله بعد أن ذكر اشتغاله بالعلم و حبه للبحث عن الدقائق و الأصول: «و قد أوذيت على ذلك أذى كثيرا من الجاهلين و القاصرين و تلك سنة اللّه فى العلماء السالفين فلم يزالوا مبتلين بأسقاط الخلق و أرذالهم و بمن هو من طائفتهم ممن لم يرتق إلى محلهم» «۳»، ثم يذكر بعض من تعرض للأذى من علماء السلف كابن عباس و ما تعرض له من نافع بن الأزرق و سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه و ما تعرض له من أهل الكوفة، و ما قاساه الشافعى من أهل مصر و ما قاساه الغزالى و غيرهم، و ينبه السيوطى بعد ذلك إلى حقيقة هامة فى أمثال هذه الخصومات و من يكون فيها على الحق بقوله: «و قد اجتمعوا كلهم عند اللّه، و ظهر لهم المحق من المبطل، و الأرفع رتبة عند اللّه من غيره، و ظهر لنا مصداق ذلك فى هذه الدار ببقاء كلام هؤلاء الائمة و انتشاره و ظهوره و اضمحلال من ردّ عليهم و طمس ذلك و دثوره» «۴». و بهذا الرد البليغ يرد على أعدائه معلنا لهم أن الحق هو الذى سيبقى و أن قائله هو الذى ستذكره الأجيال و الناس فيما بعد، و أن له أسوة بعلماء السلف الصالح الذين لم تتضح عظمتهم و أقدارهم فى أزمانهم بقدر ما اتضحت لمن بعدهم، و هذه العبارة التى أطلقها السيوطى تأخذ الانسان بالدهشة و التأمل لما فيها من صدق الرجل مع نفسه و إحساسه بعظمته و إن لم يقدره أهل عصره.

و قد كتب السيوطى فى بلوغه الاجتهاد مؤلفا سماه «الرد على من أخلد إلى (۱) السيوطى: حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۲) الضوء اللامع ج ۴ ص ۶۹.

(۳) تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة، رسالة بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۵۰۹.

(۴) الرسالة السابقة النص ص ۵۰۹، ۵۱۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۵

الأرض و جهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض»، افتتحه بما يريد قوله من أن الأمة لا تخلو فى عصر من عصورها من مجتهد أو طائفة من المجتهدين و لا تخلو من طائفة تنصر الحق و هى ظاهرة عليه، ثم يهاجم الذين أنكروا قوله بالاجتهاد قائلا: «فإن الناس قد غلب عليهم الجهل و عمهم، و أعماهم حب العناد و أصمهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد، و عدوه منكرا بين العباد، و لم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر و واجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر» «۱».

و قد قسم كتابه إلى أربعة أبواب جعل أولها لا يراد نصوص العلماء على أن الاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفايات و أنه لا يجوز شرعا خلو العصر منه «۲»، و فى الباب الثانى يحاول بالنقول المختلفة تأكيد الفكرة القائلة بأن أى عصر لا يمكن أن يخلو من مجتهد و هنا يرى أن عصرا من العصور قد يجتمع فيه طائفة كبيرة ممن بلغ رتبة الاجتهاد، و يجوز ألا يبقى فى الأمة إلا مجتهد واحد «۳»، و يفرق السيوطى بين المجتهد المطلق و بين المجتهد المستقل و المجتهد المقيد، فالمستقل «هو الذى استقل بقواعده لنفسه يبنى عليها الفقه خارجا عن قواعد المذهب المقررة، و هذا شىء فقد من دهر بل لو أراده الانسان اليوم لامتنع عليه و لم يجز له» «۴»، و أما المجتهد المطلق غير المستقل، «فهو الذى وجدت فيه شروط الاجتهاد التى اتصف بها المجتهد المستقل ثم لم يبتكر لنفسه قواعد بل سلك طريقة إمام من أئمة المذهب فى الاجتهاد، فهذا مطلق منتسب لا مستقل و لا مقيد» «۵».

و قد وضح الشعرانى هذه التفرقة فى الحديث عن السيوطى فذكر أن الناس قد هاجموه لأنه ادعى الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة و أن السيوطى كان (۱) الرد على من أخلد إلى الأرض و جهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ص ۲.

(۲) المصدر السابق ص ۳- ۲۵.

(۳) نفس المصدر ص ۲۶- ۲۸.

(۴) نفس المصدر ص ۳۹.

(۵) نفس المصدر ص ۳۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۶

قول إنه لم يدع الاجتهاد المطلق و إنما ادعى الاجتهاد المنتسب و أن كثيرا من أتباع المذاهب بلغوا درجة الاجتهاد المطلق و مع ذلك لم يخرجوا عن مذاهبهم، و ذكر السيوطى أن فى أصحاب الشافعى على مر الزمن منهم المزنى و ابن سريج و القفال و ابن خزيمة و ابن الصباغ و إمام الحرمين و ابن عبد السلام و تلميذه ابن دقيق العيد و التقى السبكى و ولده عبد الوهاب كذلك فى أصحاب مالك ابن وهب و أضرابه، و فى أصحاب أبى حنيفة أبو يوسف و محمد، و قد بلغ هؤلاء مرتبة الاجتهاد المطلق و مع ذلك فلم يخرجوا عن تبعيتهم لأئمتهم «۱».

و قد ختم السيوطى كتابه بما يؤكد فكرته السابقة و مجمل ما يريد قوله أنه قد بلغ درجة الاجتهاد المطلق و مع ذلك فهو لم يخرج عن مذهب الشافعى و أنه بذلك يسمى مجتهدا مطلقا منتسبا، و قد كرر السيوطى فى مواضع متفرقة من فتاواه و كتاباته هذه الفكرة نظرا لما تعرض له من هجوم و لما اتهم به فى زحمة الصراع بينه و بين خصومه، فكأنه أراد أن يؤكد تبرئة نفسه مما ادعوه عليه و لكن مع التمسك بالحديث عما أنعم اللّه به عليه من عقل و علم و ما بلغه من درجة.

و يفتى السيوطى عام ۸۹۸ ه إحدى الفتاوى و يرى أن أحدا من أهل عصره لا يمكنه أن يتصدى لما يضطلع به، فيرفع عقيرته قائلا: «جولوا فى الناس جولة فإنه ثمّ من ينفخ أشداقه و يدعى مناظرتى و ينكر على دعواى الاجتهاد و التفرد بالعلم على رأس هذه المائة، و يزعم أنه يعارضنى، و يستجيش علىّ من لو اجتمع هو و هم فى صعيد واحد و نفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثورا» «۲».

و مهما يكن من أمر الخصومة بين السيوطى و أنصاره و بين السخاوى و أنصاره فإن المعاصرة كما سبق القول حجاب بين المتعاصرين، كما أن الاتهامات التى تبادلها الفريقان لم تخل من مبالغات كثيرة يمكن بسهولة أن نتعرف عليها، هذا فضلا عن أن

كثيرا مما وجه إلى السيوطى أثبتت الأيام بطلانه و لعله قد استلهم ذلك حين ذكر أن له بعلماء السلف الصالح الذين تعرضوا للأذى فى أزمانهم (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى الورقة الأولى و الثانية ص ۲- ۴.

(۲) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف: رسالة له ضمن كتاب الحاوى ج ۲ ص ۱۶۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۷

و ظهرت حجتهم من بعد أسوة حسنة «۱».

و انتصر للسيوطى من بعده الشوكانى فى ترجمته له و فند جميع ما وجهه إليه السخاوى ورد عليه ردا بليغا، و تعقب اتهاماته بالدفاع القوى، و من بين ما ذكره دفاعا عن الاتهام باختلاس الكتب أن ذلك «ما زال دأب المصنفين، يأتى الآخر فيأخذ من كتب من قبله فيختصر أو يوضح أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض- التى هى الباعثة على التصنيف، و من ذاك الذى يعمد إلى فن قد صنف فيه من قبله فلا يأخذ من كلامه؟» «۲»، فليس السيوطى بدعا من المؤلفين، و إذا كان ذلك شأن عصره و منهجه فلا يصح أن نوجه التهمة إليه وحده، و قد بين الشوكانى أن السخاوى «و إن كان إماما غير مدفوع لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه كما يعرف ذلك من طالع كتابه الضوء اللامع فانه لا يقيم لهم وزنا بل لا يسلم غالبهم من الحط منه عليه، و إنما يعظم شيوخه و تلامذته و من لم يعرفه ممن مات فى أول القرن التاسع قبل مولده، أو من كان من غير مصره أو من يرجو خيره أو يخاف شره» «۳»، و هذه الأوصاف التى تقدح فى الكتاب كفيلة أن تجعلنا على حذر مما يورده السخاوى من تراجم، و مهما أحسنا ظننا به بعد ذلك فسنأخذ تراجم أقرانه بالحذر، و قد انتهى الشوكانى إلى أن ما بلغه السيوطى من المكانة العلمية و ما ادعاه من الاجتهاد كان سببا فى هذه الخصومات، و بين أنه بذلك قد تعرض لما تعرض له أئمة العلماء ممن بلغوا المرتبة العالية، فما زال «ذا دأب الناس مع من بلغ إلى تلك الرتبة، و لكن قد عرفناك فى ترجمة ابن تيمية أنها جرت عادة اللّه سبحانه كما يدل عليه الاستقراء برفع شأن من عودى بسبب علمه و تصريحه بالحق، و انتشار محاسنه بعد موته، و ارتفاع ذكره، و انتفاع الناس بعلمه، و هكذا كان أمر صاحب الترجمة فإن مؤلفاته انتشرت فى الأقطار، و سارت بها الركبان إلى الأنجاد و الأغوار، و رفع اللّه له من الذكر الحسن و الثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، و العاقبة (۱) تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة، الحاوى ج ۱ ص ۵۰۹، ۵۱۰.

(۲) الشوكانى: البدر الطالع ج ۱ ص ۳۳۳.

(۳) المصدر السابق ج ۱ ص ۳۳۳، ۳۳۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۸

للمتقين» «۱».

خلقه و شخصيته:

نريد بالخلق ما هو أعم من المعنى الذى نستعمل فيه هذه اللفظة اليوم، فنتناول فيه سلوكه مع أهله و مع الناس من حوله و صلته بمن يشتركون معه فى فنون المعرفة التى يجيدها و نستطيع من ثم أن نستوضح معالم شخصيته الاجتماعية و العلمية.

و لا شك أن خلق الفرد تشكله عوامل كثيرة من وراثة عن أسرته التى عاش بينها و اكتسب منها بعض الصفات أو الاتجاهات التى تحدد مسلكه فى الحياة ثم من المجتمع بمعناه العام الذى ترتبط حياته به، و به تتحقق مصالحه، ثم من تدينه و طريقته فى ممارسة الدين تسمحا أو تشددا و تحرجا، و هذه الأشياء تكشف لنا عن أهم جوانب شخصيته «۲».

و نرى أن فيما قدمنا من الحديث عن جوانب حياته المختلفة ما يمكننا من استيضاح معالم شخصيته و يعرفنا بخلقه فضلا عن عديد من الروايات و النقول التى لم نوردها من قبل اكتفاء بغيرها عنها أو ادخارا لها لمواضع أخر، أو تخففا من الاطالة.

و أول هذه الصفات التى نستشفها مما خلف السيوطى من آثار هى الصراحة فى الحديث عن نفسه، تلك الصفة التى تدل على صفاء

نفسى و روحى، و من هنا فقد كان يتحدث فى رسائله عن نفسه بقلب مفتوح و وضوح بالغ، و من لا يعرف هذه الصفة عنه يخيل إليه أن الرجل صاحب دعاوى عريضة أو يصف نفسه بما ليس فيها من صفات حسنة، و الحقيقة أن السيوطى حين الحديث عن نفسه كان يعلله دائما بأنه تحدث بما أنعم اللّه به عليه لا فخرا و هنا يتضح لمنصفه صفة التواضع عنده بينما ينظر أعداؤه إلى ذلك على أنه ادعاء و تعال و زهو ممقوت، فبعد أن يعدد ما أتقنه من العوم و ما استكمله من آلات الاجتهاد (۱) نفس المصدر ج ۱ ص ۳۳۹.

(۲) د. سيد خليل: الليث بن سعد ص ۸۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۳۹

يقول: «أقول ذلك تحدثا بنعمة اللّه تعالى لا فخرا، و أى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر، و قد أزف الرحيل و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر» «۱».

و بالرغم مما يشيع فى عبارته من تواضع فإن الرجل كان يتصف بالشجاعة و الاعتداد بالنفس و الثقة فيها، و قد كانت هذه الصفات لديه وليدة شعوره العميق بأنه عالم مسلم استكمل أدوات الاجتهاد و حباه اللّه عقلا حصيفا فاستشعر المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقه بما هو عليه تجاه اللّه و تجاه المجتمع و تجاه ضميره، و من هذا الشعور العميق بهذه المسئولية يمكننا أن نفسر كثيرا من تصرفات السيوطى و كتاباته، فقد كانت الأمانة الملقاة على عاتقه أكبر مما يتحمله غيره، و كان ينظر فيمن قبله من كبار علماء السلف الذين تألقت نجومهم فى سماء التاريخ الاسلامى، و يجعل منهم قدوة صالحة فى السراء، و أسوة حسنة فى الضراء، و هناك كثير من الحوادث و الأدلة التى نستطيع أن ندلل بها على ما قلناه عن خلقه و شخصيته و لكنا نستدرك قبل ذلك بأن نذكر أن الرجل كانت به حدة و سرعة غضب لما يصيبه، و لكن هذا الغضب كان يستفرغ منه فى رسالة تكتب، أو انقطاع عن الناس، و هجرهم ريثما تهدأ نفسه و يعاود الحياة بنشاطه المألوف، و كثيرا ما كلفته غضباته رسائل يدفع فيها عن نفسه و يهاجم خصومه.

على أن الأسلوب العنيف الذى لاحظناه فى رسائله الأولى التى هاجم بها خصومه أخذ يميل إلى الهدوء و الاتزان فى السنوات الأخيرة من عمره، بل لعله أصبح يعرض عن كثير من أذى الخصوم و يصبر على ما يقابله من أعدائه فقد نقل عنه بعض من اتصل به أنه امتحن المحن الكثيرة، و ما سمع يوما يدعو على من آذاه من الحسدة، و لا يقابله بسوء، و إنما يقول: حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و صنف فى ذلك كتابا سماه «تأخير الظلامة إلى يوم القيامة» «۲».

و الحقيقة أن هذه الرسالة تعبر عن الاتجاه المتزن الصابر الذى طبعت به حياة السيوطى أواخر أيامه، و بالرغم من أن الرسالة فى جملتها مجموعة من النقول عن (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ۲۲ ص ۴۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۰

الرسول صلى اللّه عليه و سلم و عن الصحابة و التابعين تدور حول تأخير ظلاماتهم إلى يوم القيامة لايمانهم بأن عذاب اللّه أشد و أبقى، و إيثار المظلومين منهم ألا يقتصوا لأنفسهم فى الدنيا مع تمكنهم من ذلك تأخيرا لظلاماتهم لتعرض أمام اللّه تعالى، بالرغم من ذلك فإن قراءتها تشيع فى نفس القارئ أن صاحبها كان يتعرض وقتها لمظالم يصبر عليها، و يعزى نفسه بالتأسى بالسلف الصالح، و هى تبين لنا جانبا هاما من خلق السيوطى فى سنواته الأخيرة، و تلقى الضوء على معالم شخصيته «۱».

و من الحوادث التى تدل على ما قدمنا حادثة الطيلسان التى امتنع بعدها عن الذهاب إلى السلطان مع العلماء، و قد تمسك بموقفه برغم محاولة بعض الوسطاء الملاينة بينه و بين السلطان فكان رده: «إنى متمسك بقوله صلى اللّه عليه و سلم: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر اللّه لا يضرهم من خذلهم» «۲».

و إحساسه بالمسئولية الملقاة عليه تجاه الناس يتمثل فى قوله: «ما أجبت قط عن مسألة جوابا، إلا و أعددت جوابها بين يدى اللّه تعالى إن سئلت عنها» «۳».

و قد سبق أن أشرنا إلى موقفه الشجاع الذى وقفه تجاه خصمه العنيد طومان باى الذى حاول الكيد له، ثم حاول قتله، كما قدمنا ما قاله من أن له أسوة حسنة بمن تعرض للأذى من كبار علماء السلف الصالح.

و إتماما للحديث عن خلقه و شخصيته فإننا نعرض لما يتصل بهذا الموضوع بأوشج الصلات بل لما هو جزء منه و هو الحديث عن تدينه.

و قد قلت ان شخصية السيوطى شخصية العالم المسلم الذى يستشعر المسئولية نحو المجتمع و الذى يراعى فى خلقه و سلوكه السير على هدى من السنة التى أفنى حياته فى جمعها و درسها و تعليمها.

أما عن ورعه و تقواه فهناك روايات كثيرة تصل بالرجل إلى مصاف كبار (۱) تأخير الظلامة إلى يوم القيامة، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ۲۲۷۲۹ ب.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۲۰ ص ۴۰.

(۳) المصدر السابق ورقة ۱۲ ص ۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۱

الأولياء و أصحاب المناقب العالية، و لست هنا بصدد مناقشة هذه النقول، و لكن مهما كان أمر صحتها أو كذبها أو المبالغة فيها فإنها تدل على ما عرف به الرجل فى عصره من ورع و تقوى. و هناك نقول و روايات لا تصل إلى حد الخوارق شأن الروايات الأولى، تؤيد ما قلناه من تقواه و زهده، و نحن نرى هذه الأوصاف منطبقة تماما على السيوطى لا سيما فى السنوات العشر الأخيرة من عمره بعد أن اتجه إلى الزهد و التجرد ثمّ انقطع بعد ذلك تماما فى بيته و اعتكف و كان لا يقبل هدايا الأمراء و السلاطين و يتعفف عنها قانعا بما قسم له من رزق قليل، ثم عزوفه عن الوظائف و مظاهر الدنيا و اغلاقه نوافذ بيته و اتجاهه إلى اللّه.

و قد أجمل الشعرانى صفات شيخه بقوله: أنه كان «مجبولا على الخصال الحميدة من صفاء الباطن و سلامة السريرة، و حسن الاعتقاد، زاهدا ورعا مجتهدا فى العلم و العمل، لا يتردد إلى أحد من الأمراء و الملوك و لا إلى غيرهم مدة حياته رضى اللّه عنه و كان يظهر كل ما أنعم اللّه به عليه من العلوم و الأخلاق» «۱».

كان هذا السلوك سلوك التصوف العملى الحقيقى الذى لا نستطيع إنكاره، و لا نقول إنه كان يقصد به دنيا يصيبها، بل كان عملا مخلصا يبتغى به وجه خالقه، و من كان هذا مسلكه فأحر به أن يكون خليقا بالاضطلاع بالمسئولية الجسيمة التى تحملها بوصفه عالما مجتهدا يعرف للكلمة حقها و يؤديها على وجهها لا يخاف لومة لائم لأنه لا ينتظر ثوابا و لا يخشى عقابا إلا من قبل اللّه تعالى.

و قد كان السيوطى يحاول جاهدا أن يؤدى ما عليه من واجب علمى تجاه مجتمعه، فهو ينقطع للتأليف فى خلوته و لا يكل من كتابة الأجوبة على المسائل العديدة التى ترد إليه ثم هو يعرف قيمة الفتوى بحيث لو جىء إليه على حد تعبيره بفتوى و هو مشرف على الغرق لأخذها ليكتب عليها، و قد قال ذلك بعد أن عاود الافتاء بعد ترك عزلته القصيرة التى سبقت الاشارة إليها. (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۳ ص ۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۲

و إذا كانت البيئة المصرية قد تميزت عن غيرها من البيئات بالسهولة و الاستقامة و الانبساط و الوضوح، و تلك مميزات الشخصية المصرية من جميع نواحيها، فقد انطبعت هذه الصفات و ظهرت فى شخصية السيوطى و هى تبدو واضحة إذا ما قورن بغيره من أقرانه الذين أنجبتهم بيئات أخرى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۳

منهجه فى التفكير و أصول هذا المنهج

اشارة

تعد ثقافة السيوطى أفضل مثال للثقافة فى عصره، كذلك تمثل عقليته العقلية الاسلامية بما تمثلته من معارف متنوعة فى القرن التاسع الهجرى:

الخامس عشر الميلادى و يمكن اعتبار كتاباته الموسوعية فى موضوعاتها و دائرة اتساعها مجسّم العلوم الاسلامية فى القرن الخامس عشر.

و تتميز حياة الرجل العلمية بنشاط غير عادى فقلمه السيال لم يعرف الملل، و لم يترك قط موضوعا فى حقل المعرفة إلا تناوله، فمن علوم قرآنية و حديثية و فقهية إلى علوم لغوية و نحوية إلى علوم فى التصوف و التاريخ و الفلسفة إلى غير ذلك من مختلف العلوم التى عرفت فى عصره، و تشهد آثاره التى يصعب إحصاؤها لكثرتها و تنوعها بتنوع معارفه و شمول عقليته و اتساع أفقه و مشاركته فى كل علم فضلا عن تبحره فى جانب كبير من العلوم، و صدق ما وصف به من وجهة نظر أجنبية بأنه من أعظم كتاب الشرق قاطبة «۱»، و بأن نشاطه العلمى الذى ابتدأه فى سن السابعة عشرة كان يتميز بحركة غير عادية «۲»، و قد عبر السيوطى عن مبلغ ثقافته بقوله: «و رزقت التبحر فى سبعة علوم: التفسير و الحديث و الفقه و النحو و المعانى و البيان و البديع على طريقة العرب و البلغاء لا على طريقة العجم و أهل الفلسفة، و الذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه و النقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه و لا ـ وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم، و أما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخى فيه أوسع نظرا و أطول باعا، و دون هذه السبعة فى المعرفة: أصول الفقه و الجدل و التصريف، و دونها الانشاء و الترسل و الفرائض و دونها القراءات و لم (۱). ۲۱.

VacinatirBaideap olcycnEehT

ituyuS »malsIfOaideapolc ycnEehT «.(۲)

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۴

آخذها عن شيخ، و دونها الطب، و أما علم الحساب فهو أعسر شىء على و أبعده عن ذهنى ... و قد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد اللّه تعالى، أقول ذلك تحدثا بنعمة اللّه لا فخرا، و أى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها فى الفخر و قد أزف الرحيل و بدا الشيب و ذهب أطيب العمر؟، و لو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها و أدلتها النقلية و القياسية و مداركها و نقوضها و أجوبتها و الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل اللّه لا بحولى و لا بقوتى فلا حول و لا قوة إلا باللّه» «۱».

و قد ألف السيوطى فى جميع العلوم التى عددها مؤلفات تشهد بعلو قدره فيها، بيد أن هناك قلة من هذه العلوم المتنوعة استحوذت على الجانب الأكبر من اهتمامه، و كان لها أثر كبير فى طبع عقليته بطابع معين، و فى توجيه منهجه، و سنتناول اشتغال السيوطى بهذه العلوم بعد قليل.

و يتصل بما نحن فيه من شمول عقليته و اتساعها و تنوع مداركها ما قاله عن نفسه من بلوغ رتبة الاجتهاد، و قد سبق أن رأينا أن هذا القول قد جر عليه عداوات كثيرة و عرضه لكثير من النقد الذى وجه إليه من قبل خصومه، و الحقيقة أن السيوطى لم يكن مدّعيا فيما نسبه إلى نفسه، فمصنفاته فى الفقه تشهد بذلك، كما أنه لم يقصد الاجتهاد المستقل كالأئمة الأربعة و إنما قصد الاجتهاد المنتسب، و كان فى فتواه يفتى بمذهب الشافعى و لا يذكر ما يمليه عليه اجتهاده خارج المذهب، و قد بين أنه ليس من شرط الاجتهاد فى الفقه أن يكون صاحبه قد بلغ رتبة الاجتهاد فى الحديث و الاجتهاد فى العربية «۲»، و إنما يكتفى فيها بمرتبة أقل من ذلك، على أن السيوطى قد نص على بلوغه درجة الاجتهاد فى الفقه و الحديث و العربية و أن بلوغ رتبة الاجتهاد فى الفقه قد وجدت عند كثير من العلماء، أما الجامعون للثلاثة فقليل، و من قبله كان تقى الدين السبكى جامعا للثلاثة و لم يكن هناك بعد السبكى من اجتمعت له غيره «۳». (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

(۲) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۷ ص ۱۳.

(۳) المصدر السابق ورقة ۶، ۷ ص ۱۲، ۱۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۵

على أن إحساس السيوطى بتنوع معارفه و بلوغه درجة الاجتهاد فى بعض العلوم، و إحساسه أن ذلك لم يحدث لأحد من أبناء زمانه فمنهم من بلغ درجة كبيرة فى الفقه أو فى العربية أو فى علم من العلوم، و لكن اجتماع هذه العلوم على سبيل التبحر لدى أحدهم غير كائن، هذا الاحساس قد جعله يستشعر فى قرارة نفسه أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة و وجد الرجل نفسه و قد جاوز الخمسين من عمره و حصل من العلوم جملة كبيرة، و بلغ ما لم يبلغه أحد، و رأى أنه قد جاوز أقرانه و بذّهم جميعا، و هنا وقف يعلن أنه المبعوث على رأس المائة التاسعة.

فكرة المبعوثية:

و يبدو أن الرجل كان يعرف أن هذه الفكرة قد تقابل ببعض الأفكار، و لذلك أكدها فى كثير من كتاباته فهو يبدأ كتابه «الدر النثير الذى لخص فيه نهاية ابن الأثير» قائلا: «الحمد للّه الذى بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها و أقام فى كل عصر من يحوط هذه الملة بتشييد أركانها و تأييد سننها و تثبيتها» «۱».

و كان عليه أن يثبت صحة هذه الفكرة عن طريق السنة و أن يقنع الناس بذلك، ثم عليه بعد ذلك أن يقنعهم بأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة.

و بداية هذه الفكرة فى كتاباته نلحظها فى ترجمته لسراج الدين البلقينى (المتوفى ۸۰۵ ه) والد علم الدين، إذ نقل أن السراج البلقينى مجدد المائة الثامنة، ثم ذكر أن كثيرا من المبعوثين على رءوس القرون مصريون: عمر بن عبد العزيز فى الأولى، و الشافعى فى الثانية .. و ابن دقيق العيد فى السابعة، و البلقينى فى الثامنة، ثم أتبع ذلك بقوله «و عسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر» «۲»، و هنا نلاحظ أنه كان يمهد لفكرته، و يرجو أن يكون هو المبعوث على رأس قرنه، و نلاحظ أنه وضع ترجمته بعد ترجمة البلقينى مباشرة (۱) الدر النثير فى تلخيص نهاية ابن الأثير: المقدمة.

(۲) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۸۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۶

و كأنه بذلك يضع مجدد المائة التاسعة عقب مجدد المائة الثامنة، و لم يفصل بينه و بين البلقينى السابق بأحد من علماء قرنه، و ذلك فى الفصل الذى خصصه لتراجم الأئمة المجتهدين.

ثم ينادى بعد حين بصوت قوى بأنه المتفرد بالعلم و الاجتهاد على رأس قرنه فيكتب فى عام ۸۹۸ ه معلنا ذلك فى قوله: «فإن ثمّ من ينفخ أشداقه و يدعى مناظرتى، و ينكر على دعوى الاجتهاد، و التفرد بالعلم على رأس هذه المائة، و يزعم أنه يعارضنى و يستجيش علىّ بمن لو اجتمع هو و هم فى صعيد واحد و نفخت عليهم نفخة صاروا هباء منثورا» «۱».

و حين ينقضى القرن و ينظر السيوطى فى نفسه و فيمن حوله و يرى ما بلغه من علم فإنه يصرح بعد ذلك بأنه المبعوث على رأس هذه المائة، و لكنه يمزج قوله بالرجاء و الضراعة إلى اللّه، و قد كتب السيوطى رسالة فيمن «يبعث اللّه لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة» ترجى فيها أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة لانفراده عليها بالتبحر فى العلوم، ثم نظم فى هذا الموضوع منظومة تسمى «تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين» «۲»، و قدم لها بمقدمة نثرية صغيرة، و وضح الفكرة فى قوله: «فقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال:

إن اللّه تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، و معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب و

السنة و العمل بمقتضاها على رأس كل مائة سنة أولها من الهجرة النبوية، و هى ما يؤرخ بها فى مدة المائة، و أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلا معروفا مشهورا مشارا إليه و أن تنقضى المائة و هو مشهور حتى يشار إليه ... و لا يكون المجدد إلا عالما بالعلوم الدينية ظاهرا و باطنا، ناصرا للسنة قامعا للبدعة» «۳»، ثم نظم منظومة فى ثمانية و عشرين بيتا وضح فيها هذه الفكرة، و ذكر أسماء المجددين السابقين و شروط من يكون مجددا، و بين أن بعض المئين قد اختلف فى المجدد فيها أ هو واحد أم (۱) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، رسالة بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۱۶۷.

(۲) مخطوط بدار الكتب فى ورقة واحدة أى فى صفحتين، فى مجلد مستقل برقم ۲۶۰ ح.

(۳) المصدر السابق ص ۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۷

أكثر؟، و من الذين لم يختلف فيهم عمر بن عبد العزيز فى المائة الأولى و الشافعى فى الثانية، و الغزالى فى الخامسة، و ابن دقيق العيد فى السابعة، ثم ذكر أن البلقينى يعد مجدد المائة الثامنة و فى أخريات المنظومة يترجى السيوطى أن يكون مجدد المائة التاسعة فيقول:

و هذه تاسعة المئين قد أتت، و لا يخلف ما البارى وعد

و قد رجوت أننى المجدّد فيها، ففضل اللّه ليس يجحد» «۱»

و أيا ما كان أمر الحديث عن فكرة التجديد و البعث على رءوس المئين، فإن لها دلالة تهمنا فى الحديث عن منهجه فى التفكير، و تشير إشارة صريحة إلى ما أحس به الرجل بين أبناء زمانه من تفرده بالعلم و تبحره فى أكثر من علم على وجه لم يتيسر لمعاصريه الذين اشتهر كل منهم بإجادة فن واحد، و هذه الدعوى عن التبحر فى بعض العلوم صحيحة إلى حد كبير يثبتها ما خلف السيوطى لنا من آثار فى سائر فروع المعرفة فى عصره، و هذه الآثار تشهد بعلو كعبه فى الفنون المختلفة التى طرقها.

و لكى نصف منهج السيوطى وصفا دقيقا نتبين منه كيفية تناوله للأشياء، و نظرته فى العلوم لا بد لنا أن نتعرف على مكونات عقليته و منابع ثقافاته المختلفة.

و قد سبق لنا أن تحدثنا عن شيوخه الذين تلقى عنهم، و لاحظنا أنهم من كبار علماء عصره، كما رأينا رحلاته و تنقلاته إلى أكسيته زيادة فى الثقافة و المعرفة فضلا عن قيامه بالحج و المجاورة بمكة لمدة عام، و ها نحن أولاء قد رأيناه و قد أحاط بجملة كبيرة من العلوم تبحر فى بعضها و أجاد بعضا، و شارك فى بعض، فأىّ هذه العلوم كانت ذات أثر أكبر فى تفكيره و طبع عقليته؟، و أى هذه العلوم نستطيع من خلالها التعرف على صفات هذه العقلية و تحديد منهج صاحبها فى التفكير؟.

إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالعسيرة، فقد ذكر الرجل عن نفسه أنه (۱) نفس المصدر ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۸

تبحر فى سبعة علوم هى: التفسير و الحديث و الفقه و النحو و المعانى و البيان و البديع، و نقل عنه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق فى ثلاثة علوم هى الفقه و الحديث و العربية «۱»، ثم إننا نجد أن عنايته بالتفسير متصلة أشد الاتصال بعنايته بالحديث فأهم مؤلفاته فى التفسير كتاب «الدّر المنثور فى التفسير بالمأثور» الذى جمع فيه جميع الروايات المأثورة عن الرسول صلى اللّه عليه و سلم و عن الصحابة و التابعين فى تفسير القرآن و لا شك أن هذه الروايات التى تفسر القرآن تدخل من جانب آخر فى مباحث علماء الحديث، كما يشهد لما نقوله أيضا كتابه «لباب النقول فى أسباب النزول» الذى تشيع فيه ثقافة الرجل الحديثية النقلية يخدم بها علوم القرآن.

و من ناحية أخرى نجد عناية الرجل بالتصوف، و التصوف علم و عمل، و التصوف يطبع عقلية صاحبه بطابع معين و يترك أثرا فى منهجه فى تناول العلوم، و لذلك أرى أن عقلية السيوطى و منهجه فى التفكير لا بد أن ينظر إليه من خلال أمور ثلاثة هى: علم الحديث الذى اهتم به أبلغ اهتمام و ود أن يصل فيه إلى مرتبة الحافظ ابن حجر، و الثانى: التصوف الذى أقبل عليه، و دافع عن رجاله و سلك طريقه، و الثالث الفقه الذى بلغ فيه درجة الاجتهاد و تصدى فيه للافتاء منذ وقت مبكر، و من ثم فإننا نستطيع بعد ذلك أن

نـدرس بقيـة جوانبه، و أهم الجوانب عنـده بعد الحديث دراساته اللغوية التى أجيز بالتدريس فيها منذ بلوغه السابعة عشـرة، ثم بلغ فيها بعد درجة الاجتهاد المطلق، و دراساته الفقهية التى بلغ فيها مرتبة الاجتهاد المطلق. (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات ورقة ۶ ص ۱۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۴۹

السيوطى و علوم الحديث

اشـتغل السـيوطى منـذ أيامه الأولى بتدريس الحديث بالخانقاه الشـيخونية، و امتزج بعلوم الحديث امتزاجا كبيرا، فهو يشـرب من زمزم تطلعا لأن يصل إلى مرتبـة الحافظ ابن حجر، ثم يحمل على المنطق و الفلسـفة و يـذكر أن اللّه قد عوضه عنهما بعلم الحديث الذى هو أشـرف العلوم، كما يـذكر بعد أن اسـتحصدت قوته أن مجدد القرن لا بد أن يكون مقيما للسـنة ناصـرا لها و لن يتسـنى لمن لا يكون عالمـا بالسـنة إقامتها، ثم نراه يهتم بمسألـة أبوى النبى صـلى اللّه عليه و سـلم فيكتب فيها سـتة رسائل دفاعا عنهما، و هكـذا نلاحظ أن ميوله منذ وقت مبكر كانت تتجه نحو علوم الحديث، و كانت هذه العلوم تحظى من وقته بالنصيب الأوفر.

و تطلعنا مقدمـة كتابه «اللئالئ المصـنوعة فى الأحاديث الموضوعة» على طول اشـتغاله بعلوم الحديث فقد ابتدأ تأليف هذا الكتاب كما ذكر فى عـام ۸۷۰ ه، أى حين كـان فى الحاديـة و العشـرين من عمره، و أتمه بعـد خمسـة أعـوام، ثم عـاود تـأليفه مرة ثانيـة مع بعض الاضافات عام ۹۰۵ ه، أى قبل وفاته بسـتة أعوام فقط «۱»، كما أخذ السـيوطى يملى الحديث منذ عام ۸۷۳ ه بالجامع الطولونى؛ و ظل مـداوما على هـذا الدرس العام إلى أن اعتكف فى بيته عام ۹۰۶ ه، و كان يـذكر عن نفسه أنه أحيا سـنة الاملاء بعد دروسـها إذ انقطع الاملاء بالديار المصرية بعد وفاة الحافظ ابن حجر (عام ۸۵۲ ه) عشرين سنة.

و قـد بلغ درجة الاجتهاد فى الحديث، و قد قال المحدثون: إن أقل مراتب الحافظ أن يكون الرجال الذين يعرفهم و يعرف تراجمهم و أحوالهم و بلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم، و كان بعض المحدثين لا يعدّ من أصـحاب الحديث من لم يكتب عشرين ألف حديث، و كان الحافظ ابن حجر يقول: الشروط التى (۱) اللئالئ المصنوعة ج ۱ ص ۲، ۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۰

اجتمعت فىّ الآن اسم الحافظ و هى الشـهرة بالطلب و الأخـذ من أقوال الرجال و المعرفة بالجرح و التعديل، و المعرفة بطبقات الرواة و مراتبهم و تمييز الصـحيح من السـقيم حتى يكون ما يستحضـره من ذلك أكثر مما لا يستحضـره مع اسـتحضار الكثير من المتون، فمن جمع هـذه الشـروط اسـتحق اسم الحافظ، و قـد ذكر السـيوطى أن ابن حجر كان يحفظ مائتى ألف حـديث أو ما يزيـد، و أن الحافظ الـديمى كان يحفظ عشـرين ألف حـديث و ذكر عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حـديث، و أنه لو وجـد أكثر من ذلك لحفظ و قال: لعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك «۱».

و قائمـة الآثـار التى تركهـا و ذكر الجانب الأكبر منها فى ترجمته لنفسه تشـهد للرجل بأن اهتمامه الأول كان بعلوم الحـديث، و لسـت أحب أن أسرد ما ألفه فى الحديث تجنبا للتكرار حيث سنعرض لذلك عند الحديث عن آثاره «۲».

على أن نظرتنـا فى الفتـاوى الحديثيـة التى جمعت فى كتـابه «الحـاوى» تطلعنا على قـدراته الخارقـة فى علم الحـديث و حفظه الجم، و معرفته التى لا- تقتصـر على نقـل آراء الحفاظ السابقين و إنما تتناول الإسـناد و رواته بالنقـد، و تبين رتب الأحاديث المختلفـة و كونها صحيحـة أو حسـنة أو ضـعيفة أو موضوعة، و له قدرة عجيبة على إيراد الطرق المختلفة من شتى الكتب للحديث الواحد مما يدل على الجهد الشاق الذى بذله، و طول المراس الذى أكسبه قدرة على السير فى المسالك الوعرة لهذا العلم بمختلف فروعه.

و كان له عين فاحصة ناقدة فى علم الحديث، و كثيرا ما حكم على كثير من الأحاديث التى شاعت على ألسنة الناس فى عهده ببطلانها إذا لم يثبت لديه إسـناد بصـحتها كحديث «لا تسوّدونى فى الصـلاة» الذى قال إنه لم يرد «۳»، و حـديث «التكبير جزم» الذى أفتى بأنه من قول إبراهيم النخعى و ليس من قول (۱) الشعرانى: ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۰ ص ۱۹، ۲۰.

(۲) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۱، ۱۹۲.

(۳) الحاوى للفتاوى ج ۱ ص ۵۳۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۱

النبى صلى اللّه عليه و سلم «۱»، و قد أفتى غير ذلك ببطلان بعض الأحاديث التى سئل عنها، و أجاب بصحة غيرها «۲»، و كان يستفتى فى تفسير بعض الأحاديث و يجيب عن التعارض بين الأحاديث و يبين، كيفية الاستنباط منها و العمل بها بأجوبة حسنة تدل على تمكنه فى ناحيتى السند و المتن وسعة اطلاعه التى شملت كتب الحديث و الرجال المختلفة.

على أن ما أبغى الوصول إليه من اهتمام السيوطى البالغ بعلم الحديث و إفناء جلّ وقته فيه هو أن عقليته قد تأثرت تأثرا كبيرا بعلم الحديث بحيث أستطيع القول بأنه أولا و قبل كل شىء محدّث من النوع الأول، و الأثر الذى تركه التمرس بعلوم الحديث فى عقله تجلى فى عنايته بالنقول و النصوص، و اتضح تشربه بعلم الحديث، و تأثير ذلك فى عقليته فى سائر فروع المعرفة التى تناولها، كما استعلن فى كثير من كتاباته المتنوعة، و نجد فى غالب آثاره شواهد لما نقول حيث تشيع فيها ظاهرة النقل و الاهتمام بذكر المنقول عنهم، و هكذا فلقد أثر منهج المحدثين الخاص بالرواية فى التأليف عند السيوطى بحيث إنه كان حريصا فى كل مؤلفاته على أن ينسب كل قول إلى قائله، و الكتاب الذى نقل عنه و سنشير إلى هذه الفكرة عند الحديث عن دراساته اللغوية التى طبق عليها منهج المحدثين.

و يؤكد هذه الفكرة أيضا ما نلحظه فى كتاباته الأدبية التى كان عليه أن يتحرر فيها من النقل، بيد أن روح المحدث و عقليته و طريقته تبدو ظاهرة فى أقواله و أسلوبه بين حين و آخر، ففى المقامة المسكية فى أنواع الطيب- مثلا- يتحدث عن الموازنة بين أنواع الطيب و هى المسك و العنبر و الزعفران و غيرها، حيث يتحدث كل واحد منها عن نفسه مبينا فضيلته، و يتبع السيوطى فيها ما شاع فى عصره من محسنات لفظية، و يهمنا هنا أنه ظهرت فيها ثقافته الحديثية بحيث يدرك قارئها أن صاحبها قد تشرب بهذه الثقافة أكثر من أى شىء آخر «۳»، و فى (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۵۳۵.

(۲) انظر:- مثلا- الحاوى للفتاوى ج ۱ ص ۵۵۶، ۵۵۷.

(۳) المقامة المسكية فى أنواع الطيب (ضمن مقامات السيوطى ص ۱- ۱۱).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۲

مقامة أخرى نجد نفس الظاهرة التى تدل على ما نقول إذ يبدأ المقامة بقوله:

«حدثنا الريان عن أبى الريحان عن أبى الورد أبان عن بلبل الأغصان عن ناظر الانسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان قال مررت يوما على حديقة ...

الخ» «۱»، فليست هذه المقدمة للمقامة الوردية فى الزهور إلا انعكاسا و تأثرا بما عاناه فى دراساته الجادة لعلوم الحديث، فجاءت بما فيها من عنعنة معبرة عما بباطن عقله، كما أن المقامة لا تخلو من كثير من الأحاديث التى يحرص صاحبها على ذكر أسانيدها و الكتب التى خرجتها برغم أن المقام ليس مقام استنباط شرعى أو استدلال علمى و إنما هو مقام نزوح أدبى، و سائر مقامات السيوطى تشهد لما قلناه، و تشيع فيها نفس الظاهرة و تؤكد نفس الفكرة، بل إن منظوماته الشعرية لم تخل- فى بعض الأحيان- من هذه الروح كقوله:

لم لا نرجى العفو من ربنا و كيف لا نطمع فى حلمه

و فى الصحيحين أتى أنه بعبده أرحم من أمه

و قوله:

حدثنا شيخنا الكنانى عن أبه صاحب الخطابة

أسرع أخا العلم فى ثلاث الأكل و المشى و الكتابة «۲»

و فى غير ما ذكرنا من شعر له نجد فى بعض الأحيان مصداق ما قلناه.

نستطيع أن نخلص مما تقدم إلى أن عقلية السيوطى عقلية الرجل المحدّث الذى يصب اهتمامه الأول على الأسانيد و يهتم بالرواة و النقلة، و أن نظرته إلى العلوم هى نظرة المحدّث و قد كان لذلك أثره فى طريقة تأليفه و عنايته البالغة بالنقول و إيراد أسماء أصحابها و أسماء الكتب التى نقل عنها، و حرصه الشديد على عدم إغفال ذلك.

بيد أن ثمة أمرا لا ينبغى أن نغفله لصلته بالرواية و مدى التشدد و التسامح فى قبولها، هذا الأمر هو أن السيوطى كان رجلا متصوفا انخرط فى سلك (۱) المقامة الوردية (ضمن مقامات السيوطى ص ۱۱).

(۲) شذرات الذهب ج ۸ ص ۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۳

الصوفية، فهل كان لانخراطه أثر فى منهجه فى الرواية تشددا و تحرجا أو تسامحا و تساهلا؟، للإجابة على ذلك لا بد أن نتناول تصوف السيوطى بشىء من الحديث نستجلى به أبعاده و نستوضح به غوامضه.

السيوطى و التصوف:

سبق أن أشرنا إلى أن التصوف فى عصر السيوطى كان يتخذ شكل ظاهرة اجتماعية واضحة فى البيئة المصرية، و أن تياره كان من القوة بمكان، و قد ساعد على ذلك عوامل متنوعة أهمها وجود المنشآت الصوفية التى سميت بالخوانق أو الزوايا و الربط.

نشأ فى هذه البيئة، و كان للتصوف أثر كبير فى توجيه حياته، فجده الأعلى همام الدين كان من مشايخ الطريق، و كان لوالده ميل إلى التصوف، و الكمال بن الهمام أحد الأوصياء عليه كان من المتصوفة و قد ولى مشيخة الشيخونية.

كما أن والد السيوطى قد حمله بعد مولده كما سبق أن رأينا إلى أحد كبار الأولياء ليباركه و يدعو له، و إذا كانت بيئة السيوطى الخاصة التى تتمثل فى أسرته و المحيطين به و بيئته العامة التى تتمثل فى المجتمع، كلتاهما يجد التصوف فيها منبتا حسنا، فلا عجب أن نشأ السيوطى ميالا منذ صغره إلى سلوك طريق المتصوفة.

و منذ وقت مبكر نصب السيوطى نفسه للدفاع عن الصوفية و رجالها، و قد رأينا اشتراكه فى المعركة حول ابن الفارض و قيامه بنصرته، و إفراده لذلك مؤلفا سماه «قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض» و قد دافع كذلك عن ابن عربى و أفرد للدفاع عنه مؤلفا سماه «تنبيه الغبى بتبرئة ابن عربى».

و له مؤلفات أخرى فى التصوف تشهد بحبه العميق لطريق المتصوفة و دفاعه عنهم، و قد ولى منذ وقت مبكر من حياته مشيخة التصوف بتربة برقوق، و قد سبق أن رأينا اتجاهه العلمى فى التصوف أواخر حياته، إذ اعتزل الناس و اعتكف فى بيته و تجرد إلى اللّه، و أكب على العبادة و التأليف.

بيد أن الذى يهمنا الآن من هذا كله هو النظر فى الآثار التى تركها فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۴

التصوف، و هل لها دلالات معينة على عقله و منهجه فى التفكير؟.

لقد ترك السيوطى فى التصوف عددا لا بأس به من الرسائل، و أفتى ببعض الفتاوى فيه و نرى فى فتاواه تعمقه فى فهم التصوف و مصطلحاته و مذاهب أهله، كما نرى دفاعه عن رجال التصوف المبرّزين و انتصاره لهم، كذلك نرى دفاعه عما يصدر عن المتصوفة من أفعال ينكرها عليهم أهل الظاهر، و يعد ذلك من الأحوال التى تعرض لهم، و على غيرهم أن يسلم بها «۱».

و الذى نلاحظه على كتاباته فى التصوف حبه العميق للمتصوفة و حسن ظنه بهم، و تساهله فى إيراد الأحاديث التى تدعم أقوالهم، و لو كانت هذه الأحاديث تروى غرائب أو أشياء قد ينكرها العقل، و لا يقر بقبولها.

فهو مثلا يكتب رسالة يسميها «المنجلى فى تطور الولى» «۲»، يحاول أن يثبت فيها نقلا و عقلا إمكان وجود الولى فى أكثر من مكان فى الوقت الواحد، و يفيض فى الأقوال المثبتة لما يقول و بالرغم من ذلك فإنه فى كلامه عن حديث «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة»، و الذى عقد له رسالة سماها «القول الجلى فى أحاديث الولى» «۳»، لم يزد على إيراده بأمانة جميع الطرق التى ورد بها الحديث و كلام أصحاب الحديث عن رجال هذه الطرق و تضعيف بعضهم، و الحكم على الحديث بالضعف أو بالغرابة، و لم يعلق على ما نقله بشىء، و هذا يدلنا فى الحقيقة على أمانته و تحرجه، بيد أنه لميله إلى التصوف يرجح ما يسند أقوالهم، فهو يرجح- مثلا- كون الحسن البصرى قد لقى على بن أبى طالب رضى اللّه عنه و روى عنه، مع نص ابن حجر و غيره من كبار المحدثين على أنه لم يلقه، و ذلك لأن المتصوفة يروون أن عليا قد ألبس الحسن خرقة التصوف، فإثبات عدم اللقاء يهدم قولهم و لذلك كتب السيوطى رسالة سماها «إتحاف الفرقة برفو الخرقة» حاول فيها إثبات رواية الحسن عن على و بالتالى إثبات الباسه إياه خرقة (۱) انظر الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۰۵ و ما بعدها، بعض الفتاوى المتعلقة بالتصوف.

(۲) الحاوى ج ۱ ص ۳۳۵.

(۳) الحاوى ج ۱ ص ۵۶۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۵

التصوف «۱». و رجح كون الخضر و إلياس عليهما السلام على قيد الحياة، و أجاب عن ذلك بأنه يرتضى القول الذى يذهب إلى أنهما من الأحياء فقال:

و المرتضى قول الحياة فكم له حجج تجل الدهر عن إحصاء

خضر و إلياس بأرض مثل ما عيسى و إدريس بقوا بسماء «۲»

بيد أنه يلاحظ عليه التساهل فى إيراد الأحاديث التى تدعم ما يذهب إليه الصوفية، و بالرغم من أنه لا يصف طرق هذه الأحاديث بغير ما وصفها به المحدثون فإنه يحاول أن يتلمس أكبر عدد من الطرق التى وردت للحديث الواحد لتقوية ما يورده، و يتضح ذلك فيما أورده عن وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال، و هو ما اشتهر عند الصوفية، و قد قوبل بالانكار فألف فى ذلك رسالة سماها «الخبر الدال على وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال» «۳»، ذكر فيها جميع الأسانيد التى روى بها الحديث و بالرغم من نصه على أن جميع ما ورد كان مرفوعا أو موقوفا فإنه يميل إلى اعتقاد ما ذكره لكثرة الطرق، و كثير من الأخبار التى أوردها عن التابعين و عن غيرهم فى هذا المجال فيها تساهل يجعلنا لا نطمئن إليها.

على أن التساهل فى قبول الروايات الذى رأيناه عنده بصدد التصوف فى بعض الأحيان قد ظهر لديه فى أماكن أخرى حيث أورد كثيرا من الأخبار غير الصحيحة أو الموضوعة و لم ينبه على وضعها، ففى حديثه عن نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان أورد بعض الاسرائيليات التى رواها كعب الأحبار و وهب ابن منبه و أضرابهما و لم ينبه عليها «۴»، و فى الحديث عن أخبار المهدى «۵»، أورد كثيرا من الروايات التى نقلها عن أبى نعيم و غيره، و كثير مما نقله تشهد متونه باستحالة صحته، و مع ذلك لم ينبه إلى حقيقة هذه الأخبار و إنما اكتفى بجمع ما (۱) الرسالة بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۱۹۱ و ما بعدها.

(۲) الحاوى ج ۲ ص ۲۵۰.

(۳) الرسالة بكتاب الحاوى ج ۲ ص ۴۱۷.

(۴) الاعلام بحكم عيسى عليه السلام، رسالة بالحاوى ج ۲ ص ۲۷۷ و ما بعدها.

(۵) العرف الوردى فى أخبار المهدى، رسالة بالحاوى ج ۲ ص ۱۲۳- ۱۶۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۶

يتصل بالمهدى، و بعض هذه الأخبار يبدو عليه مسحة الوضع فى العصر العباسى لا سيما الأخبار التى وردت فيها الاشارة إلى الرايات

السود التى تخرج من قبل المشرق، و بعض هذه الأخبار يجعل خروج المهدى انتقاما من أهل الشام و ظلمهم، و أن المهدى سينتقم منهم، و يعدل بين المسلمين و يتضح من روح هذه الأخبار أنها من الموضوعات زمن الأمويين، و جانب من الأخبار يذكر فيه السفيانى الذى يهاجم الكوفة و يطلب أهل خراسان، و المعروف فى التاريخ أن السفيانى كان أحد الخارجين على الدولة العباسية، إلى كثير من الأخبار التى تمتزج بأحداث التاريخ المتعاقبة التى مرت بالأمة الاسلامية و التى يتضح فيها أنها لم تخل من حشو كثير و تزيد، كما أن بعضها تقطع ببطلانه و وضعه، كذلك فإن من الضعيف أو الموضوع الذى قبله السيوطى الأحاديث التى تتصل بعمر الدنيا، و أنه سبعة آلاف سنة «۱»، على أن قبوله لبعض هذه الأحاديث كان نتيجة لما شاع فى عصره من اعتماد الناس على حديث باطل هو أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا يمكث فى قبره ألف سنة، و قد بين السيوطى بطلان هذا الحديث، و بين أن مقدمات الساعة و أشراطها و ما ورد فى ذلك من آثار تقضى بمجاوزة الأمة الألف، و ذكر أن الأمة لن تجاوز بعد الألف خمسمائة عام، و قد كان غير موفق فى هذا التقدير لأن أشراط الساعة من خروج الدجال و المهدى و غيره تستلزم أكثر من مائتى عام- كما نص على ذلك- و هذا ما لم يحدث إلى الآن، و الحق أنه كان عليه أن يتوقف فى مثل هذا الموضوع و أن يبتعد عن التقدير فى مثل هذه الغيبيات «۲».

و من قبيل ما ذكرناه جملة كثيرة من الأحاديث التى ساقها فى كتابه «الخصائص الكبرى» أو «كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب» فقد تساهل فى إيراد و قبول كثير من الآثار فى سيرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أورد كثيرا مما نص أئمة الحديث على وضعه و بطلانه. نخلص من ذلك إلى أن السيوطى برغم معرفته التامة بالحديث و علومه و نقده فإنه كان يميل إلى التساهل فى قبول المرويات التى تتصل بالتصوف و المسائل الغيبية، و الأمور المستقبلية و قد كان هذا التساهل ناتجا عن انخراطه فى (۱) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۱۶۸- ۱۷۱.

(۲) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، رسالة بالحاوى ج ۲ ص ۱۶۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۷

سلك الصوفية، و قد عرف الصوفية بالتساهل فى رواية الحديث، و فى رواية أخبار صلحائهم و كراماتهم، و لم يعتد الفقهاء بما يشتهر على ألسنة العامة من كرامات الأولياء أو بما يشتهر على ألسنة الصوفية فكثير منهم يجهل شروط صحة النقل، و كثير منهم يروى ما يسمعه و يحسن الظن بناقله، و لقد كان ذلك سببا فى قول بعض علماء الحديث «إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه، و لو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها» «۱».

و قد حذر رجال الحديث منذ القدم من الرواية عمن عرف بالصلاح إذا لم يكن من أهل الضبط و الدراية و قال قائلهم: «ما رأيت الصالحين فى شىء أشدّ فتنة منهم فى الحديث» «۲». بيد أنه للانصاف فإننا ينبغى أن نأخذ أنفسنا بشىء من التحفظ فى وصف السيوطى بالتساهل فى قبول بعض المرويات، فهو ينقل ما ينقله بأمانة و ينص على كونه ضعيفا أو مرفوعا أو موقوفا أو أن بعض النقلة غير موثق، و لا يخفى شيئا من هذه الأوصاف، فهو من ناحية البحث العلمى يقدم لنا الوصف الصحيح، و لكنه تأثرا بتصوفه يميل بقلبه إلى قبول ما يرويه و الدفاع عنه فى بعض الأحيان برغم أن كثيرا من هذه الأخبار فى مرتبة الضعيف أو الغريب و لم ترتق إلى الحسن أو الصحة كما أن كثيرا منها موضوع. و هو يحاول- أحيانا- أن يجد لبعض الموضوعات مدّخلا فى قسم الضعيف.

السيوطى الفقيه:

بلغ السيوطى درجة الاجتهاد فى الفقه، و قد طبقت فتاواه الفقهية أرجاء العالم الاسلامى فى حياته، و تشهد آثاره الفقهية بمقدرته، و قد كان شافعى المذهب، و بالرغم من بلوغه درجة الاجتهاد المطلق فإنه كان فى فتاواه يفتى بمذهب الشافعى، و قد تولى تصدير الفقه بالجامع الشيخونى مكان أبيه منذ وقت مبكر فى حياته.

و دراسة الفقه و معاناته تربط صاحبه بالبيئة التى يعيش فيها، و تجعله على (۱) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الرواية ص ۱۵۸.

(۲) المصدر السابق ص ۱۵۸، انظر ص ۱۵۸- ۱۶۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۸

اتصال دائم بحاجات الناس و مشكلاتهم و ما يجد من مستحدثات يطلبون فيها حكم اللّه فيعمل الفقيه عقله و استنباطه فيما عنده من نقول و يجتهد لينقل حكما يناسب ما جدّ من حادثات، أو يستنبط هذا الحكم، و حياته بالرغم من كونه فقيها متأخرا كانت مثالا لما نقول، فطالما استفتى فى كثير من المسائل التى فتش عن إجاباتها و نقلها، أو استنبطها مما لديه من نقول و أدلة.

و بالرغم مما وصل إليه من درجة عالية فى الفقه أهلته للاجتهاد المطلق كالأئمة المجتهدين فإنه كان فى اجتهاده- كما قال- مجتهدا مطلقا منتسبا أى أنه لم يخرج فى غالب اجتهاده عن مذهب الامام الشافعى، و قد دافع عن فكرة الاجتهاد و بين أن كل عصر لا ينبغى أن يخلو من مجتهد، و هذا اتجاه نحمده له، فهو يدل على عقليته المتحررة التى ثارت على بعض ما بعصره من جمود.

و لا يعنينا هنا التعرض لفتاوى السيوطى فهى من الكثرة بمكان، و لا يعنينا التعرض لمصنفاته الفقهية و جهوده فيها، و إنما نكتفى مما ذكرناه بأن نستدل على أن عقليته قد صبغها الفقه بصبغته و أثر فيها تأثيرا كبيرا، و الفقه يستلزم من صاحبه إعمال عقله فيما لديه من نقول، و نقد النقول و فهمها الفهم الجيد، ثم تطبيقها العملى على الحوادث.

و تأثر السيوطى بالفقه و دراساته، و إقباله على ما كتب فقهاء عصره، و ما تركه السلف من كتب سنرى أثره عند الحديث عن الجانب اللغوى عنده حين يدرس مسائل العربية على غرار دراسة الفقهاء للفقه.

و جدير بالذكر أن نذكر اهتمامه بعلم أصول الفقه الذى سيطبق منهجه على اللغة حين يحاول إنشاء علم يسمى بعلم أصول النحو، و حسبنا هذا القدر فى الحديث عنه فقيها لأنا لا نبغى سوى تبين ثقافاته المتنوعة و جوانب عقليته و المؤثرات فيها لكونها أصولا ترفد منهجه فى التفكير و تعين على تحديده.

السيوطى و الأدب:

جدير بنا فى ختام الحديث عن عقله و منهجه فى التفكير أن نتناول لغته فى التعبير، و يقتضى ذلك منا أن ننظر فى إنتاجه الأدبى، إذ تعيننا كتاباته جميعها على

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۵۹

الحكم على طريقة التعبير عنده، كما ينبغى ألا نغفل تعبيره الشعرى، فله من الإنتاج الشعرى ما يجدر أن نقف عنده بعض الوقت.

و من العجيب أنه قد جعل الترسل و الانشاء فى أواخر قائمة الفنون التى أجادها «۱»، و لكن هذا فى الحقيقة يعنى أن إجادته لهما دون إجادته و عنايته بغيرهما، و إن كان ذلك لا يعنى أنه لم يدل فى هذين الفنين بدلوه.

و قد عنى بالإنشاء و الترسل الكتابة الأدبية لا العلمية أو كتابة الدواوين و رسائلها، و هو أقل إنتاجا فيها، بيد أن له عددا كبيرا من المقامات و الرسائل الأدبية و الافتتاحات الأدبية الجميلة التى تعطينا صورة عن حياته الأدبية و أسلوبه لا سيما أنه قد عاش غضوبا سيال القلم تكلفه الغضبة رسالة يكتبها انتصارا لنفسه و من هذه الرسائل نستطيع التعرف عليه أديبا معبرا عن نفسه مصورا مشاعره.

و قد كانت الكتابة الأدبية فى عصره- كما سبق أن بينا- يطغى عليها البديع، و أصبح ذلك التسابق فى استخدام المحسنات اللفظية على اختلاف ضروبها شغل الكتاب الشاغل، و هو ما دعا السيوطى إلى الاعتراف بأنه لم ينبغ النبوغ الكافى فى الانشاء و الترسل، فهو حقا لم يبلغ ما بلغه كبار كتاب العصر السابقين له الذين برزوا فى مدرسة البديع، و طول الاشتغال بالعلم و ممارسة التأليف لا تترك لصاحبها فرصة لاتباع البديع و التزام المحسنات. على أن السيوطى قد جرى على نفس المنهج و سابق رجاله، فصدرت عنه رسائل و مقامات و كتب كثيرا من مقدمات كتبه ملتزما الأسلوب البديعى، و لكنه له بعض الرسائل التى تحرر فيها من بعض قيود اللفظ إلى حد ما، و لم تأسره الصناعة اللفظية.

و قد كان أسلوبه فى هذه و تلك تبدو فيه السهولة و الوضوح و التجافى عن الغموض و التعقيد و هو متصل بما قدمنا من مميزات شخصيته التى تأثرت بالبيئة المصرية التى تميل إلى الاستقامة و السهولة و الوضوح.

و قد كتب السيوطى مقامات متنوعة اتبع فى بعضها نهج الحريرى و بديع (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۰

الزّمان فى ابتداع شخصية طريفة تدور حولها القصة، و تحرر فى أكثرها من هذا المنهج فضمن بعض مقاماته موازنات و منافرات و ضروبا من الجوار التمثيلى كما فى مقامته المسكية فى أنواع الطيب، و مقامته الوردية فى أنواع الرياحين، و التفاحية فى أنواع الفواكه، و الفستقية فى أنواع النقول و غيرها، و بعض مقاماته يعتبر مقالات أو رسائل تعرض لموضوع معين و نتناوله بالمعالجة و ذلك كمقامته اللازوردية فى التعزية عن فقد الأولاد، و مقامته فى وصف الروضة و المقامة الطاعونية و غير ذلك.

فالمقامة المسكية يفترض فيها المؤلف اجتماع أمراء الطيب و منافرتها و قيام أحد الحكام بإعطاء كل منهم أوصافه و حقوقه، و قد حكم بين المسك و العنبر و الزعفران فقدم المسك و جعل العنبر ثانيا و الزعفران فى المرتبة الثالثة، و صرح لكل بفضله «۱»، و قد التزم السيوطى المحسنات اللفظية فى سائر المقامة، و فى المقامة الوردية «۲»، افترض أن الأزهار قد اجتمعت عساكرها و اتفقت على عقد مجلس لاختيار من هو أحق بالملك فصعد كل منها المنبر ليبدى فضيلته و حجته، و هو يلتزم فيها أيضا الأسلوب البديعى فيقول فيها: «... و اتفقت على عقد مجلس حافل، لاختيار من هو بالملك أحق و كافل، و ها أكابر الأزاهر، قد صعدت المنابر، ليبدى كل حجته للناظر، و يناظر بين أهل المناظر، فى أنه أحق أن يلحظ بالنواظر، من بين سائر الرياحين النواضر، و أولى بأن يتأمر على البوادى منها و الحواضر ... الخ» «۲».

أما المقامتان التفاحية و الفستقية فهما وصف لأنواع الفواكه و النقول و فوائدها المتنوعة، و ما ورد فيها من الآثار مع العناية بالتزام الأسلوب البديعى الذى يتسم بالتكلف فى غالب الأحيان. و تمتلئ مقامات السيوطى بالآيات و الأحاديث التى يضمنها عباراته كما تشيع فيها الحكم و الأمثال و الأشعار الكثيرة، و اختياره للأشعار يدل على ذوق أدبى جميل، و فى مقامته التى خصصها للتعزية عن فقد

(۱) المقامة المسكية، مقامات السيوطى ص ۱- ۱۱.

(۲) المقامة الوردية، المقامات ص ۱۱- ۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۱

الأولاد «۱»، بدأها بقوله تعالى: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، ثم بين أن المصاب بفقد الأولاد من أعظم المصاب، و تحدث عن الصبر و ما فيه من الأجر، و أورد الأحاديث التى تتحدث عن أجر الصبر على فقد الولد و أخذ يسرد الآثار و الأخبار بأسلوب مقنع واضح، و بين ما للأطفال عند ربهم، ثم ختمها بقوله: «فيا أيها الوالد الجريح، و الواله القريح، ما ذا البكاء و الصريخ، بعد هذا الخبر الصريح، و ما ذا العويل و الضجيج بعد ما ثبت فى الحديث الصحيح، و ما ذا التلهف و التأسف بعد هذا القضاء المريح المريح».

فإن كنت تبكيه طلابا لنفعه فقد نال جنات النعيم مسارعا

و إن كنت تبكى أنه فات عوده عليك بنفع فهو قد صار شافعا

فطب نفسا بهذا الفضل العظيم، و قرّ عينا بنزول ولدك فى جوار الرب البر الرحيم و أنشد عن نفسك قول شاعر حكيم:

جاورت أعدائى و جاور ربه شتان بين جواره و جوارى

و إن تلوت «يا أسفى على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم»، فاتل تلوها «إنما أموالكم و أولادكم فتنة، و اللّه عنده أجر عظيم ... الخ» «۲».

على أنه قد تطرق فى مقاماته إلى موضوعات فيها شىء من المجون و الأدب المكشوف فمن مقاماته «رشف الزلال من السحر الحلال»

«۳»، و تسمى مقامة النساء، و قد تحدث فيها بلسان عشرين عالما يصف كل منهم ما جرى بينه و بين عروسه ليلة دخوله بها موريا باصطلاحات علمه و فنه، و بالمقامة تعبير مكشوف و ميل إلى المجون برغم أنه بدأها بمقدمة استحث فيها على الزواج و الابتعاد عن المحرمات، و قد التزم فيها المحسنات اللفظية و أكثر من إيراد الأشعار، و إذا كان (۱) المقامات ص ۷۶، مخطوط بدار الكتب برقم ۲۲۷۲۹ ب.

(۲) مقامات السيوطى ص ۸۴.

(۳) رشف الزلال من السحر الحلال (طبعت بالقاهرة طبع حجر بدون تاريخ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۲

قد انزلق إلى هذا الضرب من الأدب الماجن مع ما عرف عنه من زهد و تقوى وجد فلعل له عذره فى ذلك، فهو أديب و الأديب طروب، و النفس تمل من طول الجد و تميل إلى التروح، و لم يكن لدى الرجل من أسباب التروح غير ما يقرأه أو يكتبه. أما أسلوبه فى مقدمات كتبه و فى رسائله الأدبية الأخرى فقد التزم فيه النهج البديعى و استعمل المحسنات اللفظية، أما فى كتاباته العلمية فقد تحرر من البديع و أرسل قوله على عواهنه و تميز أسلوبه العلمى بالسهولة و الوضوح و الاستقامة و حسن العرض، و لو لا تجنب الاطالة لمثلنا لجميع ذلك بأمثلة توضح ما نذهب إليه.

السيوطى الشاعر:

و ليس غريبا أن يكون الرجل شاعرا فقد رأيناه أديبا يجيد فن القول النثرى كما عرفه عصره، و قد كان بالاضافة إلى ذلك شاعرا، و قد ذكر أن له ديوان شعر، و قد رأينا له بعض الأشعار الجيدة، أما منظوماته العلمية فهى من الكثرة بحيث يعسر إحصاؤها و له كثير من الأجوبة الفقهية التى أجاب بها نظما، و له عديد من المنظومات التى تعرض فيها لموضوعات علمية دقيقة.

و هكذا فإن الغالب على شعر الرجل الطابع العلمى حتى فى أشعاره التى أنشأها فى غير الأغراض العلمية، و لكن هناك أمرا يدل على ذوقه الشعرى يتضح فى اختياراته الشعرية التى أوردها فى بعض كتبه و رسائله، و هى تدل على حسن تذوقه و فطرته السليمة.

و قد نظم فى الأغراض الشعرية المختلفة فله فى المدح و الرثاء و المديح النبوى، و الاخوانيات و الأحداث العامة، غير أنه كما قلنا ذو باع طويل فى نظم العلوم و الفنون، و له فى المنظومات العلمية إنتاج كبير نذكر منه ما يلى:

۱- التبرى من معرة المعرى، و هى أرجوزة فى أسماء الكلب «۱».

۲- الخلاصة نظم كتاب الروضة فى الفقه. (۱) طبعت مع كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۳

۳- الفريدة: ألفية فى النحو و الصرف و الخط «۱».

۴- قطف الثمر فى موافقات عمر «۲»، أرجوزة فيما وافق فيه سيدنا عمر التنزيل.

۵- مختصر ملحة الاعراب للحريرى فى مائة و عشرين بيتا.

۶- موشحة فى النحو «۳»، أولها:

إلى إله الأنام من نحلا أفضاله كل آمل أملا أرغب

۷- التثبيت عند التبييت «۴»، و هى أرجوزة فى سؤال الميت فى القبر نحو مائة و خمسين بيتا.

۸- تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين «۵»، منظومة فى الحديث عمن يبعثه اللّه على رأس كل مائة.

۹- تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة «۶»، و هى إجابة على نحو مائة من الأسئلة و الألغاز أجاب عنها نثرا، ثم نظم إجاباتها.

على أن له كثيرا من المنظومات غير ما قدمنا، و له مقطوعات نظمية كثيرة أجاب بها عن الأسئلة التى كانت ترد إليه نظما، و كتاب

الحاوى ملىء بأمثال هذه الأسئلة و الفتاوى التى أفتى بها نظما، إلى جانب فتاواه النثرية فى جميع فروع المعرفة التى أجادها.

و من أمثلة شعره فى الرثاء قوله فى شيخه الشمنّى المتوفى عام ۸۷۲ ه «۷»:

رزء عظيم به تستنزل العبر و حادث جلّ فيه الخطب و الخبر

رزء مصاب جميع المسلمين به و قلبهم منه مكلوم و منكسر

(۱) لها طبعة مستقلة.

(۲) طبعت ضمن كتاب الحاوى ج ۲ ص ۵.

(۳) مخطوط بدار الكتب برقم ۱۹۱ نحو تيمور.

(۴) طبعت بالقاهرة.

(۵) مخطوط بدار الكتب برقم ۸۲۶۰ ح.

(۶) الحاوى ج ۲ ص ۵۰۲ و ما بعدها، و النظم ص ۵۴۷.

(۷) بغية الوعاة ص ۱۶۵، حسن المحاضرة ج ۱ ص ۲۷۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۴

ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينعمر

رزيئة عظمت بالمسلمين و قد عمت و طمت فما للقلب مصطبر

تبكيه عين أولى الاسلام قاطبة و يضحك الفاجر المسرور و الغمر

و من أمثلة منظوماته قوله فى موافقات عمر رضى اللّه عنه «۱».

الحمد للّه و صلى اللّه على نبيه الذى اجتباه

يا سائلى و الحادثات تكثر عن الذى وافق فيه عمر

و ما يرى أنزل فى الكتاب موافقا لرأيه الصواب

خذ ما سألت عنه فى أبيات منظومة تأمن من شتات

ففى المقام و أسارى بدر و آيتى تظاهر و ستر

و ذكر جبريل لأهل القدر و آيتين أنزلا فى الخمر

و آية الصيام فى حل الرفث و قوله نساؤكم حرث يبث

و قوله لا يؤمنون حتى يحكموك إذ بقتل أفتى

... إلى آخر المنظومة.

و من الأسئلة التى وردت إليه نظما و أجاب عنها نظما، و هى كثيرة مبثوثة فى كتابه ما سئل عنه فى ضبط كلمة «يطلع» فسئل «۲»:

يا عالما فاق أهل العصر و الأثر و زان أهل النهى فى الخبر و الخبر

هل لام يطلع مضموم و يضبطها بذاك ذاكرها فى البدو و الحضر

أو ينصبوها و ضم اللام ذا خطأ كما تفوه شخص من أولى الفكر

فأجاب بقوله:

الحمد للّه مزجى السحب بالمطر ثم الصلاة على المختار من مضر

بالضمّ يطلع منقول و شاهده تطلع على قوم المقروء فى الزبر

و الواقع أن المنظومات العلمية للسيوطى من الكثرة بحيث يدهش المرء من (۱) الحاوى ج ۲ ص ۵.

(۲) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۶۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۵

تنوعها و تناوله فيها مختلف المسائل من مختلف ألوان المعرفة. و لعلنا بذلك نكون قد مثلنا لما عنده من الشعر و أعطينا صورة واضحة له.

و إذ كنا قد بينا معالم ثقافته، و ألقينا الضوء على عقله و منهجه الفكرى و حددنا أصول هذا المنهج و اتجاهاته بما أثر فيها من مؤثرات علمية و بيئية، فليس أمامنا الآن سوى الحديث عن الآثار التى خلفها السيوطى و التى كانت تتناول جمع فروع المعرفة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۶

آثار السيوطى

عرف السيوطى بكثرة مؤلفاته، و قد أعانه على القيام بتأليف العدد الكبير من الكتب المنسوبة إليه ما طبع عليه من حب للتأليف و صبر عليه، و ما عرف عنه من سرعة الكتابة، فقد روى عنه تلميذه شمس الدين الداوديّ أنه عاين أستاذه «و قد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا و تحريرا» «۱».

على أن هذه الكثرة الكاثرة من الكتب المنسوبة له تجعل من العسير علينا أن نقوم بإحصائها على وجه الدقة، و أكثر عسرا أن نتتبعها لنعرف الموجود منها و المفقود، و ما طبع و انتشر و ما لا يزال مخطوطا، و قد عانيت فى هذه المحاولات كثيرا من الجهد، و تكلفت كثيرا من المشقة.

و احصاء هذه الكتب متفاوت بين من حاولوا إحصاءها، فالسيوطى قد ذكر فى ترجمته لنفسه نحو ثلاثمائة مصنف، بيد أن قائمة الكتب التى سردها ليست الفيصل فى آثاره التى خلفها إذ يبدو أنه قد ألف بعد كتابتها كثيرا من الكتب التى لم يذكرها فيها، كما يبدو أن هذه القائمة قد سقط منها على أيدى النساخ أسماء بعض الكتب، أو نسى هو ذكره، كما تغافل عن ذكر بعض الكتب التى قال إنه رجع عنها، و الذى يؤكد لى هذه الفكرة أنه لم يذكر بين قائمة كتبه كتابا يعد من أهمها و هو كتاب المزهر، و ليس هناك أدنى شك فى نسبة الكتاب إليه فقد صرح باسمه فى بعض كتبه الأخرى و أشار إليه، فوردت إشارته إليه أكثر من مرة فى كتابه «النكت على الألفية لابن مالك و الكافية لابن الحاجب ...»،

و هذا الكتاب قد أتم السيوطى تأليفه عام ۸۹۵ ه «۲»، مما يؤكد تأليف المزهر أو (۱) الشعرانى ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۱۲ ص ۲۳.

(۲) النكت على الألفية لابن مالك و الكافية و الشافية لابن الحاجب و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام (مخطوط بدار الكتب المصرية) انظر ورقة ۳۲۷ ص ۶۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۷

الشروع فيه على يده قبل ذلك التاريخ، و نرجح أن إغفال ذكره جاء سهوا من المؤلف و الأرجح أنه سهو من الناسخ.

و الجدير بالملاحظة أن بعض كتب السيوطى قد مكث يعمل فى تأليفها ردحا من الزمن، يكتب حين يفرغ لها بعض أجزائها، ثم يشغل بأخرى أو تجرفه أحداث الحياة، ثم يعاود بعد حين ما بدأه منذ وقت بعيد، و قد حكى عن نفسه ذلك فى بعض كتبه، فالكتاب السابق «النكت» ذكر أنه شرع فيه عام ۸۶۷ ه، و صنفه على ترتيب الألفية فكتب فيه إلى المعرب و المبنى، ثم عاود الكتابة عام ۸۷۶ ه، فكتب جزء آخر، ثم عاود الكتابة عام ۸۸۵ ه، فانتهى إلى حروف الجر ثم أنهى تأليفه عام ۸۹۵ ه «۱».

و فى مقدمة «اللئالئ المصنوعة» يبين أنه شرع فى تأليفه عام ۸۷۰ ه و فرغ منه عام ۸۷۵ ه و كتب منه عدة نسخ، بيد أنه بدا له فى عام ۸۹۵ ه أن يعيد كتابته مرة أخرى مع بعض التغييرات و الزيادات التى رآها لازمة لمؤلفه، فأعاد تأليف الكتاب مرة أخرى «۲».

كما توضح مقدمته لكتابه «بغية الوعاة» أنه شرع فى جمعه و الاعتداد له منذ عام ۸۶۸ ه، و أنه لم يخرجه على صورته الأخيرة إلا بعد

عام ۸۹۹ ه، بعد أن كان بمكة و اطلع على ما جمعه صديقه الحافظ نجم الدين بن فهد «۳».

و الملاحظة الثانية أن الجانب الأكبر من مؤلفاته يتمثل فى رسائل صغيرة أو كتيبات ما بين صفحة واحدة و بضع عشرات من الصفحات، و ما هو دون العشر كثير فله نحو ثلاثين مقامة لا يتجاوز أكثرها عشر صفحات، و قد طبع من رسائله فى كتاب «الحاوى للفتاوى» ثمانون رسالة، كما أن هناك مخطوطا قد عثرت عليه بدار الكتب يحوى نحو ۱۱۴ رسالة له تكرر بعضها بكتاب الحاوى، و كثير من رسائله لا يزال مخطوطا، و بدار الكتب المصرية عدد كبير منها، بعضها فى مخطوط مفرد، و بعضها ضمن مجاميع له أو مجاميع لأكثر من (۱) المصدر السابق ورقة ۳۲۷.

(۲) اللئالئ المصنوعة ص ۲، ۳.

(۳) بغية الوعاة ص ۲، ۳

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۸

مؤلف، و بالرغم من ذلك فإن كتبه المطولة تمثل عددا كبيرا، و قد طبع من آثاره إلى الآن عدد لا بأس به، إلا أن قدرا كبيرا من هذه الآثار لا يزال مخطوطا، كما أن جانبا من آثاره قد ضاع و فقد على ما أرجح.

و الملاحظة الثالثة تتصل بوثاقة هذه المؤلفات و صحة نسبتها أو نسبة ما بها إلى السيوطى و هذه النقطة تستلزم دراسة لكل مؤلف منها منفردا، و هذا ما يستحيل القيام به تجاه أربعمائة أثر أو أقل أو أكثر، بيد أن كثرة المطالعة فى كتبه جعلتنى أستوضح شخصيته و أسلوبه و فكره الذى أستطيع تبينه و معرفته فى مؤلفاته، بالاضافة إلى ما يكتبه من إشارات متناثرة فى داخلها عن بعض الأحداث التى تعرض لها فى حياته أو إشاراته إلى كتبه الأخرى بما يجعلنا نطمئن إلى صحة نسبة أكثر هذه الكتب إلى السيوطى، و لكن ذلك لا يمنع أن بعضها قد دخله فى بعض الأحيان حشو من قبل بعض تلاميذه أو من غيرهم، غير أن ذلك- على ما أرجح- قليل جدا، و قد استطعت أن أعثر فى كتابيه «حسن المحاضرة»، و «الكنز المدفون»، على نصين قطعت بأنهما مما زيد على كتبه بعد موته فقد تحدث السيوطى فى حسن المحاضرة عن سلاطين مصر من المماليك و سردهم سردا سريعا حتى انتهى إلى قانصوه الغورى، و إلى هنا يمكن أن نقول: إن ما كتب كان على يد السيوطى، إذ إن الغورى كان آخر السلاطين الذين عاصرهم، و قد توفى السيوطى عام ۹۱۱ ه و استمر حكم الغورى إلى عام ۹۲۲ ه، و نجد فى الكتاب بعد ذلك مباشرة أن الغورى: «أقام فى الملك إلى أن خرج من مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة فى جيش كبير إلى البلاد الحلبية لملاقاة السلطان سليم بن عثمان فوقع المصاف بينهما بمرج دابغ فى خامس عشرى رجب من السنة المذكورة، فمات فى ذلك حتف أنفه و لم توجد جثته، ثم فى يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة تولى طومان باى الدوادار ابن أخى الغورى و لقب بالأشرف، ثم ان السلطان سليم بن عثمان دخل مصر فى يوم الخمس سلخ الحجة سنة ثلاث و عشرين و تسعمائة و أقام بمصر إلى أن رحل عنها فى رابع عشرى شعبان من السنة المذكورة، و خلف عليها خاير بك المحمدى، ثم إن ابن عثمان مات ببلاد الروم فى ليلة السبت تاسع شوال سنة ست و عشرين، و قام بعده فى الملك ولده

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۶۹

سلطان العصر سليمان نصره اللّه تعالى، ثم مات خاير بك فى ثالث عشرى ذى القعدة سنة ثمان و عشرين و تسعمائة، ثم ولى بعد خاير بك مصطفى أحد وزراء السلطان سليمان، ثم فى شهر رمضان قدم من الروم أمير لنيابة مصر يسمى قاسم، ثم جاء من بعده أحمد باشا، ثم من بعده سليمان باشا خسرو، ثم من بعد خسرو أعيد سليمان باشا ثم من بعده الزينى داود باشا متوليها الآن أدامه اللّه تعالى» «۱».

و واضح أن النص السابق قد وضع بعد السيوطى فأحداثه جميعا قد وقعت بعد وفاته، و النص كما يبدو يستمر فى الحديث عن أحداث وقعت بعده إلى أكثر من ثلاثين سنة، بل إننى أرجح أن الحديث عن بعض السلاطين قبل هذا النص قد أضيف أيضا إلى الكتاب و لم

يكن السيوطى قد كتبها، فمن المرجح أنه انتهى فى ذكر السلاطين إلى محمد بن قايتباى الذى انتهى حكمه عام ۹۰۴ ه، و الذى يرجح ذلك المنظومة التى ذكرت فى نهاية هذا الفصل و نسبت للسيوطى فقد انتهت إليه، و على ذلك فمن المرجح أن ذكر السلاطين بعده إلى الغورى- و هم من معاصريه- مما أضيف إلى الكتاب أيضا.

و قد تكررت هذه الاضافة نفسها فى كتاب «الكنز المدفون و الفلك المشحون» فقد ذكر السيوطى أن السادس من الخلفاء يكون مصيره الخلع ثم ابتدأ بالنبى صلى اللّه عليه و سلم و عدد الخلفاء بعده و ذكر أن الحسن بن على سادسهم قد خلع، و استمر فى سرد أسماء الخلفاء الأمويين ثم العباسيين ثم الفاطميين بمصر ثم الأيوبيين بها ثم سلاطين المماليك حتى وصل إلى قايتباى فقال: «ثم الملك الأشرف قايتباى أيده اللّه و نصره و حكمه فى رقاب الكفرة الفجرة ببركة محمد و حبه فى الفقراء و المساكين»، و يبدو من هذا الدعاء أن الكتاب قد ألّف فى عهد قايتباى (۹۰۱ ه) و لكن نجد بعد ذلك و هو ما نرجح كونه مدسوسا العبارة التالية: «فمات ثم ولده الملك الناصر فقتل، ثم الملك الظافر قانصوه فخلع ثم الملك الأشرف جانبلاط فخلع و قتل، ثم الملك الأشرف قانصوه الغورى» «۲». (۱) حسن المحاضرة ج ۲ ص ۱۰۶، ۱۰۷.

(۲) الكنز المدفون ص ۸۱.

و بالرغم من أن هؤلاء قد عاصرهم السيوطى أواخر حياته إلا أننا نرجح أن هذا النص مدسوس عليه، ثم إننا نقطع بأن بقية النص مزيدة على كتاب السيوطى بعد وفاته إذ نذكر أن الغورى: «سار بعسكره إلى مرج دابغ لملاقاة السلطان الملك المظفر سليم بن عثمان فلما التقيا خر ميتا و جهل أمره و لم يوجد، ثم مات الملك المظفر سليم بن عثمان بجمرة فى ظهره و ولى ولده السلطان الملك المظفر سليمان شاه أدام اللّه تعالى أيامه و أصلحها و أبعد عنه قرناء السوء» «۱»، و يتضح أن كاتب هذا النص كان يعيش فى عصر السلطان سليمان القانونى (۹۲۶ ه- ۹۷۲ ه)، و لعله أحد تلاميذ السيوطى، و قد رجحت أن يكون ابن إياس المؤرخ إذ إنه ينتهى فى تاريخه إلى هذا الوقت، و هو من تلاميذ السيوطى، و يتحدث عنه دائما بقوله «شيخنا».

على أن ذلك لا يطعن فى وثاقة مؤلفات السيوطى و صحة نسبتها إليه، و لكن ما أريد أن أصل إليه هو أن هذه المؤلفات لم تسلم من قليل من الزيادات، كما أنها لم تسلم من بعض النقص، و قد سبق عند الحديث عن شيوخ الخانقاه الشيخونية أن رجحت سقوط بعض الأسماء التى ذكرها السيوطى، كما رجحت من بعد سقوط بعض أسماء مؤلفاته التى ذكرها فى ترجمته لنفسه.

و إذا حاولنا العودة إلى مصنفاته و احصاءها فإننا نذكر أنه قد سمّى نحو ثلاثمائة مصنف منها و لم يستوعب جميعها، و أغلب الظن أن بعض ما ذكره قد سقط من أيدى النساخ، و أرجح أن يكون من بين ما سقط مصنفات اللغة كالمزهر و أسماء الذئب و الأسد و الكلب و غيرها، و قد ذكر الشعرانى أن مصنفاته بلغت أربعمائة و ستين مصنفا «۲»، و قد أحصيت ما أورده له صاحب كشف الظنون فبلغ نحو أربعمائة و سبعة و ستين مصنفا «۳»، ثم أحصيت ما أورده صاحب كتاب هدية العارفين فبلغ نحو خمسمائة و ستة و ثمانين مؤلفا «۴»، و قد (۱) المصدر السابق ص ۸۱.

(۲) الشعرانى ذيل الطبقات الكبرى ورقة ۵ ص ۹، ۱۰.

(۳) حاجى خليفة: كشف الظنون، فى أماكن متعددة.

(۴) إسماعيل البغدادى: هدية العارفين بأسماء المؤلفين و آثار المصنفين ص ۵۳۵- ۵۴۴.

أحصى فلوجل أعماله العلمية فبلغت ۵۶۱ عملا «۱»، و قد ذكر بروكلمان قائمة مؤلفات السيوطى بيد أنه اقتصر على ما أورده السيوطى فى ترجمته و لم يزد عليه «۲».

و قد كنت أود أن أورد هنا ثبتا أستوفى به الحديث عن جميع آثار السيوطى، بيد أنى رأيت ذلك يستغرق صفحات كثيرة فضلا عن

خروجه عما نقصد إليه من بحثنا إلى مجرد القيام بالفهرسة لهذه الكتب، و لذلك فإننى تجنبا للاطالة و الاستطراد رأيت أن أجعل هذه الفهرسة فى آخر الرسالة بمشيئة اللّه ضمن مسرد المصادر، فأتجنب بذلك تكرار ذكر هذه الآثار، و هناك سأبين ما قد رجعت إليه و وقفت عليه من هذه الآثار، و ما لم أتمكن من الوقوف عليه. (۱)« ituyuS »malsIfoaideapolc ycnEehT

(۲). ۱۹۸- ۱۷۸ ۱۷۸ -۱۹۸) .II. Vrutarettilnehcs ibarAreDethcihce G جز ۲ ص)

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۷۳

الباب الثانى جهوده اللغوية

تقديم:

بعد أن عرضنا للحديث عن عصر السيوطى و حياته و ثقافته و تعرفنا على شخصيته و عقليته و منهجه، و عرفنا بآثاره، نريد أن ننتقل هنا إلى دراسة الجانب اللغوى لديه و أريد بالجانب اللغوى جميع ما يتصل بالدراسة اللغوية التى تصنف الآن إلى مستويات دراسية خمسة هى المستوى الصوتى و الصرفى و النحوى و المعجمى و الدلالى و أقصد من التعرض لها و دراستها استيضاح جهود السيوطى و بيان أثره فى هذه الدراسات، و أسلوبه فى تناولها، و مميزاته الشخصية التى تميزه فى هذا الميدان من ميادين المعرفة الانسانية عن غيره من اللغويين، فهل كان للسيوطى أثر فى هذه الدراسات؟ و هل كان له مميزات خاصة تفرد بها عن غيره، و ما قيمته بالنسبة لتاريخ هذه الدراسات عند العرب؟، ذلك ما نحاول فى هذا الباب أن نحدد معالمه و أن نقطع فيه برأى.

على أن السيوطى بالرغم من تنوع الميادين التى طرقها فإنه قد برّز فى ثلاثة منها كما ذكرنا من قبل هى الحديث و الفقه و العربية و المقصود بها النحو بما يشمل فى معناه العام من الأبحاث الصرفية، و قد حكى عنه الشعرانى بلوغه درجة الاجتهاد المطلق فى هذه العلوم الثلاثة «۱»، كما حكى عنه قوله عن نفسه فيما يخص الاجتهاد فى العربية إنه «لم يكن بعد ابن هشام من يصلح أن يوصف به غيرى» «۲»، و قد حدد آلات الاجتهاد و مؤهلاته بقوله: «و أما الاجتهاد فى العربية فهو أن يحيط بنصوص أئمة الفن من سيبويه إلى زمانه هذا، و يحفظ غالب شعر العرب الذين يحتج بأشعارهم فى العربية، و لا يضر خفاء بعض ذلك عليه، و ليس المراد حفظه عن ظهر قلب، و إنما المراد أن يكون له اطلاع على دواوينهم (۱) ذيل الطبقات ورقة ۶ ص ۱۲.

(۲) المصدر السابقة ورقة ۸ ص ۱۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۷۶

بحيث يعرف محل الاستدلال بذلك من الكتب، و يكون مع ذلك محيطا بقواعد النحاة التى بنوا تصرفاتهم عليها غير القواعد المذكورة فى واضحات الكتب، فإن تلك كالأصول لهذه القواعد، و هذا لا يعرفه الآن إلا متبحر فى الفن» «۱».

و الحق أن صلة السيوطى باللغة و دراستها جد مبكرة فقد كانت أول إجازة علمية حصل عليها فى حياته بتدريس العربية، و قد تتلمذ كما رأينا على يد أشهر رجال عصره فى النحو و هم الكافيجى و الشمنى و سيف الدين الحنفى، و قد أتاحت له ظروفه أن يقف على كثير من الكتب التى لم تكن فى متناول غيره من خزانة محمود التى كانت تحت نظره، و قد وضح صلته بالدرس اللغوى قائلا:

«و لم أزل من زمن الطلب أعتنى بكتبها قديما و حديثا، و أسعى فى تحصيل ما درس منها سعيا حثيثا إلى أن وقفت منها على الجم الغفير، و أحطت بغالب الموجود مطالعة و تأملا، بحيث لم يفتنى سوى النزر اليسير، و ألفت فيها الكتب المطولة و المختصرة و علقت التعاليق ما بين أصول و تذكرة، و اعتنيت بأخبار أهلها و تراجمهم و إحياء ما دثر من معالمهم، و ما رووه و روّوه، و ما تفرد به الواحد منهم من المذاهب و الأقوال، ضعفه الناس أو قووه، و ما وقع لهم مع نظرائهم و فى مجالس خلفائهم و أمرائهم من مناظرات و محاورات و مجالسات و مذاكرات و مدارسات و مسامرات و فتاوى و مراسلات، و معاياة و محاجاة، و قواعد و مناظيم، و ضوابط و

تقاسيم، و فوائد و فرائد، و غرائب و شوارد، حتى اجتمع عندى من ذلك جمل و دونتها رزما لا أبالغ و أقول وقر جمل» «۲».

و قد حاول أن يسلك مسلك اللغويين القدماء فى إملاء اللغة كما يملى الحديث فى مجالس، و لكنه لم يجد من يحمل ذلك عنه «۳».

و تدل آثاره فى الدراسات اللغوية على أنه لم يكن مبالغا فى أقواله السابقة، فكثرة ما جاء بها من أفكار و أخبار و ترتيبها و تنسيقها يستلزم مجهودا ضخما و إحاطة واسعة و دراية بالغة بهذه الفنون. (۱) نفس المصدر ورقة ۹، ۱۰ ص ۱۸، ۱۹.

(۲) مقدمة الأشباه و النظائر ص ۳.

(۳) المزهر ج ۲ ص ۳۱۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۷۷

و إذا كان السيوطى قد تناول فى أبحاثه المتنوعة كثيرا من المباحث التى تدرس فى المستويات الصوتية و المعجمية و الدلالية، كما أنه خلف عددا ضخما من المصنفات النحوية التى تضمّ أبحاث الصرف فليس أمامنا غير أن نعرض لكلتا الناحيتين من دراساته، و لذلك رأيت أن أجعل الفصل الأول لبحث جهوده فى المستويات اللغوية التى تتصل بالأصوات و المعاجم و الدلالة و القضايا اللغوية العامة، و أن أخصّص الفصل الثانى لتناول ما يتصل بجهوده النحوية بما تشمله بالطبع من أبحاث صرفية، أى ما يتصل بدراسة التراكيب و الصيغ، و قد رأيت أن يكون عنوان الفصل الأول الخاص بالجانب غير النحوى «فقه اللغة» و أعنى به جميع مستويات الدرس اللغوى يضاف إليها القضايا العامة، و جعلت عنوان الفصل الثانى: «النحو» و عنيت به مدلوله الواسع الذى يشمل الصرف.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۷۹

الفصل الأول

فقه اللغة أو: «الدراسات اللغوية غير النحو و الصرف»

تقديم:

لا بد لنا لكى نقوم الدور الذى أداه السيوطى فى ميدان فقه اللغة من أن نعرض لجهود سابقيه التى نظر فيها و اعتمد عليها لكى نقارن ما قام به بما قام به غيره، و من ثم نستطيع الحكم له أو عليه و نستطيع أن نتبين مقدار الجهد الذى بذله فى هذا الميدان و قيمته، كما أن هذه المقدمة ضرورية لبيان تطور الدراسة اللغوية عند اللغويين العرب الذين يعد السيوطى من متأخريهم، أى أنه لغوى شهد آخر مراحل هذا التطور فى الدراسة و على يديه وصلت الدراسة اللغوية إلى مرحلة أرقى مما كانت عليه عند سابقيه كما سنتبين ذلك فيما بعد.

و نريد هنا بالدراسة اللغوية أو «فقه اللغة» ما يعنيه المحدثون بفقه اللغة و علم اللغة فأبحاثهما متداخلة مشتركة بحيث إن كثيرا من المؤلفين المحدثين فى علم اللغة يرون أبحاثهم داخلة فى ميدان فقه اللغة، و لا نريد بالدراسة اللغوية فى هذا الفصل ما يتصل منها بعلم النحو لأننا سنخصص- كما ذكرنا- للدراسة النحوية، فصلا مستقلا نبحث فيه جهود السيوطى فيها.

و قد بين بعض المحدثين أن خير ما توصف به أبحاث اللغويين القدماء هى أن تسمى بفقه اللغة، ذلك أن فقه الشىء هو كل ما يتصل بفلسفته و فهمه و الوقوف على ما يسير عليه من نواميس «۱». (۱) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص ۱۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۰

فما المراحل التى مر بها الدرس اللغوى قبل السيوطى؟ و ما الأدوار التى اضطلع بها رجال اللغة على مر الأحقاب المتوالية؟ ثم ما هى الآثار التى خلفها هؤلاء فى ذلك الفرع من فروع المعرفة الانسانية؟.

الحقيقة أن الاجابة على ذلك تستلزم بحثا طويلا يخرج بنا عما نقصد إليه من بحثنا و هو تحديد دور السيوطى فى الدرس اللغوى لا سيما أن الآثار التى خلفتها القرون الطويلة من الكثرة بحيث يصعب مجرد حصرها فضلا عن تناولها بالدراسة، و ليس يعنى ذلك التقاعس عن التعرض لهذا الموضوع، و إنما يعنى أننا سنتناوله بالقدر الذى نراه موفيا لما نقصد إليه من بحثنا الأساسى و لذلك فلا لوم علينا إذا اقتصرنا على تناول المعالم الرئيسية لهذا الموضوع أو اقتصرنا على الاشارة إلى أهم رجال اللغة، مغضين النظر عن بعض التفصيلات التى لا تحدث تغييرا فى الصورة العامة التى نرسمها و نحددها.

و البحث فى اللغة ينشأ لدى أى أمة من الأمم نتيجة لقيام تضاد بين لغتين أو مرتبتين من لغة واحدة «۱»، فحينئذ يمكن ملاحظة بعض الخصائص اللغوية، و قد كانت العربية منذ وقت مبكر حافلة بصور الخلاف بين لهجاتها المتعددة التى تمثل مستوى معينا فى الاستعمال العادى بعضها مع بعض من ناحية، و بين جميع هذه اللهجات و بين اللغة المثالية التى هى لغة القرآن و الأشعار و التى كان العرب جميعا يستطيعون فهمها من ناحية أخرى.

بيد أن الدافع القوى الذى دفع إلى البحث فى الدرس اللغوى و العناية بالألفاظ اللغوية هو نفس ما حدث بالنسبة للنحو من انتشار اللحن نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم، فلم يعد اللحن يقتصر على عدم القدرة على ضبط أواخر الكلمات بل تعداه إلى استعمال الألفاظ و تحريفها فى الاستعمال عن مواضعها التى تعارفت العرب عليها، أو عدم القدرة من قبل المستعربين على حفظ هذه الألفاظ و ضبطها و النطق بها على هيئاتها الصحيحة الصوتية و الصرفية مما هدد بضياع كثير من الفاظ اللغة، و حفز بالتالى العلماء على

تدوينها (۱) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ترجمة الدكتور محمد عبد الحليم النجار ج ۲ ص ۱۲۳.

و ضبطها و البحث عن معانيها الدقيقة، لتعين فيما بعد على تفهم معانى القرآن الكريم و الحديث و الشعر، و قد عبر عن هذه الحقيقة ابن خلدون بقوله: انه «لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب و استنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم و مخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعمرين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة و التدوين خشية الدروس و ما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن و الحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك و أملوا فيه الدواوين» «۱». و من هنا فإن العناية بدراسة ألفاظ اللغة و تحديد مدلولاتها و ضبطها قديم، و ربما كان هذا النوع من الدراسة أقدم فى نشأته من العناية بالاعراب، لأن نشأته قد بدأت فى الظهور منذ العناية بالنص القرآنى و تفسير بعض ألفاظه. و لعلّ فيما ينسب إلى ابن عباس رضى اللّه عنه من المسائل المعروفة بمسائل نافع بن الأزرق لعل فيها دلالة على هذه العناية منذ وقت مبكر سواء صحّت نسبة جميعها أو بعضها.

على أننا ندخل فى دائرة الدراسة اللغوية الجادة التى بقى لأصحابها آثار تدل على نوعية دراساتهم، أو أثر عنهم قيامهم بأنواع من الدراسات اللغوية حين تصل إلى أبى عمرو بن العلاء «۲»، و نكون بذلك قد تخطينا من المشتغلين بالبحوث اللغوية طبقة أبى الأسود و تلاميذه الذين غلب عليهم الاشتغال بالنحو، و قد كان أبو عمرو معاصرا لعبد اللّه بن أبى إسحاق صاحب الشهرة الكبيرة فى تاريخ النحو و القياس و كان «عبد اللّه يقدّم على أبى عمرو فى النحو، و أبو عمرو يقدّم عليه فى اللغة، و كان أبو عمرو سيد الناس و أعلمهم بالعربية و الشعر و مذاهب العرب» «۳».

و قد ولد أبو عمرو بمكة عام ۷۰ ه تقريبا و عاش بالبصرة، و تحدثنا تراجمه العديدة فى كتب الطبقات بقيامه بجمع أشعار العرب القدماء و الدءوب على (۱) ابن خلدون: المقدمة ص ۵۴۸.

(۲) راجع مقدمة تهذيب اللغة للأزهرى ج ۱ ص ۸.

(۳) المزهر ج ۲ ص ۳۹۸، ۳۹۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۲

شرحها و إجراء الملاحظات اللغوية عليها، بيد أن شيئا من كتبه لم يصل إلينا «۱»، و قد ذكر القدماء أنه أحرق هذه الكتب قبل وفاته، و لكن أثره قد ظهر واضحا فى تلاميذه الذين برزوا فى ميدان اللغة و قد توفى أبو عمرو عام ۱۴۵ ه.

و أهم اللغويين الذين نجدهم فى هذه الفترة هم تلامذة أبى عمرو و طبقتهم «۲»، و قد قام هؤلاء بأجل الأعمال اللغوية فقد اضطلعوا بعملية شاقة تتمثل فى جمع اللغة و الرحلة إلى البادية تحقيقا لهذا الغرض، و قد ظلت الرحلة إلى البادية و السماع من الأعراب الذين لم تديف ألسنتهم بالعجمة سنة متبعة بين اللغويين حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، و فى ذلك الحين توقف اللغويون عن الأخذ عن أعراب البادية، و انتهى بذلك عهد السماع اللغوى، و انقطع المدد اللغوى المنطوق الذى كان يعتمد عليه اللغويون بالاضافة إلى ما لديهم من مصادر مقررة و معروفة تتمثل فى القرآن الكريم بقراءاته و أشعار الجاهليين و الاسلاميين و الأمويين الذين يختتمون بابن هرمة، و أقوال فصحاء الحواضر حتى منتصف القرن الثانى.

و بذلك فإن المرحلة الأولى فى التأليف اللغوى قد تأثرت بما يهم اللغويين فى ذلك الحين و هو عملية الجمع، و نلاحظ على آثارهم التى خلفوها عنايتها بجمع الألفاظ التى تدور حول موضوع معين دون أن يكون هناك اهتمام كبير بدراسة الفلسفة اللغوية لهذه الألفاظ أو تعمق فى دراسة الخصائص اللغوية المتنوعة المتصلة بها.

و أقدم المؤلفات فى اللغة هى ما خلفه هؤلاء فقد ترك الأصمعى (۲۱۵ ه) عددا كبيرا من الكتب ضاع عدد منها و وصل إلينا عدد لا بأس به، و النظرة فى كتب الأصمعى تؤيد الملاحظة السابقة عن اتجاه المؤلفين إلى جمع الألفاظ التى تتصل بموضوع ما بعضها إلى جانب بعض، فله من الكتب خلق الانسان، الأجناس و الأنواء، الهمز، المقصور و الممدود، الصفات، الميسر و القداح، خلق الفرس، الابل، الشاء، الأخبية و البيوت، الأمثال، الأضداد، الألفاظ، (۱) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى الترجمة العربية ج ۲ ص ۱۲۹.

(۲) الأزهرى: مقدمة تهذيب اللغة ج ۱ ص ۱۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۳

اللغات، الاشتقاق ... إلى آخره «۱».

و يتضح من ذكر بعض مؤلفاته دراساته لبعض الظواهر العامة فى اللغة كالاشتقاق و الأضداد، و أن معظم كتبه معاجم متنوعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى. و كان معاصرا للأصمعى اللغوى الكبير أبو زيد الأنصارى (۲۱۴ ه) و كان من رواة اللغة الموثوق بهم، و قد ترك من الكتب:

الإبل و الشاء، المطر، خلق الانسان النبات و الشجر و اللغات و النوادر و الجمع و التثنية، و تحقيق الهمزة و الوحوش ... إلى آخر ما صنف من كتب «۲»، و قد بقى من كتبه عدد لا بأس به، و نفس ما قلناه عن الأصمعى و آثاره يمكن أن نحكم به على أبى زيد من ناحية توزع مباحثه اللغوية بين الاهتمام بالمعاجم المتنوعة للمعانى المختلفة و بين بعض الظواهر اللغوية، و قد قيل عنه إنه كان شديد العناية بجمع اللغات أى اللهجات، و قد ترك أبو عبيدة معمر بن المثنى (۲۱۰ أو ۲۱۱ ه) عددا كبيرا من الكتب منها غريب القرآن و معانى القرآن و كتاب الموالى و كتاب الضيفان و مرج راهط و المنافرات و القبائل و العقارب و الحيات و النوائح و الخيل و الابل و المصادر و الأضداد «۳».

و هذه كما يتضح تعنى بالمعاجم المتنوعة للمعانى المختلفة، أو بألفاظ القرآن بالاضافة إلى اهتمامه بالأخبار و التاريخ.

و كذلك كان النضر بن شميل (۲۰۴ ه) و هو ممن أخذ عن الخليل و كان معاصرا لهذه الطبقة، يهتم بنفس ما اهتمت به طبقته من جمع الألفاظ، و يتناول بعض الظواهر اللغوية، و قد ذكر له من الكتب كتاب الصفات الذى احتوى مباحث تدل على ما قلناه «۴». بيد أن أهم الأعمال اللغوية التى صدرت عن هذه (۱) ابن النديم: الفهرست ص ۸۲، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ۲ ص ۱۴۷- ۱۴۹.

(۲) الفهرست ص ۸۱، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ۲ ص ۱۴۵، ۱۴۶.

(۳) الفهرست ص ۷۹، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ۲ ص ۱۴۲- ۱۴۴.

(۴) ابن النديم: الفهرست ص ۷۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۴

الفترة تمثل فى معجم «العين» الذى نسب إلى الخليل و الذى يوضح الاتجاه إلى جمع مفردات اللغة جميعها و ترتيبها و محاولة استقصائها، و بيان المستعمل منها و المهمل.

ثم توالت جهود اللغويين بعد ذلك و وضعت بعض المعاجم على غرار كتاب العين، و أهم المعاجم العربية بعد كتاب العين «تهذيب اللغة» الذى وضعه الأزهرى (۳۷۰ ه)، و قد اتبع فيه ترتيب مواد اللغة على نفس الترتيب الذى وضعه الخليل و هو: ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م ى و ا.

و الأزهرى من رجال اللغة القدماء، و قد وقع فى أيدى القرامطة، و اختلط بقوم منهم من عرب هوازن و تميم و سمع عنهم كثيرا من اللغة، و قد كتب الأزهرى مقدمة قيمة لكتابه أرخ فيها تطور الدرس اللغوى عند العرب إلى عصره فذكر ثلاث طبقات من اللغويين سمع هو من رجال الطبقة الثالثة و أخذ عنهم.

و قد وضعت كتب تهتم بجمع الألفاظ التى تتصل بمعنى من المعانى أو بجملة من المعانى المتقاربة، و وضعت بعض البحوث اللغوية المتناثرة حتى ظهر أبو الفتح عثمان بن جنى (۳۹۲ ه) فأنتج كتابه الخصائص و اهتم فيه بأبحاث عديدة تتصل بالقضايا اللغوية العامة و الخاصة فتناول أصل اللغة و نشأتها، و بحث ظواهر الاشتقاق و القياس، و تناول اختلاف اللهجات، و ضمّن كتابه عديدا من البحوث القيمة بالإضافة إلى الدراسة الصوتية المتميزة التى وضعها فى كتابه «سر صناعة الإعراب» و فى غيره.

كما ظهر ابن فارس (۳۹۵ ه) و تناول فى كتابه «الصاحبى فى فقه اللغة و سنن العرب فى كلامها» أصل اللغة و نشأتها كما تناول نظم العرب فى مخاطباتها، و ما لها من الافتنان تحقيقا و مجازا، و قد ذكر أن مثل هذه الأبحاث من الأبحاث التى تهتم بالأصول «۱»، و هو يقصد ما كان يعنيه و نعنيه بفلسفة اللغة أو فقهها، و قد (۱) الصاحبى فى فقه اللغة: المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۵

تضمن كتابه بعض المباحث الهامة فى خصائص العربية، كالاشتقاق و القياس و الترادف و المجاز و المشترك و النحت، و اختلاف اللغات و اللهجات.

كما وضع ابن فارس معجما هاما جمع فيه كثيرا من المواد اللغوية و حاول ردّ مفردات كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة، فلجميع مفردات المادة عنده أصل أو أصلان، ثم يتفرع الأصل أو الأصلان إلى فروع كثيرة، تربطها بالأصل صلة المعنى، و هذا هو الاشتقاق الدلالى الذى حاوله من قبل ابن دريد (۳۲۱ ه) فى كتابه «الاشتقاق» الذى حاول فيه رد أسماء قبائل العرب و أفخاذها و بطونها و أسماء ساداتها و أعلامها إلى أصول لغوية اشتقت منها هذه الأسماء، و قد عبر ابن جنى عن هذا الاشتقاق بالاشتقاق الأكبر بيد أنه لم يطبقه إلا على قلة من الكمات و أيا ما كان الأمر فمعجم ابن فارس فريد فى نوعه لم يسبقه مثله، و لم يخلفه من نسج على منواله و قد سماه بمعجم مقاييس اللغة، و هو يعنى بالمقاييس ما يسميه اللغويون بالاشتقاق الكبير الذى يرد مفردات كل مادة إلى معنى أو قلة من المعانى تشترك فيها هذه المفردات.

و قد وضع الجوهرى (۳۹۸ ه) معجما ضخما سماه «الصحاح» رتبه على أحرف الهجاء و راعى فى ترتيبه أواخر الكلمات، و هى الطريقة التى اتبعها المتأخرون من المعجميين فى العصر المملوكى كابن منظور و الفيروزآبادى، و قد حصر الجوهرى اللغة مقتديا بحصر الخليل و بين منهجه فى مقدمته بقوله: «قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف اللّه تعالى منزلتها، و جعل علم الدين و الدنيا منوطا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه و تهذيب لم أغلب عليه، فى ثمانية و عشرين بابا، و كل باب منها ثمانية و عشرون فصلا على عدد حروف المعجم و ترتيبها إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية و إتقانها

درايهٔ و مشافهتى بها العرب العاربهٔ فى ديارهم بالباديهٔ، و لم آل فى ذلك نصحا و لا ادخرت وسعا».

ثم ألف أبو منصور الثعالبى (۴۳۹ ه) كتابا بعنوان «فقه اللغهٔ»، بيد أنه لم يضمنه إلا بعض المباحث القليلهٔ التى تتصل بهذا العلم، حيث تحدث فى آخره عن بعض الألفاظ العربيهٔ التى نسبت إلى الروميهٔ، و بعض الأسماء المشتركهٔ فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۶

الوضع بين العرب و الفرس، و بعض ما تفرد به الفرس من الأسماء مما اضطر العرب إلى تعريبه أو تركه، أو الأسماء التى ماتت فارسيتها و لا تزال عربيتها مستعملهٔ.

و الكتاب يصب عنايته فى الغالب على إصابهٔ مواضع الاستعمال الصحيحهٔ للألفاظ العربيهٔ، و التفرقهٔ بين ما وضع منها على العموم و ما وضع على الخصوص، و ذلك لتجنب اللحن اللغوى الذى ينشأ من تحريف استعمال الألفاظ عن مواضعها التى وضعتها العرب لها، فالعرب مثلا تضع الأبيض لكل ما فيه بياض، ثم تخص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب و من الانسان بالأزهر و من الغنم بالأملح، فلا يجوز تحريف هذه الألفاظ باستعمال الأزهر للخيل مثلا، و التحريف فى الاستعمال كما يقولون «أشد من اللحن فى الاعراب و أفحش» «۱».

فالكتاب فى جملته معجم للمعانى، يراعى اختلاف الدلالات و الفروق الدقيقهٔ بينها و ينبه على مواضع الاستعمال الصحيحهٔ للألفاظ.

أما ابن سيدهٔ (المتوفى سنهٔ ۴۵۸ ه) فقد تناول فى كتابه «المخصص» بعض البحوث المتعلقهٔ بنشأهٔ اللغهٔ العربيهٔ و الترادف و التضاد و الاشتقاق و الاشتراك و التعريب و يقع كتابه فى سبعهٔ عشر جزء، و هو حسن التنسيق، بيد أنه فى غالبه يمثل معجما كبيرا للمعانى، ففيه- مثلا- الألفاظ الخاصهٔ بخلق الانسان ثم أوائل الحمل و الولادهٔ، ثم أسماء ما يخرج مع الولد، و الرضاع و الفطام ... و هكذا.

و فى القرن السادس الهجرى وضع الزمخشرى (۵۳۱ ه) معجمه المسمى «أساس البلاغهٔ» مرتبا كالمعتاد على أحرف الهجاء، و قد عنى فيه بذكر المعنى الحقيقى للكلمهٔ و المعنى المجازى لها.

و توفر الجواليقى من علماء القرن السادس على دراسهٔ «المعرب من الكلام الأعجمى» و قد رتب كتابه على حروف المعجم.

ثم كان عصر المماليك الذى قدمنا خصائصه التى من أهمها اهتمام رجاله (۱) ابن خلدون: المقدمهٔ ص ۵۵۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۷

بالجمع و التنسيق و النظر فيما تقدم من الكتب، و كثرهٔ المؤلفات التى أرادوا بها إحياء الحركهٔ العلميهٔ التى قوضت دعائمها ببغداد، و أشهر من ظهر بهذا العصر من اللغويين ابن منظور الافريقى (۷۱۱ ه)، و الفيروزآبادى (۸۱۶ ه).

أما ابن منظور فقد عاش بمصر و توفى بها، و له أعمال علميهٔ كثيرهٔ، بيد أن أهمها و أبقاها معجمه «لسان العرب» و هو معجم واسع المادهٔ جمع فيه ستهٔ كتب سبقته هى تهذيب الأزهرى و صحاح الجوهرى و حواشى ابن برى عليه، و المحكم و المخصص لابن سيدهٔ، و نهايهٔ ابن الأثير، و قد بلغت مواد المعجم ثمانين ألفا، و يمتاز بالبسط فى تناول كل مادهٔ، و قد ظهر بالمعجم أثر الموسوعيهٔ التى كانت من خصائص العصر كما سبق أن أشرنا، فهو كثير الاستطراد فى شرح المواد اللغويهٔ، و إذا كان لهذه الطريقهٔ بعض العيوب فإن لها بعض المزايا، فقد احتوى المعجم على كثير من الفنون فى الحديث و النحو و الصرف و التفسير و الأشعار و الأراجيز و غيرها، و ترتيب اللسان- كما هو معروف- بحسب أواخر المواد بعد تجريدها و هو ترتيب لم يعرف من قبل إلا عند الجوهرى فى كتابه «الصحاح».

و الفيروزآبادى عالم من علماء اللغهٔ ولد بفيروزآباد إحدى قرى شيراز، و قد طوف بالشام و مصر و غيرها، و أخذ عن مشاهير علماء عصره، و قد صنف عديدا من المصنفات أربت على أربعين مصنفا، بيد أن أهم كتبه أيضا معجمه الشهير «القاموس المحيط»، و هو مختصر كتاب كان قد ألفه من قبل و سماه «اللامع المعلم العجائب الجامع بين المحكم و العباب»، و ترتيبه كترتيب اللسان، و يمتاز بالاختصار مع كثرهٔ مواده فقد احتوى نحو ستين ألف مادهٔ، و قد استعمل مؤلفه الرموز التى تدل على الجمع و الموضع و اللفظ

المعروف ليستعين بذلك على الاختصار، بيد أن هذا الاختصار قد جعل المعجم محل انتقاد بعض المتأخرين و الحق أن بالمعجم بعض العيوب التى ترجع إلى الاختصار و بعض العيوب التى ترد إلى غير ذلك، فصاحبه لا يذكر أسماء الذين ينقل عنهم و لا ينبه- كما هو شأن اللغويين- على الفصيح و الغريب و الحوشى و المهمل و المذموم ... إلى آخره، بالاضافة إلى خلطه بين الأفعال الثلاثية و الرباعية و الخماسية، كما أنه لا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۸

ينبه فى أحيان كثيرة على الفروق الدلالية أو النحوية بين الألفاظ التى يفسر بها و بين الألفاظ المفسرة.

بعد هذا العرض لتطور الدراسة اللغوية قبل السيوطى- فى بيئة اللغويين- و بيان أبرز معالمها نستطيع أن نخلص إلى أن جميع ما سبقه من دراسات لغوية تتصل بالمستويات اللغوية غير النحو و الصرف، أو بعبارة أخرى تتصل بفقه اللغة كما سبق أن حددنا مقصودنا بهذا المصطلح، و هى التى تأثر بها و اعتمد عليها فى دراساته، يمكن أن تندرج تحت أنواع أربعة من الدراسات:

۱- دراسات تهتم ببعض مسائل فقه اللغة، كدراسة الأصمعى للاشتقاق، و كتاب «الصاحبى» لابن فارس الذى تحدث فيه عن نشأة اللغة و تناول بعض مسائل فقه اللغة، و كتاب «الخصائص» لابن جنى الذى بحث فيه أصل اللغة و تناول عددا من الموضوعات التى تهم فقه اللغة، و بعض الموضوعات التى ضمنها ابن سيدة فى المخصص و بعض موضوعات كتاب «فقه اللغة» للثعالبى، و بعض موضوعات كتاب «المعرب» للجواليقى، و هناك عديد من الكتب التى تضمنت بعض البحوث اللغوية الهامة فى طياتها كأمالى القالى و أمالى ثعلب و أمالى الزجاجى، و هناك طائفة أخرى اقتصرت على جانب من جوانب دراسات فقه اللغة ككتاب «الأضداد» لأبى عبيد، و الأضداد لابن الأنبارى، و المقصور و الممدود لابن السكيت، و المقصور و الممدود لابن سيدة، و كذلك للقالى، و الإلماع فى الاتباع لابن فارس، و أمثال هذه الكتب.

۲- معجمات تهتم بجمع الألفاظ و حصرها رامية إلى شرحها و ترتيب موادها ترتيبا خاصا يتسنى معه إمكان الرجوع إليها لمن يبغى ذلك فى سهولة و يسر، و أول من عمل على تدوين معجم شامل هو الخليل الذى وضع «العين» أو وضع فكرته و منهجه و أساسه و أكمله بعض تلامذته، و قد ظهر بعده «معجم الجمهرة» لابن دريد، و قد خالف فى ترتيبه سابقه، و هناك من أمثال هذه المعاجم الشاملة التهذيب للأزهرى، و المجمل لابن فارس، و الصحاح للجوهرى، و أساس البلاغة للزمخشرى، و العباب للصغانى، و اللسان لابن منظور، و القاموس للفيروزآبادى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۸۹

۳- معجمات ترمى إلى بيان الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى و الموضوعات فترتب المعانى و الموضوعات بطريقة خاصة، و تذكر الألفاظ التى تستعمل فى كل منها، و أهم هذه المعجمات «الألفاظ» لابن السكيت (۲۴۳ ه)، و «الألفاظ الكتابية» للهمذانى (۲۲۷ ه)، و «فقه اللغة» للثعالبى، و أكثرها جمعا و أضخمها كتاب المخصص لابن سيدة.

۴- معاجم خاصة تقتصر على ذكر ألفاظ موضوع من الموضوعات أو تهتم بطوائف معينة من الألفاظ، و هذه أقدم مؤلفات اللغة ظهورا، و يمثلها كتاب الأنواء و النبات لأبى حنيفة، و كتب الأصمعى التى أشرنا إليها و كذلك كتب أبى زيد فى الابل و المطر و غيرها، و كتب أبى حاتم و أمثال هذه المصنفات.

هذه جوانب الدراسة اللغوية التى سبقت السيوطى و أهم ما وضع فيها من الكتب، بيد أننا ينبغى ألا نغفل ما كان يحدث خارج البيئة اللغوية من تناول للغة، و نقصد بذلك دراسة الأصوليين (علماء أصول الفقه) للغة، فالحق أن السيوطى لم يقتصر على النظر فى أبحاث اللغويين بل تجاوز ذلك إلى النظر فى أبحاث الأصوليين التى تهتم باللغة، و الحق أن «المقدمة اللغوية عند الأصوليين من أدق و أوفى ما كتب و يكتب عن الحياة اللغوية منذ نشأة اللغة إلى أن أصبحت كائنا معقد البناء و التركيب» «۱».

و قد ألم الأصوليون فى هذه المقدمة بمباحث لم يستوفها الدارسون اللغويون، و لا نكون مبالغين إذ قلنا: إن تتبع ما عند الأصوليين من

البحث اللغوى كثيرا ما يكون أجدى من تتبع بحوث أصحاب اللغة أنفسهم «۲».

كما كان للمتكلمين نصيب كبير فى التوفر على دراسة نشأة اللغة و القول بمواضعتها و اصطلاحها أو توقيفها، و قد اختلفوا فيما بينهم حول ذلك، و تعدّ هذه المسألة من أهم أبحاث علم الكلام. (۱) د. سيد خليل: التصور اللغوى عند العرب ص ۱۸۴ (مقال بمجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية).

(۲) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية ص ۲۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۰

آثاره اللغوية و مكانها من حياة الدرس اللغوى

اشارة

توفر السيوطى على جميع هذه الدراسات التى سبقته، و قبل أن نحدد قيمة عمله بالمقارنة بأعمال السابقين و خصائص هذا العمل و مميزاته يحسن أن نعرف أولا بآثاره اللغوية لنتمكن من تحديد أبعاد جهوده فى الدرس اللغوى.

و أهم هذه الآثار التى تركها السيوطى فى اللغة كتابه الشهير «المزهر»، الذى سنتناوله بالدراسة و نعتمد عليه فى بيان منهج مؤلفه فى الدرس اللغوى، و موقفه من الدراسات اللغوية السابقة، و مكانه بين هذه الدراسات، و قبل أن نفيض فى ذلك نشير إلى أن للسيوطى بعض الرسائل الصغيرة فى اللغة، و العجيب أن قائمة كتبه التى أوردها بحسن المحاضرة لم تذكر «المزهر» بينها كما لم تذكر رسائله اللغوية الأخرى، مما رجح عندى أن قائمة المؤلفات التى تخص اللغة قد سقطت من الترجمة ربما منه و ربما من ناسخى الكتاب بعد ذلك و قد سبق أن ذكرت إشارته إلى المزهر فى كتابه «النكت على الألفية ...» الذى لا يزال مخطوطا «۱»، و قد ذكر كتاب «النكت» بين ما ذكره بحسن المحاضرة مما يرجح تأليف المزهر قبل كتابة الترجمة.

و الرسائل التى تركها فى اللغة غير المزهر هى:

۱- المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة

الحبشية و الفارسية و الهندية و النبطية و القبطية و السريانية و العبرانية و الرومية و البربرية، و هو كتيب صغير، و قد طبع بدمشق فى عام ۱۳۴۸ ه، و قد ألفه للخليفة العباسى المتوكل على اللّه صديقه، و كان قد طلب إليه ذلك «۲»، و قد بين السيوطى أنه سماه بالمتوكلى اقتداء بأبى بكر الشاشى الذى ألف كتابا فى الفقه بأمر الخليفة المستظهر و سماه المستظهرى، (۱) النكت ورقة رقم ۲۹۹.

(۲) المتوكلى ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۱

و بإمام الحرمين الذى ألف فى الفقه كتابا لغياث الدين نظام الملك و سماه الغياثى، و سمى رسالة أخرى الرسالة النظامية، و غيرهم ممن فعل ذلك «۱».

و قد تتبع السيوطى فى كتابه ألفاظ القرآن التى نقل عن المفسرين من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أنها مما دخل العربية من اللغات الأخرى، و السيوطى بذلك يوافق القائلين بوجود ألفاظ معربة فى القرآن الكريم، و هو الرأى الذى هاجمه الشافعى من قبل فى رسالته «۲»، حيث نفى تأثر العربية بغيرها من اللغات و أفرد صفحات طوالا لذلك، و اتجه إلى القول بالاتفاق فى الوضع اللغوى إذا وجدت

مشابهة بين ألفاظ عربية و أخرى غير عربية، و موقف السيوطى من هذه القضية يبدو أكثر جلاء فى كتابه الاتقان «۳» حيث يتناول القضية فيذكر أن أكثر الأئمة يذهبون إلى عدم وقوع ألفاظ غير عربية فى القرآن و منهم الشافعى و ابن جرير و أبو عبيدة، و القاضى أبو بكر بن الطيب و ابن فارس، و ذلك لقوله تعالى: «قُرْآناً عَرَبِيًّا»، و قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ، و حكى السيوطى إنكارهم وقوع ألفاظ أعجمية فى القرآن و ميلهم إلى القول بالاتفاق فى الوضع بين العربية و غيرها من اللغات، و قد بالغ بعض هؤلاء فذهب إلى أن اتساع العربية و كثرة ألفاظها جعلت أمثال هذه الألفاظ تخفى على أمثال ابن عباس و غيره ممن عزوها إلى ألسنة غير العرب، و يبدو من عرض السيوطى كثرة أنصار الرأى القائل بعربية هذه الألفاظ و تعليل ذلك باتساع لسان العرب حتى خفى على بعض الناس حقيقة هذه الألفاظ، بيد أن ثمة رأيا حاول صاحبه التوسط بين المنكرين و المثبتين و هو فى الحقيقة أصوب هذه الآراء و أكثرها إدراكا للواقع اللغوى و ما ينتج عن اختلاط اللغات بعضها ببعض من وقوع التأثير و التأثر فى الألفاظ، و استعمال كل لغة بعض ألفاظ الأخرى بعد تهذيبها و صقلها و صوغها بصيغها المألوفة و هو ما يعرف فى العربية بالتعريب، و قد وقع هذا التعريب فى العربية، (۱) المصدر السابق ص ۲.

(۲) رسالة الشافعى ص ۴۱- ۵۱.

(۳) الاتقان فى علوم القرآن ج ۱ ص ۱۳۶، ۱۳۷.

و وجدت ألفاظ أجنبية استعملها العرب قبل الاسلام فى لغتهم نتيجة الاختلاط بينهم و بين غيرهم من الأمم، و قد كان بمكة جاليات أجنبية من الحبشة و الروم و الفرس ممن اشتغلوا بالتجارة و أقاموا بها، و قد دخلت إلى العربية بعض ألفاظهم بعد شىء من التحوير فى أصواتها و صيغها لتناسب الأصوات و الصيغ العربية، كما أن اختلاط العرب بالأمم المحيطة بهم و هم طريق التجارة و أداتها بين الشرق و الغرب معروف، و نلاحظ مصداق ذلك فى أشعار الجاهليين لا سيما من أكثر منهم دخول بلاد الفرس و الروم أو البلاد المجاورة لها. فنلاحظ لديهم استعمال الألفاظ الأجنبية بعد تعريبها، و القول الذى يشير إلى هذه الحقيقة و يرى استعمال الألفاظ المعربة فى القرآن الكريم بعد أن عربتها العرب هو ما نسب إلى أبى عبيد القاسم بن سلام، و قد نقل عنه السيوطى قوله: «و الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا و ذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها و حولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن و قد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنها عربية فهو صادق، و من قال عجمية فصادق» «۱».

و قد حكى السيوطى رأيا مشابها لهذا، و لكنه لم يحدد قائله، و هو أكثر وضوحا و دقة، إذ يرى أصحابه أنه «كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة فى أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظا، غيرت بعضها بالنقص من حروفها، و استعملتها فى أشعارها و محاورتها، حتى جرت مجرى العربى الفصيح، و وقع بها البيان و على هذا الحد نزل بها القرآن» «۲».

و القرطبى ينسب هذا القول إلى ابن عطية فى عبارة أكثر تفصيلا- لخص عنها السيوطى عبارته السابقة- توضح تماما هذه الفكرة إذ يقول: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب و عربتها، فهى عربية بهذا الوجه، و قد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، و كسفر مسافر بن أبى عمرو (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۳۸.

(۲) الاتقان فى علوم القرآن ج ۱ ص ۱۳۷.

إلى الشام، و كسفر عمر بن الخطاب، و كسفر عمرو بن العاص، و عمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، و كسفر الأعشى إلى الحيرة و محبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، و جرت إلى تخفيف

ثقل العجمة، و استعملتها فى أشعارها، و محاوراتها حتى جرت مجرى العربى الصحيح، و وقع بها البيان، و على هذا الحد نزل بها القرآن، فان جهلها عربى، فكجهله الصريح بما فى لغة غيره» «۱».

بيد أن المنكرين لوجود ألفاظ أعجمية فى القرآن لا- يقبلون الأقوال التى حاولت التوسط بينهم و بين خصومهم الذين يذهبون إلى وجودها، فابن فارس يرى خلوّ القرآن من الألفاظ الأعجمية، و ينكر على أبى عبيد رأيه فيقول: «فإن قال قائل: فما تأويل قول أبى عبيد فقد أعظم و أكبر؟ قيل له: تأويله أنه أتى بأمر عظيم، و ذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شىء لتوهم منه متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها، و فى ذلك ما فيه» «۲».

و يتضح أن حجة ابن فارس لا يسندها الواقع اللغوى الصحيح، لأن العرب القدماء قد وقع فى أشعارهم ألفاظ معربة كالسجنجل فى شعر امرئ القيس و شهنشاه فى شعر الأعشى، و غير ذلك كثير، و لم يخرجهم ذلك عن النمط العربى السليم، و الأساليب العربية الصحيحة، فوقوع ألفاظ معربة فى القرآن لا- يعنى أنه نزل بجملة من اللغات، و إنما نزل بالعربية بما احتوته من ألفاظ ذات أصول أجنبية تمثلتها العربية و صقلتها وفقا لخصائصها الصوتية و الصرفية و أصبحت تستعمل بها، و هذا أمر معروف فى جميع اللغات.

و السيوطى يذهب مع القائلين بوجود ألفاظ أعجمية فى القرآن الكريم، و قد دلّ على رأيه وضعه الكتاب الذى نتحدث فيه، و سنرى له بعد قليل كتابا آخر يؤكد هذه الفكرة بيد أننا- فى الحقيقة- لا نجد له- فى هذا الكتاب المسمّى (۱) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ج ۱ ص ۶۸، ۶۹.

(۲) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۲۹، ۳۰.

بالمتوكلى- رأيا فيما ذهب إليه أبو عبيد و ابن عطية و غيرهما من الذين قالوا بتعريب هذه الألفاظ و استعمال العرب لها ثم استعمال القرآن لهذه الألفاظ بعد ذلك، و إن كان ما ذهبوا إليه لا يتنافى مع اختيار السيوطى لوقوع ألفاظ أعجمية فى القرآن، و قد حاول نتيجة لطبيعة عقليته الحديثية النقلية أن يدعم رأيه ببعض الآثار و الأحاديث فقال: «و أقوى ما رأيته للوقوع، و هو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال: فى القرآن من كل لسان» «۱».

و قد أورد بعض النقول غير هذا ثم أكد احتواء القرآن على ألفاظ من مختلف اللغات بقوله «فالنبى صلى اللّه عليه و سلم مرسل إلى كل أمة، و قد قال اللّه تعالى: و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، فلا بد و أن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم و إن كان أصله بلغة قومه هو» «۲».

و على هذا الأساس وضع السيوطى كتابين أو رسالتين فى هذا الموضوع غير تناوله له فى كتابه الإتقان، و إذا عدنا إلى «المتوكلى» فإننا نستطيع أن نخرج بعد قراءته بالملاحظات التالية على منهجه:

أولا: من ناحية تنظيم الكتاب، رتب السيوطى الألفاظ المنسوبة إلى كل لغة من اللغات على انفراد، فبدأ بذكر الألفاظ التى جاءت بلغة الحبشة، ثم ما جاء بالفارسية فالرومية، فالهندية، فالسريانية، فالعبرانية، فالنبطية، فالقبطية، فالتركية، فالزنجية، فالبربرية، فكأن بالقرآن ألفاظا من إحدى عشرة لغة، و هى اللغات التى كانت معروفة وقت نزوله.

ثانيا: جميع ما أورده من الألفاظ حوالى ۹۱ لفظا موزعة بين اللغات التى (۱) الإتقان ج ۱ ص ۱۳۷.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۳۷، و حجّة السيوطى واهية فى نظرنا فليس وجود ألفاظ من لغة ما أو لفظة واحدة فى العربية يعنى أن الناطق للعربية ينطق بهذه اللغات جميعا، و من البديهىّ أن المخاطبين بالقرآن الكريم من غير العرب لا- يمكن لهم فهمه إلا بتعلم اللسان العربى، و ليست اللغة مجرد ألفاظ إنما هى نظام له خصائص صرفية و صوتية و تركيبية و دلالية بالإضافة إلى ذلك.

ذكرها، بيد أن بعض هذه الألفاظ قد تكرر أكثر من مرة فيما أورده، لكونه منسوبا إلى أكثر من لغة، و بالرغم من ذلك لم يلفت

السيوطى إلى شيء بصدد هذه الملاحظة و هى اختلاف النقول فى نسبة بعض الألفاظ إلى اللغات، فهو بصدد الحديث عن السريانية يورد لفظة «الفردوس»، و ذلك بإسناد عن ابن عباس عن كعب الأحبار «۱»، ثم لا يلبث أن يوردها بين ما ورد بالنبطية و يعزو ذلك إلى السدّى «۲»، و قد أوردها من قبل بين الكلمات التى جاءت بالرومية و نقل ذلك عن مجاهد «۳»، و كثير من الألفاظ أورد السيوطى فيها نقولا مختلفة من هذا القبيل، و لم يعلق بشيء على ذلك، بل اكتفى بتنظيم رسالته على النحو الذى شرحناه، و سرد هذه الألفاظ موردا النقول التى تعزوها إلى لغة من اللغات، و هكذا يتضح فى كتابه غلبة الطابع النقلى و العقلية الحديثية التى فصلنا من قبل خصائصها، و قد حدد فى مقدمته ما يبين أنه سيذكر الألفاظ التى «ذكر الصحابة و التابعون أنها بلغة الحبش أو الفرس أو غيرهم مما سوى العرب» «۴» فكأنه بذلك يصرح بحرصه على اتباع المنهج النقلى.

و قد نسب السيوطى للحبشية ۲۸ لفظا، و للفارسية عددا قريبا من هذا، و للرومية تسعة ألفاظ، و للهندية ثلاثة ألفاظ، و للسريانية تسعة عشر لفظا، و للعبرانية ثلاثة عشر و للنبطية ثلاثة و عشرين، و للقبطية سبعة ألفاظ، و للتركية لفظا واحدا، و للزنجية ثلاثة ألفاظ و للبربرية سبعة ألفاظ.

ثالثا: نلاحظ أنه اجتهد فى إيراد كل ما نقل القول عن نسبته إلى غير العربية و يبدو أنه نتيجة لوجهة نظره السابقة قد حاول أن يصل بهذه الألفاظ إلى عدد كبير، فتسامح فى النقل إلى حد كبير، برغم أن بعض هذه الألفاظ يمكن القطع بعربيته، و أن بعضا آخر لا يقوم دليل على وجوده فى بعض اللغات- لا سيما السامية منها- قبل العربية، و لذلك فلا حجة فى نسبته إليها دون العربية، و كثير (۱) المتوكلى ص ۹.

(۲) المصدر السابق ص ۱۱.

(۳) نفس المصدر ص ۸.

(۴) نفس المصدر ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۶

من ألفاظ هذه اللغات لا تزال واحدة، أو متشابهة لكونها من عائلة لغوية واحدة، فلا داعى لنسبة بعض ألفاظ القرآن إليها دون العربية.

و ليس من الانصاف أن نؤاخذ السيوطى بإغفال بعض الحقائق التى لم نصل إليها إلا فى عصرنا الحديث ففكرة العائلات اللغوية وليدة أبحاث علماء اللغة المحدثين، و قد ظهرت أواخر القرن الثامن عشر و أوائل التاسع عشر «۱»، و على أساس من هذه الفكرة التى ترد اللغات الحبشية و العبرية و العربية و السريانية بالاضافة إلى ما قيل من انتماء اللغة القبطية إلى نفس العائلة، على أساس من هذه الفكرة التى ترد هذه جميعا إلى أصل واحد، و فصيلة لغوية واحدة هى فصيلة اللغات السامية «۲»، نستطيع أن نرد كثيرا من الألفاظ التى نقل السيوطى عن القدماء نسبتها إلى هذه اللغات لأن وجودها بها إنما هو من قبيل التشابه بين هذه اللغات التى تنتمى إلى أصل واحد و ليس فيه دليل على حدوث التأثير، و المعروف أن كلمة مثل «نهر» لا تزال موجودة و مستعملة فى جميع اللغات السامية، فليس لنا أن ننسبها إلى إحداها و ندعى أنها دخيلة فى غيرها من أخواتها الساميات، و من هذه الألفاظ التى نستطيع القول بعربيتها مع نقل السيوطى نسبتها إلى غيرها كلمة «شطر» التى نقل أنها حبشية و معناها تلقاء، و قد أكد الشافعى فى رسالته عربيتها و أورد شواهد لذلك منها قول خفاف بن ندبة:

ألا من مبلغ عمرا رسولا و ما تغنى الرسالة شطر عمرو

و قول ساعدة بن جؤية:

أقول لأم زنباع أقيمى صدور العيش شطر بنى تميم

و غير ذلك من الشواهد، فكثرة دوران الكلمة على ألسنة الشعراء القدماء يرجح أصالة عربيتها، و أنها ليست من المعرب الذى دخل إلى اللغة، فنسبة (۱) د. على عبد الواحد وافى: فقه اللغة ص ۵.

(۲) المصدر السابق ص ۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۷

مثلها إلى الحبشية أمر غير مقبول «۱».

و كلمة «ابلعى» التى قال إن معناها: ازدردى بالحبشية، ثم ذكر نسبتها مرة أخرى إلى الهندية، مع أن الكلمة باشتقاقاتها مستعملة و معروفة فى العربية فنسبتها إلى الحبشية تحكم بغير دليل مقبول، فقد ذكر صاحب اللسان «بلع الشىء بلعا و ابتلعه و تبلّعه ... جرعه، و بلع الطعام و ابتلعه لم يمضغه، و أبلعه غيره»، و ذكر غير ذلك من المشتقات التى تفيد استعمال المادة بمشتقاتها فى العربية مذ عصور قديمة، و لا دليل على نسبة الكلمة إلى لغة سامية أخرى.

و كلمة «منسأة»، التى معناها «العصا» نسبها إلى الحبشية مرة و أخرى إلى الزنجية، و ليست الحبشية بأولى من العربية فى نسبة الكلمة إليها، فمادة «نسأ» مستعملة فى العربية منذ القدم، و قد ذكر صاحب اللسان أن معناها الأول التأخير، و قال إن «المنسأة» العصا يهمز و لا يهمز، ينسأ بها، و أبدلوا إبدالا كليا فقالوا «منساة» و أصلها الهمز و لكنها بدل لازم حكاه سيبويه و قد قرئ بهما جميعا، قال القراء فى قوله عز و جل: تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ: هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى يقال لها المنسأة، أخذت من نسأت البعير أى زجرته ليزداد مسيره، و قد أورد صاحب اللسان جملة من الشواهد الشعرية المنسوبة إلى الجاهليين فى استعمال هذه اللفظة. بل إن السيوطى قد نقل أن كلمة «كفّر» من «كفّر عنا سيئاتنا»، بمعنى «امح» عبرانية أو نبطية «۱»، مع أن استعمالاتها العديدة بالعربية و التى ترجع معناها إلى الستر و التغطية كما هو مذكور بكتب اللغة بالإضافة إلى وفرة اشتقاقات مادتها يدحض القول بنسبتها إلى غير العربية، و إنما كل الاستعمالات التى تتفرع عن الأصل الأول يمكن أن يلحقها بعض التغيير عن الأصل تبعا لقوانين التطور الدلالى بأنواعه العديدة «۳».

و كذلك كلمة «يحور» من قوله تعالى: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ نقل السيوطى نسبتها إلى الحبشية لأنها بلغة الحبشة معناها يرجع، و نحن لا ننكر هذا المعنى أو وقوعه فى الحبشية، و لكنا ننكر نسبة اللفظة إلى الحبشية فهى مستعملة منذ القدم (۱) الشافعى: الرسالة ص ۳۴، ۳۵.

(۳) لسان العرب «مادة كفر».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۸

فى العربية، قال فى اللسان: «الحور: الرجوع عن الشىء أو إلى الشىء، حار إلى الشىء و عنه حورا، و محارا، و محارة و حؤورا رجع عنه و إليه، قال لبيد:

و ما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع»

فالكلمة مستعملة بهذا المعنى فى العربية، و وجودها فى الحبشية بنفس المعنى أمر طبعى لكونها لغة سامية كالعربية، و لكن ذلك لا يعنى أن إحدى اللغتين قد نقلت الكلمة عن الأخرى، و إنما كلتاهما قد أخذتها من اللغة الأم.

و كلمة «اليم» المستعملة فى القرآن و التى نقل أنها معربة عن السريانية أو عن العبرانية ليس هناك ما يؤكد أن العربية قد أخذتها عن إحدى هاتين اللغتين، و إنما وقعت المشابهة نتيجة لاتحاد الأصل الذى تنتمى إليه اللغات الثلاث، و الذى يجعلنا نرجح أن أكثر هذه الألفاظ أو جانبا منها لم تنقلها العربية عن هذه اللغات أن اللغات السامية لم يكن لها ما يدفع إلى تأثر العربية من غلبة المتكلمين بها أو كثرتهم أو تحضرهم باستثناء الحبشية التى كان لها شىء من التأثير بالمجاورة للعرب فى وقت من الأوقات قبل الإسلام.

و أمام هذه الكلمات المنسوبة إلى اللغات السامية نستطيع القول بأن وجهة نظر الذين نفوا دخول ألفاظ أعجمية فى القرآن و ذهبوا إلى القول بالاتفاق فى الوضع اللغوى أقرب إلى الصواب من وجهة نظر الذين قالوا بوجود هذه الألفاظ، و إن كانت كلتا النظرتين غير دقيقة فى جملة ما ذهبت إليه.

و لا يقف الأمر عند الحدود السابقة، بل إن كثيرا من الألفاظ التى نسبها إلى لغات أخرى غير سامية نستطيع أن نحكم بعربيتها لوجود

الأدلـة التى تـدلنا على ذلك، فقـد نقل أن كلمـة «مقاليـد» كلمة فارسـية و معناها المفاتيح، مع أن مادة «قلد» و مشـتقاتها مسـتعملة فى العربية بكثرة و منذ القدم و قد ذكر صاحب اللسان «قلد الماء فى الحوض و اللبن فى السـقاء و السمن فى النّحى يقلده قلدا، جمعه فيه، و القلـد جمع الماء فى الشـيء، و رجل مقلـد: مجمع، و المقلد: عصا فى رأسـها اعوجاج يقلد بها الكلأ ... و الجمع المقاليد، و المقلد: المنجل يقطع به القت قال الأعشى:

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۱۹۹

لدى ابن زياد أو لدى ابن معرّف يقت لها طورا و طورا بمقلد

و المقلـد: مفتـاح كالمنجـل .. و قوله تعـالى: لَهُ مَقالِيـدُ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ يجوز أن تكون المفاتيـح، و معناه له مفاتيـح السـموات و الأرض، و يجوز أن تكون الخزائن، قال الزجاج: معناه أن كل شيء من السموات و الأرض فاللّه خالقه، و فاتح بابه».

كما نقل نسـبة بعض ألفاظ إلى القبطية لا يمكننا أن نقره عليها لوجودها فى العربية و استعمالها منذ وقت بعيد، من ذلك كلمة «تحتها» فى قوله تعالى:

فَناداها مِنْ تَحْتِها إذ نقل أن معناها «بطنها» بالقبطيـة، و كلمـة «بطائن» فى قوله تعالى: بَطائِنُها مِنْ إِسْـتَبْرَقٍ حيث نقل أنها بالقبطية معناها «ظواهر» كذلك كلمة «الأولى» و هى اللفظة العربية الصـريحة نقل أنها بالقبطية معناها «الآخرة» و ذلك فى قوله تعالى: الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى و كذلك كلمة «الآخرة» العربية الصريحة نقل أنها بالقبطية بمعنى «الأولى» و ذلك فى قوله تعالى: فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ.

و نخلص مما تقـدم إلى القول بأن مـذهب المانعين لوجود ألفاظ أعجميـة بالقرآن و الـذين يقولون بالاتفاق فى الوضع اللغوى يجافى الصواب فى أكثر نواحيه، و أن الذين يذهبون إلى وقوع هذه الألفاظ بالقرآن قبل أن تعربها العرب أو تسـتعملها لا يطابق الحقيقة و أن الـذين توسـطوا بين الفريقين و قـالوا بوقوع هـذه الألفاظ بعـد أن عربتها العرب و اسـتعملتها يبـدو رأيهم أكثر صوابا، و إن لم يكن قد أصاب كبد الحقيقة، فليس من المقطوع به أن جميع هذه الألفاظ المنسوبة إلى اللغات الأخرى قد استعملتها العرب من قبل، أو عربتها، بل إن بعضها قد استعمله القرآن على الصيغ العربية لأول مرة.

أمـا مـا نأخـذه على السـيوطى فهو أنه قـد انسـاق وراء مـذهبه و حـاول نسـبة أكبر عـدد من الألفاظ التى وردت بالقرآن إلى لغات غير العربية، و جانب كبير منها تصح نسبته إلى هذه اللغات مع القول بأنه معرب، و جانب ليس بالقليل لا يمكن القطع بأنه من هذا المعرب و القول بنسبته إلى هذه اللغات نظرا لوجوده بها- كما بينا- تحكم من غير دليل إذ ليس مجرد التشابه فى الصيغ و الأصوات فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۰

اللغات التى ترجع إلى أصل واحد دليلا على نقل إحداها عن الأخرى.

۲- المهذّب فيما ورد فى القرآن من المعرّب:

و هو مؤلف آخر للسيوطى فى نفس الموضوع الـذى كنا بصـدده آنفا، بيـد أن هذا المؤلف يتميز عن سابقه بعدة مميزات سنوضـحها فيما يأتى، و قبل بيان مميزات هـذا المؤلف نذكر أنه لم يطبع إلى الآن، و قد اعتمدت على نسـختين مخطوطتين بدار الكتب المصـرية بالخزانـة التيمورية أولاهما برقم ۲۸۵ لغـة، و هى فى ۱۵ ورقة أى أن صـفحاتها ۲۹ صـفحة، و صـفحاتها من القطع الكبير و ليس بهذه النسـخة اسم كاتبها و لا تاريخ كتابتها، و النسـخة الأخرى برقم ۲۸۶ لغة، و عدد أوراقها ۱۸ ورقـة أى أنها تقع فى ۳۶ صفحة، و خطها أكثر وضوحا من الأولى، كتبها على بن سالم ابن أحمد الشافعى فى شوال سنة ۱۲۹۹ ه.

و قد أشار السـيوطى إلى مؤلفه هذا فى كتابه الاتقان بصدد الحديث عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب حيث قال: «قد أفردت فى هذا النوع كتابا سميته المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب» «۱»، و ما ذكره بالاتقان فى هذا الموضوع ليس غير تلخيص لما بالمهذب.

و يمتاز هذا المؤلف عن سابقه بالبسط و الايضاح و كثرة النقول، و قد ذكر فيه ۱۱۷ لفظة نقل نسبتها إلى غير العربية من اللغات المختلفة فهو بذلك قد زاد على ما بالكتاب السابق نحو ثمانية عشر لفظا، كما أنه- فى هذا الكتاب- قد بسط القول عما نقل عن نسبة كل لفظ، بينما أجمل القول و اختصر فى كتابه السابق.

و يختلف ترتيب ألفاظ «المهذب» عن ترتيب الكتاب السابق، فقد رتب هذه الألفاظ حسب الحروف الأبجدية فبدأ بكلمة «أباريق»، ثم «أبّ» ثم «ابلعى» ثم «أخلد» و هكذا حتى نهاية ما أورده من الألفاظ التى انتهت بلفظتى «اليم» ثم «اليهود». (۱) الاتقان ج ۱ ص ۱۳۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۱

و قد قدم لمؤلفه بمقدمة مستفيضة تحدث فيها بوضوح عن اختلاف العلماء حول وقوع المعرب فى القرآن، و عرض هذه الآراء جميعها، و بيّن أن اختياره هو وقوع ألفاظ من جميع اللغات بالقرآن الكريم، و قد أورد عددا من النقول التى تؤيد رأيه و أكثر منها فروى عن إسحاق بن أبى ميسرة قوله: «فى القرآن من كل لسان»، و نقل بإسناد عن الضحاك نفس القول، و عن غيره أنه قال: «ليس لغة فى الدنيا إلا و هى فى القرآن ...» إلى آخر ما أورده، و قد تحدث محاولا التعليل لاحتواء القرآن على ألفاظ من اللغات الأخرى و نقل عددا من وجهات النظر التى ترى أن ذلك إحدى مناقب القرآن و فضائله، و قد عرضنا لهذا الموضوع فلا حاجة بنا إلى إعادته.

و قد ختم السيوطى مؤلفه بقوله: «فهذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة فى القرآن بعد الفحص الشديد سنين، وسعة النظر و المطالعة، و لم تجتمع فى كتاب قبل هذا، و قد نظم القاضى تاج الدين السبكى منها سبعة و عشرين لفظا فى أبيات، و ذيّل عليه الحافظ أبو الفضل بن حجر بأبيات فيها أربعة و عشرون، و عدة ما استدركته عليهما اثنان و سبعون لفظا، ستة كالمكررة ... فتمت بدونها مائة لفظ و سبع عشرة لفظة، و قد ذيلت عليهما بالست و الستين» «۱».

و هكذا يتضح مدى الجهد الذى بذله فى الاحاطة بجوانب الموضوع، و قد غلبت عليه الطبيعة التى امتاز بها عصره و هى الجمع و الترتيب و التنسيق- و المنهج النقلى الذى وضحنا خصائصه- فى هذه المرحلة.

و قد ختم السيوطى مؤلفه بمنظومة للتاج السبكى يذكر فيها الألفاظ المعربة التى وقعت فى القرآن و التى يقول فيها:

السلسبيل و طه كورت بيع روم و طوبى و سجيل و كافور

إلى آخر ما أورده، ثم أتبعها بما استدركه الحافظ ابن حجر الذى نظم فيه قوله:

و زدت حرّم و مهل و السجل كذا السّرى و الأب ثم الجبت مذكور

(۱) المهذب ورقة ۱۷ ص ۳۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۲

ثم أورد بعد ذلك نظما له فى الألفاظ التى زادها فى أحد عشر بيتا أولها:

و زدت يس و الرحمن مع ملكو ت ثم سينين شطر البيت مشهور

و الجدير بالذكر أن هذه المنظومات التى أوردها بآخر كتابه قد أوردها آخر النوع الذى تحدث فيه عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب فى كتابه الاتقان «۱».

و بالرغم من أن السيوطى قد اختار كما بينا مذهب القائلين بوقوع ألفاظ أعجمية فى القرآن فإنه يعقد فى كتابه المزهر مبحثا عن «توافق اللغات» «۲»، يذكر فيه أن الجمهور قد ذهبوا إلى أنه ليس فى كتاب اللّه سبحانه شىء بغير لغة العرب، و ينقل فى ذلك أقوال أبى عبيدة و ابن فارس و الفخر الرازى التى تذهب إلى القول بالموافقة فى الوضع اللغوى بين العربية و بين اللغات الأخرى، ثم ينقل بعض الأمثلة لألفاظ أخرى منها ما وقع فى القرآن، و منها ما لم يقع، ذهب اللغويون إلى القول بأنها مما وافقت فيه العربية غيرها من اللغات، و لم يعقب بشىء على هذه النقول التى تخالف وجهة نظره.

۳- بعض الأبحاث اللغوية المتصلة بالقرآن الكريم:

تناول السيوطى فى كتابه الاتقان بعض المباحث اللغوية سنقتصر منها على الأبواب التى تناول فيها غريب القرآن و ما وقع فيه بغير لغة الحجاز، و حديثه عن الخاص و العام و المطلق و المقيد.

و قد تناول غريب القرآن «۳» فبدأ ببيان ما صنف فى الموضوع من قبل و نص على ضرورة معرفته بالنسبة للمفسر، و أن علم ذلك يحتاج إلى كتب اللغة و معاجمها، ثم بين أن أولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس و أصحابه الآخذين عنه، ثم ساق بعد ذلك جميع ما ثبت عنده عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة لأنها من أصح الطرق عنه و هى التى اعتمد عليها (۱) الإتقان ج ۱ ص ۱۴۱، ۱۴۳.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۶۶.

(۳) الإتقان ج ۱ ص ۱۱۵- ۱۳۴.

البخارى، و بعد سرد جميع هذه الألفاظ التى ثبتت رواية تفسيرها عن ابن عباس تحدث السيوطى عن الاحتجاج لغريب القرآن بالشعر و نبه إلى أن ذلك كثير غير منكر، و أن ابن عباس قد أمر به، ثم نقل عن ابن عباس مسائل نافع بن الأزرق.

و يتمثل جهد السيوطى فى جمع هذه المسائل من مختلف المظان و تمحيصها و إيرادها فى كتابه بتمامها، و هذه المسائل تتناول أسئلة عن ألفاظ غريبة فى القرآن و بيان تفسيرها و الاستدلال عليها بما روى عن العرب من الشعر، و قد استغرقت صفحات طوالا، و الحق أنها ذات قيمة جليلة فى بيان كثير من ألفاظ القرآن الكريم.

و يتضح من عرض السيوطى لهذا الموضوع تأكيد ما قلناه عن منهجه النقلى فى التأليف الذى يتمثل فى الاشارة إلى المؤلفات السابقة و جمع الأقوال المتنوعة، و استقصاء الموضوع استقصاء تاما، ثم إن منهجه الحديثى النقلى يتضح فى تمحيصه للروايات و ايراده ما ثبت عن ابن عباس من تفسير هذه الألفاظ الغريبة، و تتضح لديه القدرة على الجمع و التنسيق.

و حين تناول ما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز «۱»، نقل كثيرا من الألفاظ التى وردت فى القرآن و نسبت إلى لهجات القبائل المختلفة متبعا نفس منهجه النقلى، و قد أورد عددا كبيرا من هذه الكلمات، بيد أن هذا المنهج و إن ظهرت مزاياه فى جمع أطراف الموضوع فإنه كان له بعض العيوب المتمثلة فى قلة التمحيص أو قلة العناية بالمتون نفسها فقد نقل نسبة بعض الألفاظ إلى لهجات بعض قبائل العرب، و كان قد نقل من قبل نسبتها إلى لغات غير العربية، كالسريانية و العبرية و غيرها، و برغم ذلك لم يبد أية ملاحظة، اكتفاء منه بأن يقف موقف الناقل الأمين دون أن يذكر شيئا و كأن مهمته تنحصر فى النقل و الاحاطة و الجمع و حسب، فهو ينقل أن كلمة «ربيون» معناها رجال بلغة حضرموت «۲»، بينما ذكر (۱) الاتقان ج ۱ ص ۱۳۴- ۱۳۶.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۳۶.

عند الحديث عن الألفاظ المعربة التى دخلت القرآن أنها سريانية «۱»، و «منسأة» معناها «عصا» فى لغة حضرموت «۲»، فى حين ينقل أنها «العصا» بالزنجية أو بالحبشية فى مكان آخر «۳»، و ألفاظ أخرى من هذا القبيل لا نرى موجبا لسردها نقل نسبتها إلى بعض لهجات العرب بصدد حديثه عما وقع فى القرآن بغير لغة الحجاز ثم لا يلبث أن ينقل نسبتها إلى بعض اللغات غير العربية حين يتحدث عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب.

و قد تناول «الخاص و العام» «۴»، فى القرآن بالبحث فبدأ بذكر صيغ العموم، ثم ذكر أن أقسام العام ثلاثة: أولها الباقى على عمومه و نص على أن مثاله قليل، و لم يمثل له دارسو هذا المبحث من قبل بحكم من الأحكام الفرعية أى بنص من النصوص لم يدخله

التخصيص بينما مثل له السيوطى بقوله تعالى:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ، و القسم الثانى: العام المراد به الخصوص و الثالث العام المخصوص، و قد تناول الشافعى من قبل هذه المباحث فى رسالته و بين أن من سنن العرب فى كلامها أن تطلق العام و تريد به الخاص إلى آخر ما ذكره، و قد تناولها الأصوليون فى مقدماتهم اللغوية، و مبحث السيوطى هنا من نوع مباحث الأصوليين و قد أفاد منهم، فتعريفه للعام هو نفس التعريف الذى تواضعوا عليه «۵»، و الجدير بالذكر أنه قد اختصر ما أطال فيه الأصوليون، كما أنه جمع و هذب أقوالهم بالاضافة إلى بعض الملاحظات و الأمثلة التى ابتكرها، و سنرى بعد قليل أن بحث العام و الخاص قد تعرض له فى كتابه المزهر، بيد أنه هناك مختلف فى بعض الوجوه عنه هنا و سنبين ذلك فى موضعه.

و هناك أبحاث أخرى لغوية تناولها السيوطى فى كتابه ترسّم فيها خطى الأصوليين من قبل كالبحث فى المطلق و المقيد، و المنطوق و المفهوم و المجمل، (۱) المهذب ورقة ۸ ص ۱۶.

(۲) الاتقان ج ۱ ص ۱۳۶.

(۳) المهذب ورقة ۱۵ ص ۲۹.

(۴) الاتقان ج ۲ ص ۱۶.

(۵) راجع: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ج ۱ ص ۲۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۵

و نظرا لأن هذه الموضوعات قد استفاضت دراستها عند الأصوليين فإننا لا نكاد نجزم بآراء مبتكرة فيها للسيوطى، بيد أن أبحاثه تتسم بما تميز به من السهولة و الوضوح و عرض الموضوع عرضا يتناول جميع أطرافه مع استيعاب لأكثر الأقوال السابقة، و إعراض عن نواحى الاسهاب التى يمكن الاستغناء عنها.

۴- رسالة فى أصول الكلمات:

رسالة صغيرة للسيوطى تستغرق بضع صفحات، و قد طبعت ضمن مجموعة مع كتابه السابق «المتوكلى»، و هذه الرسالة تهم البحث فى التطور الدلالى للغة فهى تهتم بالتغير الذى يلحق معنى الكلمة نفسه «كأن يخصص معناها العام فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلى، و معانى أخرى تشترك معه فى بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه علاقة ما، و تصبح حقيقة فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول» «۱».

و بالرغم من أن هذا البحث لا يتتبع التطور الدلالى تتبعا مفصلا إذ إنه يقتصر على تحديد الدلالة الأولى للكلمة فإنه يعين الباحث فى التطور الدلالى، و قد تناول هذا الموضوع من قبل الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن، و تعرض ابن فارس لتحديد الدلالات الأولى لبعض الكلمات فى الفصل الذى عقده عن أصول أسماء قيس عليها و ألحق بها غيرها حيث قال: «كان الأصمعىّ يقول: أصل «الورد» إتيان الماء، ثم صار إتيان كل شىء وردا، و «القرب» طلب الماء ثم صار يقال لكل طلب فيقال هو يقرب كذا أى يطلبه، و لا تقرب كذا، و يقولون: «رفع عقيرته» أى صوته، و أصل ذلك أن رجلا عقرت رجله فرفعها و جعل يصيح بأعلى صوته فقيل بعد ذلك لكل من رفع صوته رفع عقيرته» «۲». (۱) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص ۲۸۷.

(۲) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۶۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۶

بيد أن ابن فارس لم يفصل القول فى هذا المبحث، و يتضح مما ذكره أن التطور الدلالى قد أدركه اللغويون القدماء مثل الأصمعى، و لكننا لا نكاد نجد من أفرد لهذا الموضوع بحثا مستقلا، و قد استطاع السيوطى أن يجمع فى رسالته عددا كبيرا من الكلمات و أن يحدد دلالاتها الأولى.

و يتضح من سرده لهذه الكلمات و تقصى دلالاتها الأولى أنها لا تخرج عما ذكرنا من تخصيص معنى عام، أو تعميم مدلول خاص، أو خروج عن الدلالة السابقة إلى دلالة أخرى لعلاقة رابطة بين الدلالتين أو الخروج عن ذلك كله إلى معنى جديد فى قليل من الأحيان.

و الحق أن رد الكلمة إلى استعمالها الأول، أو ما يمكن أن نسميه بالتاريخية فى دلالات الألفاظ يتصل بمادية اللغة أو الدلالات الحسية الأولى للألفاظ باعتبارها أسبق من الدلالات المجردة، و قد كانت هذه المادية موضع مشاحة بين اللغويين و قد تتبعها من القدماء الراغب الأصبهانى فى مفرداته، و من المحدثين الذين أخذوا بها الأستاذ أمين الخولى إذ يصر على هذه البدايات المحسوسة فى تحديده لمعانى الألفاظ و تدرجها عبر العصور التاريخية، كما يطبق هذه الفكرة على الألفاظ التى صارت فيما بعد مصطلحات فى العلوم و الفنون المختلفة، و القول بهذه البداية المادية يلائم- فى الحقيقة- بين حياة اللغة و بين حياة الانسان منذ كان طفلا لا تتسع مداركه لغير المعانى المحسوسة، ثم تدرجت حياته و ارتقت لغته و أصبحت مداركه تتسع شيئا فشيئا للمعانى المجردة و للمعقولات.

و يبدو مما أورده السيوطى برسالته أنه قد فطن لهذه المادية أو لبعض جوانبها و لذلك حدد كثيرا من الدلالات الأولى للكلمات على هدى من هذه الفكرة فمن ذلك «أصل العبادة الخضوع و التذلل، أصل الطغيان الانقباض، أصل الفسق الخروج عن الشىء أصل التلاوة الاتباع ... أصل الظلم وضع الشىء فى غير محله، أصل الجهر الظهور و منه المجاهرة بالمعاصى أى إظهارها، أصل البعث إثارة الشىء من محله، أصل المصر الحد، ... أصل الصوم فى اللغة الامساك، أصل اللحن فى كلام العرب الطرد و الابعاد، أصل القنوت القيام، أصل الصبر الحبس، أصل الصفا الحجر الأملس، أصل الحج القصد، أصل السبب الحبل

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۷

يشد بالشىء فيجذب ثم جعل كل ما جر شيئا سببا، أصل الاعتكاف:

الملازمة ... إلى آخره» «۱».

و نلاحظ على رسالة السيوطى السابقة أنه لم يذكر فيها المصادر التى نقل عنها على عكس منهجه الذى نعرفه عنه، و لعله أراد بذلك الاشارة إلى ما بذله من جهد فى تحديد الدلالات الأولى للكلمات و هو ما لم يحظ باهتمام كبير من اللغويين من قبله حيث إن المعاجم قليلا ما تشير إلى هذا التطور الدلالى، و إنما تذكر جميع المدلولات دون مراعاة تدرجها.

۵- التبرى من معرّة المعرى:

و هى منظومة للسيوطى فى أسماء الكلب، لها نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية إحداهما فى مجموعة برقم ۱۶۵۷ أدب، و الأخرى فى مجموعة برقم ۳۲ معارف عامة، و قد طبعت فى كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء «۲»، و قد رجعت إليها مطبوعة. و ترجع تسمية هذه المنظومة بهذا الاسم إلى ما رواه السيوطى فى مقدمتها من أن أبا العلاء المعرى «دخل يوما على الشريف المرتضى فعثر برجل فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما، قلت و قد تتبعت كتب اللغة فحصلتها و نظمتها فى أرجوزة و سميتها «التبرى من معرة المعرى» «۳».

و قد ابتدأ السيوطى نظمه بحمد اللّه و الصلاة على نبيه و حكى نفس القصة ثم أخذ فى نظم أسماء الكلب، و جميع أبيات المنظومة سبعة و ثلاثون بيتا، استغرق نظم المقدمة ثمانية أبيات و نظم الخاتمة بيتين و بقية النظم فى الأسماء التى أحصاها.

و هذه المنظومة تدل على اهتمام السيوطى بألفاظ اللغة و قدرته على الجمع و الاستيعاب، و هى تدخل فى مبحث هام من مباحث العربية هو الترادف، (۱) رسالة فى أصول الكلمات ص ۱۴.

(۲) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ۴۲۹- ۴۳۳ (نشر الدار القومية ۱۳۸۵ ه).

(۳) المصدر السابق ص ۴۲۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۸

و يبدو أن السيوطى من اللغويين الذين يؤيدون وقوع الترادف فى اللغة، و إن لم يعبر صراحة عن رأيه فى منظومته فإن تسميته لما أورده «بأسماء الكلب» تدل على ما نذهب إليه لأنه لو كان من مانعى الترادف لأطلق عليه اسما واحدا و اعتبر الباقى صفات، و الجدير بالذكر أنه قد عرض للترادف بالتفصيل فى كتابه المزهر، بيد أنى لا أكاد أقف له على رأى صريح ينسبه إلى نفسه نستطيع أن نحدد به موقفه من الترادف فى صراحة و وضوح.

و قد بدأ مبحث الترادف بتعريفه نقلا عن الرازى بأنه «الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد» «۱»، ثم تحدث عن إنكار الترادف و من ذهب إلى أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات كما فى الانسان و البشر فالأول موضوع له باعتبار النسيان أو باعتبار المؤانسة، و الآخر باعتبار أنه بادى البشرة «۲»، و ممن أنكر الترادف فى اللغة ابن فارس و قد أشار إليه السيوطى و نقل عنه ذلك، كما أنكره الفارسى، و قد لخص السيوطى أقوال الأصوليين فى الترادف، ثم اختتم مبحثه بالاشارة إلى المؤلفات التى وضعت فيه و من تناوله بالتأليف و أهمهم الفيروزآبادى الذى ألف كتابا سماه «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف»، و ابن خالويه من قبل الذى ألف فى أسماء الأسد و أسماء الحية، ثم أورد أمثلة للمترادف فأورد أسماء العسل نقلا عن الفيروزآبادى و غيره «۳»، ثم مثل لأسماء السيف و غير ذلك من الأمثلة.

و من ثم فإن السيوطى من الذين يقولون بوقوع الترادف فى اللغة برغم أنه لم يوضح مذهبه بقول صريح و إنما تناول الموضوع بمنهجه المعتاد، فبعض اللغويين يقول بالترادف مطلقا و يجعل ما قيل فى أسماء السيف من المهنّد و الحسام و القضيب و المشرفى و غيرها من المترادفات، و آخرون ينكرون الترادف و يرون أن للسيف اسما واحدا و جميع ما عدا ذلك صفات، و يتوسط قوم بين الفريقين فيقولون بالترادف مع وجود الصفات، و ذلك لاختلاف الوضع اللغوى بين (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۰۲.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۰۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۴۰۷- ۴۰۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۰۹

القبائل المختلفة فيمكن أن يوجد مترادفان أو أكثر ثم يعد ما عدا ذلك من الصفات، و قد نقل السيوطى عن الراغب الأصفهانى ما يشير إلى ذلك فى قوله:

«و ينبغى أن يحمل كلام من منع على منعه فى لغة واحدة، فأما فى لغتين فلا ينكره عاقل» «۱».

و السيوطى بما أورده فى منظومته من الذين يقبلون الترادف و يتوسعون فيه، و يرون جميع الألفاظ التى تتحد دلالاتها على ذات معينة من قبيل المترادف، دون اعتبار لما يختص به بعض الألفاظ من زيادة فى المعنى عن بعضها الآخر أو من اختلاف نوعية الدلالات أو جهاتها، و لذلك أورد فى منظومته كثيرا من الأسماء التى هى من قبيل الصفات و إطلاقها على الذات لا يقع إلا تجوزا من قبيل حذف الموصوف و إقامة صفته مقامه، و ليس لهذه الصفات شهرة فى إطلاقها على المسمّيات بل هى مفتقرة إلى القرائن، و لذلك لا تعد من الأسماء، من ذلك تسميته بداعى الضمير و هانئ الضمير، و داعى الكرم، و مشيّد الذكر، و متمم النعم «۲»، كذلك أوصاف الكلب باعتبار نسبته جعلها من بين الأسماء التى يحفظها و هى «القلطىّ» و هو لفظ يقال للقصير من الناس و السنانير و الكلاب، و «السلوقىّ» نسبة إلى سلوق قرية باليمن، و الصينى نسبة إلى الصين.

و بديهى أن إطلاق إحدى هذه الصفات دون ذكر الموصوف أو وضوحه بالقرائن لا يستقيم فى اللغة و لذلك فاعتبارها من الأسماء أمر غير مقبول من الذين يتوسعون فى الترادف فلا يفرقون بين الاسم و صفته رغبة فى استكثار ما يحفظونه.

و أصح الأقوال و أقربها هنا أوسطها و هو الرأى القائل بوجود الترادف نتيجة اختلاف اللهجات أو حين تبلغ بعض الصفات المختصة ببعض الأسماء شهرة بين الناطقين تجعلهم يدركون المسمّى دون حاجة إلى قرائن تحدد الموصوف.

و حين تعرض الأستاذ الرافعى لمبحث الترادف ذكر أن من ألفاظ المترادف (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۰۵.

(۲) تعريف القدماء بأبى العلاء (المنظومة) ص ۴۳۲.

الأسماء التى ترجع إلى وضع القبائل المتعددة، أو الصفات التى تصرف فى وضعها أفراد كل قبيلة ثم نزّلت منزلة الحقائق العرفية بعد أن فشت فى الاستعمال «۱»، و إلى هنا فإن كلامه مقبول، بيد أنه مثل لذلك بما ورد من أسماء العسل و أنها ثمانون و أسماء الأسد التى بلغت ثلاثمائة و خمسين و أسماء الكلب التى بلغت سبعين ... إلى آخر هذه الأمثلة و هذا ما لا نقبله لأن كثيرا من هذه المترادفات من قبيل الصفات التى لم تنزل فى اللغة منزلة الحقائق العرفية، و إنما الدافع إلى اعتبارها من المترادفات عند اللغويين هو الرغبة فى بيان اتساع الحفظ اللغوى و الدراية بأكبر عدد من الألفاظ، دون التنبيه على ما يمكن أن يسمى بالمترادف و ما هو من قبيل الصفات التى لا يمكن بحال أن تطلق وحدها و يفهم منها مسماها، و لقد كان المنهج النقلى المفتون أحيانا بالحفظ و الاستكثار هو الدافع لهؤلاء بما فيهم السيوطى إلى أن يقوموا بمباحثهم التى يحاولون فيها إظهار حفظهم لأكبر عدد من الألفاظ.

و الذين توسطوا بين إنكار الترادف مطلقا و إثباته مطلقا يراعون ما راعاه منكر و الترادف من الفروق الدقيقة بين الألفاظ المختلفة الموضوعة لشىء واحد، و هو ما تبلغ فيه العربية حد الإعجاز، و قد تتبع الثعالبى هذه الفروق و بينها فى كتابه فذكر- مثلا- أن الكأس لا يقال لها كأس إلا إذا كان فيها شراب، و إلا فهى قدح، و لا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام و إلا فهى خوان، و لا كوز إلا إذا كانت له عروة و إلا فهو كوب «۲». و للانصاف فإن القائلين بوجود الترادف لا ينكرون هذه الفروق الدقيقة بين الألفاظ الموضوعة لشىء واحد و قد عقد لها السيوطى مبحثا سماه بالمطلق و المقيد «۳»، و لكنا نأخذ عليهم أنهم لم يضعوها فى اعتبارهم عند بحث الترادف.

و نجد من الباحثين المحدثين من يؤيد المذهب المعتدل فى الترادف «۴»، و هو (۱) مصطفى صادق الرافعى: تاريخ آداب العرب ج ۱ ص ۱۹۲.

(۲) فقه اللغة ص ۳۲۱.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۴۹۹.

(۴) صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة ص ۳۴۶.

الذى ذهب إليه من قبل كثير من الأصوليين و بعض اللغويين.

و قد ترك السيوطى عددا من الرسائل الأخرى التى تشبه رسالته السابقة حول نفس موضوع الترادف و هذه الرسائل هى:

۶- التهذيب فى أسماء الذيب:

لم أقف عليه، و قد ذكره صاحب كشف الظنون و غيره و هو كما يتضح من اسمه رسالة جمع فيها أسماء الذئب، و نستطيع أن نتكهن بأنه قد اعتمد على ما جمعه اللغويون السابقون، ثم زاد عليه من كتب اللغة بعض الأسماء التى فاتتهم و تلك هى طريقته فى كثير من

رسائله و كتبه، و لعله قد اعتمد على كتاب الروض المسلوف، و إن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك لأن الكتاب الأخير لم يصل إلينا و الحديث عن هذه الرسالة لن يخرج عما قدمنا فى حديثنا المسوق آنفا.

۷- فطام اللسد فى أسماء الأسد:

لم أقف عليه و قد ذكره صاحب كشف الظنون، و القول فيه كالقول فى سابقه كما أن أسماء الأسد قد جمعها من قبل السيوطى ابن خالويه حيث جمع له خمسمائة اسم «۱». و إلى هنا نكون قد فرغنا من بحث الترادف و الآثار المتصلة به عند السيوطى.

۸- الافصاح فى أسماء النكاح:

لم أقف عليه و قد ذكر صاحب كشف الظنون أنه فى مجلد بشواهده و نقوله و يبدو أن المؤلف من قبيل ما أشرنا إليه من المعجمات اللغوية التى تهدف إلى جمع الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى و الموضوعات مثل كتاب «الألفاظ» لابن السكيت وفقه اللغة للثعالبى، و المخصص لابن سيدة، و قد أشار الرافعى إلى هذا الموضوع و بين أن العربية تعد أحكم اللغات نظاما فى أوضاع المعانى و سياستها بالألفاظ، و أكثرها رقيا و تمدنا حيث لم يدع ناطقوها معنى من المعانى إلا رتبوا أجزاءه و أبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الأجزاء و الصفات على (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۲۵، ۴۰۷.
جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۲
مقاديرها «۱».
و نحن لا نستطيع هنا أن نقوم ما قام به السيوطى فى مؤلفه السابق لعدم وقوفنا عليه و لكنه يطلعنا على مشاركته فى مبحث هام من المباحث المتعلقة بدلالة الألفاظ.

۹- الافصاح فى زوائد القاموس على الصحاح:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره و لم أقف عليه، و يتضح من اسمه أن تأليفه يقتضى من السيوطى استقراء جميع مواد الصحاح للجوهرى و مواد القاموس لكى يستخرج الزيادات التى يذكرها، بيد أننا لا نستطيع أن نحدد مقصوده بهذه الزيادات هل يريد بها جميع المواد التى وردت بالقاموس و لم ترد بالصحاح؟ أم أن مراده بعض الزيادات التى تخص جانبا من الجوانب؟.

۱۰- الالماع فى الاتباع كحسن بسن فى اللغة:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره، كما أشار إليه السيوطى فى حديثه عن الإتباع فى كتابه المزهر حيث ذكر أن ابن فارس قد ألف فيه تأليفا مستقلا ثم قال: «و قد رأيته مرتبا على حروف المعجم، وفاته أكثر مما ذكره، و قد اختصرت تأليفه و زدت عليه ما فاته فى تأليف لطيف سميته «الالماع فى الاتباع» «۲».
و يمكن أن نعتمد على هذه العبارة فى حكمنا بصفة مجملة على الكتاب، فالسيوطى قد اعتمد فيه على ابن فارس، كما زاد عليه و أضاف بعض الاضافات، و اتبع فيه على ما يبدو نفس ترتيب ابن فارس، و الكتاب كما تبين عبارة السيوطى صغير الحجم. و نستطيع

تبين موقف السيوطى من موضوع الإتباع من الفصل الذى عقده لدراسته فى كتابه المزهر، فهو كما تبين من بعض ما عرضنا من قبل يكتب فى الموضوع الواحد أكثر من مرة و فى أكثر من موضع كما رأينا عند حديثنا عن الألفاظ المعربة فى القرآن و لا يختلف عرضه للموضوع (۱) الرافعى: تاريخ آداب العرب ج ۱ ص ۲۳۲،

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۱۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۳

الواحد فى الأماكن المتفرقة إلا إيجازا أو بسطا، و من ثم فإننى أستطيع أن أذهب إلى أن ما ذكره بالمزهر عن الإتباع هو إيجاز لما بسطه فى كتابه الذى لم أقف عليه.

بدأ السيوطى بتعريف الإتباع- على نفس منهجه النقلى- فنقل عن ابن فارس أنه «أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعا و تأكيدا» «۱».

و فى هذا الفصل نقل عن أحد عشر كتابا من كتب اللغة و أورد عنها بعض النقول و الأمثلة، و هذه الكتب هى فقه اللغة و الماع الإتباع لابن فارس، و غريب الحديث لأبى عبيد، و شرح منهاج البيضاوى للسبكى، و أمالى القالى و أمالى ثعلب، و الجمهرة لابن دريد و تذكرة ابن مكتوم، و ديوان الأدب للفارابى، و الصحاح للجوهرى، و الغرة لابن الدهان.

و بعض هذه الكتب لم يصل إلينا، و الجدير بالذكر أن السيوطى راعى فيما جمعه من أمثلة للإتباع من هذه المصادر المختلفة أن يذكر من كل منها ما لم يذكره الآخرون و كأنه بذلك يحاول استقصاء هذه الأمثلة التى وردت للاتباع و يحاول أن يصل بها على عادته فى الجمع إلى أكبر عدد، و فى هذا دلالته على مبلغ الجهد الذى عاناه فى ذلك، و براعته فى التنسيق و الجمع.

و من أمثلة الإتباع قولهم: عطشان نطشان، و جائع نائع، و حسن بسن، و أمثال ذلك ما كانت فيه الكلمة الثانية على روىّ الأولى، و تابعه لها على وجه التوكيد، و لا يمكن أن يؤتى بالكلمة التالية (التابعة) وحدها «۲».

و ليس الاتباع من قبيل الترادف، بل هو مختلف عنه لإفادة المترادفين فائدة واحدة و التابع لا يفيد وحده شيئا، و الفرق بينه و بين التوكيد أن شروط التابع أن يكون على زنة المتبوع و رويه، و ليس كذلك التوكيد.

و بعض الكلمات التى ورد استعمالها فى الاتباع لم يعرف لها بعض أهل اللغة (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۱۴.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۱۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۴

معنى و اعتبروها لمجرد الإتباع، على حين وجد لها آخرون دلالات معينة، و مع ذلك قرروا أن كثيرا منها لا يصح إفراده و إنما يلزم الاتباع، و أن بعضها يصح أن يفرد.

تلك خلاصة المبحث الذى أورده السيوطى، و قد ساق كثيرا من الأمثلة لكثير من الألفاظ التى جمعها من كتب اللغة السابقة، بيد أننى لم أجد للسيوطى قولا صريحا ينسبه إلى نفسه نستطيع أن نتبين به مذهبه فى صراحة، و إذا كان الأمر كذلك فإن ما قدمناه يعد ما أقر به، و تعبر اختياراته للنقول عن رأيه و مذهبه فى هذا الموضوع.

۱۱- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير:

ذكره صاحب كشف الظنون و غيره منسوبا إلى السيوطى، و لم أقف عليه، بيد أنى وجدت السيوطى قد تناول هذا الموضوع عند ما تحدث عن المشترك اللفظى «۱»، و هو دلالة اللفظ الواحد على معنيين فأكثر، و قد لخص السيوطى فى دقة أقوال الأصوليين فى المشترك اللفظى، و قد ذهب أكثرهم إلى وقوعه فى اللغة نتيجة لتعدد الوضع، و ذلك مبنى على القول بأن اللغة غير توقيفية أو ليست

من وضع واحد عند القائلين بالتوقيف، و حجتهم فى وقوعه نقل أهل اللغة ذلك فى كثير من الألفاظ «۲».

و يبدو أن جميع اللغويين قد ذهبوا إلى وقوع المشترك اللفظى، و يبدو بديهيا لمن ينظر فى كثير من ألفاظ اللغة و يرى اختلاف معانيها و تنوعها أن يرجع ذلك إلى الاشتراك اللفظى. و قد أورد السيوطى نقلا عن أهل اللغة و أصحاب المعاجم عددا كبيرا من الأمثلة لوقوع اللفظ الواحد لمعان كثيرة، ثم أخذ يسرد الألفاظ المشتركة بين الفرس و الطير فنقل عن أمالى القالى جملة منها «الهامة: العظم الذى فى أعلى رأسه، و الفرخ: و هو الدماغ، و النعامة: الجلدة التى تغطى الدماغ، و العصفور: العظم الذى تنبت عليه الناصية .. إلى آخره» «۳». (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۷۷- ۳۸۰ (الحديث عما فى الفرس من أسماء الطير).

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۳۶۹.

(۳) نفس المصدر ج ۱ ص ۳۷۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۵

ثم نقل عن شرح الكامل للبطليوسى بعد ذلك شعرا لجرير ذكر الأصمعى أن فيه عشرين اسما من أسماء أعضاء الفرس و هى من أسماء الطير و منه «۱»:

و أقبّ كالسّرحان تم له ما بين هامته إلى النسر

رجعت نعامته و وفّر لحمه و تمكن الصّردان فى النحر

فالهامة: اسم طائر خرافى زعم العرب أنه يخرج بعد قتل القتيل و يصيح فوقه حتى يؤخذ ثأره، و فى الفرس: الهامة: أعلى الرأس، و النسر: طائر معروف، و فى الفرس: ما ارتقى من بطن الحافر، و النعامة: طائر معروف و فى الفرس:

الجلدة التى تغطى الدماغ، و الصّرد: طائر ضخم يصطاد العصافير و الصّردان فى الفرس: عرقان يكتنفان اللسان.

و قد أتبع السيوطى هذا الشعر بنص آخر فى هذا الموضوع عن كراسة لم يذكر اسمها، ثم نقل عن الصحاح و أمالى الزجاج بعض الأمثلة الأخرى.

و طبيعة الموضوع جعلته يقتصر على حصر الألفاظ المشتركة بين الطير و أعضاء الفرس دون إبداء ملاحظات أو تعليقات على نقوله، و نستطيع القول بأن مؤلفه جاء محصيا لهذه النقول و غيرها فى نفس الموضوع.

أما عن بحث المشترك فلقد لخص فيه السيوطى بعبارة موجزة آراء الأصوليين و هم خير من درس المبحث، كما أفاض فى ذكر الأمثلة بحيث إن المحدثين فى بحوثهم عيال على نقول السيوطى، و إن تضمنت أبحاثهم بعض الزيادات فى النقول أو الأفكار على ما أورده «۲».

۱۲- غاية الاحسان فى خلق الانسان:

ذكره صاحب كشف الظنون و رجح نسبته للجلال السيوطى، و ذكر أنه جمع فيه كتب خلق الانسان للنحاس و لأبى محمد ثابت و للزجاج و لأبى القاسم عمر (۱) نفس المصدر ج ۱ ص ۳۷۸.

(۲) انظر الرافعى: تاريخ آداب العرب ج ۱ ص ۱۹۴، صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة ص ۳۵۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۶

بن محمد العصامى و محمد بن حبيب، و قد ذكره صاحب هدية العارفين، و لم أقف عليه مخطوطا أو مطبوعا.

و الحديث عن «خلق الانسان» أى محاولة تسمية جميع أعضائه، و جمع ما يتصل بذلك من الأشعار أو المأثورات الواردة عن العرب من أقدم الموضوعات التى تناولها اللغويون، فللأصمعى كتاب فى خلق الانسان، و لأبى زيد مثله، و ألف النضر بن شميل كتابا سماه

«الصفات» احتوى على ذكر هذا الموضوع.

و قد حظى هذا الموضوع بكثير من مؤلفات علماء اللغة، ففضلا عن الكتب التى ذكرناها توجد كتب أخرى تناولت الموضوع، فقد تناوله ابن سيدة فى المخصص و قد سبق القول بأن هذه المؤلفات تعد من قبيل المعاجم الخاصة، أى التى تقتصر على ذكر ألفاظ موضوع من الموضوعات، و نرجح أن السيوطى قد جمع فى مؤلفه هذه الألفاظ نقلا عن الكتب السابقة و استطاع أن يستدرك ما فات غيره و أن يصل فيما أحصاه إلى ما لم يصل إليه أى مصنف من المصنفات التى سبقته.

۱۳- شرح قصيدة بانت سعاد:

يسمى: «كنه المراد فى شرح بانت سعاد»، و قد وقفت فيه على مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ۱۶۶۵۶ ز، و هو مخطوط متوسط الحجم يقع فى سبعين ورقة أى ۱۴۰ صفحة.

و قد قدّم السيوطى لشرحه بمقدمة طويلة بين فيها أن الشروح السابقة عليه، و التى وقف عليها تقتصر على شرح غريبها و إعراب ألفاظها المؤدية إلى حل تركيبها دون التعرض لمعانيها، و أن قصده من شرحه بيان المعانى فضلا عن حل الألفاظ «۱».

و الحق أن شرح السيوطى يمتاز عن سواه من الشروح بأنه تعرض لبيان المعنى فى أسلوب واضح سلس، كما أنه يهتم بشرح الغريب من الألفاظ، ثم يورد (۱) كنه المراد فى شرح بانت سعاد ورقة ۲ ص ۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۷

أشعارا و أقوالا- تناسب المعنى الذى يتناوله، و نلاحظ أنه نقل عنده فى هذا الشرح النقول التى تعود فى مؤلفاته الاكثار منها، فهو يتكلم بأسلوبه شارحا و مفصلا، ثم يستشهد أو ينقل عن غيره بحيث تندمج النقول فى حديثه على عكس ما تعودنا فى مؤلفاته من اختفاء رأيه وراء النقول التى تمثل معظم كتابته، و هو كثير الاستطراد و الاطناب فى الشرح بحيث يتناول الكلمة من نواح متعددة قد يبدو أنه لا صلة لها بما نحن فيه.

و يدل الشرح- فى الواقع- على مدى تمكن السيوطى و معرفته بالأدب، و له فيه لمحات بديعة و ابتكارات لطيفة، و اشارات قد لا يتنبه لها كثير من دارسى الأدب، فضلا عن دقته و معرفته الواسعة بطرائق الشعراء و أسرار البلاغة.

و فى بعض الأحيان يورد السيوطى فى المناسبة أشعارا له فيذكر بصدد شرحه للبيت:

لكنها خلّة قد سيط من دمها نجع و ولع و اخلاف و تبديل

يورد بصدد الحديث عن الوشاة و الرقباء قوله:

احرص على طرد الرقيب و بعده ان تغتنم وصل الحبيب تلاعبه

كم ليلة بات الحبيب بجانبى لكننى خوف الرقيب أجانبه

و يكثر من الاستشهاد فى شرحه بالقرآن الكريم و الحديث الشريف و أشعار السابقين، و لا تفوته طبيعته الحديثية فى بعض الأحيان حيث تظهر فى حرصه على إيراد الأسانيد، و بيان أوجه ضعف الأحاديث أو صحتها، و قد لاحظنا ذلك فى أحاديث القدر التى ساقها بصدد شرحه للبيت:

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم فكل ما قدّر الرحمن مفعول

و بعض الأحاديث التى أوردها بصدد شرح البيت:

أنبئت أن رسول اللّه أوعدنى و العفو عند رسول اللّه مأمول

و هى الأحاديث الخاصة بعفو النبى صلى اللّه عليه و سلم.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۸

و إذا قارنا هذا الشرح بشرحين أحدهما سابق له و قد نشأ صاحبه فى نفس بيئة السيوطى و هو شرح ابن هشام، و الآخر لاحق له و هو شرح الشيخ إبراهيم الباجورى لتبينا اهتمام ابن هشام بالملاحظات النحوية و اللغوية و ذكر الأوجه المختلفة فى إعراب الألفاظ و الجمل، و التعرض للألفاظ ببيان نوعها أو اشتقاقها أو غير ذلك من هذا القبيل، و هو بذلك يغفل ذكر المعنى الاجمالى، و الشرح اللاحق للسيوطى أكثر إيجازا من شرح ابن هشام من الناحية اللغوية و النحوية بيد أنه لا يغفل ذكر المعنى العام للبيت.

و نستطيع أن نصف شرح السيوطى بعد هذه الموازنة بأنه شرح لغوى أدبى، فهو شرح لغوى لأنه يعنى بتفسير معانى الألفاظ و ذكر المعنى العام لكل بيت، و هو شرح أدبى لتناوله الأفكار و الأساليب الأدبية بالتعليق و التمثيل و إبداء الملاحظات القيمة فحين يتناول السيوطى بيت كعب:

و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

يقول: «أى و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا و هى معهم إلا ظبى أغن الصوت غضيض الطرف مكحول العين، و سعاد هى محبوبته التى أشار إليها فى البيت الأول، و الغداة: اسم لمقابل العشى، قال تعالى: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ، و قد يراد بها مطلق الزمان ... إلى آخره» «۱»، و يستمر فى شرح الألفاظ و بيان معانيها و استعمالاتها المتنوعة و ما يترتب على ذلك من وجوه متنوعة فى فهم النص، ثم لا يلبث أن يعود إلى تفصيل المعنى الذى أوجزه فى أول الشرح فيقول: «و حاصله أنه لما ذكر حال نفسه، و ما أعقبه الفراق من الضنك شرع فى ذكر وصف محبوبته التى يهواها و ما اشتملت عليه من المحاسن التى لا يقدر معها على الأسف على فراقها ... فشبهها بظبى موصوف بأحسن الصفات» «۲»، ثم يتعرض بعد ذلك إلى الجوانب الأدبية فيتحدث عن عادة الشعراء فى التشبيه و يذكر أمثلة لذلك «۳». و نحن إذا قارنا شرح هذا البيت بما (۱) شرح السيوطى ورقة ۱۰ ص ۱۹.

(۲) المصدر السابق ورقة ۱۰ ص ۲۰.

(۳) نفس المصدر ورقة ۱۰، ۱۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۱۹

أورده من قبله ابن هشام لرأينا اختلافا بينا فى المنهج، فابن هشام يذكر بصدد البيت: «قوله: و ما سعاد: الواو عاطفة على الفعلية لا على الاسمية و إن كانت أقرب و أنسب لكون المعطوفة اسمية لأن هذه الجملة لا تشارك تلك فى التسبب عن البينونة، و سعاد: مبتدأ لا اسم لما، لانتقاض النفى بالا، و الأصل: و ما هى، فأناب الظاهر عن المضمر» «۱»، و يستمر فى دراسة النص دراسة نحوية لغوية خالصة و يتناول النص كلمة كلمة أو جملة جملة دون أن يعبأ بالمعنى العام للبيت.

أما الشرح اللاحق للسيوطى «۲»، فقد حاول الافادة من سابقيه فهو يبدأ بشرح البيت ثم يعقب ببعض الملاحظات اللغوية و النحوية عليه، و يبدو أثر شرح السيوطى فى هذا الشرح، و قد أشار إليه صاحبه فى بعض الأحيان، و التشابه بين المقدمة التى قدم بها السيوطى لشرحه و بين مقدمة الباجورى يشهد بذلك.

۱۴- الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليقة:

وقفت فيه على مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۳۱۶ ب، و هو مخطوط متوسط الحجم يقع فى ۵۲ ورقة، أى أن صفحاته تبلغ ۱۰۴ صفحة بيد أنه بخط غير جيد. و قد قصد السيوطى فى هذا المؤلف أن يجمع أسماء النبى صلى اللّه عليه و سلم مستوفيا ما جمعه السابقون فى مختلف المظان كتهذيب الأسماء للنووى.

و قد ابتدأ بمقدمة طويلة تحدث فيها عن كثرة أسمائه صلى اللّه عليه و سلم، و عددها و نوعيتها، و ما انتهى إلى الوقوف عليه منها

سابقوه، ثم ما زاده و استدركه عليهم و أخذ بعد ذلك يسرد هذه الأسماء و الحديث عنها، فبدأ «بمحمد» ثم رتب بقية الأسماء فيما بعد على حروف المعجم إلا فى بعض الحالات التى يستدعى المعنى أن يأتى فيها باسم فى غير موضعه لمناسبة تستلزم ذلك حيث قرن «الناهى» «بالآمر»، و المنير بالسراج، و المستقيم بالصراط، فاستدعى هذا وضع بعض الأسماء فى غير مواضعها الأبجدية. (۱) شرح ابن هشام على قصيدة بانت سعاد ص ۱۲.

(۲) إبراهيم الباجورى: حاشية الاسعاد على بانت سعاد (بهامش شرح ابن هشام).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۰

و بالرغم من أن المؤلف يغلب عليه الطابع الحديثى الذى يهتم بالآثار فإن به دراسة لغوية لا بأس بها لكثير من هذه الأسماء، فهو يتعرض لشرحها و بيان اشتقاقاتها و ضبطها و تصريفها، و فى بعض الأحيان يتعرض لبعض الدراسات النحوية «۱» و يتناول فى أحيان أخرى أصل المعنى فى اللغة على نحو ما رأينا فى رسالته عن أصول الأسماء كبيانه لأصل الصدق فى اللغة و أنه الثبوت و القوة بصدد حديثه عن اسم «الأصدق» «۲»، و هكذا يمكننا اعتبار هذا المؤلف من آثاره اللغوية التى توضح مقدرته اللغوية و تحدد قدرته على تناول النصوص، بيد أنه ليس له فيه من الآراء ما يستحق الوقوف عنده و إنما له بعض الاستدراكات أو الزيادات أو التعليقات.

و استيفاء لآثار السيوطى اللغوية قبل شروعنا فى دراسة كتابه الهام فى اللغة و هو المزهر، يجدر أن نشير إلى أن كثيرا من مؤلفات السيوطى فى شتى الموضوعات لم تخل من دراسات لغوية قيمة أو ملاحظات تشهد بطول باعه فى هذا المجال، و سأمثل بأحد هذه المؤلفات على سبيل التمثيل لا الحصر، و هو مؤلف قد ذكره بين كتب التاريخ و هو كتاب:

۱۵- الشماريخ فى علم التاريخ:

(طبع فى مدينة ليدن سنة ۱۳۱۲ ه- ۱۸۹۴ م):

كتاب صغير الحجم طبع مع مقدمة له باللغة الألمانية، و قد تحدث السيوطى فى الباب الأول منه عن مبدأ التاريخ، و فى الثانى من فوائد التأريخ من معرفة الآجال و حلولها و انقضاء العدد، و وفيات الشيوخ و مواليدهم، و الرواة عنهم فيعين ذلك على تبين صدق الرواة من كذبهم، و يعين فى ضبط الأسانيد «۳».

و فى الباب الثالث تعرض لموضوعات شتى تتصل بالتأريخ، بيد أن الذى يهمنا فى الكتاب عنايته ببعض المسائل اللغوية المتصلة بالتأريخ. (۱) انظر مثلا «أحيد» ورقة ۱۰، ص ۱۹، و أحاد ورقة ۲۱.

(۲) المصدر السابق ورقة ۱۲.

(۳) الشماريخ ص ۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۱

فقد ذكر السيوطى أنه: «يقال أول ليلة فى الشهر كتب لأول ليلة منه، أو لغرته أو لمهلة، أو لمستهلة. و أول يوم لليلة خلت ثم لليلتين خلتا ثم لثلاث خلون إلى العشر، فخلت إلى النصف، فللنصف من كذا و هو أجود من لخمس عشرة خلت أو بقيت، ثم لأربع عشرة بقيت إلى العشرين، ثم لعشر بقين إلى آخره، و لآخر ليلة أو لسلخه أو لانسلاخه، و فى اليوم بعدها لآخر يوم أو لسلخه أو لانسلاخه و قيل: إنما يؤرخ بما مضى مطلقا ...» «۱»، ثمّ يبين أن قولنا فى بعضها: خلون، لأن تمييزه جمع، و ما يقال فيه، «خلت» فهو ما تميزه مفرد إلى آخر ما ذكره، كما بين أنه يقال فى العشر الأواخر و الأول و لا يقال الأواخر و الأوائل لأن الأولى أن يجمع على فعل قياسا مطردا. و لا يجمع على الأوائل إلا أول الذكور، و الأواخر جمع آخرة و هو المراد هنا، أما الأخر فجمع أخرى، و قد نقل ذلك عن ابن الحاجب.

كما تحدث عن حذف التاء من لفظ العدد فذكر أنه يقال: «إحدى و اثنتان إن أرخت بالليلة أو السنة و تؤنث، و يقال أحد و اثنان إن أرخت باليوم أو العام فان حذفت المعدود جاز حذف التاء و منه الحديث» و أتبعه ستا من شوال «إلى العشر فيذكر مع المذكر و يؤنث مع المؤنث» «۲».

و تناول أسماء الأيام و جموعها، و اشتقاقها و معناها و ما كان لهذه الأيام من أسماء عربية قديمة أميتت و استعملت محلها هذه الأسماء «۳». ثم ذكر أسماء الشهور و جموعها و معانيها و اشتقاقاتها و أسماءها العربية السابقة التى هجرت باستعمال هذه الأسماء «۴»، متعرضا لبيان تسمية الشهور و أسباب هذه التسمية و ذلك بعد بيان المعنى.

و ما نريد أن نخلص إليه هو أن هذا الكتاب على صغره و اهتمامه بالتأريخ لم يخل من نظرات و ملاحظات لغوية، و نظرات أسلوبية و نحوية ضمنها صاحبه فيه (۱) المصدر السابق ص ۹.

(۲) الشماريخ ص ۱۰.

(۳) المصدر السابق ص ۱۰- ۱۲.

(۴) نفس المصدر ص ۱۳- ۱۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۲

مما يدل على مقدرته اللغوية و تشربه بروح اللغوى، و نلاحظ أن هذه النظرات اللغوية لم يسقها السيوطى بمنهجه النقلى المعتاد و إنما بسط القول بعض البسط و تحلل من الأسانيد و اضطلع بالقول و العرض و بيان ما يريده.

۱۶- المزهر فى علوم اللغة و أنواعها:

اشارة

«طبع الكتاب عدة طبعات أدقها الطبعة التى حققها محمد أحمد جاد المولى و زميلاه و هى فى جزءين و قد اعتمدنا عليها».

يعد أجلّ مؤلفات السيوطى فى فقه اللغة و يعد أجمع المؤلفات العربية و أوفاها و أشملها فى تحديد معالم الدرس اللغوى. و قد عرضت آنفا لتدرج أبحاث فقه اللغة عند العرب، و ذكرت أهم آثارهم، و قد رأينا اهتمام كبير منها بناحية من النواحى و اقتصارها عليها، كما أن الكتب التى وضعت فى خصائص العربية أو فى فقه اللغة لم تتعرض فى الحقيقة إلا لبعض جوانب فقه اللغة، و لم يكن من هدفها شمول جميع الجوانب، فالكتب السابقة عليه كما بينا إما معجمات عامة تهدف إلى جميع مواد اللغة، أو معاجم خاصة تقتصر على ألفاظ موضوعات معينة كالشجر و الابل و المطر ... إلى آخره، أو معاجم خاصة مطولة للمعانى كالمخصص لابن سيدة، أو دراسات تهتم ببعض مسائل فقه اللغة كالخصائص لابن جنى و الصاحبى لابن فارس، أو دراسات تهتم باللغة و ألفاظها و معانيها و بكثير من القضايا اللغوية العامة خارج البيئة اللغوية كدراسات الأصوليين و أبحاثهم.

و لم يكن هناك قبل السيوطى من جمع هذه الألوان المتنوعة فى مؤلف واحد، و لم يكن قبل المزهر كتاب للسيوطى أو لغيره يمكن أن يمثل بحق دراسة العرب لفقه اللغة، أو بعبارة أخرى «يمكن أن يكون ألصق المؤلفات بفقه اللغة كعلم قائم بنفسه» «۱».

و السيوطى على حق فى قوله: «و قد كان كثير ممن تقدم يلمّ بأشياء من ذلك، و يغننى فى بيانها بتمهيد المسالك، غير أن هذا المجموع لم يسبقنى إليه سابق، و لا (۱) د. صبحى الصالح: دراسات فى فقه اللغة ص ۱۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۳

طرق سبيله قبل طارق» «۱».

و بالرغم من أن جميع الأبحاث التى تناولها السيوطى درست عند العرب من قبله و تناولها اللغويون أو الأصوليون، فإن أحدهم لم

يتصدّ لدراسة هذا الفن كله، و لم يستوعب أحدهم نظريات العلم و يتناولها بحديث جامع منظم الأبواب، بل تكلم هذا فى ناحية أو بعض النواحى و ذاك فى أخرى، فلم يجتمع شتات هذا الفن و لم يلتئم شمله.

و قد حاول السيوطى فى كتابه أن يجمع هذا الشتات، و قد امتاز عن سابقيه من اللغويين باهتمامه الكبير بأبحاث الأصوليين السابقين فى دراسة اللغة، و هذا يدل على بعد نظره و دقة منهجه فبحث الأصوليين للغة أدق و أوفى من بحث اللغويين أنفسهم، و كانت كتب اللغويين تغفل فى أحيان كثيرة جهود الأصوليين، فجاء كتاب السيوطى جامعا لأبحاث الفريقين يلائم بين أجزاء الشمل، و يقيم مما تفرق أبوابا و مباحث لها كيانها المستقل ثم ينتهى به الأمر إلى أن يجعل من هذه المباحث علما له كيانه المستقل، و هذا بغير شك جهد عظيم و ابتكار لا ينكر، و جرأة على ما أحجم عنه السابقون، و قد نجح فى عمله نجاحا يغبط عليه و سيتضح لنا بعد مصداق ما قدمنا.

منهج السيوطى فى المزهر:

أريد هنا أن أتناول باجمال كتاب المزهر، و أهم الجوانب التى تحدد منهج صاحبه هى مصادر الكتاب، ثم طريقته فى النقل و العرض و كيفية تقسيم الكتاب، و ذلك يحدد لنا معالم منهج المؤلف و ينتهى بنا إلى الحديث عن منهج المحدثين و محاولة السيوطى تطبيقه على اللغة و دراستها من خلاله و سنبين ذلك فيما بعد.

و قد عرضت من قبل لتدرج الدراسات اللغوية قبل السيوطى و بينت أنواع المصنفات التى سبقته، و أستطيع القول بأن معظم كتب اللغة السابقة سواء نتجت عن البيئة اللغوية أو عن بيئة الأصوليين فقهائهم و متكلميهم كل أولئك (۱) المزهر ج ۱ ص ۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۴

قد وقف عليه السيوطى و اتضح أثره فى كتابه الذى بين أيدينا، و يبلغ ما ذكره السيوطى من الكتب التى نقل عنها مائة و ثلاثة و سبعين كتابا و هى جميع ما نقل عنه تقريبا لأنه- فى الواقع- يمتاز بمميزة هامة و هى الأمانة الشديدة التى تجعله لا يذكر نصا إلا معزوا إلى قائله و مذكورا معه اسم الكتاب الذى نقل عنه و ذلك ما جعل سبيل إحصاء الكتب واضحا، و قد كان من أهم خصائص منهجه فى التأليف، و هو ما جعله يحرص فى ذكر النقول على ذكر أصحابها و أسماء الكتب التى نقل عنها لأنه يعد ذلك من شكر العلم و بركته التى ينبغى أن تكون من آداب المحدّث و اللغوى و قد قال: «و لهذا لا ترانى أذكر فى شىء من تصانيفى حرفا إلا معزوا إلى قائله من العلماء مبينا كتابه الذى ذكر فيه» «۱».

و النقول التى شغلت حيزا كبيرا فى كتابه هى النقول عن المعاجم سواء أ كانت معاجم عامة أم معاجم خاصة، فقد أكثر من النقل عن الصحاح للجوهرى فى مواضع متفرقة و عن الجمهرة لابن دريد، و المجمل لابن فارس و المحكم لابن سيدة و الغريب المصنف لأبى عبيد، و فقه اللغة للثعالبى، و ديوان الأدب للفارابى و أدب الكاتب لابن قتيبة، و إصلاح المنطق لابن السكيت و تهذيبه للتبريزى، و كتاب ليس لابن خالويه، و الفصيح لثعلب و التهذيب للأزهرى.

و يلى هذه المصادر فى حجم النقول الكتب التى عنيت كالمعاجم بالألفاظ، و ضمت إليها أبحاثا لغوية أخرى كالأمالى لثعلب، و أمالى القالى و الزجاجى و ابن دريد، و شروح الفصيح لابن درستويه، و لابن خالويه و للبطليوسى.

أما أهم الكتب التى تناولت بعض أبحاث فقه اللغة و شغلت حيزا كبيرا بين نقول السيوطى فهى الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس و الخصائص لابن جنى، يليهما الكامل للمبرد و لمع الأدلة فى أصول النحو لابن الأنبارى.

و سائر الكتب بعد ذلك تشغل النقول عنها حيزا أقل، و لا يفوتنا أن نذكر أن بينها كتبا هامة ككتاب سيبويه و القاموس للفيروزآبادى، و مجموعة من كتب النوادر لأبى زيد و لابن الأعرابى و لأبى عمرو الشيبانى و للنجيرمى و اليزيدى (۱) المزهر ج ۲ ص ۳۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۵

و يونس و بعضها قد وصل إلينا و بعضها لم يصل.

و قد اعتمد السيوطى على مجموعة لا- بأس بها من كتب الأصوليين و نقل عنها و أهمها البحر المحيط للزركشى و البرهان لإمام الحرمين، و التلخيص له أيضا، و شرح منهاج البيضاوى للتاج السبكى، و جمع الجوامع للسبكى، و شرح المحصول للقرافى، و شرح منهاج الأصول للاسنوى، و المختصر لابن الحاجب، و الملخص فى أصول الفقه للقاضى عبد الوهاب المالكى، و الوصول إلى الأصول لابن برهان.

و لم يقتصر اعتماد السيوطى على هذه الكتب بصدد بحث نشأة اللغة الذى يهتم به المتكلمون و الأصوليون و حسب و إنما اعتمد عليها فى كثير من الأبحاث الأخرى لا سيما التى تتصل بالمعنى كالخاص و العام و المشترك و المترادف و الاشتقاق و الحقيقة و المجاز و غير ذلك بحيث يبدو النقل عنها متناثرا فى سائر كتابه.

و نلاحظ قلة الكتب النحوية بين مصادر السيوطى فما ذكره بعضه فى أصول النحو كلمع الأدلة فى أصول النحو لابن الأنبارى، و بعضه فى الفروع و هو قليل ككتاب سيبويه و أصول ابن السراج و التسهيل و نظم الفرائد لابن مالك، و شرح التسهيل لأبى حيان، و هذا يدل فى الحقيقة على تفرقته بين دراسة اللغة و بين دراسة النحو، و أن اعتماده على الكتب النحوية فى المجال اللغوى غير النحوى لا يكون إلا- بمقدار ما يخدم الموضوعات التى يتناولها، و الحق أن التفرقة واضحة منذ القدم فى أذهان اللغويين و النحاة، و من الطبيعى ألا تكثر المصادر النحوية لكتاب فى فقه اللغة أما كتب الطبقات فقد رجع السيوطى إلى عدد من الكتب التى وضعت فى طبقات اللغويين و النحويين و هذه الكتب لا- تفرق بين الفريقين لما أن كثيرا ممن اشتغل بأحد العلمين كان له اشتغال بالآخر، و من هذه المصادر مراتب اللغويين لأبى الطيب اللغوى و طبقات النحويين للزبيدى، و طبقات النحويين للسيرافى، و تبعا لاهتمام الكتاب بالرواية بصفة عامة فقد اعتمد صاحبه أيضا على طبقات الشعراء لابن سلام و أكثر نسبيا من النقول عنه.

و عامة ما تبقى من المصادر بعضه كتب فى التاريخ كتاريخ ابن عساكر و غيره، و بعضه فى التفسير، و بعضه فى فروع الفقه، و بعضه أراجيز أو أشعار أو أخبار

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۶

كالترقيص للأزدى و الأغانى لأبى الفرج، و غالبه كتب فى اللغة اختصت بموضوع واحد أو عدة موضوعات ككتب الأضداد لأبى داود و لأبى عبيد و لابن الأنبارى، و شجر الدر لأبى الطيب اللغوى، و كتاب العسل للفيروزآبادى، و المقصور و الممدود للأندلسى و لابن ولاد و لابن سيدة و لابن السكيت و للقالى، و قد أكثر نسبيا من النقل عن هذه الكتب الثلاثة الأخيرة، و المؤتلف و المختلف للآمدى، و الفروق لأبى الطيب، و غيرها من الكتب. و لا حاجة بنا بعد ما قدمناه إلى استقصاء جميع مصادره و ذكرها فقد ذكرت جانبا كبيرا منها كما حددت المعالم العامة لهذه المصادر و أنواعها.

و قد شاع لدى عامة الدارسين أن السيوطى ناقل لا غير، و ملخص لأقوال الأقدمين بحيث إن المقدمين لكتابه كادوا يشوهونه بقولهم: «إن هذا الكتاب على ضخامته ليس للسيوطى فيه إلا الجمع و الترتيب عدا بدوات قليلة نجدها مبعثرة فى ثنايا الكتاب، و فقرات يقدم بها بين يدى الباب أو يختتمه» «۱».

و بالرغم من صدق هذه العبارة إلى حد كبير فإن ذلك لا يغض من شأن الكتاب و لا من شأن مؤلفه فحسبه أنه المؤلف الذى تنبه إلى وجوب جمع هذه الأبحاث و ضمها جميعا فى مؤلف واحد، كما أن نقوله و اختياراته تدل على مقدرة كبيرة على الجمع و الترتيب و اختيار أنسب النصوص و أخصرها و أوفاها بالغرض، و يبدو أن جنوح السيوطى إلى الاختفاء بشخصيته وراء النقول قد أتاه كما بينا من تأثير منهج المحدّثين، و طبع عقليته بالطابع النقلى الحديثى بحيث إنه حينما يريد الحديث عن فكرة معينة يبحث لها عن نقول تعبر عما يريد قوله، و كأنه بذلك لا- يرى ثبوت الفكرة إلا- بقوة إسنادها و اتصالها بعالم من علماء السلف المشهورين، و من هذا المنطلق نستطيع أن نعتمد على كثير من النقول التى يوردها و يختفى وراءها فى تبين آرائه اللغوية و سنذكر ذلك بعد.

و إذا كان اهتمام السيوطى بالنقول إلى هذا الحد فيحسن بنا أن نتناول أسلوبه فى عرض أفكاره و ترتيب هذه النقول و كيفية اعتماده على المصادر. (۱) المزهر ج ۱ ص أ من المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۷

و السيوطى حريص على أن يبدأ بذكر اسم المؤلف ثم اسم الكتاب عند بداية كل نص يورده، كما ينبه عند نهاية كل نص على تمامه بحيث نستطيع فى يسر أن نتبين فى كل مبحث من المباحث التى تعرض لها عدد النقول التى أوردها و مقاديرها.

و حينما يتناول موضوعا من موضوعات كتابه بالبحث يبدأ بتعريفه فينقل هذا التعريف عن غيره إن كان ثمة نقول تفيد ذلك، و إلا فإنه يبدأ بتحديده بألفاظ من عنده، ففى النوع الرابع مثلا عن المرسل نقل عن ابن الأنبارى تحديده بأنه الذى انقطع سنده «۱»، بينما حدد بألفاظه النوع الخامس: الأفراد بقوله «و هو ما انفرد بروايته واحد من أهل اللغة و لم ينقله أحد غيره» «۲».

و بعد تحديد الموضوع يتناول السيوطى بعض أجزائه أو الملاحظات عليه من قبل اللغويين فيورد النقول للتى تشير إلى ذلك، و إن كان ثمة خلافات بين اللغويين أو الأصوليين فى المبحث فهو يهتم بذكرها، و إذا لم يكن ثمة شىء من ذلك و كان المبحث فى ألفاظ تحتاج إلى الأمثلة فإنه يكثر من النقول التى يمثل بها لما ذكر.

أما ترتيب هذه النقول فيتبع فيه ما تفرضه عليه طبيعة الموضوع، فهو يرتب كل موضوع وفق ما يراه ثم يورد النقول متراصة فى الاطار الذى حدده لموضوعه، و لا يلتزم بالتدرج التاريخى للكتب المنقول عنها و إن بدا ذلك فى بعض الأحيان، فالاعتبار الأول لطبيعة الموضوع و تخطيطه العام فإذا كانت جملة من النقول دائرة فى غرض واحد من أغراض البحث فإنه غالبا ما يراعى التدرج بأن يذكر السابق فاللاحق، و إن كان هذا غير ملتزم فى سائر الكتاب و إنما هو غالب عليه.

على أن الناظر لأول وهلة فى الكتاب قد لا يلاحظ ما نذكره بل يرى كل باب من الأبواب مجموعة من النقول رصّ بعضها إلى جانب بعض. (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۲۵.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۲۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۸

و الواقع أن هذا الترتيب يراعى فيه طبيعة ترتيب الموضوع، ثم إلى حد ما التدرج التاريخى للنقول، فإذا نظرنا إلى أول مبحث فى كتابه و هو «الصحيح» وجدناه قد بدأ بتعريف اللغة، و تحت هذا الغرض أورد نقولا ثلاثة راعى فيها التدرج التاريخى فأولها نص لابن جنى و الثانى لامام الحرمين و الثالث لابن الحاجب «۱».

ثم انتقل إلى غرض آخر من أغراض الموضوع و هو كون اللغة توقيفا أو اصطلاحا، فبدأ بنقل نص عن ابن فارس أتبعه بنقل عن ابن جنى ثم تعرض بعد ذلك لآراء الأصوليين فلخصها عن المحصول لفخر الدين الرازى (۶۰۶ ه) ثم أورد نقولا بعد ذلك عن كتب فى الأصول لابن برهان (۵۲۰ ه)، ثم عن إمام الحرمين فالغزالى فابن الحاجب فتاج الدين السبكى، و هكذا نرى عدم التزامه الدقيق بالتدرج التاريخى فى ترتيب هذه النقول، و إن كان هذا التدرج قد التزمه فى إيراد أقوال إمام الحرمين فمن بعده، و هناك بعض نقول له يراعى فى ترتيبها التدرج التاريخى، فحين يتحدث عن الحكمة فى وضع اللغة ينقل عن الكيا الهرّاسى (۵۰۴ ه)، ثم يتبعه بالنقل عن الفخر الرازى (۶۰۶ ه)، و يكاد لا يلتزم بهذا التدرج حين حديثه عن ثبوت اللغة بالقياس التى أفاض فى بحثها الأصوليون فبدأ بالنقل عن الكيا الهراسى (۵۰۴ ه)، فابن برهان (۵۲۰ ه)، فامام الحرمين (۴۷۸ ه)، فالغزالى (۵۰۵ ه).

بيد أن السيوطى لا يلتزم بدقة فى أحيان غير قليلة بالتدرج التاريخى للكتب التى نقل عنها فهو ينقل مثلا فى فعّيل فعّيلى أمثلة من الجمهرة لابن دريد (۳۱۰ ه)، ثم ينقل عن ديوان الأدب للفارابى و هو متأخر عنه، و لكنه يعود فيورد أمثلة عن الصحاح للجوهرى (۴۰۰ ه)، و هو سابق على الفارابى، ثم ينقل مرة أخرى عن جمهرة ابن دريد، ثم عن ابن فارس (۳۹۵ ه)، ثم عن الصحاح للجوهرى، ثم عن أمالى القالى (۳۵۶ ه)، و طبيعة هذه النقول لا تحتاج إلى التزام التدرج التاريخى التزاما دقيقا فليس ذلك مما يؤخذ عليه.

و الحق أن ما يجب مراعاة التدرج التاريخى فيه هو النقول التى تعرض لفكرة (۱) نفس المصدر ج ۱ ص ۷، ۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۲۹

من الأفكار أو نظريـة من النظريات، أما ألفاظ اللغة فعامة كتب اللغة تروى عن رواتها الأولين، و يزيد بعضـها على بعض، فلا يلزم حين النقل عنها مراعاة التدرج التاريخى مراعاة دقيقة، لأن هذه المصادر لم تحرص على هذا التدرج.

أما عن كيفية النقل فهو حريص على أن يورد القول بنصه، فإن لخصه نبه على ذلك، و أحيانا يلخص جملة أقوال فلا يذكر حينئذ اسم كتاب نقل عنه و هنا ينبه على أن ما يورده هو ملخص أقوال الأصوليين أو البلاغيين أو غيرهم بصدد موضوع من الموضوعات.

أمـا عن نقـل ألفـاظ اللغـة فهو حريص على أن ينقـل عن كـل كتـاب ما لم يرد فى غيره من الأمثلـة حتى تجتمع من ذلك حصـيلة من الأمثلة لم يحصلها قبله غيره منفردا.

و أهم الكتب التى نقـل عنهـا السـيوطى و نسـتطيع أن نتبين منهـا منهجه فى النقـل الخصـائص لابن جنى و الصاحبى لابن فارس و لمع الأدلة لابن الأنبارى.

و طريقته فى النقل عنها تمثل لنا طريقته فى النقل عن سائر الكتب التى اهتمت ببعض أبحاث فقه اللغـة، أما المعاجم و كتب اللغـة التى من قبيلها فلا تحتاج نقوله عنها إلى تمثيل لأن نقله فى ذلك الحين جمع لما تفرق و تنسيق لما تشعث.

و حين ينقـل السـيوطى عن الصـاحبى لابـن فـارس يورد مـا ينقله نصـا دون أن يغير فيه و كـثير من نقوله تشـهد بـذلك «۱»، فإذا أراد تلخيص ما يـذكره ابن فارس صـرح فى عبارته بما يشـعر بأنه يلخص و لا ينقل نصا «۲». (۱) انظر المزهر ج ۱ ص ۴ حيث نقل مقدمة الصـاحبى، و انظر الصاحبى ص ۲، انظر المزهر ج ۱ ص ۶۴ حيث نقـل بابـا عن الصاحبى هو «القول على لغـة العرب و هل يجوز أن يحاط بها»، انظر الصاحبى ص ۱۸، و انظر ج ۱ ص ۱۳۷ من المزهر حيث ينقل فى معرفة من تقبل روايته و من ترد نصا عن ابن فارس أورده فى مأخذ اللغة بالصاحبى ص ۳۰، و هناك نقول شتى غير ذلك تدل على حرص السيوطى على إيراد نصوصه بدقة و أمانة دون تغيير.

(۲) انظر المزهر ج ۱ ص ۲۲۲، ۲۲۳ حيث لخص عن ابن فارس اللغات المذمومة فى بضـعة سطور، و انظر الصاحبى حيث تحدث ابن فارس عن ذلك ص ۲۴- ۲۷ و قد

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۰

و قليلا ما يختصر السيوطى دون أن تشعر عبارته بأنه قد حذف شيئا من النص، و الواقع أنه فى اختصاره إنما يحذف ما لا حاجة إليه أو ما يغنى التمثيل له عن الكلام فيه «۱».

و قـد أكـثر من النقـل عن الخصـائص لابـن جنى، و نهـج فى نقله نهجـا يـدل على فهمه العميق لأقـوال السـابقين و حسن تلخيصـها، و المعروف عن ابن جنى إسـهابه فى أقواله و توليده للمعانى و استطراده الكثير أثناء حديثه عن الفكرة الواحدة، و لذلك يعمد السيوطى كـثيرا حين النقـل عنه إلى اختصـار أقواله و تلخيصـها بمـا يشـهد له بدقـة الفهم و اسـتقامته و ميله إلى الوضوح و الايجـاز و البعـد عن الاطناب حيث يغنى الايجاز حتى إن بعض نقول السـيوطى عن ابن جنى تبـدو فى كتاب المزهر أكثر وضوحا منها لدى صاحبها. و فى بعض الأحيان ينقل السـيوطى نصوص ابن جنى بألفاظها دون أن يتصرف فيها كنقله عنه حدّ اللغة و تصريفها «۲»، و القول على أصلها: إلهام أم اصطلاح حيث نقل بابا بأكمله «۳»، و هناك أمثلة أخرى لخص فيها السـيوطى أقوال ابن جنى منها حديثه عن وضع اللغة: فى وقت واحد أم فى أوقات متلاحقة «۴»، و قد نقل عنه بابا بأكمله فى المطرد و الشاذ و قد تحدث ابن جنى عنه تحت نفس العنوان «۵»، بيد أن السـيوطى قد زاد على ابن جنى ما أورده من أمثلة متنوعة نقلا عن كتب اللغة الأخرى «۶»، و قد حرص السيوطى على اداء نص ابن جنى بألفاظه إلا أنه فى آخر النص استغرق حديثه أربع صفحات.

(۱) انظر المزهر ج ۱ ص ۲۵۵ «معرفة مختلف اللغة» حيث نقل عن ابن فارس من باب «القول فى اختلاف لغات العرب» فذكر نصوص

ابن فارس كاملة بيد أنه حذف جانبا ذكره ابن فارس بصدد الاختلاف بين اللهجات فى الاعراب، المزهر ج ۱ ص ۲۵۶، الصاحبى ص ۲۰، ثم أتم النقل بعد ذلك بنصه إلى ختام الباب، انظر الصاحبى ص ۱۹- ۲۲.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۷، الخصائص ج ۱ ص ۳۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۱۰- ۱۶، الخصائص ج ۱ ص ۴۰- ۴۷.

(۴) المزهر ج ۱ ص ۵۵- ۵۷، الخصائص ج ۲ ص ۲۸- ۳۳.

(۵) المزهر ج ۱ ص ۲۲۶- ۲۳۰، الخصائص ج ۱ ص ۹۶- ۱۰۰.

(۶) المزهر ج ۱ ص ۲۳۰- ۲۳۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۱

أغفل بعض فقرات لابن جنى «۱»، و ما أغفله تخريج لبعض الأمثلة الشاذة لا يمثل إغفالها نقصا فى عرض الموضوع أو بيانه.

على أن السيوطى فى تلخيصه لأقوال ابن جنى لا يغير فيها و إنما ينتقى منها ما يراه مفيدا للغرض و يغفل بعضها دون الاخلال بفكرتها العامة، و خير مثال لذلك ما نقله عنه بصدد «المستعمل و المهمل» «۲»، حيث أورد نصوص ابن جنى و أغفل كثيرا من الفقرات التى مثل بها المنقول عنه أو التى أوردها على سبيل الاستشكال، و لذلك فاغفال السيوطى لها لم يخل بما نقله، و قليل من عبارات السيوطى تختلف فى اللفظ عن عبارات الخصائص و لكنه اختلاف لا يخلّ بالمعنى، و لعل مرده إلى اختلاف النسخة التى بين أيدينا من الخصائص عن النسخة التى نقل عنها السيوطى.

و يمكن أن نلاحظ اختلاف بعض العبارات فيما نقله عنه بصدد اختلاف اللغات «۳»، كما نلاحظ ما قلناه عن اختصاره لعبارات ابن جنى، و هناك نقول أخرى تشهد لما أردنا بيانه.

أما كتاب لمع الأدلة لابن الأنبارى فهو كتاب فى أصول النحو نقل السيوطى عنه ثلاثة نقول، و سنرى اعتماده عليه كثيرا فى كتابه «الاقتراح»، و قد نقل عنه هنا فى الحديث عن المتواتر و الآحاد «۴»، ما تحدث عنه ابن الأنبارى فى الفصلين الرابع و الخامس من كتابه و هما انقسام النقل «۵» و شروط نقل المتواتر «۶»، و نلاحظ (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۲۹، ۲۳۰، الخصائص ج ۱ ص ۹۹، ۱۰۰ حيث حذف من أول قول ابن جنى: «فأما قول أبى الأسود: ليت شعرب البيت، إلى قوله: و إن لم يكن قبيحا و لا مأبيا فى القياس» نحو أحد عشر سطرا.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۴۰- ۲۴۲، الخصائص ص ۵۴- ۶۸، أغفل السيوطى فقرة لابن جنى من أول قوله ص ۵۵ «و أنا أرى أنهم إنما يقدمون الأقوى من المتقاربين ... إلى قوله: فهذا واضح كما تراه»، ثم نقل بالنص عنه من أول: و أما ما رفض أن يستعمل، و بعد قليل نراه يترك فقرات أخرى.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۲۵۷، ۲۵۸ نقل عن الخصائص ج ۲ ص ۱۰- ۱۲.

(۴) المزهر ج ۱ ص ۱۱۳.

(۵) لمع الأدلة ص ۸۳.

(۶) لمع الأدلة ص ۸۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۲

أنه قد حرص على إيراد ألفاظه بدقة كاملة و لم يغفل إلا عبارة يسيرة هى مثال من الأمثلة التى أوردها ابن الأنبارى، كما أن نص السيوطى فى كتابه يشعر بأنه قد أغفل شيئا أراد التنبيه عليه إذ أورد عبارة «ثم قال» بعد الفقرة التى أغفل من نهايتها ذلك الجزء اليسير.

و حين تحدث السيوطى عن المرسل و المنقطع فى كتابه بدأ بالحديث عن المرسل نقلا عن ابن الأنبارى، و لما كان الأخير قد تناول المرسل و المجهول معا فإن السيوطى قد نقل ما يخص المرسل و أغفل العبارات التى تحدث فيها ابن الأنبارى عن المجهول دون أن

يبتر ألفاظه أو يغير منها «۱».

و حين نقل عنه فى النوع السادس «من تقبل روايته و من ترد» أورد ما كتبه ابن الأنبارى فى شرط نقل الآحاد، و قد التزم السيوطى بألفاظ ابن الأنبارى و عباراته بيد أنه فى آخر النص أغفل بضع عبارات لم يوردها و هى فى الحقيقة لا تنقص المعنى و لا تخل به، و إنما أوردها ابن الأنبارى زيادة فى توضيح فكرته فاستطاع السيوطى الاستغناء عنها دون أن يختل المعنى مع حرصه على عدم تغيير عبارات المنقول عنه «۲».

يتضح مما قدمناه، و من غيره مما تتبعناه أن السيوطى كان يمتاز بالأمانة البالغة فى نقوله، و يبدو حرصه الشديد على إيراد هذه النقول بألفاظها فى طريقة اختصاره حيث يغفل العبارات التى لا تخل بالمعنى أو التى يرى فيها استطرادا و تشتيتا للفكرة، و يقتصر على عبارات المنقول عنه التى يرى فيها إيضاحا للفكرة التى ينقلها دون أن يغير من اللفظ و يبدّله، على أن جانبا كبيرا من هذه النقول لم يقسم باختصارها بل أورد النصوص كاملة كما هى لدى أصحابها، و من ثم فإنه يمكن الاعتماد على نقول السيوطى فى استنباط آراء السابقين و مذاهبهم، و الاطمئنان إلى وثاقتها. (۱) انظر المزهر ج ۱ ص ۱۲۵ النوع الرابع، و انظر: لمع الأدلة: الفصل الثامن «المرسل و المجهول» ص ۹۰، ۹۱.

(۲) انظر المزهر ج ۱ ص ۱۳۸، لمع الأدلة ص ۸۵، ۸۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۳

وضع أصول لنقد الرواية اللغوية

اشارة

بينت بالباب الأول من البحث أن السيوطى أولا- و قبل كل شىء محدّث من النوع الأول يهتم بالبحث فى الأسانيد و يحرص على الأمانة، و يهتم بالبحث فيما يتصل بالأحاديث من صحة و ضعف و علل و بالرواة من توثيق و تعديل، أو تجريح و تضعيف، كما قلت إن عنايته بالحديث قد طبعت منهجه و عقله بحيث ظهر تأثره به فى شتى نواحى دراسته.

و فى كتاب «المزهر» نجد محاولة من السيوطى لدراسة اللغة بتطبيق منهج المحدّثين عليها، و قد صرح بذلك فى مقدمته حيث قال: «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، و اخترعت تنويعه و تبويبه، و ذلك فى علوم اللغة و أنواعها، و شروط أدائها و سماعها، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم و الأنواع، و أتيت فيه بعجائب و غرائب حسنة الابداع» «۱».

و الواقع أن رواية الحديث قد حظيت منذ وقت مبكر بعناية المسلمين، و نالت من الاهتمام لاتصالها بالأحكام الشرعية التى تمس عبادات الناس و معاملاتهم ما لم يتح مثله للرواية اللغوية.

و قد اشتغلت طائفة كبيرة من المسلمين بنقل الحديث و روايته، كما ابتدأ تدوين الحديث منذ وقت مبكر و وضعت فيه المصنفات التى اعتمدت- فى الغالب- على ما دون فى عهد عمر بن عبد العزيز، و قد صنف فى الحديث من رجال القرن الثانى الهجرى الربيع بن صبيح (۱۶۰ ه)، و سعيد بن أبى عروبة (۱۵۶ ه)، و تبعهم الامام مالك الذى صنف الموطأ و توخى فيه القوى من حديث أهل الحجاز، و صنف ابن جريج بمكة و الأوزاعى بالشام و سفيان الثورى (۱) المزهر ج ۱ ص ۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۴

بالكوفة و حماد بن سلمة بالبصرة و هشيم بواسط و غيرهم، ثم تلاهم كثيرون ممن نسج على منوالهم، ثم صنف بعض الأئمة المسانيد كمسند أسد بن موسى الأموى (۲۱۲ ه)، و مسند نعيم بن حماد الخزاعى (۲۲۸ ه)، ثم بعد فترة ظهر مسند الامام أحمد بن حنبل (۳۴۱

ه)، و تلا هذه الطبقة طبقة أصحاب الكتب الستة «۱».

و إذا كانت العناية قد اتجهت إلى جمع الأحاديث و تدوينها فإن طريق ذلك كان الرواية الشفوية التى اعتمد عليها الحديث فترة من الزمن، ثم كان أصحاب الكتب يعتمدون أيضا على الرواية الشفوية و يهتمون بالنقل عن حفاظ الحديث و نقلته بعد التدوين و قد استدعى ذلك البحث عن الوسائل التى تضمن سلامة وصول الأحاديث إليهم.

و قد عرف عن الصحابة تشددهم و تحرجهم فى رواية الحديث، كما عرف عن بعضهم نقدهم لبعض الروايات، فلما حدثت الفتنة و ظهر أهل الأهواء الذين لم يؤمن كذبهم فى الحديث، ثم ظهر القصاص و أصحاب الأخبار بعد ذلك يحدثون الناس بأحاديث عن الكتب السابقة تفيض بالكذب و الأساطير، كما ظهر التزيد عند بعض الرواة، أصبحت الحاجة ماسة إلى الاهتمام بنقد رواية الحديث، و قد اتجه هذا النقد فى غالبه إلى الأسانيد و يتمثل فى بحث الرواة جرحا و تعديلا و ما يستتبعه من بحث أحوالهم، و البحث فى الأسانيد لمعرفة عللها و اتصالها أو انقطاعها، و من هنا كانت بداية ظهور علم أصول الحديث الذى عرف عند المتأخرين بعلم مصطلح الحديث.

و لكى نعطى صورة مجملة عن تدرج مصطلح الحديث حتى وصل إلى ما وصل إليه عند المتأخرين نذكر أن الاهتمام بهذا العلم كما بينا كانت له جذوره الموغلة فى القدم، و قد تكلم فى الجرح و التعديل كثير من العلماء منذ وقت مبكر، و كان منهج الرواية فى ذلك الحين عرفا بين المحدثين.

و يبدو أن ابن شهاب الزهرى، و شعبة بن الحجاج (۱۶۰ ه) قد صنفا فى (۱) السيوطى: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ج ۱ ص ۵، ۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۵

نقد الرواية، و قد ظهر بعد حين مسلم (۲۶۱ ه)، الذى صنف فى علل الحديث، ثم صنف أبو محمد الرامهرمزى (۲۶۰ ه) كتاب المحدث الفاصل بين الراوى و الواعى و تبعه الحاكم النيسابورى (۴۰۵ ه) فتصدى للتأليف فى ذلك، لكنه لم يهذب و لم يرتب، و تبعه أبو نعيم الأصبهانى، ثم جاء من بعدهم الخطيب البغدادى (۴۶۳ ه) فصنف فى قوانين الرواية كتاب «الكفاية»، كما صنف فى آدابها، و فى جميع فنون الحديث بحيث قيل: إن المحدثين بعده عيال على كتبه.

و يمكن أن نجد فى كتاب الكفاية مصداق ما نقول من قدم الكلام فى أصول الحديث و الاهتمام به حيث يورد الخطيب البغدادى نقولا بأقوال كثير من المتقدمين تتصل بأصول الحديث و نقد الرواية فهو يذكر مثلا فى «الخبر المتصل» نقلا يصل إلى قتادة و هو من التابعين و فيه يقول: «لا يحمل هذا الحديث عن صالح عن طالح، و لا عن طالح عن صالح، حتى يكون صالح عن صالح» «۱»، و معظم الكتاب نقول كهذا نثبت لنا كثيرا من أسماء الذين اعتنوا بنقد الحديث منذ القدم و إن لم يصنفوا فيه.

و أشهر الذين صنفوا فى المصطلح من المتأخرين ابن الصلاح (۶۴۲ ه)، و مقدمته أشهر ما كتب فى المصطلح بحيث حظيت بعدد من الشروح و المختصرات، و قد لخص ابن حجر هذه المقدمة فى كتابه نخبة الفكر، و يمكن أن نعتبر هذه المقدمة نهاية التدرج الذى وصل إليه مصطلح الحديث بعد استقرار مصطلحات هذا العلم و لذلك سنحاول المقارنة بينها و بين كتاب السيوطى باعتباره نهاية التدرج فى الرواية اللغوية و نقدها.

اتضح لنا ما حظيت به رواية الحديث من اهتمام بالغ، و ما حظى به نقد روايته من توفر كثير من الباحثين فى الحديث منذ فترة مبكرة على التعرض لها و تناولها، ثم توفر كثرة منهم على التصنيف فيها، و الدافع إلى ذلك- كما هو معروف- هو اتصال الأحاديث بالدين و اعتماد التشريع عليها، و ظهور أهل (۱) الكفاية فى علم الرواية ص ۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۶

الأهواء، و وجود الدواعى إلى الكذب التى حاول المحدثون الابتعاد عنها و تنقية أحاديث الرسول صلى اللّه عليه و سلم من شوائب

الوضاعين و الكذابين.

ذلك كان شأن روايـة الحـديث و شأن أصوله و نقد روايته حتى وصـلت إلى مصـطلح معروف لدى القوم حاول السـيوطى أن يدرس اللغة و روايتها و أن يقسـمها على نمطه فما ذا كان من أمر رواية اللغة و نقدها قبل السيوطى؟ ثم ما هو الجهد الذى قام به السيوطى؟ و إلى أى مدى من النجاح بلغت محاولته؟

و قـد حظيت روايـة الأدب و اللغـة بعنايـة الرواة منـذ القدم، و روايـة الأشـعار فى الجاهلية و الاسـلام، و كثرة الرواة و قوة حفظهم أمور معروفة و مشـهورة، أما نقد هذه الرواية فقد حدث بشـكل ملحوظ فى عصور التدوين فقد لاحظ الخليل أن «النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس فى كلام العرب إرادة اللبس و التعنيت» «۱»، كما لاحظ القدماء افتعال الشعر من قبل بعض الرواة و نسبته إلى غير قائليه، و يعطى ابن سـلام فى مقدمته صورة للانتحال فى الشـعر و ما قام به محمد بن إسحاق من تحمله لكثير من المصنوع المفتعل «۲»، و قد بين ابن سـلام فى مقدمته دوافع انتحال الشـعر و ذكر أن أهل البصـيرة بالشـعر يسـتطيعون أن يميزوا صـحيحه من المصنوع الذى افتعله الرواة، و يعد ابن سلام بذلك من أقدم من تكلم فى نقد الرواية اللغوية.

و الواقع أن الـذى يهم اللغويين بعـد حـديث الافتعال و الانتحال فى الشـعر و كذب بعض الرواة هو أن يثبتوا أن ما يحتجون به منسوب إلى الفترة التى يحتـج بأشـعار شـعرائها و بأقوال متكلميها، و ليس من الضـرورى عند اللغويين بعد ذلك تعيين القائلين بأعيانهم، و إنما ذلك بغيـة دارسـى الأدب، و هـذه الفترة قد اسـتقر العرف بين اللغويين على أن تمتد إلى منتصف القرن الثانى فى الرواية عن فصـحاء الحواضر، و إلى منتصف القرن الرابع فى الرواية عن أهل البادية.

و الواقع أنه إلى ذلك الحين لم يحظ نقد الرواية اللغوية و ما يتصل بها من (۱) ابن فارس: الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۰.

(۲) ابن سلام: مقدمة طبقات فحول الشعراء ص ۵، ۸، ۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۷

بحث الرواة و أحوالهم لمعرفة حقيقتهم جرحا و تعـديلا، و لم تحظ أسانيـد اللغة بدراسة اللغويين، و لم يكن نقد الرواية إلا عرفا متبعا غير مدوّن لا يبين عنه إلا نصوص متناثرة و ملاحظات قليلة فى كتب الأقدمين، فابن فارس يشير إلى اشتراط عدالة الرواة بقوله: «فليتحر آخذ اللغة و غيرها من العلوم أهل الأمانة و الثقة و الصدق و العدالة، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا» «۱».

و ابن جنى يتناول بعض ما يتصل بنقـد الروايـة فى كتابه الخصائص فيتحدث عما انفرد به واحد من أهل اللغة و حكمه «۲»، و سقطات العلماء يعنى أغلاط رواة اللغة «۳»، و ما يتصل به من تصحيف و تحريف، و صدق النقلة و ثقة الرواة و الحملة «۴»، و هو بمثابة تعديل لبعض ناقلى اللغـة كالأصـمعى و أبى زيـد و أبى عبيـدة و أبى حاتم و أبى الحسن الأخفش و الكسائى، و ما عدا ذلك فهو ملاحظات قليلة جدا تتصل بالرواية و نقدها.

و قـد حـاول ابن الأنبارى (۵۷۷ ه) أن يضع أصولا لنقـد الروايـة اللغويـة فاعتمـد فى محاولته على مصـطلح أهل الحـديث مقسـما اللغة كتقسـيم الحديث إلى متواتر و آحاد «۵»، ثم تحدث عن شـرط المتواتر فاشترط فيه نفس شـروط المحدّثين، و تحدث بنفس عباراتهم «۶» و تناول الآحاد فاشترط عدالة ناقل اللغة كما يشترط فى الحديث «۷»، و تناول بالبحث قبول نقل أهل الأهواء «۸»، و تناول الأسانيد فتحدث عن المرسل و المجهول «۹»، كما تناول الاجازة، ثم تحدث عن معارضة النقل بالنقل أى الترجيح بين الروايات «۱۰» و نلاحظ أن ابن الأنبارى قد اعتمد على ما وضـعه المحدّثون من مصـطلح بيد أنه لم يحاول أن يطبق ذلك على اللغة تطبيقا دقيقا حيث لم يكثر من الأمثلة لما وضع من أصول. (۱) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۰.

(۲) الخصائص ج ۲ ص ۲۱.

(۳) الخصائص ج ۳ ص ۱۵۸.

(۴) المصدر السابق ج ۳ ص ۳۰۹.

(۵) ابن الأنبارى: لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۸۳.

(۶) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ۸۴، ۸۵، انظر الكفاية للبغدادى ص ۱۶، ۱۷، و نخبة الفكر لابن حجر ص ۵.

(۷) لمع الأدلة ص ۸۵.

(۸) المصدر السابق ص ۸۶.

(۹) المصدر السابق ص ۹۰.

(۱۰) نفس المصدر ص ۱۳۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۸

و لا نكاد نجد بعد ابن الأنبارى من تناول نقد الرواية اللغوية علما له أصوله و أقسامه المحددة غير السيوطى، و كل ما قيل فيها قبل السيوطى عدا ما بيناه إنما هو أبحاث قليلة لبعض الأصوليين تناولوا فيها بعض الموضوعات، أو إشارات متناثرة للغويين مبثوثة فى ثنايا كتبهم، لذلك يعد ما قام به السيوطى عملا مبتكرا فقد استطاع أن يجمع شتات ما سبق به و أن يضم متفرقات شتى و يقيم منها أقساما لها كيانها، و يضع للغة منهجا متكاملا فى نقد الرواية لا يكتفى فيه بالجانب النظرى وحده بل يقوم بتطبيقه على ألفاظ اللغة و ما نقل منها بحيث يمكن أن نعد كتابه أهم كتاب وضع فى نقد الرواية اللغوية علما له أصوله و مصطلحاته، و تصنيف اللغة على أساس هذا العلم، فهى محاولة جمع فيها بين النظر و التطبيق. حاول السيوطى أن يضع مصطلحا للغة يضاهى مصطلح الحديث، و قد طبق أقسامه على اللغة، و سنبين إلى أى حد كان هذا المنهج مطابقا لواقع الدرس اللغوى.

و يتضح لنا مقدار الجهد الذى بذله من نظرتنا فى المباحث التى تناولها محاولا دراسة اللغة فى إطار منهج لنقد روايتها يضاهى منهج المحدثين بحيث إن الناظر فى مسرد عناوين الأقسام التى قسمها السيوطى و مسرد موضوعات كتاب فى مصطلح الحديث كمقدمة ابن الصلاح ليدرك مدى التشابه بينهما فى كثير من الأقسام.

و قد قسم السيوطى كتابه إلى خمسين قسما، كل مجموعة منها تتناول اللغة من جانب معين، فثمانية أنواع تناول فيها اللغة من حيث الإسناد و هى: الصحيح الثابت، و ما روى و لم يصح و لم يثبت، و المتواتر و الآحاد، و المرسل و المنقطع، و الأفراد، و من تقبل روايته و من ترد، و طرق الأخذ و التحمل، و المصنوع و هو الموضوع.

ثم تناول اللغة من ناحية ألفاظها فى ثلاثة عشر نوعا بيد أنه لم يحاول أن يدرج أبحاثها تحت مصطلحات المحدثين، و لذلك فبعض الأنواع يضاهى مباحث للمحدثين، و بعضها ليس لهم مباحث من قبيله، ثم تناول اللغة و ألفاظها من حيث المعنى فى ثلاثة عشر نوعا و نلاحظ فى دراسته لبعض هذه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۳۹

الأنواع اعتماده الكبير على الأصوليين نظرا لاهتمامهم ببحث المعنى.

و قد تناول لطائف اللغة و ملحها فى خمسة أنواع، و قد استغرقت الأبحاث السابقة الجزء الأول من الطبعة التى نعتمد عليها، و قد درس السيوطى ألفاظ اللغة و حاول ضبطها و حصر أبنيتها فيما سماه بالأشباه و النظائر، ثم عاد بعد ذلك لاكمال المنهج الذى وضعه لنقد اللغة على نمط منهج أهل الحديث، فتحدث عن آداب اللغوى فى مقابلة آداب المحدث عند أهل المصطلح «۱»، ثم كتابة اللغة و قد تحدث فيه عن تاريخ الكتابة عند العرب و فضل تعلمها ... إلى آخره، ثم تناول التصحيف و التحريف فى اللغة كما يفعل أهل الحديث «۲»، ثم الطبقات و الحفاظ و الثقات و الضعفاء و قد ألف المحدثون فى ذلك المطولات و المختصرات و بحثوه فى مصطلحهم «۳»، ثم الأسماء و الكنى و الألقاب و الأنساب التى تتصل أيضا بنقلة اللغة كما يفعل أهل الحديث «۴»، و المؤتلف و المختلف المتصل بنقلة اللغة كما يدرسه أهل الحديث متصلا بنقلتهم «۵»، و المتفق و المفترق «۶» و المواليد و الوفيات «۷»، و هذه المباحث تتصل برجال اللغة و رواتها.

و قد خصص السيوطى بعد ذلك قسما للحديث عن الشعر و الشعراء باعتبار الشعر يمثل جزء من مادة اللغة التى تنقل، و باعتبار الشعراء من قائلى اللغة الذين ينقل عنهم، و لم ينس أن يتناول أغلاط العرب فى آخر مباحثه.

و جدير بنا أن ننبه على أن كتاب السيوطى لم يقتصر على تقسيمات اللغة حسب منهج نقد الرواية الذى يحاكى مصطلح الحديث، بل إن كثيرا من الأقسام تتناول موضوعات لا تتصل بهذا المنهج لا سيما الموضوعات الثلاثة عشر التى تدرس اللغة من حيث المعنى و غيرها، كما أن بعض الموضوعات التى تناول فيها اللغة تحت أقسام أهل المصطلح احتوت كثيرا من الأبحاث اللغوية الهامة لا ينبئ عنوان البحث عنها كما فى القسم الأول: الصحيح من اللغة. و عدم (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۱۸.

(۲) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۴۰.

(۳) المصدر السابق ص ۱۹۳.

(۴) نفس المصدر ص ۱۶۴.

(۵) نفس المصدر ص ۱۷۲.

(۶) نفس المصدر ص ۱۷۹.

(۷) نفس المصدر ص ۷، ۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۰

التقيد بالتزام جميع عناصر منهج المحدّثين فى دراسة اللغة من الأمور التى نحمدها للسيوطى، إذ إنه يحاول أنه يعبر بذلك عن واقع الدّرس اللغوى الذى يختلف فى كثير من المواضع بلا شك عن دراسة الحديث الشريف.

و ليس التشابه بين منهج المحدثين و بين عمل السيوطى بحاجة إلى التدليل عليه أكثر مما ذكرنا، فقد صرح به فى مقدمته، بالإضافة إلى ما رأيناه من تشابه بين تقسيماته و بين تقسيمات أهل المصطلح.

بعد هذا التعريف بالمنهج الذى وضعه السيوطى ليكون مصطلحا لعلوم اللغة يجدر بنا أن نقوم الجهد الذى قام به فى تكوين منهجه و إقامة دعائمه و تطبيقه على اللغة، فإلى أى مدى وفق فى ذلك؟ و ما مدى مناسبة منهجه للواقع اللغوى؟. و نقد الرواية فى الحديث أو فى غيره من العلوم النقلية يتعرض لمرحلتين من النقد أولاهما: النقد الخارجى أو نقد السند، و هذه أهم المرحلتين، و قد حظيت ببحث مستفيض لدى المسلمين، و هى بالتالى يمكن أن يندرج البحث فيها تحت قسمين رئيسيين ترتد إليهما فروع البحث فى النقد و مصطلحاته، و أولهما: البحث فى الرواة جرحا و تعديلا و ما يتبع ذلك من معرفة تواريخهم و أحوالهم، و الآخر: البحث فى الأسانيد و اتصالها و عللها و ما يدخل فى ذلك من فروع.

أما المرحلة الثانية فهى النقد الداخلى أو نقد المتن، و هى تعنى بالترجيح بين الروايات المختلفة، و تتناول متون النصوص بالنقد، و لم يغفل تناولها أصحاب أصول الحديث، بيد أن العناية بها من عمل البيئات الاسلامية المختلفة التى تناولت النصوص لا سيما بيئات الفقهاء.

و لكنى نحدد دور السيوطى فى وضع منهج لنقد الرواية اللغوية سنبحث الموضوع حسب التقسيم السابق.

المرحلة الأولى: النقد الخارجى:

أ- رواة اللغة:

اشترط اللغويون منذ وقت مبكر العدالة فى راوى اللغة، و قد نقل عن

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۱

الخليل ما يشير إلى ذلك «۱»، كما كان لابن سلام ملاحظات نقدية هامة فى رواية الشعر اهتم فيها بوجوب تحرى من ينقل عنه و اشترط فيه العدالة و الضبط حيث أنكر على محمد بن إسحاق تحمله لكثير من الشعر، و عدم بصره به «۲»، و له ملاحظات هامة فيها يخص رواة الشعر، و قد حكى ابن سلام التزيد الذى أصاب رواية الشعر و دوافعه و بين أن أهل البصر بالشعر يستطيعون أن يميزوا صحيحه من منحوله، و إنما يشكل عليهم تميز ما زاده الرواة من أهل البادية.

و إذا كان هناك ما يحمل المولدين على الكذب لسبب أو لآخر فلقد صار من اللازم على اللغويين- و هم يبحثون عن الصحيح من اللغة- أن يشترطوا عدالة ناقل اللغة فابن فارس ينصح بذلك قائلا: «فليتحر آخذ اللغة و غيرها من العلوم أهل الأمانة و الثقة، و الصدق و العدالة، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا» «۳».

و يوضح ابن الأنبارى ذلك بقوله: «اعلم أنه يشترط أن يكون ناقل اللغة عدلا رجلا كان أو امرأة، حرا كان أو عبدا، كما يشترط فى نقل الحديث، لأن بها معرفة تفسيره و تأويله فاشترط فى نقلها ما اشترط فى نقله، و ان لم تكن فى الفضيلة من شكله، فان كان ناقل اللغة فاسقا لم يقبل نقله، و يقبل نقل العدل الواحد، و لا يشترط أن يوافقه فى النقل غيره» «۴».

و بالرغم من أن ابن الأنبارى قد اشترط عدالة ناقل اللغة و نص على أن ذلك مماثل لما يشترط الحديث فان موقف اللغويين بالنسبة لما يرويه أهل الأهواء أكثر تساهلا من موقف المحدّثين إذ يقرر ابن الأنبارى نفسه أن «نقل أهل الأهواء مقبول فى اللغة و غيرها إلا أن يكونوا ممن يتدين بالكذب كالخطابية من الرافضة، و ذلك لأن المبتدع إذا لم تكن بدعته حاملة له على الكذب فالظاهر (۱) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۰.

(۲) مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام.

(۳) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۰.

(۴) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۸۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۲

صدقه، و لهذا قال بعض أكابر العلماء: إذا قبلنا رواية أهل العدل و هم يرون أن من كذب فسق فكيف لا يقبل رواية الخوارج و هم يرون أن من كذب كفر، و الذى يدل على قبول نقلهم أن الأمة أجمعت على قبول صحيح مسلم و البخارى، و قد رويا عن قتادة و كان قدريا، و عن عمران بن حطان و كان خارجيا و عن عبد الرزاق و كان رافضيا» «۱».

و يتضح من هذا أن اللغويين يحاولون أن تكون شروطهم مماثلة لشروط المحدثين حيث يحتج ابن الأنبارى لقبول نقل أهل الأهواء فى اللغة بما فعله البخارى و مسلم، بيد أن هذا فى الحقيقة لا يطابق الواقع، إذ المحدثون أكثر تشددا فى الرواية و تحرى الرواة من اللغويين نظرا لطبيعة نقولهم التى تتصل مباشرة بالدين، و لتوفر الدوافع إلى الكذب فى الحديث أكثر من توفرها فى اللغة، و هناك أمر ثالث و هو طول الاسناد فى الحديث و كثرة الرجال الذين يحتاج نقاد الحديث إلى ضبطهم و معرفة أحوالهم، و الأمر فى اللغة يختلف عن ذلك فقد تساهل اللغويون فى البحث عن أحوال نقلة اللغة جرحا و تعديلا كما فعل المحدثون، و لا نكاد نجد محاولة جادة فى ذلك إلا عند أبى الطيب اللغوى فى كتابه «مراتب النحويين»، و إن كان هذا الكتاب فى ظاهره يبدو تعريفا بأئمة اللغة و رواتها. و قد أنكر الرازى على اللغويين هذا الاهمال، و برغم تعقب الأصبهانى له فإنه وافقه فى أنه كان من الواجب على اللغويين أن يبحثوا عن أحوال الرواة «۲»، و يحاول القرافى أن يجد عذرا لمسلك اللغويين بقوله: «إنما أهملوا ذلك لأن الدواعى متوفرة على الكذب فى الحديث بأسبابه المعروفة الحاملة للواضعين على الوضع، و أما اللغة فالدواعى إلى الكذب فيها فى غاية الضعف ... و لما كان الكذب و الخطأ فى اللغة و غيرها فى غاية الندرة، اكتفى العلماء فيها بالاعتماد على الكتب المشهورة المتداولة فإن شهرتها و تداولها يمنع من ذلك مع ضعف الداعية له، فهذا هو الفرق» «۳». (۱) المصدر السابق ص ۸۶- ۸۸.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۱۱۸، ۱۱۹.

(۳) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۱۹، ۱۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۳

و الواقع أن طبيعة اللغة تخالف طبيعة الحديث كما تبين، و لقد كان من الطبيعى أن يكون المحدثون أكثر تشددا فى الرواية، و قد كانوا أكثر بحثا فى أحوال الرواة من اللغويين برغم ما يزعمه بعض اللغويين من أن شروطهم فى نقلة اللغة مماثلة لشروط أهل الحديث، فلكل بيئة ميزانها النقدى الخاص بها، فحيث لا يقبل المحدثون أهل الأهواء الذين لا يؤمن كذبهم ينقل اللغويون عنهم لعدم توفر دواعى الكذب فى اللغة. كما أن نقد الرجال أنفسهم يختلف فى بيئة عنه فى الأخرى، و وضع نقلة اللغة فى ميزان أهل الحديث قد يجرّح أكثرهم، و لم يكن عجيبا ما قاله إبراهيم الحربى المحدث:

«كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة:

أبو عمرو بن العلاء و الخليل بن أحمد و يونس بن حبيب البصرى و الأصمعى» «۱»، ذلك أنه قد وزن ناقلى اللغة بميزان ناقلى الحديث.

تلك خلاصة الأبحاث التى سبقت السيوطى و تناولت رواة اللغة، و قد اتضح منها محاولة الباحثين فيها وضع شروط مماثلة لشروط المحدثين بيد أن الرواية اللغوية- فى واقع الأمر- كانت تجد تساهلا فى قبولها أكثر من رواية الحديث، و الأمر الثانى أن اللغويين لم يبحثوا فى أحوال نقلتهم جرحا و تعديلا كما فعل أهل الحديث باستثناء ما قام به ابن جنى، و مع ذلك فلم يتناول غير طائفة قليلة منهم بالتوثيق و أغفل الحديث عن سائر الرواة. و قد أنكر عليهم الرازى ذلك كما سبق، و اعترف بهذا التقصير القرافى بالرغم من تعقبه للرازى و اعتذاره عن اللغويين.

و من ثم فقد نصب السيوطى نفسه مدافعا عن اللغويين محاولا- أن يجد لديهم ما هوجموا بالتقصير فيه من بحث أحوال رواة اللغة فأجاب عن ذلك بأن «أهل اللغة و الأخبار لم يهملوا البحث عن أحوال اللغات و رواتها جرحا و تعديلا، بل فحصوا عن ذلك و بينوه كما بينوا ذلك فى رواة الأخبار، و من طالع الكتب المؤلفة فى طبقات اللغويين و النحاة و أخبارهم وجد ذلك، و قد ألف أبو الطيب اللغوى (۱) ابن الأنبارى: نزهة الألباء ص ۱۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۴

كتاب «مراتب النحويين» بين فيه ذلك، و ميز أهل الصدق من أهل الكذب و الوضع، و سيمر بك فى هذا الكتاب كثير من ذلك فى نوع الموضوع و نوع معرفة الطبقات و الثقات و الضعفاء و غيرها من الأنواع» «۱».

و الواقع أن المعتذرين عن تقصير اللغويين فى بحث أحوال الرواة بالنسبة لما فعله أهل الحديث قد أغفلوا أمرا هاما هو الفرق بين أسانيد الحديث و بين أسانيد اللغة، فأسانيد الحديث لا بد أن تصل إلى الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و يلزم البحث عن رواتها ابتداء من التابعين فمن دونهم حتى يصل الخبر إلى طبقة جامعى الأحاديث و مدوّنيه، و هذه الأسانيد كثيرة و مختلفة و نقلتها متعددون و طبقاتهم كثيرة مما يجعل رجال الحديث من الكثرة بحيث يلزم النقدة ضبطهم و معرفة أحوالهم، بينما الأمر فى اللغة يختلف، إذ إن أسانيد روايتها أقصر، بل ربما تقتصر على راو واحد نقل عن الأعراب أو عن غيرهم من الفصحاء الذين يوثق بعربيتهم كالأصمعى و أبى زيد و غيره أو رواية راو عن الأصمعى، و بالجملة فإن سلسلة الاسناد قصيرة فى الروايات اللغوية تجعل الرواة الذين ينبغى البحث عن أحوالهم عددا قليلا، و ذلك لأن المادة اللغوية الموثوق بها كانت إلى عهد التدوين لا تزال قائمة حية بالبادية كما أن الاحتجاج بفصحاء الحاضرة قد استمر إلى وقت متأخر نسبيا و هو منتصف القرن الثانى حيث ظهر التدوين، و قد وضع الخليل- فى ذلك الحين- أو شرع فى وضع كتاب العين ليجمع فيه المادة اللغوية.

و على أية حال فقد اتجه السيوطى- دفاعا عن اللغويين- إلى استدراك ما فاتهم من البحث عن أحوال الرواة محاولا ضمّ ما تناثر من ملاحظات لهم فى ذلك و جمع أخبارهم من كتب الطبقات و غيرها و وضع ذلك فى أقسام تحمل نفس الأسماء التى بحث تحتها

أهل الحديث رجالهم.

و أول هذه الأقسام التى تتناول الرواة الحديث عن آداب اللغوى و هو بحث لم يسبق السيوطى إليه فى بيئة اللغويين، و قد ترسم فيه خطى المحدثين فهم (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۵

يذكرون أن على المحدّث تصحيح النية و إخلاصها «۱»، و كذلك يبدأ السيوطى حديثه بأن يذكر أن أول ما يلزم اللغوى الاخلاص و تصحيح النية ثم التحرى فى الأخذ عن الثقات، و يمكن تلخيص ما ذكره السيوطى من هذه المبادئ التى يراها واجبة على اللغوى فيما يلى «۲»:

۱- الاخلاص و تصحيح النية.

۲- الدءوب و الملازمة.

۳- كتابة كل ما يراه و يسمعه فذاك أضبط له.

۴- الرحلة فى طلب الفوائد و الغرائب كما رحل الأئمة.

۵- العناية بحفظ أشعار العرب.

۶- التثبت فى الرواية.

۷- الرفق بمن يأخذ عنهم.

۸- عدم الافتاء بما لا يعلم و ليقل «لا أدرى».

۹- سؤال من هو أعلم إذا تعرض للسؤال الذى لا يعرفه.

۱۰- عزو العلم إلى قائله.

۱۱- الرجوع إلى الصواب.

۱۲- الرد على العلماء إذا أخطئوا.

۱۳- التثبت فى تفسير غريب القرآن و الحديث.

۱۴- التنبيه على الروايات المختلفة.

۱۵- الامساك عن الرواية عند الطعن فى السن.

۱۶- امتحان القادم لمعرفة درجته فى العلم.

و قد تحدث فى هذا الفصل أيضا عن الحافظ فى اللغة و وظائفه التى ينبغى عليه القيام بها و هى الاملاء و هى أعلاها، و قد أملى اللغويون القدماء أمثال ثعلب و ابن دريد و ابن الأنبارى و القالى و غيرهم و طريقتهم فى الاملاء كطريقة المحدثين. (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۱۹.

(۲) المزهر ج ۲ ص ۳۰۲- ۳۴۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۶

و هذا الفصل- فى الواقع- يعد من مبتكرات السيوطى فى ميدان اللغة فقد استطاع أن يستنبط مما جرى عليه عرف اللغويين و ما أفادته ملاحظاتهم المتناثرة و ما حكى عن أئمتهم من أخبار، مترسما خطى أهل الحديث، استطاع أن يستنبط مجموعة من المبادئ تكون بمثابة القوانين التى ينبغى أن يأخذ اللغوى بها نفسه، و هى جزء من المنهج الكبير الذى وضعه، و لذلك نلاحظ عليه فى هذا الفصل صوغ هذه الأحكام بقلمه ثم ذكر ما يعضدها أو يسندها من آثار أو أخبار.

ثم تحدث عن كتابة اللغة «۱»، لصلتها بما يجب على الرواة، بيد أنه بحثها من حيث تاريخها و الأخبار التى وردت فيها، و تناول بعد

ذلك مباشرة «التصحيف و التحريف» «۲» و بحثه بحثا متقنا، و قد وضعه بين ما يخص رجال اللغة لأن سبب التصحيف و التحريف أساسا هو أخذ اللغة عن الصحف و المنهج الصحيح فى تلقى اللغة أن تؤخذ سماعا و يحفظها الناقل عن شيخه، و يستعين بالكتابة فى ضبط ما حفظ، و لا يجب أن يستغنى بالكتابة عن الحفظ.

و قد عنى بهذا المبحث المحدّثون لكثرة ما عرض لهم من التصحيف حتى أفرده بعضهم بالتأليف منذ القدم، و نبه عليه ابن الصلاح فى مقدمته «۳»، و من ثم فقد بحثه السيوطى مطبقا إياه على نصوص اللغة معتمدا على ما ورد بالكتب السابقة من أقوال تخص الموضوع، و قد أورد عددا كبيرا من الأمثلة لما صحفه رواة اللغة شعرا و نثرا، و الواقع أن هذا المبحث من أهم المباحث التى تتصل بنقد الرواية اللغوية، و قد وفاه السيوطى حقه لما له من خطورة فى إمكان دخول ألفاظ غير صحيحة إلى اللغة لا سيما إذا كان التصحيف فى الألفاظ الغريبة التى ينفرد بروايتها بعض اللغويين.

ثم تناول بعد ذلك: الطبقات و الحفاظ و الثقات و الضعفاء «۴»، أما الطبقات (۱) المزهر ج ۲ ص ۳۴۱.

(۲) المزهر ج ۲ ص ۳۵۳.

(۳) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۴۰- ۱۴۳، انظر ابن حجر: شرح نخبة الفكر ص ۵.

(۴) المزهر ج ۱ ص ۳۹۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۷

فقد سبق لكثير من اللغويين أن صنفوا فيها، و قد نص السيوطى على ذلك، بيد أن البحوث السابقة لم تتناول الطبقات من زاوية النقد للرواية اللغوية فلم تهتم بالحديث عن رجال اللغة جرحا و تعديلا بقدر ما كانت تهدف إلى التعريف المجمل بهم، كما أن بحث السيوطى للرواة مقسمين إلى حفاظ و ثقات و ضعفاء لم يسبق إليه فى ميدان اللغة ببحوث مستقلة، و إنما كان ما سبقه عرفا جاريا بين اللغويين غير مكتوب، أو شذرات متناثرة و أقوالا متفرقة باستثناء ما قام به أبو الطيب اللغوى فى كتابه الذى وثق فيه كبار رجال اللغة كأبى عمر بن العلاء و أبى زيد و أبى عبيدة و غيرهم، و لذلك اعتمد السيوطى فى بحثه اعتمادا كبيرا على كتاب المراتب فنقل كثيرا من صفحاته الخاصة بتوثيق كبار الرواة و هى التى تناول فيها أبو الطيب التعريف بأئمة اللغة و نقلتها ابتداء من أبى الأسود و تلامذته و أبى عمرو إلى ابن قسطنطين، و قد وثق أبو الطيب جماعة كثيرة من رجال اللغة و ضعف آخرين، و قد لخص عنه السيوطى بطريقته التى سبق بيانها أخبار عدد منهم ينيف على الستين من رجال اللغة على ترتيبهم الزمنى الذى راعاه أبو الطيب.

و قد أتبع ما نقله عن كتاب المراتب بنقل آخر عن الخصائص لابن جنى الذى تحدث فيه تحت عنوان «صدق النقلة و ثقة الرواة و الحملة» «۱»، حيث وثق رواة اللغة الأولين و أثنى عليهم، فبين صدق أبى عمرو بن العلاء و تحرجه فى الرواية، و صدق الأصمعى و ما عرف عنه من شدة تحرج فى الرواية، و كذلك حال أبى زيد و أبى عبيدة و أبى الحسن و الكسائى و أضرابهم، و قد أفاض ابن جنى فى الحديث عنهم نافيا كل ظنة و مبينا ما اتصفوا به من خلق قويم، و ما كانوا عليه من الثقة و الأمانة و الصدق.

و قد نقل السيوطى هذا المبحث بفصه و نصه هنا و قرنه بما نقله عن أبى الطيب، فهذا الفصل اعتمد فيه على هذين النقلين، و ليس له فيه غير ما علق به على عبارة لأبى الطيب فى نقد أبى عبيد صاحب الغريب المصنف حيث ذكر (۱) الخصائص ج ۳ ص ۳۰۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۴۸

الأول أنه لم يسمع من أبى زيد، فذكر السيوطى أن صاحب الغريب المصنف قد صرح بسماعه من أبى زيد فى كتابه «۱».

و يبدو أنه باقتصاره على ما نقل عن سابقيه كان يريد أن يبين كما بين من قبل فى دفاعه عن اللغويين أنهم قد اهتموا ببحث رجال اللغة جرحا و تعديلا كما فعل المحدّثون، و بالرغم من أن السيوطى لم يضف إلى سابقيه شيئا يذكر فإن وضعه لهذين النقلين تحت عنوانه السابق الذى يضاهى مباحث المحدثين فيه شىء من الجدة و الابتكار.

و كان على السيوطى إكمالا للمنهج الذى يحاول إقامته و ترسما لخطى أهل الحديث فى بحث رجالهم أن يخصص للأسماء و الكنى

و الألقاب و الأنساب جانبا من كتابه، و كذلك فعل فى النوع الخامس و الأربعين «۲»، و لم يقتصر على رواة اللغة و نقلتها بل جعل قسما لهم و آخر لشعراء العرب الذين يحتج بهم فى العربية، و لم يسبق السيوطى بمثل هذا المبحث فى ميدان اللغة فهو من مبتكراته فيها، إذ إن البحث فى الأسماء و الألقاب و الكنى قد عنى به المحدثون فيما يتصل برواة الحديث، و لهم فى ذلك مصنفات و قد بينوا أهميته فى نقد الرواية و تمحيصها، كما تناولوه فى كتب أصول الحديث «۳» أما فى اللغة فلا نعرف من سبق السيوطى بافراد هذا الموضوع بالبحث، و قد قسم السيوطى هذا المبحث إلى أربعة فصول تحدث فى أولها عمن اشتهر بكنيته أو لقبه أو نسبه، و قسم الأول إلى قسمين أولهما يتصل بأئمة اللغة و النحو فأخذ يسردهم ابتداء من أبى الأسود حتى انتهى إلى رضى الدين الصغانى وعدتهم تنيف على سبعين علما من أشهر رجال اللغة، ثم تناول فى القسم الثانى شعراء العرب الذين يحتج بهم فى العربية فبدأ بامرئ القيس و انتهى بالعجاج فذكر أربعة عشر ممن غلبت عليه كنيته أو لقبه أو نسبه، و خصص الفصل الثانى لبيان كنية من اشتهر باسمه أو لقبه أو نسبه، و تناول فيه رجال اللغة ثم شعراء العرب، و فى الثالث بحث (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۱۲.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۱۸.

(۳) انظر مقدمة ابن الصلاح ص ۱۶۲- ۱۷۲.

الألقاب و أسبابها فتناوله أيضا فى قسمين أولهما لرجال اللغة و النحو و الآخر لشعراء العرب، و فى الفصل الرابع تحدث عن الأنساب و أنواعها فالمنسوب إلى القبيلة صريحا كأبى الأسود أو ولاء كسيبويه، أو إلى بلد أو وطن أو إلى جد له، أو إلى لباسه، أو إلى اسمه أو اسم أبيه، و نحو ذلك.

و الحق أن السيوطى قد أحسن فى ترتيب هذا البحث و تصنيفه، و قد كان البحث اللغوى بعامة و البحث فى نقد الرواية بخاصة مفتقرا إلى ما قام به.

ثم تناول «المؤتلف و المختلف» «۱»، من الأسماء، و هو ما يعنى به أهل الحديث زيادة فى التعريف بأسماء الرواة، و احتياطا من اللبس، و قد حظى فى بيئة المحدثين بعناية بالغة، و صنفت فيه مصنفات مفردة منذ وقت مبكر، و قد عقد له ابن الصلاح فصلا فى كتابه حدده فيه بأنه «ما يأتلف فى الخط صورته و يختلف فى اللفظ صيغته» «۲»، و نبه على أهميته قائلا إن «من لم يعرفه من المحدّثين كثر عثاره، و لم يعدم مخجلا» «۲».

و قد تناول السيوطى هذا المبحث فى أقسام ثلاثة أولها فى أسماء رجال اللغة حيث سرد ثمانية أمثلة تتضمن ستة عشر رجلا يتشابه كل اثنين فى صورة الاسم و يختلفان فى صيغته و نطقه مثل الأبذى و الأندى، و الأنبارى و الأبيارى، و الزجّاجى و الزّجاجى ... إلى آخره و قد ضبط هذه الأسماء و ذكر أسماء أصحابها، و لا نكاد نظفر بمن اهتم قبل السيوطى ببحث أسماء اللغويين من هذه الزاوية، و إنما حدث ذلك فيما يخص رجال الحديث و الشعراء و القبائل، و لهذا فإنه لم ينقل فى ذكره لهؤلاء الرجال عن كتب سبقته، و قد كان حريصا كعادته على ذلك إذا وجد من سبقه إلى طرق هذا الميدان، و حين تناول شعراء العرب فى هذا المبحث نقل عن كتاب «المؤتلف و المختلف» للآمدى مثالا- واحدا، و فيما يتعلق بالقبائل نقل كثيرا من الأمثلة عن كتب السابقين كأمالى القالى و صحاح الجوهرى، و أكثر من النقل عن كتاب «متشابه القبائل» لمحمد بن حبيب الذى (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۴۷.

(۲) ابن الصلاح المقدمة ص ۱۷۲- ۱۷۹.

استوفى صاحبه بحث الموضوع من قبل، و البحث فى الأسماء و تشابهها و اختلافها و محاولة ضبط ذلك قد جعل المحدثين يعنون إلى جانب ما سبق مما يتصل بضبط الأسماء و صورتها بشىء قريب من ذلك و هو الاشتراك فى الأسماء و الألقاب و الكنى و الأنساب، فى جميعها أو فى بعضها، و هنا تبحث الأعلام التى تتفق فى الاسم و تختلف فى الأشخاص، أو الذين تتفق كناهم أو ألقابهم

أو مجموع ذلك مع افتراق أشخاصهم، و هو يختلف عن سابقه لأن الاتفاق هناك فى صورة الخط و الافتراق فى اللفظ فهو يأتلف شكلا و يختلف لفظا أو نطقا، أما هذا فيتفق خطا و لفظا و يفترق من ناحية المسمّى أو المكنّى أو الملقب و قد اصطلح على تسمية هذا البحث «بالمتفق و المفترق» «۱».

و لم يسبق السيوطى فى ميدان اللغة بالعناية بهذا المبحث إلا فيما يتعلق بأسماء القبائل التى أفرد لها ابن حبيب من قبل كتابا، و قد تناول السيوطى ما يتعلق بأئمة اللغة و النحو ثم شعراء العرب ثم القبائل فذكر- مثلا- أن الأخفش اسم يطلق على أحد عشر نحويا، عدّد أسماءهم، و أن سيبويه أربعة عددهم، ...

إلى آخر ذلك «۲». و قد اختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات منها أن النحاة إذا أطلقوا أبا عمرو فمرادهم ابن العلاء، و أن البصريين إذا أطلقوا أبا العباس فالمراد به المبرد، و إذا أطلقه الكوفيون فمرادهم ثعلب، و حيث أطلق النحويون الأخفش فالمراد الأوسط فإن أرادوا الأكبر أو الأصغر قيدوه «۳». ثم تحدث عما يتعلق بشعراء العرب فذكر جماعة كثيرة من الشعراء يسمون بامرئ القيس، و ذكر النوابغ الأربعة، و من يشترك فى لقب الأعشى، و من اسمه الطرماح و نصيب، و قد اعتمد فيما أورد عما يتعلق بالقبائل على كتاب متفق القبائل لمحمد ابن حبيب.

و التعرف على الرجال يقتضى معرفة تواريخهم فى الميلاد و الوفاة لما لذلك من أهمية كبيرة فى معرفة طبقاتهم و رواية بعضهم عن بعض، و تمييز ما قد يحدث فى (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۷۹.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۵۳- ۴۵۵.

(۳) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۵۵- ۴۵۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۱

بعض الأسانيد من سقط أو إرسال، و إظهار كذب بعض الرواة، و قد قال نقاد الرواية من المحدثين: «إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين» «۱»، أى سنه و سن من كتب عنه، و قد تبين لبعض نقاد الحديث زيف بعض الرواة بحساب التواريخ، و لذلك نبهوا على ضرورة العناية بمعرفة مواليد و وفيات رجالهم «۲».

و كما بحث رجال الحديث تواريخ رواتهم فإن السيوطى الذى يطبق منهجهم على اللغة قد تناول هذا الموضوع إتماما منه لعمله السابق الخاص برجال اللغة حتى يكون بذلك قد تناول هؤلاء الرجال من جميع الجوانب التى يتناولها أهل الحديث فى بحث أحوال رواتهم، و على ذلك الأساس أفرد فصلا لبحث «المواليد و الوفيات» «۳»، من رجال اللغة سرد فيه أسماء خمسة و سبعين من أئمة اللغة و النحو، و اقتصر على بيان ميلاد كل منهم و وفاته، أو وفاته فقط إن لم يكن ميلاده معروفا أو متفقا عليه، و قد ابتدأ بأبى الأسود الدؤلى (۶۹ ه)، و انتهى بالفيروزآبادى صاحب القاموس (۸۱۶ ه).

و بالرغم من أن كتب الطبقات قد بينت ذلك من قبل السيوطى فإن تناول الرجال من هذه الزاوية التى تهدف إلى ضبط تواريخهم يعد أمرا جديدا فيما يخص الدرس اللغوى حاول به السيوطى أن يستكمل ما فات اللغويين من قبل حتى يتكون من مجموع هذه الأبحاث منهج متناسق متكامل فى نقد الرواية اللغوية يضاهى منهج أصحاب الحديث. و إذا كنا قد بحثنا ما قام به السيوطى من دراسات تتصل برجال اللغة و رواتها فإن علينا أن نتناول القسم الثانى و هو الخاص بالأسانيد لنرى ما قام به.

ب- الأسانيد:

و البحث فى الأسانيد يشكل الشق الآخر لمنهج نقد الرواية سواء أ كان فى الحديث أم فى اللغة أم فى غيرهما من العلوم النقلية، و جوانب البحث فى (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۱۹۰.

(۲) المصدر السابق ص ۱۸۹- ۱۹۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۴۶۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۲

الأسانيد عديدة، منها ما يعنى باتصال السند و يتفرع عن ذلك المرسل و المجهول و المنقطع، أو ما يعنى بالترجيح بين الروايات و بيان عددها و يتفرع عن ذلك المتواتر و الآحاد و الأفراد، أو ما يعنى بكيفية الرواية و هو ما يعرف بطرق الأخذ و التحمل و يتفرع عن هذه بعض البحوث الأخرى.

و الواقع أن البحث فى الأسانيد قد حظى لدى المحدّثين بعناية بالغة، و عرفت مصطلحات متنوعة لكل قسم من الأقسام منذ وقت مبكر بحيث قسموا الحديث باعتبار الاسناد إلى صحيح و حسن و ضعيف، و قسموا الأسانيد باعتبار اتصالها إلى متصل و مرفوع و موقوف و مقطوع و منقطع و مرسل و معضل، و باعتبار مقارنة الأحاديث بعضها ببعض نجد الشاذ و المنكر إلى غير ذلك، ثم هناك البحث فى طرق الأخذ و التحمل و صيغها، و بيان من تقبل روايته و من ترد و غير ذلك من المصطلحات.

أما فى اللغة فإن الأمر لم يكن يتجاوز عرفا بين اللغويين غير مكتوب، و ليس ذلك بغريب فقد وضعت أصول الفقه بعد ظهور أئمة الفقهاء و كان منهجهم عرفا يحرصون عليه و هو عرف غير مكتوب، و كذلك وضعت أصول رواية الحديث بعد فترة غير قليلة ظهر فيها كثير من أئمة الرواة الذين حرصوا على آداب خاصة فى الرواية و التزموا منهجا محددا و إن لم يكن مكتوبا، و استطاع واضعو الأصول بعد ذلك أن يستخلصوا من أقوالهم و أفعالهم منهجا محددا انتهى به الأمر إلى أن أصبح مصطلحات دقيقة محددة المعالم، و طريقا بينا واضحا، و كذلك الأمر فى الرواية اللغوية، كانت أصولها عرفا لدى أئمة اللغة لم يعمد أحدهم إلى بحثها و وضعها فى قواعد محددة، و إنما هى أصول راعوها فى التطبيق إلى حد كبير بحيث يمكن أن تستخرج الأطر النظرية من واقع مسلكهم العملى، ذلك أن القدماء بصفة عامّة تقلّ عنايتهم بالتنظير، و لذا كانت البحوث النظرية عن الرواية اللغوية و نقدها لديهم قليلة، و قد بينت من قبل ما كان لديهم فيما يتصل بالرواة قبل السيوطى، و فيما يخص الأسانيد و بحثها لا نجد إلا بعض ملاحظات متناثرة لدى ابن فارس و أخرى لدى ابن جنى و لا نجد من عنى بها عناية فعلية غير ابن الأنبارى الذى بحث اتصال الاسناد فعقد فصلا تحدث فيه

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۳

عن المرسل و المجهول «۱»، و المرسل «هو الذى انقطع سنده كأن يروى ابن دريد عن أبى زيد، و المجهول هو الذى لم يعرف ناقله نحو أن يقول أبو بكر بن الأنبارى حدثنى رجل عن ابن الأعرابى» «۱»، و قد اشترط ابن الأنبارى اتصال السند، و لذلك فهو يرفض قبول المرسل و المجهول، و بالرغم من ذلك فإن حديثه يوضح ميل غيره إلى قبوله، كما تناول المتواتر و الآحاد «۳»، و تحدث عن شروط المتواتر «۴»، و شروط الآحاد «۵»، و تناول الاجازة و جواز قبولها «۶».

و نجد من الأصوليين من تناول التواتر و الآحاد فى اللغة، و على ذلك فإن البحث فى الأسانيد فى ميدان اللغة لم يحظ باهتمام كبير قبل السيوطى، و قد حاول من خلال الأنواع الثمانية التى تناولها فى أول كتابه و وضع لها نفس مصطلحات أهل الحديث أن يستدرك ما فات البيئة اللغوية من هذه الأبحاث التى عنى بها أصحاب أصول الحديث، و التى تلزم لبناء منهج متكامل لنقد الرواية اللغوية.

و أول هذه الأنواع: «الصحيح أو الثابت و المحفوظ» «۷»، و قد وضع المؤلف هذه التسمية محاكيا ما يريده المحدثون عند تناولهم الصحيح حيث يذكرون الكتب التى عنيت بصحيح الحديث و غير ذلك، و لما كان الصحيح من اللغة يمثل غالبها فإن السيوطى قد فرع هذا النوع إلى عديد من الأبحاث اللغوية التى تتناول اللغة و نشأتها و الطريق إلى معرفتها، مما يبدو بعيد الصلة عن العنوان الذى وضعه لهذا الفصل إلا إذا كان اعتباره بحث ما صحّ من اللغة من وجوه متنوعة، و نأخذ عليه أيضا أنه لم يبدأ بتعريف الصحيح فى اللغة كما يفعل المحدثون فى تعريف الصحيح عندهم إذ إن الصحيح من اللغة فى رأينا أعم من أن يشمله تعريف أهل الحديث المقيد بالشروط و قد أحس السيوطى بأنه لم يضع حدا للصحيح فى اللغة عند بداية الموضوع و لذلك فقد وضع هذا الحد فى ثنايا حديثه عن مأخذ اللغة فعرف الصحيح بأنه «ما اتصل سنده بنقل العدل (۱) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۹۰.

(۳) المصدر السابق ص ۸۳.

(۴) نفس المصدر ص ۸۴.

(۵) نفس المصدر ص ۸۵.

(۶) نفس المصدر ص ۹۲.

(۷) المزهر ج ۱ ص ۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۴

الضابط عن مثله إلى منتهاه على حد الصحيح من الحديث» «۱».

و تناول فى النوع الثانى «ما روى من اللغة و لم يصح و لم يثبت»، و ذكر أنه «يقابل النوع الأول الذى هو الصحيح الثابت، و السبب فى عدم ثبوت هذا النوع عدم اتصال سنده لسقوط راو منه أو جهالته أو عدم الوثوق بروايته لفقد شرط القبول فيه» «۲»، و قد مثل له بعدد من الأمثلة التى نقلها عن جمهرة ابن دريد و الغريب لأبى عبيد و الصحاح و التهذيب و غيرها، مما يتبين منه ما قلناه من أن المنهج النقدى للرواية كان عرفا متبعا لدى اللغويين و إن لم يحظ بتنظير كاف، و قد حاول السيوطى فى هذا المبحث و غيره أن يضع الأصول النظرية إلى جوار التطبيق العملى.

و حين بحث المتواتر و الآحاد مسبوقا كما ذكرنا بابن الأنبارى اعتمد فى الجانب النظرى على سابقه، ثم نقل الاشكالات على التواتر عن الرازى، و الأجوبة عليها للرازى و شراحه كالأصبهانى و القرافى، و قد سبق أن أشرنا إلى بعض ما ناقشه هؤلاء حين تحدثنا عن إهمال اللغويين البحث فى رواتهم جرحا و تعديلا، و دفاع السيوطى عنهم، و تجنبا للإطالة فإننى أكتفى بالاحالة إلى ما نقله السيوطى من إشكالات على التواتر و الآحاد فيما يخص اللغة و روايتها و الاجابة عن هذه الاشكالات «۳»، و تعد هذه المناقشات التى نقلها السيوطى عن الأصوليين من أهم ما كتب فى نقد الرواية اللغوية، و قد ختم السيوطى مبحثه بذكر عدد كبير من الأمثلة «مما تواتر على ألسنة الناس من زمن العرب إلى اليوم و ليس هو فى القرآن» «۴». و بهذا المجهود يعد الفصل الذى عقده السيوطى أكمل البحوث اللغوية فى الموضوع حيث استوفى فيه أقوال السابقين و طبقها على اللغة بالأمثلة و زاد عليها بإدلاء رأيه فى بعض الأحيان.

و كان على اللغويين نتيجة اشتراط اتصال السند أن يبحثوا الأسانيد التى سقط (۱) المزهر ج ۱ ص ۵۸.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۱۰۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۱۱۵- ۱۲۰.

(۴) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۲۰- ۱۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۵

من رواتها راو أو أكثر، و قد تناول المحدثون من قبل هذا المبحث فذكروا أن الارسال «هو رواية الراوى عمن لم يعاصره أو لم يلقه» «۱»، و لم يفرق الخطيب البغدادى بين المرسل و المنقطع بيد أن بعض المحدثين قد فرقوا بينهما حيث جعلوا المرسل خاصا بالتابعى أى ما سقط الصحابى من إسناده «۲»، و المنقطع «الذى فيه قبل الوصول إلى التابعى راو لم يسمع من الذى فوقه» «۳»، و هو نوعان: ما لم يذكر الساقط فيه معينا و لا مبهما، و ما ذكر فيه بعض الرواة بلفظ مبهم كرجل و شيخ أما ما سقط من رواته اثنان فصاعدا و هو من أنواع المنقطع فيسمونه المعضل «۴».

و قد تناول أهل المصطلح هذه الأنواع بالبحث و حدث بينهم الخلاف فى قبول الأخبار التى ترد و فى إسنادها نوع من أنواع الانقطاع السابقة، و ذهب أكثرهم و منهم الخطيب إلى عدم قبول المرسل، أى كل ما به انقطاع فى إسناده، و لو كان الذى أرسله ثقات التابعين أو من الصحابة أنفسهم «۵».

و من قبل السيوطى تناول ابن الأنبارى اتصال السند فى بحثه للمرسل و المجهول «۶»، و الجدير بالذكر أن السيوطى تحدث عن

المرسل منفصلا عن حديثه عن المجهول على نحو ما يفعل أهل الحديث الذى يذكرون المجهول بصدد بحثهم فيمن تقبل روايته و من ترد «۷»، و يبدو من بحث ابن الأنبارى أن اللغويين يقفون موقفا يبدو فيه الاضطراب و التردد بالنسبة للمرسل و إن جزم ابن الأنبارى بعدم قبوله، و قد تناول السيوطى هذا المبحث تحت عنوان «المرسل و المنقطع» «۸»، و نلاحظ أنه لا يفرق بين المرسل و المنقطع كما حدث عند بعض (۱) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الرواية ص ۳۸۴.

(۲) مقدمة ابن الصلاح ص ۲۵.

(۳) المصدر السابق ص ۲۷.

(۴) المصدر السابق ص ۲۸.

(۵) الكفاية فى علم الرواية ص ۳۸۷.

(۶) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۹۰.

(۷) مقدمة ابن الصلاح ص ۵۳ ضمن مبحث من تقبل روايته و من ترد روايته ص ۴۹ و ما بعدها، المزهر ج ۱ ص ۱۴۱ ضمن مبحث من تقبل روايته و من ترد.

(۸) المزهر ج ۱ ص ۱۲۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۶

المحدثين، و إنما هما عنده اسمان لمسمى واحد حيث لم ينقل غير تعريف المرسل عن ابن الأنبارى و لم يعرف المنقطع، و كأنه بذلك يتبع الخطيب البغدادى و بعض المحدّثين الذين لم يفرقوا بينهما، و قد أورد السيوطى أقوال ابن الأنبارى فى المرسل ثم أتبعها بكثير من الأمثلة لمراسيل الروايات عن كتب اللغة، و لم يطل فى هذه الأمثلة، و لم يبد تعليقات على أقوال ابن الأنبارى و كأنه بذلك يكتفى بأن يقف مثل موقف سابقه.

ثم أفرد بعد ذلك مبحثا للأفراد «۱»، كما يفرد المحدثون له فى كتبهم «۲»، و قد حدّه و بين حكمه بقوله: «و هو ما انفرد به واحد من أهل اللغة، و لم ينقله أحد غيره، و حكمه القبول إن كان المتفرد به من أهل الضبط و الاتقان كأبى زيد و الخليل و الأصمعى و أبى حاتم و أبى عبيدة و أضرابهم، و شرطه ألا يخالفه فيه من هو أكثر عددا منه» «۳».

و لا نكاد نظفر لدى اللغويين قبل السيوطى بمثل هذا التحديد للأفراد، و بيان حكمها و شرط قبولها و إنما الذى نجده هو ما ينصون عليه فى كتبهم من تفرد أحد الرواة بلفظة معينة أو بعبارة من العبارات. فللسيوطى فى هذا المبحث فضل السبق فى تحديده و بيانه، ثم له فضل جمع ما تفرق فى كتب اللغة من أمثلة ما تفرد به الرواة و ذكرها مجموعة منسقة، فهو يمثل لأفراد أبى زيد ثم لأفراد الخليل ثم يونس، و هكذا. و ينبغى أن نشير إلى ملاحظة هامة هى أن اعتبار الأفراد إنما يكون بالنسبة إلى رواة اللغة كأبى زيد و الأصمعى و الخليل و أضرابهم، و هذا يخالف ما يتفرد به بعض القائلين الذين هم حجة فى اللغة، فهذا النوع الأخير هو ما تناوله ابن جنى ممثلا له بما انفرد به ابن أحمر الباهلى من ألفاظ لم تسمع من غيره من العرب «۴»، و على هذا فإن بحث الأفراد باعتبار الاسناد لم يتناوله ابن جنى. (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۲۹، النوع الخامس.

(۲) مقدمة ابن الصلاح ص ۴۱.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۱۲۹.

(۴) الخصائص ج ۲ ص ۲۱- ۲۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۷

و فى الفصل التالى تناول السيوطى- على طريقة أهل الحديث- بحث من تقبل روايته و من ترد «۱»، و نلاحظ أنه تناول نفس العناصر التى يبحثها أهل الحديث فى هذا الموضوع «۲».

و لما كان مسبوقا هنا ببعض الملاحظات و الدراسات التى قام بها اللغويون السابقون كابن فارس و ابن الأنبارى و غيرهما فإنه قد جمع فى هذا الفصل ما سبقه من هذه الأقوال، و ضم إليها ما رآه مناسبا من الأمثلة التى استخرجها من كتب اللغة. و يعد هذا الفصل من أقيم الفصول التى كتبها السيوطى فيما يتصل بنقد الرواية اللغوية بصفة عامة فقد بين أن العدالة شرط فى نقد اللغة، و أن نقل العدل الواحد يقبل و لا يشترط أن يوافقه فى النقل غيره، و نجد بعد ذلك ملاحظة هامة لاحظها بعض اللغويين و أكدها و بينها السيوطى و هى التفرقة فى اللغة بين ناقلها و بين قائلها، فالعدالة تشترط فى الناقل و لا تشترط فى القائل و لذلك اعتمد على أشعار العرب الجاهليين و هم كفار، كما أخذت اللغة عن الصبيان بل و عن المجانين ممن خلصت عربيتهم.

و قد وقف اللغويون من المجهول موقفا يماثل موقف المحدثين فى عدم قبوله، و المجهول هو الذى لا يعرف ناقله، أما الذى لا يعرف قائله فيختلف عن ذلك حيث يصح قبوله إذا نقله العدل، و من أمثلته خمسون بيتا أوردها سيبويه لا يعرف قائلوها و ليست من قبيل المجهول باعتبار الناقل، و قد وقع بعض اللغويين فى هذا الخلط بين المجهول ناقله و بين المجهول قائله «۱».

كما عرض السيوطى لمسألة التعديل على الابهام التى لم يقبلها كثير من أهل الحديث «۲»، حيث اشترطوا ضرورة تسمية الرواة حتى يمكن معرفتهم جرحا و تعديلا و لا يكتفى بتعديل من يروى عنهم، بيد أن التعديل على الابهام قد وقع كثيرا فى كتب أئمة اللغويين كسيبويه الذى كثيرا ما يذكر: «أخبرنى الثقة، أو حدثنى من أثق بعربيته دون أن يسمى المنقول عنه، و كتاب سيبويه مقبول موثق عند الجمهور، و هذا يدل على ما سبق أن لاحظناه من وجود بعض (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۴۱، ۱۴۲.

(۲) الخطيب البغدادى: الكفاية ص ۳۷۳، ۳۷۴، مقدمة ابن الصلاح ص ۵۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۸

التساهل فى الرواية اللغوية. و يذكر السيوطى أن الشك فى المنقول عنه يسقط الاحتجاج بالمنقول، و كذلك جهل عدالة أحد الراويين إذا قال: أخبرنى فلان و فلان.

و هكذا فقد استطاع السيوطى ترسما لخطى المحدثين و استقصاء لأقوال اللغويين السابقين أن يعرض هذا البحث عرضا واضحا و أن يمثل بالأمثلة المناسبة من اللغة، و أن ينبه على بعض الملاحظات الدقيقة التى تراعى فى اللغة و لا نجدها لدى أهل الحديث.

و يتصل ببحث الأسانيد عند أهل الحديث بيان كيفية سماع الحديث و تحمله و ضبطه «۱» و يتفرع عنه بيان طرق نقل الحديث و تحمله، و قد بحث الخطيب هذه الطرق و الصيغ فذكر أن «سمعت» هى أرفع هذه العبارات، و بين كيفية استعمال النقلة لهذه الصيغ و دلالاتها عندهم، و عرضه يبين إلى حد كبير تطور هذه العبارات إلى أن كادت تستقر مصطلحات لها حدودها المعلومة فى بيئة المحدثين «۲»، و قد حصرها ابن الصلاح فى ثمانية أقسام أولها السماع من لفظ الشيخ بما ينقسم إليه من إملاء أو تحديث بغير إملاء و تناول هنا صيغ التحمل مرتبة حسب التمكن فى السماع، فأعلاها «سمعت» ثم «حدثنا» و «حدثنى» ثم يتلو ذلك «أخبرنا» ثم يتلوه «أنبأنا» و «نبأنا» و أقل العبارات «قال فلان أو ذكر فلان».

و فى ترتيب هذه الصيغ و الاحتجاج بها بعض الخلاف بين أهل الحديث بيد أن العرف الذى يكاد يستقر عليه غالب المحدثين هو ما ذكرنا «۳».

و القسم الثانى القراءة على الشيخ أو ما يسمى بالعرض «۴»، و ما يتصل به من صيغ تقال فيه «۴»، و الثالث الاجازة بأنواعها «۶»، خاصة كانت أو عامة و الخلاف (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۶۰.

(۲) الكفاية فى علم الرواية ص ۲۸۲ و ما بعدها.

(۳) مقدمة عين الصلاح ص ۶۲- ۶۴.

(۴) مقدمة ابن الصلاح ص ۶۵، الكفاية ص ۳۰۲.

(۶) الكفاية ص ۳۱۱، المقدمة لابن الصلاح ص ۷۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۵۹

حول قبولها و العمل بها، فالخطيب ممن يرون قبولها بجميع أنواعها، و قد حكى بعض الخلاف فى قبولها، بينما أورد ابن الصلاح كثيرا من الأقوال فى عدم قبولها من قبل كثير من علماء الحديث.

و القسم الرابع المناولة «۱»، و ما يقال فيها من عبارات، و الخامس المكاتبة «۲»، و السادس الاعلام من الشيخ للطلب بأن هذا الحديث أو الكتاب سمعه من فلان «۳»، و السابع الوصية «۴»، من الشيخ برواية كتاب عند موته أو سفره لشخص معين، و الثامن الوجادة «۵».

و قد أفاض المحدثون منذ القدم فى بحث هذه الطرق من جميع وجوهها و أحكامها فى القبول أو الرد، و كل ذلك يحدد أهلية الراوى الذى يحق له أن ينقل الحديث عن غيره إلى سامعيه.

و قد حاول السيوطى أن يطبق هذا المبحث برمته على اللغة، و لم يكن قد سبق به من قبل اللغويين، فكل ما تحدثوا فيه مما يتصل بالموضوع هو مأخذ اللغة الذى تناوله ابن فارس «۶»، بيد أنه أجمل القول فيه، ثم نجد حديثا موجزا عن الاجازة عند ابن الأنبارى يهدف به إلى القول بصحة قبولها و الرواية بمقتضاها «۷»، و لا نكاد نظفر ببحوث نظرية لدى اللغويين عن أصول الأخذ و التحمل و صيغه و مراتب عباراته فى اللغة غير ما قدمنا، بيد أن كتب اللغويين تحرص على إيراد هذه الصيغ بما يبين أنهم عرفوا منهجا فى التحمل مفرقين بين أقسامه حيث تدل على ذلك عباراتهم فى الرواية، أى أنهم فى مجال التطبيق قد اتبعوا هذا المنهج إلى حد كبير، و لكنهم أهملوا البحث النظرى فى هذا الموضوع (۱) مقدمة ابن الصلاح ص ۷۹، الكفاية ص ۳۳۰.

(۲) مقدمة ابن الصلاح ص ۸۳.

(۳) المصدر السابق ص ۸۴.

(۴) الكفاية ص ۳۵۲، المقدمة ص ۸۵.

(۵) الكفاية ص ۳۵۳، المقدمة ص ۸۶.

(۶) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۰.

(۷) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۹۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۰

بينما عنى به أهل الحديث عناية بالغة و السبب فى ذلك يرجع أيضا إلى الفارق الطبيعى بين المنقول فى اللغة و بين المنقول فى الحديث، و توفر الدواعى إلى الكذب فى الحديث و عدم توفرها فى اللغة إلا بقلة، و استمرار الرواية عن الفصحاء إلى زمن متأخر، و استمرار الأخذ عن الأعراب إلى زمن أكثر تأخرا و هو ما جعل أسانيد اللغة- فى كثير من الأحيان- أقصر من أسانيد الأحاديث، بالاضافة إلى الأسباب التى سبق بيانها عند الحديث عن العناية ببحث الرواة جرحا و تعديلا.

و على أية حال فلقد أغفل اللغويون بحث طرق الأخذ و التحمل فى رواية اللغة، و قد حاول السيوطى أن يستدرك هذا النقص لديهم فى المبحث الذى خصصه لهذا الموضوع «۱»، و ترسم فيه خطى المحدثين فقد ذكر أن هذه الطرق ستة أولها السماع من لفظ الشيخ أو العربى و قد أورد ما قاله ابن فارس عن مأخذ اللغة فى هذا الموضع، ثم بين صيغ الأداء و الرواية، فأعلاها «أملى»، و قد مثل لها ببعض الأمثلة التى وردت بكتاب اللغة ككتاب القالى، و يليها «سمعت»، و يليها «حدثنى فلان و حدثنا فلان»، و يليها «أخبرنى و أخبرنا» ثم «قال لى» ثم «قال» ثم «زعم» و «عن» و قد مثل لكل صيغة ببعض ما ورد فى كتب اللغة من استعمالاتها، و ذكر أن الشعر يقال فيه: «أنشدنا و أنشدنى» و قد يستعمل فيه «حدثنا و سمعت». و الطريق الثانية هى القراءة على الشيخ و يقول عندها: «قرأت على فلان». و ثالثها السماع على الشيخ بقراءة غيره، و يقول عندها: «قرئ على فلان و أنا أسمع»، و الرابع الاجازة و ذلك فى رواية الكتب و الأشعار المدونة و قد نقل السيوطى قول ابن الأنبارى فيها و تجويزها، و خامسها المكاتبة، و سادسها الوجادة.

و قد مثل لكل من هذه الطرق ببعض ما وقع لها فى كتب اللغة من أمثلة حيث استعملت عبارات من قبل اللغويين تنم عن مراعاة لطرق

الأخذ و التحمل و درايـة بها، و نرى أن هـذه الطرق التى أوردها السيوطى هى نفس (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۴۴، معرفة طرق الأخذ و التحمل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۱

الطرق التى يذكرها المحدثون، و إن يكن ابن الصـلاح قد حصـرها فى ثمانية فإنها ترتد فى الواقع إلى ست طرق لأن المناولة فرع من الاجازة و الاعلام يندرج ضمن الوصية أو الوجادة.

و نظرا لطرافة هذا البحث النظرى فى ميدان اللغة فإن السيوطى لم يطل- لطبيعته النقلية- فى الجانب النظرى لقلة ما كتب فيه من قبل، و اكتفى فى غالب الأحيان بذكر كل عنصـر ممثلا له بعديد من الأمثلة اللغوية، و بعبارة أكثر بيانا فلقد انتزع السيوطى الهيكل العام لطرق الأخذ و التحمل من بيئة المحدثين و وضـعه فى اللغة قالبا أجوف ثم صب فيه الأمثلة العديدة صبا، و كان الجدير به أن يعنى بالجانب النظرى أكثر من ذلك، و لكن حسبه أنه السابق إلى تناول هذا الموضوع فى اللغة.

و الهـدف من بحث الرجال و بحث الأسانيـد تمييز الصـحيح من المفتعل و المصـنوع، و قد عنى المحدثون بالموضوع من الأحاديث و نبهوا عليها، و ألفوا فيها المؤلفات، و قد ألف فيها السيوطى كتابه «اللئالئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة» و ألف فيها قبله عدد من أهل الحـديث، و نبه عليه ابن الصـلاح فى مقـدمته و بين كيفيـة الوضع و الأسـباب الداعيـة إليه، و مثل لذلك بما وضع على لسان ابن عباس و على لسان أبى بن كعب عن أحاديث فضائل القرآن سورة سورة «۱».

و إذا كان الوضع قد عرف فى الحديث للأسباب الداعية إليه، فإن هنالك أسبابا قد توفرت و حملت على الوضع و الكذب فى اللغة، و لا سيما فى الشعر و الأخبار، و قد حظى نقد الشعر و الأخبار و تمييز صحيحها من زائفها بعناية أئمة اللغويين و العلماء منذ وقت مبكر و قد كتب ابن سلام الجمحى مقدمة قيمة فى نقد الشعر و تمييز صحيحه من زائفه و التنبيه على المصنوع من الأشعار «۲»، كما أشار كثير من العلماء فى كتبهم إلى ما وضع من الأشعار و الأخبار، و نبهوا فى (۱) مقدمة ابن الصلاح: الموضوع ص ۴۷، ۴۸.

(۲) طبقات فحول الشعراء لابن سلام: المقدمة.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۲

روايتهم للشعر على المصـنوع منه، حتى روى عن يحيى بن سـعيد القطان المحـدث أنه قال: «رواة الشـعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا، و رواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه و يقولون هذا مصنوع» «۱».

و نظرا لما قدمنا فقد جعل السـيوطى خاتمة المباحث المتصـلة بالاسـناد عنده فى معرفة المصـنوع «۲»، و قـد نقـل فيه عن ابن فارس ما روى عن الخليل من أن:

«النحـارير ربمـا أدخلوا على الناس ما ليس فى كلام العرب إرادة اللبس و التعنيت»، ثم نقل نقولا مسـتفيضة فى هـذا الموضوع عن ابن سلاـم و عن أمـالى القالى و طبقات الزبيـدى، ثم أتبع ذلك على عادته بكثير من الأمثلـة للمصـنوع من الأشـعار، و له فضل جمع هـذه المتفرقـات و وضـعها فى مبحث يحمـل اسـمها، و الواقـع أن بحث المصـنوع و التنبيه عليه أمر هـام يخص اللغويين و النحويين الـذين يحتجون بالروايات اللغوية فى اللغة أو فى النحو، فإذا ثبت لديهم كون بعض ما يحتجون به مصنوعا سقط الاحتجاج به.

و لم يفت السـيوطى أن يجمع كـذلك عـددا من الألفـاظ التى نبه اللغويون على أنهـا مصـنوعة فمنها «عفشـج» بمعنى ثقيل و قـد ذكر الخليل أنها مصنوعة و غيرها من الأمثلة «۳».

و بختام هـذا الفصل نكون قـد عرضـنا للمنهـج العام الـذى رسـمه السـيوطى لنقـد الروايـة اللغويـة، و إذا كان ما عرضه يتناول الرواة و الأسانيد فانه بذلك يتصل بالمرحلة الأولى و الأهم من النقد و هى نقد السند أو ما سميناها بالنقد الخارجى، فما ذا كان موقفه من نقد المتن؟

المرحلة الثانية: النقد الداخلى أو نقد المتن:

حظى نقد السند كما بينا بعناية بالغة من المحدثين ثم من اللغويين، و هذه (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۷۵.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۷۱.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۱۸۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۳

العناية كفيلة بأن توفر الثقة فى المنقول إلينا بعد اجتيازه لمرحلة النقد السابقة، بيد أن كلتا البيئتين لم تقتصر- فى الواقع- على هذه المرحلة، بل أتبعتها بمرحلة أخرى من النقد تتناول المنقول نفسه، و هى ما نسميه بنقد المتن.

و قد ذهب بعض المستشرقين إلى أن المسلمين قد اقتصروا فى نقدهم على الأسانيد و لم يتناولوا المتون، و قد جازت هذه الفكرة إلى الشرق و تبعها أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام، و قد رد أمين الخولى على هؤلاء مبينا أن المسلمين اهتموا بنقد المتن كما اهتموا بنقد السند، و من الأدلة على ذلك اعطاؤهم الحديث ألقابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم «الشاذ» و «المقلوب» و «المضطرب» و «مدرج المتن» و «المحرف» و «المصحف».

و كذلك وصفهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية إلى حد بعيد، و قد مثل لقيامهم بنقد متون بعض الأحاديث، ثم بين أن علم الحديث قسمان: علم الحديث دراية و هو أصول الحديث، و علم الحديث رواية و هو دراسة الحديث عند الفقهاء و المتكلمين و المفسرين، و لدى هذه البيئات نجد قيامهم بنقد المتن «۱».

إذا كان هذا أمر نقد المتن فى بيئة المحدثين فما ذا كان من أمره فى بيئة اللغويين و قد تبين لنا فى المرحلة الأولى ترسم اللغويين- لا سيما السيوطى- لخطى أهل الحديث فى قواعد النقد و أصوله؟ ثم ما الدور الذى قام به السيوطى فى دراسة نقد المتن؟.

و قد حظى النظر فى النصوص اللغوية و نقدها بعناية اللغويين و النقاد منذ وقت مبكر، و قرر ابن سلام أنه «ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة و لا ما وضعوا و لا ما وضع المولدون، و إنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال» «۲». (۱) انظر مادة «أصول» فى دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية)، و التعليق عليها للأستاذ أمين الخولى.

(۲) طبقات فحول الشعراء ص ۴۰، و قد نقله صاحب المزهر ج ۱ ص ۱۷۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۴

و هو بهذا يعنى نظر النقاد فى المتون اللغوية و نقدها نقدا داخليا بعد فحص الأسلوب و خصائصه فحصا يتبين لهم منه صحيحها من زائفها، و ابن سلام يقرر أن ذلك إنما يدركه أهل البصر بالشعر «و للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات منها ما تثقفه العين و منها ما تثقفه الأذن، و منها ما تثقفه اليد، و منها ما يثقفه اللسان» «۱».

و قد تناول النحاة المادة اللغوية بالنقد، و نقدهم لها شبيه بصنيع علماء الحديث رواية من الفقهاء و غيرهم فيما يتصل بالحديث.

و يتمثل نقد النحاة فى الترجيح بين الروايات، فإذا وردت روايتان مختلفتان لنص واحد فإن النقد يتناول حينئذ النص المروى و ذلك بعرضه على الظواهر اللغوية المطردة و الأصول المعروفة، فتقبل الرواية التى توافق المطرد، و ترفض الأخرى، و ذلك مثل أن يستدل الكوفى على إعمال «أن» مع الحذف من غير عوض بقول الشاعر:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى و أن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فيقول له البصرى: الرواية أحضر بالرفع و هو القياس «۲».

و يتناول اللغويون بالنقد الداخلى ما ينفرد به عربى ممن يحتج بقولهم، و فى هذه الحال ينظر فيما تفرد به القائل بعد التأكد من

فصاحته و صحة الاحتجاج بقوله:

۱- «فإذا كان ما تفرد به مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد به استعمال فان الأولى أن يحسن الظن به و أن يقبل» «۳».

۲- «إن لم يكن القياس مسوغا له كرفع المفعول و جر الفاعل و رفع المضاف إليه فينبغى أن يرد، و ذلك لأنه جاء مخالفا للقياس و السماع جميعا، فلم يبق له عصمة تضيفه، و لا مسكة تجمع شعاعه» «۴». (۱) طبقات فحول الشعراء ص ۶.

(۲) ابن الأنبارى: الاغراب فى جدل الاعراب ص ۶۷.

(۳) الخصائص ج ۱ ص ۳۸۵.

(۴) الخصائص ج ۱ ص ۳۸۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۵

و نستطيع أن نجد أمثلة لهذا النقد الداخلى فى حديث ابن جنى عن أغلاط العرب و نجد إشارات كثيرة لدى غيره كلها يصف بعض المروى من الشعر و غيره من النصوص المعتمدة بالخطإ فى اللفظ أو فى التركيب أو فى المعنى، و قد جمع السيوطى معظم هذه النصوص عند حديثه عن أغلاط العرب «۱».

يتضح مما تقدم أن اللغويين قد عرفوا نقد المتن الذى يتناول المادة اللغوية نفسها بالنقد و يستطيع بوسائله المختلفة و المتنوعة أن يثبت صحة نسبتها إلى قائليها أو زيف هذه النسبة و يحدد بالتالى إمكان قبولها أو رفضها.

و لا نجد من اللغويين من خصص لهذه المرحلة من النقد بحثا نظريا منفصلا نستطيع منه وحده معرفة أصوله و قواعده، و لكن صدرت عنهم نصوص كالتى قدمناها يمكن منها التعرف على معالم هذا النقد و أصوله.

أما السيوطى فلم يفرد لهذا الموضوع بحثا منفصلا فى كتابه، و إنما تضمنت مباحثه فى بعض الأنواع التى قدمناها ما يتصل به، فقد نقل فى حديثه عن المصنوع من اللغة بعض ما يتصل بالنقد الداخلى، و حين تناول المفاريد «۲» نقل عن ابن جنى ما قدمناه من قبل فيما يتصل بهذه المرحلة من مراحل النقد.

و يبدو أن السيوطى قد اكتفى بالتعرض ضمنا لهذه المرحلة فلم يفرد لها قسما مستقلا لأنها متصلة بعدد من المباحث التى تناولها، و الحقيقة أن تناول السيوطى لألفاظ اللغة فى بعض المباحث التى سنتناولها فيما بعد كالفصيح و الضعيف و المنكر و المتروك و نحوها، و الغرائب و الشواذ و النوادر، كل أولئك له صلة بالنقد الداخلى للرواية حيث أورد ما يتصل بفحص المنقول و بيان درجته من الفصاحة و الاستعمال و مرتبته فى اللغة، و تجنبا للاطالة فإننا سنشير إلى ذلك فيما بعد أثناء حديثنا عن ألفاظ اللغة عنده. (۱) المزهر ج ۲ ص ۴۹۴.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۴۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۶

مفهوم اللغة عند السيوطى

نقل السيوطى حد اللغة فى كتابه عن ابن جنى الذى حدها بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» «۱»، و نقل عن ابن الحاجب فى تحديدها أنها «كل لفظ وضع لمعنى» «۲»، و عن الاسنوى أنها «الألفاظ الموضوعة للمعانى» «۲»، و لم يعقب بشىء على هذه الحدود و نحن نعتبر ذلك إقرارا منه لجميعها.

و ليس هناك اختلاف بين هذه الحدود الثلاثة فليس اللفظ إلا مجموعة من الأصوات المتآلف بعضها إلى جانب بعض، و يبدو أن هذا التحديد للغة الذى عبر عنه ابن جنى هو الذى يعكس لنا التصور الشائع للغة عند العرب فهو «أشد التصورات تأثيرا فى نفوس الدارسين و فيما كتبوه عن طبيعة اللغة، بل كان الموجه فيما بعد لتطور التأليف اللغوى و تنوعه، و ما عسى أن يكون فيه من شمول

يربط بين اللغة و بين الاتجاهات المختلفة فى دراستها» «۴».

و قد فهم السيوطى اللغة على أنها الألفاظ أو الأصوات الدالة على المعانى، و هو يشرح اللفظ بأنه «صوت معتمد على مقطع الفم» «۵»، و قد حاول أن يدرس العنصرين اللذين تتكون منهما اللغة و هما اللفظ و المعنى أو الأصوات و الدلالات فتناول الألفاظ فى ثلاثة عشر نوعا من كتابه ذكر أنها تبحث اللغة من حيث الألفاظ و تناول المعنى فى ثلاثة عشر نوعا كذلك و نبه على أنها راجعة إلى اللغة من حيث المعنى. (۱) المزهر ج ۱ ص ۷.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۸.

(۴) د. سيد خليل: التصور اللغوى عند العرب: مقال بمجلة كلية الآداب- مجلد ۱۴ ص ۱۷۹.

(۵) السيوطى: شرح ألفية ابن مالك، بداية الكتاب.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۷

و اللغويون المحدثون يرون وظيفة اللغة فى «أنها حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم، هى أنها جزء من السلوك الانسانى، أنها ضرب من العمل و ليس أداة عاكسة للفكر» «۱»، و هم بذلك ينتقدون ما كان يراه اللغويون القدماء و بعض المحدثين أمثال سابير من أن اللغة وسيلة للاتصال أو التوصيل أو النقل أو التعبير عن طريق الأصوات الكلامية، و أن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الفكر بما يحتويه من انفعالات و رغبات و غير ذلك «۲».

على أن انتقاد الرأى الشائع الذى يذهب إلى أن اللغة وسيلة لتوصيل الفكر لا يعتمد إلا على بعض المظاهر التى يرى فيها أصحابه أن الغرض الأساسى من استعمال اللغة ليس توصيل الفكر، أو بعبارة أكثر دقة لا يكون توصيل الفكر هو هدف اللغة، و يمثلون لذلك بالكلام الانفرادى و بلغة الصلاة و العبادة و لغة التحية و اللعب بالأصوات و غير ذلك «۳»، بيد أن هذه المظاهر لاستعمال اللغة لا تخرج فى حقيقة الأمر باللغة عن كونها ألفاظا متعارفا عليها تعبر عن معان متعارف عليها، فالذى يتحدث إلى نفسه يتحدث بلغة يفهمها و كأنه بذلك يعبر عن نفسه و يوصل أفكاره إليها، فالمتكلم و السامع هنا شخص واحد، و ليست اللغة التى نستعملها فى الصلاة أو العبادة أو التحية إلا ألفاظا معبرة عن معان معينة و معروفة فى جملتها، كما أنه ليس فى تحديد اللغة بأنها أصوات أو ألفاظ معبرة عن المعانى ما يفهم منه اغفال وظيفتها الاجتماعية و هى ما حاول المحدثون التنبيه عليه و الظهور بمظهر المستدركين له، فما ذا كان مفهوم وظيفة اللغة عند اللغويين العرب و منهم السيوطى؟.

لقد قدر اللغويون القدماء وظيفة اللغة فى المجتمع وصلتها به حتى اعتبر المعتزلة و غيرهم أصل اللغات اصطلاحا بمعنى أن المجتمع هو الذى اصطلح و تعارف على اللغة، و حتى هؤلاء الذين قالوا بالتوقيف لا يطردون فى كثير من المسائل مع مذهبهم الذى نادوا به و يرون أن التوقيف ليس معناه الحجر عليهم (۱) د. محمود السعران: اللغة و المجتمع ص ۷.

(۲) المصدر السابق ص ۵.

(۳) نفس المصدر ص ۸- ۱۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۸

حتى لا ينطق بسواه «۱»، و هم بذلك يرون جواز الاصطلاح، و بعض من قال بالتوقيف يراه فى بداية نشأة اللغة، أما فى مراحل نموها فهى اصطلاح، و المحققون من القدماء يتوقفون فى هذه المسألة فلا يقولون بالتوقيف و لا بالمواضعة.

و قد نقل السيوطى فى بيان الحكمة الداعية إلى وضع اللغة ما يفيد تقدير المسلمين للوظيفة الاجتماعية للغة و إقراره لذلك فهو ينقل عن الكيا الهراسى أن اللغة إنما تنشأ فى المجتمع و أن الانسان مدنى بطبعه، و التوحش دأب السباع، و هو ينتهى إلى ما تنتهى إليه البحوث الحديثة من أن اللغة وظيفة انسانية و ظاهرة اجتماعية «۲»، و هذا ما أكده بوضوح الفخر الرازى فيما نقله عنه السيوطى إذ يقول «السبب فى وضع الألفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته، بل لا بد من التعاون، و لا تعاون إلا بالتعارف، و لا

تعارف إلا بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد، و أيسرها و أعمها و أفيدها الألفاظ ... فلما كانت الألفاظ أيسر و أفيد و أعم صارت موضوعة بازاء المعانى «۳». و الرازى بهذا يصل بين تحديد اللغة بالألفاظ الموضوعة للمعانى و بين وظيفة اللغة فى المجتمع وصلتها به.

أما عن طبيعة اللغة فقد فهم اللغويون العرب لغتهم على أنها كائن حى متطور و لذلك فقد قدروا حاجتها إلى الاختراع و التوليد و الاشتقاق بتجدد الحياة و تجدد المعانى، كما تحدثوا عن الممات من الألفاظ و المولد منها و ما ذلك إلا تقديرا لهذه الحياة الدافقة فى اللغة، و دراستهم للمجاز تمثل إدراكا واعيا للتغير الدلالى، و هكذا فإنهم قد تناولوا مظاهر التغير اللغوى المتنوعة بما يعنى إدراكهم لطبيعة اللغة.

و قد كان للمسلمين عناية تامّة بالدرس الصوتى باعتباره عاملا من أهم عوامل المحافظة على الأداء القرآنى، و لقد تطورت هذه الدراسة على أيدى (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۶.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۳۶.

(۳) المصدر السابق ج ۱ ص ۳۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۶۹

القراء الذين كانوا نحاة فى نفس الوقت، و كان للخليل أثر فى تقدّم هذه الدراسة، و نتيجة لعنايته بالأصوات و مخارجها رتب معجمه «العين» ترتيبا صوتيا بحسب مخارج الحروف و تبعه فى هذا الترتيب الصوتى صاحب التهذيب.

و لعلّ من آثار العناية بالدرس الصوتى ما ظهر عند السيوطى فى محاولته الفصل فى الدراسة بين الألفاظ و المعانى و إن كان هذا الفصل غير موفق فى بعض الأحيان و سنبين ذلك فى دراستنا للألفاظ و المعانى كما وضعها السيوطى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۰

الألفاظ

تناول السيوطى اللغة من حيث ألفاظها فى ثلاثة عشر قسما أولها عن الفصيح و قد تناول الفصيح فى قسمين أولهما باعتبار الألفاظ و الثانى باعتبار المتكلم. و أهم ما يستلفت النظر فى بحث الفصيح هو الآراء الصوتية القيمة التى عرفها اللغويون القدماء و تناولوا بها لغتهم، فقد حدّ البلاغيون الفصاحة فى اللفظ بأنها «خلوصة من تنافر الحروف و من الغرابة و من مخالفة القياس اللغوى» «۱»، و يبدو فى عرض السيوطى لهذا المبحث أنه يميل إلى اختيار هذا الحد للفصاحة الذى ينظر إلى اللغة باعتبار صوتيتها، و لذلك نقل معنى التنافر و بينه كما نقل أن من شروط الفصاحة خلوص اللفظ من الكراهة فى السمع «فإن اللفظ من قبيل الأصوات، و الأصوات منها ما تستلذ النفس بسماعه، و منها ما تكره سماعه» «۲».

و هناك بالاضافة إلى ذلك شروط أخرى للفصاحة، و قد حاولت نقول السيوطى استيفاء هذا المبحث فعرض للضرائر وصلتها بالفصاحة، و للابتذال و الغرابة، بيد أنه اعتنى بالآراء الصوتية عناية توضح ما سبق ذكره عن مفهومه للجانب الصوتى من اللغة، فهو ينقل عن ابن دريد آراء فى ثقل الحروف و خفتها وصلة ذلك بمخارجها «۳»، فالحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، و فى هذه النقول ما يمكن اعتباره قوانين صوتية فى العربية فمنها أنه لا يكاد يجىء فى الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة، و أن أصعب ذلك حروف الحلق، و لا يمكن ائتلاف العين و الحاء ...

إلى آخره، و يبدو أن السيوطى قد أحس بأنه يريد الاستدراك على ما سبق فى (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۸۵.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۸۷.

(۳) نفس المصدر ج ۱ ص ۱۹۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۱

التآلف و التنافر فنقل عن صاحب عروس الأفراح أن التنافر إما أن يكون لتباعد الحروف جدا أو لتقاربها، و قد بنى قائل ذلك على الملاحظة الوصفية للغة حيث إن هناك ألفاظا حروفها متقاربة و لا تنافر فيها كلفظ الشجر و الجيش و الفم، و قد يوجد البعد و لا تنافر كلفظ العلم و البعد.

ثم ينقل عن ابن جنى تقسيمه لتآلف الحروف و درجات التآلف، و هو تقسيم دقيق إلى حد كبير، ثم ينقل عن ابن الأنبارى ما يتصل بتآلف الحروف حسب مخارجها و المفاضلة بين الألفاظ فى ذلك، ثم يتناول الحروف و يذكر أن أكثرها استعمالا الواو و الياء و الهمزة ثم يبين أن أخف الحروف ما استعملته العرب فى أصول أبنيتهم من الزوائد لاختلاف المعنى، ثم ينقل السيوطى نقلا مستفيضا عن صاحب عروس الأفراح يبين فيه رتب فصاحة اللفظ باعتبار صوتى يتمثل فى تآلف حروفه، فإن الكلمة تخف و تثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف، ثم يعدد اثنى عشر قسما للكلمة الثلاثية أولها الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى نحو «ع د ب»، و يعدد بقية أنواع التآلف ثم يصل من ذلك إلى ما يشبه القوانين الصوتية فيذكر أن أحسن التراكيب و أكثرها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، ثم يبين صلة بعض هذه التآليف بكثرة الاستعمال و قلته «۱».

و هناك غير ما قدمنا من النقول التى استطلنا أن نتناولها بالعرض و الدراسة، فما أقصد إليه هو بيان أن العرب قد فهموا اللغة كما قدمنا على أساس أنها أصوات تعبر عن المعانى و أن النظام الصوتى للغة له أحكام و قوانين تنتظمه، و أن لكل لغة خصائص صوتية مميزة، و عرض السيوطى لهذا البحث يدل على عنايته الكبيرة بالناحية الصوتية فى دراسة الألفاظ، و يؤيد ما ذكرنا عن مفهومه الصوتى للغة.

و يتضح الاهتمام بالناحية الصوتية فى الحديث عن فصاحة الناطقين باللغة، (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۹۷- ۱۹۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۲

فقد فضلت قريش على غيرها من القبائل بخلو لغتها مما اعتبره اللغويون عيوبا صوتية فليس فى كلامهم «عنعنة تميم و لا عجرفية قيس و لا كشكشة أسد و لا كسكسة ربيعة و لا كسر أسد و قيس» «۱».

و إذا كانت هناك درجات للفصاحة فى الألفاظ فلا بد أن يكون من الألفاظ ما لم يبلغ درجة الفصاحة، و قد تناول السيوطى هذه الألفاظ فى المبحث التالى تحت اسم «الضعيف و المنكر و المتروك من اللغات»، فالضعيف ما انحط عن درجة الفصيح، و المنكر أضعف منه و أقل استعمالا بحيث أنكره بعض أئمة اللغة، و لم يعرفه و المتروك ما كان قديما من اللغات ثم ترك و استعمل غيره» «۲».

و قد أورد لكل منها أمثلة عديدة، و يعنينا هذا المبحث فى تأكيد ما سبق أن قلناه عن النقد الداخلى للنصوص و هو النظر فى المنقول نفسه و قبوله أو رده أو تضعيفه حسب بعض الاعتبارات اللغوية، و تناول المتروك يدل على فهم اللغة على أنها كائن حى متطور تتعرض ألفاظها لعوامل الحياة و الفناء التى تعترى الكائن الحى. و قد نبه فى آخر الفصل على الفرق بين الضعيف من حيث اللفظ و بين الضعيف من حيث الاسناد و هو الذى تناوله من قبل بما يدل على تمييزه بين نقد السند و بين نقد المتن و احتفاله أيضا بنقد المتن حيث يقول: «الفرق بين هذا النوع و بين النوع الثانى أن ذاك فيما هو ضعيف من جهة النقل و عدم الثبوت، و هذا فيما هو ضعيف من جهة عدم الفصاحة مع ثبوته فى النقل، فذاك راجع إلى الاسناد و هذا راجع إلى اللفظ» «۳».

ثم يظهر الاعتبار الصوتى مرة أخرى حين يتحدث عن الردىء المذموم من اللغات، فالعيوب الصوتية التى تظهر لدى بعض القبائل العربية فى الأداء اللغوى و التى خلت منها لغة قريش جعلت اللغويين يستكرهون ما يظهر منها فى الأداء و يعدونه مذموما، و قد عقد ابن فارس من قبل فصلا عن اللغات المذمومة «۴»، قاصدا بها العيوب الصوتية التى تظهر فى الأداء كالعنعنة عند تميم (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۱۰.

(۳) نفس المصدر ج ۱ ص ۲۲۰.

(۲) المصدر السابق ج ۱ ص ۲۱۴.

(۴) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۲۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۳

و هى قلب الهمزة عينا، و الكشكشة عند أسد و هى إبدال الكاف شينا كإنشادهم:

فعيناش عيناها و جيدش جيدها و لونش إلا أنها غير عاطل

و غير ذلك من العيوب الصوتية المعروفة التى نبه عليها ابن فارس و درج اللغويون منذ وقت مبكر على التنبيه عليها.

عد السيوطى ما يظهر من هذه العيوب فى الأداء من اللغات الرديئة و قد أورد حديثا مفصلا عن هذه العيوب عن اللغويين السابقين يتضمن أمثلة توضح هذه العيوب، و قد تضمن الفصل الذى عقده إشارة إلى حديث ابن فارس الذى بيناه.

بيد أن جانبا آخر من الردىء يقوم اعتباره وضعه فى هذا القسم على ما سبق أن أشرنا إليه صدد النقد الداخلى للنصوص أو للألفاظ، فيوصف اللفظ بأنه ردىء إذا كان فى لغة قليلة و قد شاع لفظ من قبيله و نطق به عدد كبير من المتكلمين، و قد ذكر السيوطى عددا كبيرا من الأمثلة لهذا القسم جمعها من شتى مصنفات اللغة السابقة فمنها يقال: هو أخير منه فى لغة رديئة، و الشائع هو خير منه بلا همز، و قال الخليل: أغلطنى لغة تميمية قبيحة فى أفلتنى، و تقول رابنى الرجل، و أما أربانى فإنها لغة رديئة «۱».

و على ذلك وضع السيوطى رتبا للألفاظ و تناولها تحتها و هى بالتدريج الأفصح فالفصيح ثم الضعيف فالمنكر ثم الردىء، و هذا التصنيف يقوم على اعتبارات تتصل بالأصوات أو بالنقد الداخلى للألفاظ، و يأتى فى رتبة الضعيف ما تناوله السيوطى فى قسم آخر تحت عنوان «الحوشى و الغرائب و الشواذ و النوادر» «۲»، فقد ذكر أن «هذه الألفاظ متقاربة و كلها خلاف الفصيح» «۲»، و الواقع أن اللفظ يمكن أن يوصف بأكثر من واحد من هذه الأوصاف فيمكن أن يوصف الحوشى بأنه غريب و بأنه نادر أيضا، فهذه الأقسام متداخلة و التفرقة بينها لا تكاد تتميز، و قد (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۲۴.

(۲) المزهر: النوع الثالث عشر ج ۱ ص ۲۳۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۴

مثل السيوطى لكل من هذه الأقسام بعدد من الأمثلة و يبدو أن محاولته محاكاة أهل الحديث فى مصطلحاتهم هى التى دفعته إلى التمييز بين هذه الأقسام على نحو ما يفعل المحدثون، على حين أن اللغويين فى تعبيراتهم لم يراعوا على ما يظهر الفرق بين بعضها و بين بعض، و نلاحظ خلطهم بين هذه الأوصاف أو المصطلحات إلى حد كبير، فمنهم من يسمى الشاذ نادرا و منهم من يسميه قليلا و منهم من يسميه منكرا و الحوشى و الغريب بمعنى واحد كما نص على ذلك السيوطى و قد بين أن الحوشى هو ما نفر عن السمع فحده يرجع إلى اعتبارات صوتية، و الشوارد بنفس المعنى.

و يبدو الاعتبار الصوتى واضحا فى دراسة «المستعمل و المهمل» «۱»، فقد نقل السيوطى فى أوائل كتابه عن ابن دريد و الخليل و الزبيدى عدة أبنية الكلام التى أحصاها اللغويون بطريقة رياضية فى تآلف الحروف ثم أحصوا بعد ذلك المستعمل منها و المهمل «۲»، و قد أشار فى حديثه عن المستعمل و المهمل إلى ما أورده من قبل، ثم أخذ يورد النقول التى تدرس الاستعمال و الإهمال فنقل عن ابن فارس و ابن جنى ما يعلل الاهمال فى جملته بالاستثقال، و قد تناولت نقوله بعض الظواهر الصوتية التى تسود العربية فهناك حروف لا- يجوز ائتلافها كالجيم مع الكاف، و العين مع الغين و الحاء مع هاء أو غين .. إلى غير ذلك من التفصيلات التى أوردوها و عللوا بها ما أهمل من الألفاظ و الأبنية.

و قد تناول السيوطى «المعرب» «۳» و هو الألفاظ الأعجمية التى استعملها العرب الفصحاء فى لغتهم فى مبحث مستفيض نقل فيه خلاصة أقوال السابقين من اللغويين التى تتحدث عن وقوع المعرب فى القرآن الكريم، ثم تناول الألفاظ المعربة بالتقسيم فمنها ما

غيرته العرب و ألحقته بكلامها كدرهم، و منها ما غيرته و لم تلحقه مثل آجر و سفسير، و هناك ملاحظات يمكن بها الحكم على اللفظ بأنه غير عربى تتصل بتآلف الحروف، أى أنها من الخصائص الصوتية التى تنفرد بها (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۴۰ النوع الرابع عشر.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۷۱- ۷۶.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۲۶۸- ۲۹۴، النوع التاسع عشر.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۵

العربية و تميزها عن غيرها من اللغات، فاجتماع الجيم و القاف فى لفظ يفيد أنه غير عربى كالمنجنيق، و خلو الخماسى و الرباعى من أحرف الذلاقة و هى الباء و الراء و الفاء و اللام و الميم و النون يفيد أنه غير عربى، و أمثال هذه الملاحظات، ثم تناول طريقة العرب فى تعريبها و كيفية نقلها للأعلام الأعجمية و الألفاظ إلى لغتها، و الحروف التى يطرد إبدالها و التى لا يطرد ابدالها، ثم مثل بعديد من الأمثلة للمعرب الذى ليس فى لغة العرب ألفاظ مماثلة له، ثم للمعرب الذى له اسم فى لغة العرب، ثم للألفاظ التى شك فى أنها معربة أو عربية الأصل كما نقل أن المعرب غير مشتق، بينما يصح الاشتقاق منه كما وقع فى كلمة «لجام» و اشتقاقاتها العديدة، هذا فى غير الأعلام، أما الأعلام فلها أحكام تختص بها فى الجمع و التصغير.

و قد حاول المجمعيون أن يفيدوا من مسلك القدماء فى التعريب فيما يبغونه من التوسع اللغوى و نقل بعض الألفاظ الأعجمية التى نستعملها إلى العربية بعد تغييرها على طريقة التعريب عند القدماء، و انتهوا من ذلك إلى قرار باجازة استعمال «بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم» «۱».

و لاتصال هذا الموضوع بحياة اللغة و زيادة ثروتها، و نظرا للحاجة الماسة إليه فيما يتصل بالمصطلحات العلمية، فقد دارت فى الحديث حوله بحوث عديدة و من أهم ما وضع فيه كتاب المصطلحات العلمية، فقد دارت فى الحديث حوله بحوث عديدة و من أهم ما وضع فيه كتاب المصطلحات العلمية لمصطفى الشهابى، و قد قدم له بمقدمة ذكر فيها طريقة القدماء فى تعريب المصطلحات و دعا إلى اتباعها فى وضعه المصطلحات الحديثة «۲».

و إذا كانت الألفاظ الدخيلة التى حظيت باستعمال العرب الفصحاء فى لغتهم قد عرفت بالألفاظ المعربة فإن جانبا من هذا الدخيل قد استحدث بعد عصر (۱) مجلة مجمع اللغة العربية ج ۱ ص ۳۳، انظر الاحتجاج للقرار للأستاذ الاسكندرى ص ۲۰۰.

(۲) مصطفى الشهابى: المصطلحات العلمية فى اللغة العربية فى القديم و الحديث.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۶

الاحتجاج على ألسنة المولدين فنعته اللغويون باسم «المولد» تمييزا له عن النوع السابق الذى لم يدفعوا صحة استعمال ما ورد منه فى اللغة، و هذه التفرقة تبين لنا أن جمهور اللغويين يذهبون إلى أن المعرب سماعى، أى يصح استعمال ما استعمله منه الفصحاء، و لا يجوز القياس عليه و قد تبين أن هذا الموقف المتشدد قد خرج عليه كثير من الكتاب و المترجمين فى العصر العباسى، و أجاز المجمع أخيرا القياس فيه على طريقة العرب فى التعريب.

و قد تناول السيوطى «المولد» فى مبحث مستفيض وحده بأنه «ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم» «۱»، و على ذلك فهو يعم الألفاظ الدخيلة و يعم غيرها مما استحدث على ألسنة المولدين و لم تستعمله العرب، أى ما أصابه تحريف صوتى أو دلالى، كما يدخل فيه ما نقله المولدون بطريق التجوز أو الاشتقاق عن معناه الوضعى اللغوى الذى عرف به عند العرب الخلص إلى معنى آخر تعورف عليه إما بين عامة الناس و إما بين خاصة منهم كطوائف أرباب العلوم و غيرهم.

و بحث الألفاظ المولدة من أهم البحوث التى شغلت اللغويين العرب على مر العصور ذلك أن اللغة بطبيعتها كائن حى متطور، و هذا التطور يحدث فى الألفاظ من ناحيتى الصوت و الدلالة، و قد حاول اللغويون العرب أن يقفوا فى وجه هذا التطور الذى كان يحدث آثاره فى لغة الأمصار الاسلامية بعد اختلاط العرب بالأعاجم، حيث أخذت الألفاظ المحرفة عن الفصحى فى الظهور، و بدا أثر التطور

الدلالى فى جانب آخر من الألفاظ، حتى غدت الأمصار الاسلامية فى منتصف القرن الثانى تنطق بلغة بعيدة و متميزة عن لغة أهل البادية، و عن اللغة التى نطق بها العرب الأولون.

حاول اللغويون جاهدين أن يقفوا فى وجه هذا التطور حفاظا على لغتهم التى نزل بها القرآن الكريم فكان التحديد المكانى و الزمانى للاحتجاج الذى كان مبعثه الأول تطرق الخلل إلى التصرف الاعرابى المتكامل الذى احتفظت به (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۰۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۷

العربية، ثم كان تطرق الخلل إلى الألفاظ و الأساليب عاملا آخر، و يكفى أن نحيل هنا إلى دراسة فكرة تنقية اللغة العربية لدى اللغويين التى بسطها يوهان فك، و عرض فيها لتطور هذه الفكرة مبينا مواقف اللغويين من هذه الألفاظ التى أخذت فى الظهور «۱».

و نعود إلى السيوطى فنراه قد نقل عديدا من الأمثلة عن كتب اللغة تشمل أنواع الألفاظ المولدة فمنها ألفاظ أعجمية، و منها ألفاظ عربية محرفة فى أدائها الصوتى أى فى ألفاظها و منها ألفاظ عربية محرفة فى معناها، و منها بعض اشتقاقات و تصرفات فى ألفاظ لم يسمع من العرب نطقهم بها، و يبدو من هذا أن السيوطى يتوسع فى إطلاق صفة «المولد» على كثير من الألفاظ، و قد دلل على رأيه بما نقله عن ثعلب فى أماليه من أن التغيير هو كل شىء مولد، و على ذلك فقد استنتج ضابطا هاما هو أن «كل لفظ كان عربى الأصل ثم غيرته العامة بهمز أو تركه أو تسكين أو تحريك أو نحو ذلك مولد» «۱»، ثم قال: «و هذا يجتمع منه شىء كثير» «۳».

و على هذا فقد ألحق بالمولد ما يهمز من الأفعال و العامة تدع همزه نحو:

طأطأت رأسى و أبطأت .. إلى آخره، و ما يهمز و العامة تبدل الهمز فيه أو تسقطه نحو آكلت فلانا و لا يقال واكلته، و ما لا يهمز و العامة تهمزه نحو رجل عزب، و خير و شر، و ما يشدد و العامة تخففه مثل الأترجّ و الإجّاص، و ما يخفف و العامة تشدده كالرباعية للسن و الكراهية، و ما ورد ساكنا و العامة تخففه، أو ما يبدلون فيه حرفا بحرف إلى غير ذلك من الأمثلة التى نقلها عن السابقين.

و يتضح مما تقدم أن الأخطاء الشائعة فى الألفاظ سواء فى دوائر المثقفين أم غيرهم مما يدخل فى هذا المبحث، و نظرا لأهميته فى اللغة وصلته بتطورها و حياتها فقد تناوله المجمعيون بالبحث و انتهوا فيه إلى أنه قسمان: قسم جرى فيه (۱) يوهان فك: العربية: دراسات فى اللغة و اللهجات و الأساليب، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۳۱۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۸

المولدون على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما كاصطلاحات العلوم و الصناعات و غير ذلك، و حكمه أنه عربى سائغ، و قسم خرجوا فيه عن أقيسة كلام العرب إما باستعمال لفظ أعجمى لم تعربه العرب،- و قد صدر عن المجمع فى شأن هذا القسم قرار خاص-، و إما بتحريف فى اللفظ أو فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجهه صحيح، و إما بوضع اللفظ ارتجالا، و المجمع لا يجيز النوعين الأخيرين فى فصيح الكلام «۱».

و مما يدخل فى مباحث التطور الدلالى ما تناوله السيوطى فى اللغة من حيث ألفاظها و هو الألفاظ الاسلامية «۲»، ذلك أن الاسلام قد شاع فيه استعمال بعض الألفاظ فى معان خاصة تتعلق بالعبادة أو المعاملات أو غير ذلك من شئون الدين كالصلاة و الزكاة و الصوم و الحج، و المؤمن و الكافر و المنافق و الفاسق، و الركوع و السجود و أمثالها من الألفاظ التى كانت تحمل دلالات عامة ثم خصص الاسلام دلالاتها. فالصلاة فى الأصل الدعاء، ثم شاع استعمالها فى الاسلام للعبادة المعروفة لاشتمالها على الدعاء حتى أصبح اللفظ عند إطلاقه لا يدل على غير هذا المعنى الخاص و الحج معناه القصد ثم خصص بقصد البيت الحرام لتأدية الفريضة المعروفة فى الاسلام.

و قد قدر اللغويون منذ القدم هذا النوع من أنواع التطور الدلالى الذى يخصص مدلولات الألفاظ، فتحدث عنه ابن فارس حين تناول الأسماء الاسلامية، و مثل للألفاظ التى خصصت مدلولاتها، و ذكر أن هذه الألفاظ مثلها مثل مصطلحات المعلوم كالنحو و العروض و

الشعر، و قد نقل السيوطى عن ابن فارس ما يتصل بهذا الموضوع كما نقل عنه حديثه عن الألفاظ التى هجر استعمالها بمجىء الاسلام، ذلك أن الاسلام قد أبطل كثيرا من نظم الجاهلية و أفكارها و تقاليدها فأمات بذلك كثيرا من الألفاظ التى كانت مستعملة فى الدلالة عليها، كما كره استعمال ألفاظ أخرى أو حرم استعمالها لتنافيها مع روح الاسلام و مبادئه و قد قدر اللغويون القدماء ذلك و هو من قبيل ما يتناوله (۱) مجلة مجمع اللغة العربية ج ۱ ص ۳۳، ۳۴.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۹۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۷۹

المحدثون حين يدرسون التغييرات الدلالية التى تصاحب الثورات «۱»، و بالرغم من صلة البحث هنا بالمعنى أكثر من اللفظ فقد وضعه السيوطى فى قسم الألفاظ و نظرته إلى هذه الألفاظ و هى نتاج التغيير الدلالى بعوامله المعروفة نظرة تكتفى بجانب واحد دون البحث فيما يتصل به من جوانب أخرى.

و قد نقل ما يتصل ببحث هذه الألفاظ عن الأصوليين، ثم اجتهد فى نقل أمثلة كثيرة لها مخصصا جانبا من هذه النقول للألفاظ التى استحدثها الرسول صلى اللّه عليه و سلم و لم يتكلم بها أحد من قبله كقوله: «مات حتف أنفه» و «لا ينتطح فيها عنزان» و «حمى الوطيس» و أمثال هذه العبارات التى لم تسمع من أحد قبله، كما نقل بعض العبارات التى سمعت عن بعض الصحابة أو التابعين و لم تسمع قبل ذلك، و هذا يدل على ما قلناه من تقديرهم للتطور اللغوى.

و قد تناول السيوطى فى مبحثين منفصلين ما يتصل باللهجات العربية، فضلا عما يتصل ببحثها من نقول متناثرة فى غيرهما، و أولهما عن مختلف اللغة حيث عرض أنواع الائتلاف بين اللهجات التى سبق لابن فارس أن حصرها فى سبعة عشر وجها «۲»، و قد نقلها عنه السيوطى «۳»، ثم نقل ما يتصل بحجية اللهجات فى الاحتجاج اللغوى عن ابن جنى و ابن فارس و غيرهما، ثم ما يتصل بمن تنتقل لغته حيث يكون الاحتجاج بعد النظر فيما انتقل إليه لسانه من اللغة، فإن كان فصيحا مثل لغته أخذ بها و إن كان فاسدا لم يؤخذ و أخذ بالأولى.

كما نقل عن ابن فارس ما يتصل بالصور التى يمكن أن ترد بها الألفاظ تبعا لاختلاف اللهجات، فمن الألفاظ ما فيه لغتان كالحصاد و الحصاد بالكسر و الفتح فى الحرف الأول، و فيها ما فيه ثلاث كالزجاج بالفتح و الضم و الكسر فى الحرف الأول، و منها ما فيه أربع كالصِّداق بكسر الصاد و فتحها و الصّدقة بفتح الأول و الثانى فى لغة و ضمهما فى أخرى، و منها ما فيه خمس أو ست نحو (۱) د. محمود السعران: اللغة و المجتمع ص ۴۷.

(۲) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۱۹- ۲۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۲۵۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۰

قسطاس، و لا تكون الزيادة عن ست لغات فى اللفظ الواحد، ثم نقل السيوطى عن ابن فارس تقسيمه للألفاظ بحسب ما ورد فيها من اختلاف أو عدمه إلى أقسام أربعة: أولها المجمع عليه الذى لم يرد فيه اختلاف كالحمد و الشكر و هو الأكثر، و الثانى ما فيه لغتان و أكثر إلا أن إحدى اللغات أفصح، و الثالث ما فيه لغتان أو ثلاث أو أكثر و هى متساوية، و الرابع ما فيه لغة واحدة إلا أن المولدين غيروه و شاع فيه استعمال المحرف.

و المبحث الآخر تناول فيه تداخل اللغات «۱» و هو يبحث ما يرد على ألسنة من يحتج بهم من اختلاف فى اللفظ الواحد، و مرد ذلك إلى التوسع فى القول أحيانا، و الغالب أن يرجع إلى اختلاف لهجات العرب التى اعتبر اللغويون أن جميعها حجة فى الأخذ عنها، و التى ذكروا أن الناطقين قد تعاوروها بعد انتشارها، و هذا المبحث هام فى تفسير ما يرد على غير القياس فى بعض التصريفات و الاشتقاقات التى يستعملها الناطقون، و مرجع ذلك إلى تداخل اللغات فنحو قلى يقلى بفتح اللام فى الماضى و المضارع ماضيه من لغة

و مضارعه من لغة أخرى تخالف الأولى فى النطق بالماضى فمن يقول قلى بالكسر فى الماضى يقول يقلى بالكسر فى المضارع و الذى يقول يقلى بفتح اللام يقول قلى فى الماضى، و كذلك الأمر فى سلا فحدث تداخل بين اللغات نشأ عنه لغة ثالثة «۲».

و قد اعتمد السيوطى على ابن جنى فى عرض الفكرة السابقة ثم أورد أمثلة للتداخل فى اللغة الناتج عن اختلاف اللهجات نقلا عن بعض كتب اللغة الأخرى. (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۶۲.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۶۳، و قد نقل عن الخصائص انظر ج ۱ ص ۳۷۰- ۳۷۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۱

المعنى أو الدلالة اللغوية

اشارة

بعد أن عرضت لمفهوم السيوطى للغة و تطبيقه هذا المفهوم فى دراسة الألفاظ نحاول هنا بيان تطبيقه لهذا المفهوم فيما يتصل بالمعنى، و قد تناول السيوطى اللغة من حيث المعنى فى ثلاثة عشر نوعا سبق لنا تناول بعضها و بقى جانب آخر نحاول تناوله فى هذا المبحث.

و قضية المعنى و تحديده قد شغلت المفكرين من اللغويين و غيرهم منذ عصور بعيدة فى كثير من اللغات، و لعل من أوفى ما يتعلق بالمعنى اللغوى من حيث تحديده و دراسته ما أنتجته بيئة الأصوليين.

و فى العصر الحديث عرفت دراسة المعنى باسم علم الدلالة, scitnameS و هو فرع من فروع علم اللغة يعد كما يقولون: «غاية الدراسات الصوتية و الفونولوجية و النحوية و القاموسية» «۱»، و درس هؤلاء التطور الدلالى و عوامله، و ظهرت مناهج لدراسة المعنى اتجهت أخيرا إلى محاولة إدراك الظروف الخارجية التى تعين على تغير المعنى، بيد أنه من الانصاف أن نؤكد القول بأن كثيرا مما توصل إليه علم الدلالة «لم يصل بعد فى دقته و ضبطه و عمومه إلى المستوى الذى يستحق فيه اسم القوانين» «۲».

و لما كان اللغويون المحدثون يفصلون فى بحث اللغة بين الظواهر المتعلقة بالأصوات و بين الظواهر المتعلقة بالمعنى، بالإضافة إلى الظواهر البنيوية و التركيبية على نحو ما هو معروف فى مستويات الدرس اللغوى الحديث، و لما كان القدماء لا يحددون البحث فى اللغة هذا التحديد القاطع فقد حدث عندهم (۱) د. محمود السعران: علم اللغة ص ۲۸۵.

(۲) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص ۲۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۲

خلط فى بعض الأحيان بين موضوعات هذه المستويات بالرغم من إدراكهم للفروق بين هذه الأفرع الدراسية، و قد اقترب السيوطى من هذا التقسيم حين تناول الأبحاث المتصلة باللفظ فى أقسام محددة، و المتصلة بالمعنى فى أقسام أخرى و نبه على هذا التقسيم، بيد أننا وجدناه فى بعض الأحيان يتناول ما يتصل بالدلالة فى مباحث الألفاظ، و نراه هنا يورد بعض الأقسام التى كان من واجبه أن يضمها إلى مباحث الألفاظ، لا سيما تلك الأقسام التى تتعلق بالأصوات، فقد عد من الأنواع التى تبحث اللغة من حيث المعنى الابدال و القلب فى حين أنهما مبحثان يتصلان بصوتية اللغة أى بألفاظها، كذلك تناول تحت اسم المعنى البحث فى خصائص اللغة و فيه ما يدخل فى المعنى، و ما هو خارج عنه و قد أشرنا إلى تناوله لبعض المباحث التى كانت ألصق بالمعنى فى قسم الألفاظ فيما سبق.

تحدث السيوطى عن «خصائص اللغة» «۱»، و هو حديث عام يشمل كثيرا من ظواهر العربية و يصفها وصفا دقيقا، و يعرض خصائصها التى تميزت بها، و هى خصائص صوتية و دلالية و إعرابية و صرفية و أسلوبية و تركيبية، و قد نقل هذه الخصائص عن الصاحبى لابن

فارس فأورد عدة أبواب منها ما سماه ابن فارس بسنن العرب فى كلامها، و نقل عن غيره بعض الأمثلة للمحاذاة فى الألفاظ أو ما يسمى بالازدواج كقولهم الغدايا و العشايا فإذا أفردوا لم يقولوا الغدايا، و كذلك هنأنى و مرأنى إذا أفردوا قالوا: أمرأنى، فالمزاوجة فى الكلام هى سب بعض التغيير الذى يطرأ فى بعض الألفاظ.

كما نقل بعض الخصائص عن ديوان الأدب للفارابى و أضاف إليها حديث الزمخشرى عن الكنى باعتبارها مما اختص به العرب.

و فى «الابدال» «۲»، و قد بينا أن صلته باللفظ أكثر من صلته بالمعنى إذ لا يعدو أن يكون ظاهرة صوتية تعترى الألفاظ فيرد اللفظ منطوقا بحرفين متقاربين (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۲۱.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۶۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۳

كقولهم مدحه و مدهه، و جذوت و جثوت، و فرس رفّل و رفّن للذى طال ذنبه ..

إلى غير ذلك، و قد ألف فيه أبو الطيب اللغوى و ابن السكيت، و قد ذهب أبو الطيب إلى أن الابدال لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد، و استدل على ذلك بأن القبيلة الواحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة و طورا غير مهموزة و لا بالصاد مرة و بالسين أخرى و هلم جرا على حين أن غيره من اللغويين لا- يرى منشأ الابدال فى اختلاف القبائل، و إنما قد يقع فى القبيلة الواحدة، و هناك من الحروف ما يتعاقب فى بعض الألفاظ مثل الراء و اللام، و سواء أ كان الأمر هذا أم ذاك فإن هذه الألفاظ من اللغة الصحيحة التى يتعاورها الجميع و لا يخطأ أحد فى استعمالها لأنهم قرروا اختلاف اللغات مع كونها حجة، و من ثم فقد أورد السيوطى عددا كبيرا من أمثلة الابدال بين الحروف، و قد نقل جلها عن كتاب الابدال لابن السكيت، ثم نقل ما يشير إلى أن بعض اللغويين قد حاول أن يصل إلى بعض القوانين التى تحكم ظاهرة الابدال، ثم أشار إلى الخلاف بين اللغويين و النحويين إزاء هذه الظاهرة حيث يعمم اللغويون الابدال فى معظم الحروف بينما يقصر النحويون الابدال على حروف «طال يوم أنجدته».

و يتصل ببحث الابدال ما تناوله السيوطى باسم «ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف» «۱»، كالذى ورد بالباء و التاء أو بالباء و الثاء أو بالتاء و الثاء إلى آخره، و قد مثل له بأمثلة تحيط بصنوف هذا الابدال فمما ورد بالباء و التاء قولهم: رجل صلب وصلت بمعنى واحد، و بالباء و الثاء البرى و الثرى: التراب إلى غير ذلك من أمثلة.

و يتصل به كذلك «ما ورد بوجهين بحيث إذا قرأه الألثغ لا يعاب» «۲»، كالذى ورد بالراء و الغين أو بالراء و اللام، أو بالزاى و الذال، أو بالسين و الثاء ... إلى آخره، و معظم أمثلته يتردد ناقلوها فى كونها لغة أو لثغة، فهى قد (۱) المزهر ج ۱ ص ۵۳۷ النوع السابع و الثلاثون.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۶۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۴

صح نقلها عن العرب و سمعت منهم، و لكن التردد ناتج عن عدم التمكن من بحث حال القائل، فمن أمثلته اللهث لغة فى اللحت أو لثغة، و فلان من جنتك و من جنسك أى من أصلك لغة أو لثغة و هكذا، و قد اجتهد السيوطى فى كلا النوعين فى ذكر عدد كبير من الأمثلة و كأن مراده استقصاؤها.

و يتناول موضوع «القلب» «۱»، الذى نراه ألصق بمباحث الصوت و اللفظ منه بمباحث المعنى، فينقل عن ابن فارس أنه من سنن العرب كقولهم جذب و جبذ ثم نقل كثيرا من الأمثلة عن الجمهرة لابن دريد مثل ربض و رضب، و صاعقة و صاقعة و سحاب مكفهر و مكرهف، و طريق طامس و طاسم و هلم جرا، كما نقل عن غير الجمهرة أمثلة يستزيد بها على ما سبق نقله، و يختتم حديثه عن القلب بما يشبه القانون الذى حاول النحاة وضعه لمعرفة المقلوب من غيره، فينقل عن السخاوى فى شرح المفصل أنهم: «إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدرا لئلا يلتبس بالأصل، بل يقتصر على مصدر الأصل ليكون شاهدا للأصالة نحو يئس يأسا، و أيس مقلوب منه و لا مصدر

له، فإذا وجد المصدران حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل و ليس بمقلوب عن الآخر نحو جبذ و جذب، و أهل اللغة يقولون إن كل ذلك مقلوب» «۲». و ما يـذهب إليه اللغويون من القول بأن جميع ذلك مقلوب هو ما تسـنده الملاحظات الصوتية الحديثة فى علم الأصوات اللغوية فيما يعرف بتفاعل أصوات الكلمة «۳».

و ممـا يتصل باللفظ أكثر من اتصاله بالمعنى و تناوله السـيوطى فى مباحث المعنى «النحت»، و قـد تناوله مقـدرا على ما يبـدو ما قـدره بعض المحدثين- فيما بعد- الذين جعلوه قسما من أقسام الاشتقاق فتلك صلته بالمعنى.

و قـد عرض هـذا المبحث ناقلاـ عن الصاحبى باب النحت ثم أشار إلى ما ألفه الظهير العمانى الفارسـى فى النحت و أورد نقولا أخرى بها أمثلة و حديث عن النحت، و يتضح من هذه النقول أن أكثر المتوسعين فى القول بالنحت ابن (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۷۶.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۸۱.

(۳) د. على عبد الواحد وافى: علم اللغة ص ۲۷۲.

فارس الذى يعد أكثر الزائد عن الثلاثى من المنحوت كقولهم للرجل الشديد ضبطر من ضبط و ضبر.

بيـد أن ابن فـارس بالرغم من ذلك لم يؤثر عنه القول بقياسـية النحت موافقا فى ذلك مـذهب جمهور اللغويين و النحاة الـذين يقفون عند الوارد عن العرب و لا يجيزون القياس فى غيره.

و قـد أورد ابن فـارس كثيرا من الأمثلـة لما زاد على ثلاثـة أصول و قال فيه بالنحت فى كتابه معجم المقاييس، و بالرغم من ذلك فقد اكتفى السـيوطى بمـا نقله عنه من كتـاب الصـاحبى مؤثرا ذكر ما شاع فى بيئـة اللغويين من عـدم التوسع فى القول بالنحت و التمثيل له بأمثلة إن كثرت فهى لا تزيد على ستين مثالا، بينما أورد ابن فارس فى مقاييس اللغة نحو ثلاثمائة مثال «۱».

و يتناول السـيوطى ظواهر اللغة المتصـلة بالمعنى و يتحدث عن كل منها فى مبحث مسـتقل فيتحدث عن «الاشـتقاق» «۲»، و يتضح من نقوله التى أوردهـا عن ابن فارس أحـد معانى الاشـتقاق المتمثلـة فى كونه ظاهرة لغويـة مؤداها أن هناك صـلة فى المعنى بين الألفاظ المشتركـة فى الحروف و هيئـة التركيب فالجن مشـتق من الاجتنان، و هذه الفكرة هى التى بنى عليها ابن فارس معجم المقاييس حيث يورد أصـلا أو أصـلين للمادة اللغوية ثم يرد إلى هذين الأصلين جميع المشتقات من هذه المادة و يبين المناسبة فى المعنى بين المشتق و الأصل و هو ما يسميه بالفرع و الأصل، و يعد ابن فارس هذا الاشتقاق غير قياسى.

و المعنى الثـانى للاشـتقاق هو مـا تناوله ابن جنى فى مقدمـة الخصائص أيضا حيث حاول أن يرد الكلمات المشتركـة فى مادة واحـدة دون مراعاة لهيئتها إلى أصل واحـد، و لم يطبقه ابن جنى إلا فى أمثلـة محـدودة لا يمكن طردها فى سائر مواد اللغـة و لذلك فهو غير معتمد عند اللغويين. (۱) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، انظر دراسات فى فقه اللغة لصبحى الصالح ص ۲۷۷.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۳۴۵، النوع الثالث و العشرون.

و المعنى الثالث للاشـتقاق هو «أخذ صـيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى و مادة أصلية و هيئة تركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة، كضارب من ضرب و حذر» بكسر الذال «من حذر» «۱».

و قد نقل السـيوطى ما حاوله صاحب شـرح التسهيل من الوصول إلى بعض القوانين التى تحكم الاشتقاق بمعناه الأخير، فالتغييرات بين الأصل المشـتق منه و الفرع المشتق خمسة عشر، و هناك وجوه يرجح بها رد الكلمة إلى أصل دون أصل إذا ترددت بينهما، ثم هناك ملاحظات أخرى تتصل باشـتقاق الأعلام و الأصل فى الاشـتقاق و غير ذلك فضـلا عن الخلاف حول تقسـيم الكلام إلى مشـتق و غير مشتق و ذهاب الجمهور إلى صحة هذا التقسيم.

و الواقع أن البحث فى الاشـتقاق بأنواعه المختلفـة إنما هو بحث فى الدلالـة اللغويـة المعبر عنها بالأصوات، و تقدير لمناسـبة الأصوات

للمعانى، فالزيادة فى الصوت أى اللفظ يقابلها زيادة فى المعنى، و قد فهم اللغويون القدماء ذلك و قدروه و راعوه فى مباحثهم.

و يتصل بالتطور الدلالى الذى يلحق معنى الكلم ما بحثه السيوطى فى ثلاثة أنواع هى الحقيقة و المجاز، و الخاص و العام، و المطلق و المقيد.

و بحث الحقيقة و المجاز من الموضوعات التى عنى بها الأصوليون و اللغويون و البلاغيون بيد أن السيوطى قد اعتمد فيه على أقوال اللغويين و الأصوليين فحسب، و كان اعتماده أكثر على الأصوليين.

و الواقع أن النظر فى أقوالهم عن الحقيقة و المجاز يمكن أن يوضح لنا تقديرهم للتغير الدلالى و عوامله و مظاهره، و تقديرهم كذلك لحياة اللغة و نموها و اتساعها حتى يمكن التعبير بألفاظها عن دلالات لم تكن معروفة من قبل فالرازى يذكر فيما ينقله عنه السيوطى أن سبب العدول عن الحقيقة إلى المجاز يكون لأجل اللفظ أو المعنى أو لأجلها «فالذى لأجل اللفظ أما لأجل جوهره بأن تكون الحقيقة ثقيلة على اللسان إما بثقل الوزن، أو تنافر التركيب، أو ثقل الحروف، (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۴۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۷

أو عوارضه بأن يكون المجاز صالحا لأصناف البديع دون الحقيقة، و الذى لأجل المعنى إما لعظمة فى المجاز أو حقارة فى الحقيقة، أو لبيان فى المجاز، أو للطف فيه، أما العظمة فكالمجلس، و أما الحقارة فكقضاء الحاجة بدلا عن التغوط، و أما زيادة البيان فإما لتقوية حال المذكور كالأسد للشجاع، أو للذكر و هو المجاز فى التأكيد» «۱».

ثم يبين التلطف بقوله إن «التعبير بلوازم الشىء الذى هو المجاز لا- يفيد العلم بالتمام فيحصل دغدغة نفسانية فكان المجاز آكد و ألطف» «۲»، و قد بين أن التعبير بالحقيقة يفيد العلم بالتمام و أن التعبير بالمجاز مثير للتشوق إلى معرفة الحقيقة، ثم نقل السيوطى حديث اللغويين و الأصوليين عن الحقيقة و المجاز و بين مواقفهم منها و اتضح أن ابن جنى من الذين يتوسعون فى إطلاق المجاز على كثير من تعبيرات اللغة و عنده أن المجاز يعدل إليه عن الحقيقة «لمعان ثلاثة و هى الاتساع و التوكيد و التشبيه فإن عدمت الثلاثة تعينت الحقيقة»، بيد أنه يعد أكثر اللغة مجازا لا حقيقة.

و ينقل السيوطى عن الرازى محاولة حصر معظم وجوه المجاز فى اثنى عشر وجها، ثم ينقل كيفية التفرقة بين الحقيقة و المجاز.

و من الآراء الغريبة ما نسب إلى الأسفراينى من إنكاره وقوع المجاز فى اللغة، و قد تعقبه ابن برهان فى الأصول فيما نقله عنه السيوطى، كما رجح إمام الحرمين و الغزالى نفى هذا الرأى عن الأسفراينى، و قد نسب إلى أبى على الفارسى إنكار المجاز و هنا علق السيوطى بأن هذا «لا يصح أيضا، فان ابن جنى تلميذ الفارسى و هو أعلم الناس بمذهبه، و لم يحك عنه ذلك، بل حكى عنه ما يدل على إثباته» «۳».

و يتضح من هذا موقف السيوطى فهو من القائلين بوقوع المجاز فى اللغة شأن (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۶۰.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۳۶۱.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۳۶۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۸

جمهور الأصوليين و اللغويين، و هو الرأى الصائب، و قد اتضح من نقوله تهافت حجج المنكرين للمجاز الذين يرون أن جميع اللغة حقائق، و يتضح موقف السيوطى من الحقيقة و المجاز بصراحة فيما أجاب به على سؤال ورد إليه فى «العام المراد به الخصوص» هل هو حقيقة أو مجاز؟ فأجاب بأنه مجاز قطعا «۱».

و لما كان مبنى المجاز على النقل و المناسبة، و نظرا لأهميته فى حياة اللغة و اتساعها فلقد لجأ إليه المجمعيون فى محاولة إمداد اللغة ببعض ما تحتاج إليه فى عصرها الحديث من ألفاظ عن طريق النقل مع مراعاة المناسبة كما حدث فى إطلاق اسم «القطار» و «البرق» و غيرهما مما كان له دلالة قديمة خاصة على بعض المخترعات الحديثة «۲».

و فى مبحث «العام و الخاص» «۳» حاول السيوطى تصنيف ألفاظ اللغة بحسب عموم الدلالة أو خصوصها مقدرا تغير المعنى الذى يعترى الدلالات فينتقل بها من العموم إلى الخصوص أو من الخصوص إلى العموم، و قد قسم هذا المبحث إلى فصول خمسة و هو تقسيم لم يسبق إليه أولها ما وضع عاما و استعمل عاما كالسماء لكل ما علا و الصعيد لكل أرض مستوية، و ذكر أن ما يسميه اللغويون بالكليات من الألفاظ فهو من هذا القبيل.

و فى الفصل الثانى تناول ما وضع عاما ثم خصص فى الاستعمال ببعض أفراده و قد مثل له بلفظ «السبت» الذى يعنى فى اللغة الدهر ثم خص بأحد أيام الأسبوع، و أورد عديدا من الأمثلة غير ذلك، ثم تناول من الألفاظ ما اعتراه تغيير نحو التعميم أى ما وضع فى الأصل خاصا ثم استعمل عاما، فالنجعة- مثلا- أصلها طلب الغيث ثم كثر فصار كل طلب انتجاعا، و القرب طلب الماء ثم صار يقال لكل طلب، و الوغى اختلاط الأصوات فى الحرب، ثم كثر فصارت الحرب وغى، و هناك كثير من الأمثلة التى جمعها السيوطى من كتب

(۱) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۵۵۵، الأسئلة الوزيرية و أجوبتها.

(۲) انظر مقال المجاز و النقل و أثرهما فى حياة اللغة للشيخ محمد الخضر حسين مجلة مجمع اللغة العربية ج ۱ ص ۲۹۱.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۴۲۶ النوع التاسع و العشرون.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۸۹

اللغة بما يبين فهمه و إدراكه لهذا النوع من التغير الدلالى.

و تناول فى الفصل الرابع ما وضع عاما و استعمل خاصا، ثم أفرد لبعض أفراده اسم يخصه و مثل له بما أورده الثعالبى تحت عنوان العموم و الخصوص، فالبغض عام، و الفرك فيما بين الزوجين خاص، و التشهّى عام و الوحم للحبلى خاص و غير ذلك.

و فى الفصل الخامس أورد ما وضع خاصا و استعمل خاصا فالتتابع التهافت و لم تسمع إلا فى الشر، و أولى له: تهديد و وعيد و هلم جرا.

و يدل المبحث السابق على حسن تقسيم السيوطى، و تقديره لتغير الدلالة، و جهده الصائب فى وضع الأمثلة فى مواضعها الصحيحة.

و هناك جانب من الأسماء فى اللغة نص اللغويون على أن مسمياتها لا بد أن تتوفر فيها شروط معينة حتى تستحق اطلاق هذه الأسماء عليها، و قد تناولها السيوطى باسم «المطلق و المقيد» «۱»، فنقل عن ابن فارس الفصل الذى عقده للأسماء التى لا تكون إلا باجتماع صفات، فالمائدة لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام و إلا فاسمها خوان و الظعينة لا تكون ظعينة حتى تكون امرأة فى هودج على راحلة ... و نحو ذلك من الأمثلة، و نقل عن الثعالبى ما سماه بأشياء تختلف أسماؤها و أوصافها بحسب أحوالها فلا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب و إلا فهى زجاجة و نحو ذلك، كما نقل أمثلة أخرى من هذا القبيل.

و على الرغم من أن كثيرا من هذه الأمثلة يسندها الاستعمال اللغوى الفصيح الذى عول عليه هؤلاء اللغويون فإن جانبا غير قليل منها لم يستعمل مشروطا بهذه الشروط التى وضعوها، و لم يراع المتكلمون هذه القيود فيه، فالكأس تستعمل سواء أ كان فيها ماء أم كانت فارغة، و الظعينة تطلق على المرأة و لو فارقت هودجها، و هناك دلائل فى الاستعمال الفصيح تسند ما نذهب إليه، و كان ينبغى على هؤلاء مراعاة التغير الدلالى الذى يعترى الألفاظ فينتقل بها من الخصوص إلى العموم أو العكس و ألا يهملوا عامل التطور و أثره فى اللغة. (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۴۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۰

و قد أشار السيوطى إلى مبحث يعد من طرائف اللغويين يتصل بدلالات الألفاظ و يعتمد على المشترك اللفظى هو «المشجر» «۱»، الذى أفرد له أبو الطيب اللغوى كتابا سماه «شجر الدر» «۲»، و قد اعتمد السيوطى فى مبحثه على كتاب أبى الطيب، و قد نقل عنه ممثلا ما سماه الأول بشجرة العين بفروعها، و اختتم السيوطى نقوله بقوله «ان هذا النوع يناظر من علم الحديث نوع المسلسل» «۳».

و قد تناول السيوطى عددا من المباحث المتصلة بالدلالة أشرت من بينها إلى المشترك اللفظى حين الحديث عن كتاب «حسن السير

فيما فى الفرس من أسماء الطير» الذى مر ذكره، كما أشرت إلى الاتباع صدد دراسة كتابه «الإلماع» و إلى الترادف صدد الحديث عن منظومة «التبرى من معرة المعرى» فلا حاجة بنا إلى أن نكرر ما سبق و لنعد إلى تناول بقية مباحث الدلالة التى لم يسبق الاشارة إليها.

الأضداد:

و التضاد من الملاحظات الصادقة على أكثر اللغات إن لم يكن على جميعها، و قد تناول السيوطى هذه الظاهرة فى أحد فصول كتابه، و مرد التضاد فى اللغة إلى أننا نفكر فى كل صفة مع ما يقابلها فعند ما أقول «أبيض»، فأنا أفكر غير واع فى غير الأبيض و فى ضده أى فى الأسود، و قد عبر عن هذه الحقيقة جوسست ترايز الألمانى بقوله: كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد «۴».

و أكثر اللغويين على أن الكلمة التى تستعمل بمعنيين متضادين سبق لها أن استعملت فى أحدهما فقط ثم استعملت للدلالة على المعنى الآخر فى عصر تال، فعرف لها الاستعمالان، فكأن الكلمة بذلك قد اعتراها تغير دلالى فيما آلت إليه. (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۴۵۴.

(۲) اسم الكتاب: شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة (مطبوع).

(۳) المزهر ج ۱ ص ۴۵۹.

(۴) د. محمود السعران: علم اللغة ۳۱۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۱

و البحث فى التضاد و حصر الألفاظ الدالة عليه من أقدم البحوث اللغوية عند العرب و قد ألف فى الأضداد غير واحد من اللغويين القدماء، كما أدلى فيه أهل الأصول بدلوهم، و قد عقد له السيوطى كما قلناه مبحثا مستقلا «۱».

و الأضداد نوع من المشترك اللفظى و لذلك أشار إليه بعض الأصوليين ضمن مبحث المشترك، و قد نقل السيوطى عنهم و عن اللغويين ما يتصل بالأضداد، و قد عد ابن فارس الأضداد من سنن العرب التى تحدث عنها فالجون للأسود و الجون للأبيض، و قد نقل بعض محاولات القدماء فى تصنيف الألفاظ باعتبار دلالتها على المعانى و اتفاقها أو اختلافها و تقاربها أو تباعدها و هو ما تحدث عنه فى كتاب ما اتفق لفظه و اختلف معناه و سماه ابن فارس أجناس الكلام فى الاتفاق و الافتراق، حيث صنف الألفاظ إلى ثمانية أقسام بهذا الاعتبار، و قد أورد السيوطى عددا كبيرا من الأمثلة للتضاد نقلا عن كتب اللغة، و قد نبه السيوطى على أن ابن درستويه ممن أنكر الأضداد، ثم نقل كثيرا من الأقوال فى مبحثه عن كتاب الأضداد لأبى بكر بن الأنبارى.

أما و قد انتهينا من عرض مباحث الدلالة التى تناولها السيوطى فإننا نختتم بملاحظة نلاحظها على دراسة المعنى و هى أن الأصوليين قد اهتموا بهذا النوع من الدراسة و كانت عنايتهم به بالغة، و قد أفاد السيوطى من دراساتهم و من دراسات اللغويين، و أخرى أن هؤلاء و هؤلاء كان منهجهم فى دراسة اللغة أصواتا أو دلالات منهجا وصفيا يعتمد على النظر فى اللغة و نصوصها و ألفاظها و يدرس دلالاتها، ثم يستخرج بعد ذلك ملاحظاته أو قوانينه، و يصنف الظواهر المدروسة، و هذا هو المنهج الذى ينادى به اللغويون المحدثون، و هو المنهج الذى حاول السيوطى عن طريق نقوله و عرضها أن يبرزه. (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۸۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۲

ضبط اللغة

و هو مبحث صرفىّ معجمىّ دلالىّ يهدف إلى حصر أبنية اللغة و تصنيفها، و الخروج ببعض الضوابط و التفسيرات و الملاحظات الخاصة بهذا الشأن تناوله السيوطى بعنوان «الأشباه و النظائر» «۱»، و قد قسمه السيوطى تقسيما مبتكرا صب فيه مواد اللغة التى جمعها

من شتى المظان فبدأ بحصر أبنية الأسماء مقسما إياها إلى ثلاثى و رباعى و خماسى، و الثلاثى ينقسم بدوره إلى مضعف و غير مضعف، ثم هناك مزيد من الثلاثى المضعف و مزيد من الثلاثى غير المضعف، ثم تحدث عن الرباعى المجرد و المزيد، و الخماسى مجرده و مزيده ذاكرا فى كل من هذه الأنواع الأبنية التى وردت فى اللغة، ثم تناول الأسماء التى ألحق بها فى الوزن غيرها، و عمد بعد ذلك إلى الأفعال و أبنيتها، و بعد أن فرغ منها تناول بعض الظواهر العامة فى أبنية اللغة باسم «ضوابط و استثناءات فى الأبنية» و نقل هنا الملاحظات التى لاحظها اللغويون من قبل على هذه الأبنية، فمن ذلك- مثلا- قول سيبويه: «ليس فى الأسماء و لا فى الصفات فعل» بضم الفاء و كسر العين «و لا تكون هذه البنية إلا للفعل» «۲».

و قد ذكر غير سيبويه أنه لم يأت على هذه البنية إلا: الدّئل اسم دويبة صغيرة و زاد غيره لفظين، و قد عرض السيوطى تحت هذا العنوان لعدد كبير من الأبنية التى وردت بقلة فى اللغة أو التى كان ورودها على وتيرة ما قليلا، و هنا يتضح تفتيش اللغويين القدماء فى اللغة و استدراك بعضهم ما فات على بعض.

كما تناول عددا من الضوابط و الملاحظات اللغوية التى تتصل بالأبنية و الجموع و المصادر و الصفات، و ما يستعمل من الألفاظ معرفة لا يدخله الألف (۱) المزهر ج ۲ ص ۳.

(۲) المزهر ج ۲ ص ۴۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۳

و اللام، و ما لا يستعمل إلا فى النفى، و ما ورد فى اللغة بالتثنية، و غير ذلك من الملاحظات و الضوابط التى جمعها و استخرجها من متفرقات شتى، و التى أراد بها اللغويون أن يخرجوا بجملة من الأحكام يحتذيها الاستعمال اللغوى و لا يحيد عنها.

و الواقع أن جملة كبيرة من هذه الملاحظات تعد وصفا لما هو كائن فى اللغة لا ضبطا لما ينبغى أن يكون بعد، و اللغويون بذلك ينهجون فى لغتهم منهجا وصفيا يعتمد على النظر فى أبنيتها و استعمالاتها، و لذلك فليس ما يلاحظه أحدهم بملزم لغيره إذا لاحظ الآخر ما يعدل الملاحظات السابقة أو ينفيها، و المتتبع لحصرهم لبعض الأبنية و الاستعمالات يرى خير دليل على ما نقول.

و تشهد هذه الدراسة التى قام بها السيوطى بتبحره فى النظر فى اللغة التى حاول بعقليته الجامعة المستقصية المنسقة أن يحصر أبنيتها و يصنف شواردها و يضبط متفرقاتها، و نستأنس على هذا القول بما ذكره عن نفسه بعد عرضه للمعاجم العربية و حديثه عن القاموس بقوله: «و مع كثرة ما فى القاموس من الجمع للنوادر و الشوارد فقد فاته أشياء ظفرت بها فى أثناء مطالعتى لكتب اللغة حتى هممت أن أجمعها فى جزء مذيلا عليه» «۱». (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۰۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۴

نشأة اللغة

لعل أول ما ينصرف إليه ذهن الباحث اللغوى قديما و حديثا هو أن يتساءل كيف تكون للانسان لغة؟ أتوصل الانسان إلى هذا النظام العجيب عن طريق الوحى؟ أم توصل إليه بنفسه؟.

هذه الأسئلة و أمثالها عرفها الناس فى القديم و الحديث، و انتهى علم اللغة أخيرا إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية و معنى ذلك أنها من صنع المجتمع.

و لكن علم اللغة على الرغم من كثرة ما كتبه علماؤه حول هذا الموضوع لم يستطع أن يصل إلى رأى قاطع فى كيفية نشأة اللغة، و ما هى أول لغة كانت؟

و هل ترجع اللغات كلها إلى أصل واحد أم إلى أصول متعددة، و من ثم تنادى كثير من اللغويين المحدثين بنتيجة البحث فى نشأة اللغة عن أبحاث علم اللغة لأنه أقرب إلى الميتافيزيقا منه إلى العلوم، و على الرغم من ذلك فكثير من كتب اللغويين المحدثين لا

تنفک تحفل بهذا الموضوع و بحثه و إن کانت توقن سلفا بنتائجه السلبیة، بل و تحرص علی تأکیدها «۱».

کان طبیعیا أن یتناول السیوطی بحث هذا الموضوع و أن یجعله أول موضوعات کتابه فیعرضه بطریقته النقلیة الغالبة علیه.

و النظر فیما أورده من نقول مختلفة عن اللغویین و الأصولیین تدلنا علی حیرة (۱) انظر: اللغة لفندریس تعریب الدواخلی و القصاص، ص ۲۹ - ۴۲، علم اللغة للدکتور محمود السعران ص ۵۵ - ۵۷، د. علی عبد الواحد وافی: علم اللغة ص ۸۸ - ۹۷. ۴۳۴ -۴۱۲ «nesrepseJottO :egaugnaL :poleveDerutaNstI :nigirOdnatnem» «hceepSfo nigirOehT

القوم جمیعا فی تحدید نشأة اللغة، و باستثناء ابن فارس من اللغویین نستطیع أن نقول إن جمیعهم لم یجزموا بکون اللغة وحیا و توقیفا، و بالرغم من أن القول بالتوقیف قد نسب إلی الأشعری فإن رأیه لم یحظ بتأیید أتباعه فإمام الحرمین ینقل عنه «أن العقل یجوز ذلک کله» «۱»، أی کون اللغة توقیفا أو اصطلاحا، و الغزالی یری جواز القول بالتوقیف و الاصطلاح، و لا یری حجة قاطعة للقائلین بالتوقیف فی قوله تعالی: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ کُلَّها «۲»، و من ثم فالرازی یذکر أن المحققین لا یقولون بالتوقیف و لا بالاصطلاح و إنما هم «متوقفون فی الکل» «۳».

و ابن جنی الذی رجح کون اللغات اصطلاحیة، و ذکر بعض النظریات فی تفسیر نشأة اللغة من کونها من أصوات المسموعات کدوی الریح و حفیف الأشجار و نحوها لا یستطیع أن یدلی برأی قاطع، بل ینتهی إلی التوقف و عدم ترجیح أی قول من هذه الأقوال.

و یتضح أن المعتزلة یقولون بالمواضعة و الاصطلاح و یحاجون عن مذهبهم، و أن القول بالتوقیف لم یصرح بنسبته إلی أهل السنة «۴»، بل أنکر بعضهم نسبته إلی الأشعری «۵».

استطاع السیوطی أن ینقل خلاصة ما یتصل بهذا الموضوع عن اللغویین و الأصولیین و أن یعرضه عرضا یتضح منه جمیع المذاهب، و إذا کان المحدثون کما رأینا قد مالوا بعد طول البحث و الدرس إلی تنحیة هذا الموضوع عن أبحاثهم، فقد توصل بعض القدماء من قبل إلی نفس النتیجة، و قد نقل السیوطی عن صاحب رفع الحاجب «أنه لا فائدة لهذه المسألة، و هو ما صححه ابن الأنباری و غیره، و لذلک قیل ذکرها فی الأصول فضول» «۶».

بید أن السیوطی- لطبیعته النقلیة- لم یصرح بموقفه من هذا المعترک، و لم (۱) المزهر ج ۱ ص ۲۱.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۲۳.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۱۶.

(۴) المصدر السابق ج ۱ ص ۲۰.

(۵) نفس المصدر ج ۱ ص ۲۴.

(۶) نفس المصدر ج ۱ ص ۲۶.

ینتصر لفریق علی غیره، و لم یعقب علی هذه النقول بما یبوح بموقفه، و قد أورد عقب هذه النقول بعض المرویات التی تذهب إلی أن اللّه تعالی علم آدم اللغات و معظمها ینتهی إلی ابن عباس بصدد تفسیر قوله تعالی: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ کُلَّها، و لم یعقب السیوطی بشیء علی هذه النقول تصحیحا أو تضعیفا أو توجیها، فإذا قلنا: إن اختیارات الرجل فی نقوله جزء من عقله، و السمة الغالبة التی یدرکها الناظر فی هذه النقول هی روح التردد أو التوقف عن القول بالتوقیف أو الاصطلاح، و هو کما عبرت عنه کثیر من نصوصهم مذهب المحققین، فلعل السیوطی کان یختار التوقف، مع میل إلی القول بالتوقیف، و نراه فی موضع آخر یلخص هذه الأقوال الثلاثة فی نشأة اللغة و ینسب إلی ابن جنی استحسان بعضها و المیل إلی بعض، و لا یصرح عن موقفه بشیء «۱»، و الذی یجعلنا نذکر میله إلی القول بالتوقیف بعض المیل ما أورده من نقول بصدد تفسیر الآیة السابقة، و هذه النقول ترجح کون اللغة توقیفیة. (۱) الاقتراح ص

۶، ۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۷

الصلة بين اللفظ و المعنى

قدر اللغويون العرب أن هناك مناسبة طبيعية بين اللفظ و مدلوله، أى بين الأداء الصوتى للكلمة و كيفية هذا الأداء و بين معنى الكلمة، و قد بينا عند حديثهم فى الاشتقاق ربطهم الزيادة فى حروف اللفظ أو حركاته أو النقص فيها بالزيادة أو النقص فى المعنى، و هنا تبدو هذه الفكرة التى تهتم بصوتية اللغة أكثر جلاء حيث يتناولها ابن جنى موضحا الصلة بين أصوات الكلمة و بين معناها و ذاكرا سبق الخليل و سيبويه إلى التنبيه إلى هذه الفكرة «۱»، و قد أشار سيبويه من قبل إلى أن المصادر التى اشتركت فى معنى واحد، و هو الحركة و الاضطراب قد اشتركت فى مقال واحد هو الفعلان، و يتضح من حديث سيبويه أن التقارب فى المعنى يؤدى إلى الاشتراك فى المثال الذى يأتى عليه المصدر «۲».

و قد نقل ابن جنى عن سيبويه بعض ما ذكره، و توسع فى إيراد الأمثلة التى تعضد هذا التصور فذكر أن الأفعال الرباعية المضعفة تأتى للتكرير كالزعزعة و القلقلة و غيرها، فالمثال المكرر للمعنى المكرر، و بين المناسبة بين استعمال صيغة «استفعل» للطلب و بين معنى الطلب، و المناسبة بين تضعيف العين فى مثل فرّح و بشّر و بين تقوية المعنى فكأنهم جعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى، بالاضافة إلى الأمثلة العديدة التى استعملت فيها الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فالخضم لأكل الرطب، و القضم لليابس ... إلى آخر ما أورده.

و قد نقل السيوطى خلاصة هذا الباب عن ابن جنى، و يبدو لديه الميل إلى هذه الفكرة التى تذهب إلى وجود المناسبة بين اللفظ و مدلوله، و لذلك فقد أتبع ما نقله عن ابن جنى بذكر مجموعة كبيرة من الأمثلة التى تؤيد ما ذهب إليه (۱) الخصائص ج ۲ ص ۱۵۲- ۱۶۸، امساس الألفاظ أشباه المعانى.

(۲) كتاب سيبويه ج ۲ ص ۲۲۸، ۲۲۹ (طبعة باريس).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۸

سابقه و قد ذكر نسبة هذا القول إلى عباد بن سليمان من المعتزلة، و بين أن جمهور اللغويين يكادون يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ و بين المعانى، و الفرق بين مذهبهم و بين مذهب عباد أنه يراها ذاتية موجبة بخلافهم «۱».

و القائلون بهذه النظرية و زعيمهم ابن جنى يذهبون إلى وجود هذه الصلة فى جميع ألفاظ اللغة فهو يقول: «فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، و لا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولا و أوائل فقد تخفى عنا، و تقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه» «۲».

و هذا القول يعنى وجود مناسبة بين اللفظ و المعنى قد تقرب فيمكن إدراكها لكونها ظاهرة، و قد تبعد فيمكن إدراكها بالتأمل، أو لا يمكن إدراكها لإمكان تطور هذه الألفاظ عن أصول كانت تتضح فيها هذه المناسبة بين اللفظ و مدلوله و أحدث التطور فيها بعض التغيير الذى جعل إدراك هذه المناسبة بعيدا.

و هذه النظرية تتصل فى الواقع بالقول بنشأة اللغة عن الأصوات الطبيعية، و لكن ذلك لا يعنى أن القائلين بوجود المناسبة بين اللفظ و مدلوله يقولون بنشأة اللغة عن هذه الأصوات، فجمهور اللغويين يرون هذه الصلة بين اللفظ و مدلوله بينما يذهبون فى نشأة اللغة مذهبا آخر، و ابن جنى نفسه الذى حكى نظرية نشأة اللغة على هذا النحو لم يقطع بقبوله لها و إنما ذكر أنه «وجه صالح و مذهب متقبل» و أتبع ذلك مستدركا بما يبين توقفه و عدم ترجيحه أحد القولين «۳».

و يتضح مذهب السيوطى فيما عقب به على الأمثلة التى نقلها إذ يقول:

«فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، و كيف فاوتت العرب فى هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى، فجعلت الحرف

الأضعف فيها و الألين و الأخفى و الأسهل و الأهمس لما هو أدنى و أقل و أخف عملا أو صوتا، و جعلت الحرف (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۷.

(۲) الخصائص ج ۲ ص ۱۶۴.

(۳) الخصائص ج ۱ ص ۴۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۲۹۹

الأقوى و الأشد و الأظهر و الأجهر لما هو أقوى عملا و أعظم حسا، و من ذلك المدّ و المطّ، فان فعل المط أقوى، لأنه مدّ و زيادة جذب، فناسب الطاء التى هى أعلى من الدال» «۱»، ثم اختتم الأمثلة الكثيرة التى نقلها للتدليل على المناسبة بين اللفظ و المعنى بقوله: «فانظر إلى هذه الفروق و أشباهها باختلاف الحرف بحسب القوة و الضعف و ذلك فى اللغة كثير جدا، و فيما أوردناه كفاية» «۲».

نستخلص من هذا أن السيوطى قد استوعب نظرات السابقين فى هذا المبحث أيضا، و قد ذهب إلى إثبات المناسبة بين اللفظ و المعنى، على النحو الذى بينه ابن جنى، أى أنّ ثمة صلة بين الألفاظ و المعانى لكنها ليست ذاتية أو طبيعية، و أقوال الأصوليين (علماء أصول الفقه) و التى نقل السيوطى جانبا منها تتخذ موقفا واضحا من هذه القضية، إذ يرون أن هذه الصلة عرفية اعتباطية بحيث لو أطلق لفظ الكفر على الإيمان و لفظ الإيمان على الكفر لكان ذلك ممكنا.

و الواقع أن فكرة الصلة بين اللفظ و المعنى قد شغلت الباحثين فى اللغة- ذلك النظام الصوتى العجيب- فى القديم و الحديث، فقد تصور بعض اليونانيين القدماء وجود صلة طبيعية ذاتية بين اللفظة و معناها، و ذهب آخرون إلى أنها لا تحدو أن تكون صلة اصطلاحية عرفية «۳».

و قد رأينا من انتصر- فى العربية- لفكرة الصلة الذاتية و هو عباد بن سليمان الصيمرى.

و يكاد جميع اللغويين العرب يطبقون على ثبوت نوع من المناسبة بين اللفظ و المعنى على النحو الذى بيّن مظاهره ابن جنى بيد أنهم يخالفون عبادا فى كون هذه الصلة موجبة و هو مرتبط بقول المعتزلة بمراعاة الأصلح فى أفعال اللّه تعالى وجوبا، و أهل السنة يقولون بمراعاة الأصلح فى أفعال اللّه تعالى منا منه و فضلا و ليس وجوبا «۴»، كما ينكرون كون هذه المناسبة ذاتية لأن اللفظ لو دل بذاته (۱) المزهر ج ۱ ص ۵۳.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۵۵.

(۳) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ص ۵۸.

(۴) المزهر ج ۱ ص ۴۷، ۴۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۰

لفهم كل واحد كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، و اللازم باطل فالملزوم كذلك «۱».

و كثير من أبحاث القدماء تسير على هدى من هذه الفكرة التى يتلمس أصحابها المناسبة و الصلة بين اللفظ و مدلوله، فأبحاثهم فى الاشتقاق بنوعيه و بحث الاشتقاق الكبير الذى تناوله ابن جنى، و الذى توسع فيه ابن فارس فى معجم المقاييس و حاول إرجاع المواد المشتركة فى الحروف على الرغم من هيئاتها المختلفة و فروعها المتنوعة إلى أصل واحد أو إلى أصلين لاشتراكها أصلا فى مجموعة من الأصوات المعينة، و قد بدا فى كثير من هذه المواد كثير من التعسف فى محاولة ردها إلى أصول مشتركة، كذلك ما قام به ابن دريد الذى حاول فى كتابه الاشتقاق تعليل الأسماء العربية كأسماء القبائل و الأمكنة و إيجاد المعانى التى ترجع إليها هذه الألفاظ، و كثير من الأبحاث غير ما قدمنا تراعى هذه المناسبة و تحاول إثباتها أو تلمس بعض جوانبها أو مظاهرها.

و فى الحديث نجد يسبرسن يتناول هذه الفكرة «۲»، فيعرض رأى همبلت الذى يذهب إلى أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء عن طريق ألفاظ أثرها فى الآذان يشبه أثر تلك الأشياء فى الأذهان، و يتضح من عرض يسبرسن و حديثه ميله لفكرة المناسبة الطبيعية

بين اللفظ و مدلوله، إلا أنه حذر من المغالاة فى هذا إذ إن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد فى لغة من اللغات، كما أن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام. و قد تناولها إبراهيم أنيس فعرض أفكار السابقين من اليونان و العرب و علماء اللغة من الأوربيين المحدثين، و ذكر ممن عارضها بشدة دى سوسير إذ رأى هذه الصلة اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد، و قد بين الباحث الأسباب التى تدفع إلى التفكير فى وجود الصلة الطبيعية بين اللفظ و مدلوله، و مال إلى القول ببطلان هذه النظرية، و أورد بعض (۱) المزهر ج ۱ ص ۱۶.

(۲)

P ,msilobmySdnuoS :XXretpahc ,nigirOdnatnem poleveDerutaNstI :egaugnaL ۳۹۶. :nesrepseJottO

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۱

الأدلة التى تدعم وجهة نظره و بين أن ما تثيره الألفاظ فى أذهان السامعين من دلالات إنما يرجع إلى اعتبارات كثيرة متنوعة، و ليست هناك صلة طبيعية كما يقولون «۱». (۱) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ص ۵۸- ۷۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۲

الوضع اللغوى

يرتبط بحث القدماء فى الوضع اللغوى بأفكارهم عن نشأة اللغة، و لذلك بحث السيوطى نشأة اللغة و القول بكونها توقيفا أو اصطلاحا تحت اسم «بيان واضع اللغة». و سواء أ كانت اللغة إلهاما أم اصطلاحا أم مزيجا منهما معا بطريقة أو بأخرى،- عندهم- فلا بد من وضع يجعل لفظ كذا بإزاء معنى كذا، و قد تناول بعض المسائل المتصلة بالوضع اللغوى فى كتابه و هى بحوث نظرية أفاض فيها الأصوليون بيد أنها تقوم- فى غالبها- على الاحتمالات الفرضية، و الصور الذهنية الامكانية، و لكن بعض هذه المسائل يمس جوانب هامة فى البحث اللغوى.

فقد تحدث عن الحكمة الداعية إلى الوضع فنقل عن الكيا الهراسى و عن الفخر الرازى ما يبين فهمهما للغة وصلتها بالمجتمع، و أن حاجة الانسان إلى غيره من بنى جنسه هى التى دفعت إلى وضع اللغة «۱».

ثم تحدث عن حدّ الوضع فنقل عن السبكى أنه «تخصيص الشىء بالشىء بحيث إذا أطلق الأول فهم منه الثانى» «۲»، و تناول بعد ذلك الخلاف الذى نشأ و مؤداه: هل وضع الواضع المفردات و المركبات الاسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات الاسنادية؟ و قد نقل السيوطى عن الأصوليين و النحويين و اللغويين أقوالهم و اختلافهم فى ذلك، فذكر أن الرازى و ابن الحاجب و ابن مالك و غيرهم يذهبون إلى أن الواضع قد وضع المفردات دون المركبات الاسنادية و حجتهم فى ذلك أنه لو كان الواضع قد وضع المركبات الاسنادية لتوقف استعمال الجمل على النقل عن العرب كالمفردات. (۱) المزهر ج ۱ ص ۳۶- ۳۸.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۳۸- ۴۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۳

و رجح القرافى و التاج السبكى أن المركبات موضوعة كالمفردات.

و لم يوضح السيوطى موقفه من هذا الخلاف، و الواقع أن بحوث النحويين فى الجملة و ترتيبها و جواز التقديم و التأخير و ما يتصل بنظام الجملة و تركيبها استنادا إلى ما نقل عن العرب يدل على أن القول بأن المركبات موضوعة كالمفردات أقرب إلى الصواب، و هو ما ترسمه النحاة فى بحث نظام الجمل و تركيبها. و قد نقل السيوطى عن أبى حيان فى شرح التسهيل ما يؤكد هذه الفكرة حيث يقول: «العجيب ممن يجيز تركيبا ما فى لغة من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر، و هل التراكيب العربية إلا كالمفردات اللغوية، فكما لا يجوز إحداث لفظ مفرد، كذلك لا يجوز فى التراكيب، لأن جميع ذلك أمور وضعية و الأمور الوضعية تحتاج إلى

سماع من أهل ذلك اللسان، و الفرق بين علم النحو و بين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية و موضوع علم اللغة أشياء جزئية، و قد اشتراكا معا فى الوضع» «۱».

و يشتد الجدل حول كون المركبات موضوعة أم لا، و سبب الخلاف- كما يبدو- عدم تحديد المعنى المراد بالوضع و ما يترتب عليه، فبعض من لا- يرى أن المركبات موضوعة إنما ينفى ذلك لأن القول بكونها موضوعة يعنى أن استعمالها و فهم معناها متوقف على النقل عن العرب كالمفردات، و قد نقل السيوطى عن صاحب البحر المحيط هذه الخلافات، و قد حاول الزركشى أن يتوصل إلى قول يحسم به الخلاف حيث ذهب إلى أن العرب إنما وضعت أنواع المركبات، أما جزئيات الأنواع فلا «۲».

و يكاد ابن جنى يقف على الجادة حين يتصور تطور اللغة و أثر كثرة الاستعمال فى تطور الصيغ، و لكن رغبته فى نسبة الحكمة إلى العرب واضعى اللغة ترجعه عن ترجيح هذه النظرية الصادقة ليقول بأن «ما غير لكثرة استعماله، إنما تصورته العرب قبل وضعه، و علمت أنه لا بد من كثرة استعمالها إياه فابتدءوا بتغييره علما (۱) المزهر ج ۱ ص ۴۲، ۴۳.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۴۵.

بأن لا بد من كثرة الداعية إلى تغييره و هذا فى المعنى كقوله:

رأى الأمر يفضى إلى آخر فصير آخره أولا

و قد كان أيضا أجاز- أى أبو الحسن- أن يكون «قد كانت قديما معربة، فلما كثرت غيرت فيما بعد، و القول عندى هو الأول لأنه أدل على حكمتها و أشهد لها بعلمها بمصاير أمرها» «۱». هذا عن بحث الوضع اللغوى و تطور هذا الوضع.

و تأسيسا على هذا فهم يفسرون ظاهرة اختلاف اللهجات العربية باختلاف الوضع الأول فما وضع فى الأصل وضع مختلفا ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها غير أنها على قياس ما وضع فى الأصل مختلفا «۲»، و نجد السيوطى حين يتحدث عن هذه الفكرة ينقل بعض حديث ابن جنى و لا يعقب بشىء فكأنه يتابعه فى فكرته «۳».

و قد أنكر أمين الخولى على القدماء بحثهم فى الوضع بهذا المنهج، و أنكر فكرة ابن جنى و غيره التى دفعت اللغويين إلى أن يردوا كل شىء فى «اللغة» إلى الوضع الذى وضعه الواضع الأول بحكمة استقبلت من أمر الحياة ما استدبر، و تعرفت المستقبل فصيرت الآخر أولا» «۴».

و قد انتهى من حديثه فى الوضع اللغوى و ما عرف عند القوم بعلم الوضع إلى نتائج مضمونها عدم التسليم بأن العربية قد تكونت بالوضع على النحو الذى بينوه، و أن علم الوضع يقوم على أساس مناقض لطبيعة اللغة الاجتماعية، فهو عمل عقلى صناعى لا لغوى، و أن التطور أصل أصيل فى حياة اللغة «۵».

و قد رأينا إدراك القدماء لهذا التطور فى حياة اللغة، بيد أنه قد شابه عندهم و ألقى عليه كثيرا من الظلال ما أرادوه من نسبة الحكمة إلى العرب، بالإضافة إلى بعض الأفكار غير الصحيحة التى حالت دون ظهور التصورات الواقعية و سيادتها. (۱) الخصائص ج ۲ ص ۳۱.

(۲) الخصائص ج ۲ ص ۲۹.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۵۵، ۵۶.

(۴) مشكلات حياتنا اللغوية ص ۳۴.

(۵) المصدر السابق ص ۴۱، ۴۲.

المعاجم اللغوية

عنى السيوطى بالحديث عن جمع اللغة، و عرض فى هذا الحديث بدراسة لأهم المعاجم اللغوية، بحيث تعد دراسته أقدم دراسة للمعاجم العربية، و قد اعتمد عليها بعض من تناول الموضوع من بعده «۱».

و قد بدأ السيوطى بالحديث عن كتاب العين فهو أول معجم لغوى، و قد أورد انتقادات اللغويين له، و إنكار نسبته إلى الخليل لما تخلله من خلل أو تصحيف، و قد قام السيوطى كما حكى عن نفسه بمطالعة كتاب العين فرأى «وجه التخطئة فيما خطئ فيه غالبه من جهة التصريف و الاشتقاق كذكر حرف مزيد فى مادة أصلية أو مادة ثلاثية فى مادة رباعية و نحو ذلك، و بعضه ادّعى فيه التصحيف، و أما أنه يخطأ فى لفظة من حيث اللغة بأن يقال: هذه اللفظة كذب أو لا تعرف فمعاذ اللّه، لم يقع ذلك» «۲».

و نحن هنا نلحظ اهتمام السيوطى نظرا لطبيعته النقلية الحديثة بناحية الثبوت الصحيح للغة، و من هنا فهو يوثق كتاب العين من هذه الناحية، و هذه النظرة هى التى تحكم دراسته لجمع اللغة، و قد تحدث عن كتاب العين و ترتيبه، و اهتم بالحديث عن رواته و من تحمله عن الخليل، ثم خلص بعد ذلك إلى تناول معجم الجمهرة لابن دريد و قد نسج صاحبه على منوال العين، و قد نقل السيوطى بعض مقدمة الكتاب التى يبين فيها صاحبه هدفه من مؤلفه، ثم أورد انتقاد ابن جنى لكتاب الجمهرة لاضطرابه من حيث أبنية التصريف، و نبه السيوطى على أن مقصود ابن جنى أن الاضطراب «من حيث أبنية التصريف و ذكر الموادّ فى غير محالّها كما تقدم فى العين» «۳»، و هو بذلك يريد أن يدفع توهم (۱) د. حسين نصار: المعجم العربى نشأته و تطوره ص ۴.

(۲) المزهر ج ۱ ص ۸۶.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۹۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۶

الاضطراب من حيث وثاقة المادة اللغوية، و لذلك نجده يدافع عن ابن دريد و يرد على هجوم الأزهرى الذى رماه بافتعال اللغة قائلا: «معاذ اللّه هو برىء مما رمى به، و من طالع الجمهرة رأى تحرّيه فى روايته ... و لا يقبل فيه طعن نفطويه لأنه كان بينهما منافرة عظيمة .... و قد تقرر فى علم الحديث أن كلام الأقران فى بعضهم لا يقدح» «۱».

و السيوطى بذلك يصب عنايته على وثاقة المادة اللغوية و صحتها، و قد جره ذلك إلى الحديث عن نسخ الجمهرة، و ذكر أنه ظفر بنسخة منها قرئت على ابن خالويه بروايته لها عن ابن دريد، و السيوطى بذلك قد وقف على نسخة صحيحة من الجمهرة «۲». ثم أشار السيوطى إلى كتب اللغة: ما كان عاما فى أنواع اللغة و ما كان خاصا فى نوع منها كالأجناس للأصمعى و النوادر و اللغات لأبى زيد، و النوادر للكسائى و التهذيب للأزهرى و المجمل لابن فارس، و قد ذكر عددا كبيرا من هذه الكتب، ثم ذكر أن أول من التزم الصحيح من اللغة مقتصرا عليه هو الجوهرى فى كتابه الصحاح و قد ذكر السيوطى أنه فى اللغة يقابل الصحيح فى الحديث للبخارى «۳»، و قد تحدث السيوطى عن هذا الكتاب و ما قيل فيه، و ما وضع عليه من الحواشى، ثم ذكر أن ابن فارس معاصر الجوهرى قد اقتصر أيضا على الصحيح فى المجمل «۴»، ثم ذكر أن أعظم ما ألف فى اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكم لابن سيدة يتلوه كتاب العباب للصغانى، يليهما القاموس «۵» للفيروزآبادى و قد نقل السيوطى بعض مقدمة القاموس.

و قد عرض السيوطى بذلك- على طريقته- للمعاجم اللغوية و تدرجها التاريخى حتى عصره، و قد حاول أن يجمع فى حديثه بين الترتيب الموضوعى (۱) المصدر السابق ج ۱ ص ۹۳، ۹۴.

(۲) نفس المصدر ج ۱ ص ۹۵.

(۳) المزهر ج ۱ ص ۹۷.

(۴) المزهر ج ۱ ص ۹۹.

(۵) المزهر ج ۱ ص ۱۰۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۷

و الترتيب الزمنى كما أنه كان يعنى العناية الكبرى بوثاقة المادة اللغوية و صحتها نظرا لطبيعة منهجه النقلى الحديثى الذى يصب عنايته على النقول و صحة الأسانيد، و هذه النظرة إلى اللغة إنما أتتها من كونها لغة يعتمد عليها فى تفسير القرآن و الحديث و استنباط الأحكام الشرعية، و نظرا لصلتها الوثيقة بالدين بصفة عامة، مما جعل القوم يهتمون بالحديث عن صحتها و ثبوتها و وثاقاتها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۸

اثبات الأسماء بالقياس

تناولت فى بحثى عن ظاهرة القياس هذا الموضوع بشىء من التفصيل و قد بينت أنه من مباحث الأصوليين الهامة، كما وجدت له إشارات هامة لدى اللغويين، و هو يقوم على أمرين: أولهما النظر فى بعض الأسماء لمعرفة المعنى الذى اشتق منه الاسم أو وضع له، و ثانيهما إذا ما تحقق هذا المعنى فى اسم غير الاسم السابق أمكن إطلاق الاسم الأول على الاسم الثانى على اعتبار أن هذه التسمية حقيقية و ليست من قبيل المجاز.

و هم يمثلون لهذا القياس باثبات اسم الخمر للنبيذ على أساس أنها تسمية حقيقية لغوية، و ليست تسمية مجازية، ذلك أن الخمر إنما سميت خمرا لأنها تخمر العقل، و قد تحقق هذا المعنى فى النبيذ فأمكن إطلاق اسم الخمر عليه «۱».

و قد تبين لى أن جمهور الأصوليين و اللغويين ينكرون ثبوت اللغة بالقياس على النحو السابق حتى ابن فارس- الذى حاول أن يطرد الاشتقاق فى اللغة و أن يرد ألفاظها إلى معان مشتركة، فقرر أن «للغة العرب قياسا و أن العرب تستق بعض الكلام من بعض .. إلى آخره» «۲»، و طبق هذه الفكرة فى معجمه مقاييس اللغة-، لم يجز هذا النوع من القياس بل قرر أنه «ليس لنا اليوم أن نخترع فى اللغة و لا أن نقول غير ما قالوه و لا أن نقيس قياسا لم يقيسوه لأن فى ذلك فساد اللغة و بطلان حقائقها، و نكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياسا نقيسه الآن نحن» «۳».

و قد أورد السيوطى فى الحديث عن هذا الموضوع نقولا عن بعض الأصوليين توضح إنكارهم لثبوت اللغة بالقياس و هجومهم على من يقول بهذا الرأى، (۱) المستصفى ج ۱ ص ۳۲۲.

(۲) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۳

(۳) الصاحبى فى فقه اللغة ص ۳۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۰۹

فنقل عن الكيا الهراسى و ابن برهان و إمام الحرمين و الغزالى نقولا ينكر فيها أصحابها ثبوت اللغة على هذا النحو.

و الواقع أن موقف هؤلاء صحيح تماما، و هو ما كانت له السيادة فى البيئتين الأصولية و اللغوية، ذلك أنهم لاحظوا أن اللغة لا يطرد فيها تسمية الأشياء بحسب المعانى، فالنبج لا يسمى خمرا و إن كان يخامر العقل، و الدار لا تسمى قارورة و إن كانت الأشياء تستقر فيها، كما أن الواقع اللغوى الذى يرى اللغة ظاهرة اجتماعية قائمة على الاصطلاح و المواضعة بين أبناء المجتمع يثبت أن معانى الألفاظ إنما حددها ما تعارف عليه المجتمع، و أن تطور الدلالات أو تغيرها تعميما أو تخصيصا أو تضادا يخضع لقوانين معينة ليس من بينها هذا القياس العقلى النظرى المجرد، و لذلك فلقد أصاب القدماء فى إنكارهم ثبوت اللغة على النحو السابق لأنه تعميم للدلالة أو تغيير لها دون وضع اعتبار لما تعارف عليه المجتمع الناطق لها من تعيين كل لفظ بازاء دلالة معينة، و دون أن يكون هذا التغيير حادثا عن طريقه الطبيعى، و لذلك فقد نص هؤلاء المنكرون على أن اللغة إنما تثبت نقلا عن العرب.

و ليس هذا المبحث كما يبدو مبحثا نظريا عقليا تماما، بل هو مبحث عملى يهتم به الأصوليون لصلته بالحكم الشرعى و احتمال تغيره

تبعا لتغير مدلول اللفظ أو تعميم هذا المدلول أو تخصيصه، فمن يسمى النبيذ خمرا لتحقق معنى المخامرة فيه يدخله فى عموم قوله صلى اللّه عليه و سلم: «حرمت الخمر لعينها»، و لذلك فانكارهم ضرورى لتفسير نصوص القرآن و السنة المتصلة بالأحكام الشرعية بحسب الدلالات التى كانت لألفاظها أوان البعثة و قبل أن يطرأ تغير أو تطور لهذه الدلالات، ذلك أن هذا القياس مبناه على تعميم دلالات خاصة فكأنه يعطى بعض الألفاظ ما لم يكن لها و ما لم يعرفه المجتمع الناطق لها، و فى ذلك خطورة على النص الشرعى.

و يتصل بحث هذا الموضوع بنشأة اللغة فقد يتصور أن من يقول بكونها مواضعة و اصطلاحا يمكن أن يجيز هذا النوع من القياس، و من يقول بالتوقيف لا يجيزه، و لكنّ الحقيقة أننا لا نرى من بين القائلين بالمواضعة أو المتوقفين فى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۰

نشأة اللغة من ينتصر لهذا القياس و يرى ثبوت الألفاظ به، و هو ما عبر عنه السيوطى بانكار جواز قلب اللغة «۱»، و فى هذا دلالة على النظرة الواقعية إلى حد كبير فى اللغة، ذلك أن حقيقة إنكار هذا النوع من القياس فضلا عن صلته بالأحكام الشرعية تكمن فى أن هذه الألفاظ لم يتح لها من تعارف مجتمع الناطقين بها ما يسوغ استعمالها، فاللغة مواضعة بين جميع الناطقين و هى من صنع المجتمع، و ليست من صنع فرد أو مجموعة من الأفراد.

إنّ بحث القدماء لا سيما الأصوليين لهذا الموضوع يؤكّد إدراكهم الصحيح لعرفية اللغة، و أنّ دلالات ألفاظها عرفية لا يجوز للعقل أن يتدخل فى تغييرها أو تبديلها و لذلك يكثر عند الأصوليين أن يقولوا «لا مجال للعقل فى اللغات» أو «لا قياس فى اللغات» و هم يعنون ما بيناه من تأكيد هذه العرفية، و يدحض ما يتوهمه بعض الدارسين المحدثين الذين يتصورون أن المعنى عند الأصوليين عقلى. (۱) الاقتراح فى علم أصول النحو ص ۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۱

الفصل الثانى

النحو

اشارة

أريد بهذا الفصل أن يكون إكمالا لحديثنا السابق عن لغوية السيوطى، فالصلة بين اللغة و النحو جد وثيقة، و قد فهم النحاة العرب هذه الصلة التى يتضح منها أن النحوى يبدأ عمله من حيث ينتهى اللغوى، و لكنهما يلتقيان فى مرحلة من المراحل، و يكاد يكون بحثهما واحدا، و قد حدد عبد اللطيف البغدادى الفرق بينهما بقوله: «اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب و لا يتعداه، و أما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى و يقيس عليه، و مثالهما المحدّث و الفقيه، فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم ان الفقيه يتلقاه و يتصرف فيه، و يبسط فيه علله، و يقيس عليه الأمثال و الأشباه» «۱».

و قد أغفل هذا التحديد جانبا هاما من عمل اللغوى، و هو وصف الظواهر اللغوية المتعلقة بالأصوات و الدلالات و الأبنية و غيرها مما سبق لنا بيانه و الحديث عنه، كما أن مهمة النحوى تبدأ بالتثبت من صحة المنقول من اللغة، و كأنه بذلك يشارك اللغوى نفس مهمته، و قد عرف عن كثير من النحاة مشاركتهم فى رواية اللغة و بصرهم بها فضلا عما قاموا به من جهود نحوية كبيرة.

و إذا كان ثمة تداخل بين ما يقوم به اللغوى و بين ما يقوم به النحوى، و إذا كان مفهوم الدراسة اللغوية فى عصرنا قد أصبح أعم و أوسع من مفهوم هذه الدراسة عند القدماء، حيث أصبح اللغويون المحدثون يتناولون نحو معظم اللغات تحت موضوعين أساسيين هما المورفولوجيا ygolohproM و النظم xatnyS، و هما فرعان أو مستويان من مستويات الدراسة اللغوية التى تضم (۱) المزهر ج ۱ ص ۵۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۲

إليهما الـدراسات الصوتيـة و المعجميـة و الدلاليـة، بالإضافة إلى القضايا اللغوية العامة، إذا كان هذا هو مفهوم الدراسة اللغوية الحديثة فإننا نريد بهذا الفصل دراسة المسـتوى النحوى الذى يشـمل أيضا الدراسة الصرفية. و سنبدأ بالتعريف بآثاره النحوية بصفة عامة لنصل بعـد ذلـك إلى دراسـة جهوده فى النحو و أهمهـا دراسـته لأـصول النحو التى كـان له فيها جهـد كبير و فضل لا ينكر، ثم نحاول تبين مذهبه النحوى من خلال آرائه المتناثرة فى كتبه فضـلا عما نسترشد به من أفكار تتصل ببيئته و شـيوخه و تكوين منهجه مما عرضـنا له من قبل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۳

آثاره النحوية

اشارة

عدد السـيوطى لنفسه ثلاثين مصنفا فى فن العربية و تعلقاته «۱»، بيـد أنه لم يسـتوف بذلك جميع ما نسب إليه، و قد وقفت على جملة صالحـة من هـذه الآثار ما بين مطبوع و مخطوط، و لا أرى بأسا فى أن أتناول هـذه الآثار بالتعريف، و يبدو أن ما لم يذكره مما نسـب إليه قد أتمه بعد كتابة ترجمته التى سرد فيها أسماء كثير من مصنفاته.

و يضرب السيوطى بمؤلفاته النحوية أمثلة لجميع أنواع التصنيف التى عرفت فى عصره، فقد نظم النحو فى ألفية أراد بها أن يفوق ألفية ابن مالك، و له موشـحة فى النحو، و جملة من الحواشى و الشروح بعضها على متون أو منظومات له، و بعضها على منظومات أو متون لغيره، بالاضافة إلى جملة من المصنفات و الرسائل فى بعض المسائل الجزئية.

و قـد حاول بمؤلفاته أن يطرق جميع الجوانب النحويـة، و أن يسد الفراغ الذى رآه فى بعض هذه النواحى، فقد صـنف فى الأصول، و فى نشأة النحو، و حاول أن يجارى سابقيه فى بعض المصـنفات كشـرح الألفية، و أن يسـتقل عنهم فى بعضـها كجمع الجوامع و شرحه همع الهوامع، كما وضع مصنفا نحويا على نمط مصنفات الفقه و هو الأشباه و النظائر و سنعرض فيما يلى لهذه الآثار:

۱- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية:

(طبعت مع مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية من ص ۴۹- ۵۳).

رسالـة صـغيرة له أورد فيها الروايات التى تتحدث عن بداية اللحن فى زمن الصـحابة، و بداية التفكير فى وضع أصول لضـبط القراءة و الكلام، و هذه النقول (۱) حسن المحاضرة ج ۱ ص ۱۹۳- ۱۹۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۴

بعضـها ينسب إلى على بن أبى طالب رضـى اللّه عنه بدايـة التفكير فى وضع النحو، و بعضـها ينسب هذه النشأة إلى أبى الأسود أو إلى غيره من طبقة تلاميذه، و قد اختتما بالحديث عن وضع الصرف و نسبة أوليته إلى معاذ بن مسلم الهراء.

و تبدو فى هذه الرسالة عناية السـيوطى بمحاولة تحديد نشأة النحو، بيد أنه يطبق منهجه النقلى فى هذه الرسالة فهو لا يبدى تعليقا على أحد هذه النقول، و لم ينتقد سوى الوهم الذى وقع فيه شـيخه الكافيجى من نسـبة الصرف إلى معاذ بن جبل رضى اللّه عنه، حيث ذكر السيوطى أن صحة هذه النسبة أن تكون إلى معاذ بن مسلم الهراء.

۲- الأشباه و النظائر فى النحو:

(مطبوع: حيدرآباد ۱۳۱۸ ه).

بين السيوطى فى مقدمة كتابه أن السبب الحامل له على وضع هذا الكتاب هو أن يسلك بالعربية سبيل الفقه على مثال ما صنفه المتأخرون من الفقهاء من كتب الأشباه و النظائر، و قد تحدث السيوطى عن أنواع الموضوعات الفقهية التى تناولتها المصنفات الفقهية، و بين أن هذه الأنواع قد اجتمعت فى كتاب «الأشباه و النظائر» لتاج الدين السبكى، و قارنه بغيره من مصنفات الفقهاء التى لم تستوف جميع الموضوعات. و قد أراد السيوطى لكتابه هذا أن يسير على منهج كتاب السبكى الموضوع فى الفقه و قد صرح بذلك فى قوله: «و هذا الكتاب الذى شرعنا فى تحديده فى العربية يشبه كتاب القاضى تاج الدين الذى فى الفقه فإنه جامع لأكثر الأقسام، و صدره يشبه قواعد الزركشى، من حيث إن قواعده مرتبة على حروف المعجم» «۱».

و قد رتب السيوطى كتابه على سبعة فنون الأول: فن القواعد و الأصول التى تردّ إليها الجزئيات و الفروع و هذا مرتب على حروف المعجم، و هو معظم الكتاب، و قد تناول فيه كثيرا من مباحث النحو كالاشتقاق و الشرط و الاضافة و غير ذلك، و هذا القسم يستغرق الجزء الأول من الكتاب.

و قد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعة عنوانا مستقلا قدم له بخطبة (۱) الأشباه و النظائر ج ۱ ص ۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۵

فسمى القسم الأول «بالمصاعد العلية فى القواعد النحوية» و قد اكتفى فى التقديم له بالخطبة الأولى للكتاب.

و الثانى: فن القواعد الخاصة و الضوابط و الاستثناءات و هو مرتب على الأبواب لاختصاص كل ضابط ببابه فبدأ بباب الكلمة ثم باب الاسم فباب الفعل و هكذا، و وضع له اسما هو «التدريب» و قد استغرق- فى هذه الطبعة- من بداية الجزء الثانى إلى صفحة ۱۰۳ من الجزء نفسه.

و الثالث: بناء المسائل بعضها على بعض و قد سماه «بسلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب»، و يستغرق هذا القسم من ص ۱۵۳ بالجزء الثانى إلى ص ۱۷۱ و قد أشار فى المقدمة إلى أنه ألف من قبل فى هذا الموضوع تأليفا لطيفا سماه «السلسلة» مقتفيا أثر الجوينى الذى صنف فى الفقه فى هذا الموضوع بنفس الاسم و الزركشى الذى صنف فى الأصول باسم «سلاسل الذهب»، و لا نشك فى أن ما أورده السيوطى هنا هو نفس مصنفه القديم مع بعض زيادات قد أضافها.

و قد بدأ السيوطى هذا الفن بالكلام على بناء فعل الأمر فهو مبنى عند البصريين و معرب مجزوم بلام محذوفة عند الكوفيين، و الخلاف هنا مبنى على الخلاف فى ثلاث مسائل الأولى: هل الاعراب أصل فى الفعل؟، و الثانية: هل يجوز إضمار لام الجزم؟ و الثالثة: هل الأمر صيغة مستقلة بنفسها مرتجلة ليس أصلها المضارع أو هى صيغة مغايرة و أصلها المضارع؟.

الرابع: فى الجمع و الفرق و قد سماه «اللمع و البرق فى الجمع و الفرق»، و يستغرق من ص ۱۷۱ من الجزء الثانى إلى ص ۲۶۴ من نفس الجزء، و قد بين فيه جملة فروق كالفرق بين ضمير الشأن و سائر الضمائر.

الخامس: الألغاز و الأحاجى و المطارحات و الممتحنات و قد سماه «الطراز فى الألغاز»، و يشمل من ص ۲۶۵ إلى آخر الجزء الثانى ص ۳۲۳.

السادس: فى الأفراد و الغرائب، و قد سماه «التبر الذائب فى الأفراد و الغرائب» و يستغرق من بداية الجزء الثالث إلى ص ۱۴ منه.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۶

و السابع: المناظرات و المجالسات و المذاكرات و المراجعات و المحاورات و الفتاوى و الواقعات و المكاتبات و المراسلات، و يشمل من ص ۱۵ بالجزء الثالث ثم جميع الجزء الرابع إلى نهاية الكتاب.

و الـذى يعنينا مما سـبق بيان تأثر السـيوطى بالعلوم الاسـلامية تأثرا كبيرا بحيث تركت هذه العلوم أثرها فى عقله و منهجه فى التفكير و التأليف، و قد سبق أن بينت أن الحديث و الفقه و العربية هى الفنون الثلاثة التى أجادها السيوطى و بلغ فيها درجة الاجتهاد، و قد تبين لنا من قبل أثر الحـديث و مناهـج المحدثين فى كتابه المزهر الذى حاول فيه وضع أصول لنقد الرواية اللغوية تحاكى أصول الحديث، و هنا يتبين جانب آخر من آثار هذه العقلية الاسـلامية الخالصة التى تمثلت العلوم الاسـلامية فى محاولة تصـنيف المسائل النحوية على نمط المسائل الفقهية.

و لقد كان السـيوطى يدرك الصلة بين النحو و الفقه و سنتحدث بعد قليل عن جهوده فى أصول النحو التى تحاكى أصول الفقه، و هو هنا يطبق هـذه الصـلة بين فروع النحو و بين فروع الفقه، و قـد نقل عن ابن الأنبارى ما يؤكـد هـذه الفكرة، و هى أن «النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول» «۱».

و تطبيق السـيوطى منهج المحدثين فى رواية اللغة، و منهج الأصوليين فى وضع أصول للنحو، و منهج الفقهاء فى تصـنيف فروع اللغة و مسائلهـا و ربطه فى جميع ذلك بين اللغـة و بين علوم الحـديث و الفقه و الأصول يلفتنا إلى فكرة هامـة سـبق أن أشـرنا إليها و هى أن نظرته و نظرة القوم إلى اللغـة كانت تحمل فى طياتها كثيرا من التحرج و العناية و التحقيق الذى نجده فى نظرتهم إلى العلوم الدينية، و كان تناول اللغة يتخذ منطلقه من هذه الزاوية.

۳- الاقتراح فى علم أصول النحو:

(مطبوع، رجعت إلى الطبعة الثانية حيدرآباد ۱۳۵۹ ه).

يعد أهم مصنفات السيوطى فى النحو، و من أهم مصنفاته على الاطلاق، (۱) الأشباه و النظائر ج ۱ ص ۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۷

و سنتناوله بشىء من الدرس المفضل بعد قليل حين نتحدث عن علم أصول النحو لنتبين دور السيوطى فى إقامة دعائم هذا العلم

۴- الفريدة:

(و هى الألفية النحوية للسيوطى، طبعت بالقاهرة عام ۱۳۳۲ ه)، و بصدرها عبارة منسوبة للسيوطى و هى «هذه الألفية لخصت فيها ما فى ألفيـة ابن مالك فى سـتمائة بيت و زدتها أربعمائـة بيت من القواعـد و الزوائـد ما لا يسـتغنى طالب العلم عنه»، و قـد وضح ما زاد، فى منظومته على ابن مالك بوضـعه بين قوسـين، و يبدو أن ذلك الترقيم منقول عن النسـخة الأولى التى كتبها السيوطى، و قد وقفت على صحة نسبة العبارة السابقة إليه «۱».

أراد السيوطى لمنظومته أن تزيد على منظومة ابن مالك التى قدّر لها من الشيوع و الشهرة ما لم يقدر لغيرها من المنظومات النحوية، و قد قدم لها بمقدمة منظومة حمد اللّه فيها و صلى على نبيه و أشار إلى أهمية علم النحو ثم قال:

فهذه ألفية فيه حوت أصوله و نفع طلاب نوت

فائقة ألفية ابن مالك لكونها واضحة المسالك

و جمعها من الأصول ما خلت عنه و ضبط مرسلات أهملت

ترتيبها لم يحو غيرى صنعه مقدمات ثم كتب سبعة

و هكـذا صـرح بأنه أراد أن يفوق ما قام به ابن مالك ثم بين ترتيب المنظومـة فى مقدمات ثم سـبعة أبواب يشـمل كل منها جملة من

الفصول، و يتفق هـذا الترتيب مع ترتيب ألفيـة ابن مالك فى كثير من الأحيان، و لا يتخلف إلا فى أحيان قليلـة، ففى المقـدمات تناول السـيوطى الكلام و ما يتألف منه، و المعرب و المبنى، و النكرة و المعرفة، و العلم و أسـماء الاشارة، و المعرف بالأداة، و الموصول، ثم الموصول الحرفى، و هـذه الفصول هى نفس ما تناوله ابن مالك فى الألفيـة بيد أنه تحدث عن الموصول قبل المعرف بالأداة، كما أنه لم يتنـاول الموصـول الحرفى، فهو من زيـادات السـيوطى على ابن مالـك فى ألفيته. (۱) ذكر السـيوطى هـذه العبارة أثناء شـرحه على الألفية: المطالع السعيدة (مخطوط) ورقة ۵ ص ۱۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۸

و خصـص السـيوطى الكتـاب الأول للعمـد و هى المرفوعـات و المنصوبـات بالنواسـخ، و الثـانى للفضـلات، و الثـالث للمجرورات و المجزومات و ما يتبعها، و الرابع للعوامل، و الخامس للتوابع، و السادس للأبنيـة، و السابع للتصاريف، و اختتم الألفيـة بخاتمه فى الخط، و نلاحظ أن هذا الترتيب هو نفس ما وضعه السيوطى فى كتابه جمع الجوامع الذى شرحه بهمع الهوامع.

و قـد اقتضـى هـذا الترتيب من السـيوطى ألا يتبع نفس ترتيب ألفيـة ابن مالك، بيـد أنه تناول نفس الأبواب التى تناولها ابن مالك فى منظومته مع اختلاف يسير فى تسمية بعضها، و زيادة فصول قليلة.

و قـد أراد السـيوطى بمنظومته أن يسـتدرك ما فات ابن مالك أو أن يفصل ما أجمله فهو يزيـد على ما أوضـحه ابن مالك فى حديثه عن أقسام الكلمة إلى اسم و فعل و حرف يقول:

فان على معنى بها قد دلت و اقترنت بأحد الأزمنة

فعل و إلا فهى اسم و التى بغيرها حرف وسم بالفضلة

و ليس السيوطى سابقا بهذا فكثير من شروح الألفية التى سبقته قد نصت عليه، و لكن منظومة ابن مالك لم تنص على هذا المعنى.

و الحق أن هذه المنظومة تدل على شخصـية السـيوطى النحوية و قد عنى هذه الزيادات و الاسـتدراكات أو التغييرات التى قام بها عناية تامة واعية، و قد نبه على ذلك فى شـرحه الذى وضعه لهذه الألفية، كما نبه عليه فى كتابه «النكت»، و إكمالا للقول فى ألفية السيوطى يحسن أن نعرف بشرحها الذى وضعه لها و عنوانه:

۵- المطالع السعيدة فى شرح الفريدة:

(مخطوط ضخم الحجم بالخزانة التيمورية برقم ۵۸۱ نحو، بدار الكتب المصرية).

بدأ السـيوطى شـرحه بحمد اللّه و الصـلاة على نبيه ثم بين أنه تعليق على ألفيته المسـماة بالفريدة و وصـفه بأنه «كثير الفوائد العديدة و جم الفرائد المفيدة» «۱»، ثم (۱) المطالع السعيدة ورقة ۱ ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۱۹

أورد البيتين اللذين افتتح بهما ألفيته و هما:

أقول بعد الحمد و السلام على النبى أفصح الأنام

النحو خير ما به المرء عنى إذ ليس علم عنه حقا يغتنى

ثم أتبعهما بشـرح مسـتفيض للبيت الأخير تناول فى هذا الشـرح ثلاثة موضوعات أولها فى فضل النحو و الحث على تعلمه فأورد جملة من الآثـار فى ذلـك، ثم تحـدث عن نشأة النحو و أول من نسب إليه وضع النحو، و قـد نقل كثيرا من الروايات و ذكرها بأسانيـدها، و كثير منها هى نفس النقول التى أوردها فى رسالته السابقـة عن سـبب وضع علم العربيـة، ثم تحـدث عن الحاجـة إلى تعلم النحو، و أن المفسـر يشترط أن يكون مجيـدا لعلم النحو و كذلك المحدث و الفقيه و الأصولى و البلاغى و الأديب، و استشـهد على ذلك بجملة

من النقول، و عقب عليها بقوله: و بهذا الذى بيناه عرف تقدير قولى: «إذ ليس علم عنه حقا يغتنى»، و قد استغرقت هذه الموضوعات التى تعد مقدمة لشرحه النحوى نحو عشر صفحات تميز أسلوبه فيها بالوضوح و السلاسة، و تميزت نقوله بالتعبير المصيب المناسب.

و أخذ السيوطى يورد أبيات الألفية مجزأة، و أتبعها بالشرح و البيان، و الحق أن أسلوبه فى شرحه أسلوب سهل شديد الوضوح ليس فيه جفاف أساليب بعض النحاة، مع عناية بالحصر و التفصيل و الاستدراك على السابقين، و تنسيق الأقوال المختلفة، و قد نص فى شرحه على ما سبق ذكره من تلخيصه جميع ما فى ألفية ابن مالك فى ستمائة بيت و زاد عليها بأربعمائة بيت: «فيها من القواعد و الفوائد و الزوائد ما لا يستغنى طالب النحو عنه، فبذلك فاقت ألفية ابن مالك، و فاقتها أيضا بالتنبيه على قيود أهمل ابن مالك ذكرها، و بكونها أوضح عبارة من عبارة الألفية» «۱».

و الواقع أن السيوطى ليس مدعيا فيما يذهب إليه، فقد زادت ألفيته تفصيل بعض ما أغفله ابن مالك، كما أن نظمه أقرب إلى الفهم من نظم ابن مالك. (۱) المطالع السعيدة ورقة ۵ ص ۱۰.

و الشرح- بطبيعة الحال- يتبع الأصل المنظوم فى تقسيمه إلى مقدمات و سبعة كتب، و قد جنح السيوطى إلى هذا التقسيم تيمنا بالحديث: «إن اللّه وتر يحب الوتر، أما ترى السّماوات سبعا و الأيام سبعا و الطواف سبعا» «۱»، و سنراه يكرر نفس التقسيم فى كتابه جمع الجوامع الذى شرحه بهمع الهوامع.

و يميل السيوطى فى هذا الشرح إلى البسط و الاطناب فى القول فحين يشرح عبارته «كلامنا لفظ مفيد يقصد» يبدأ ببيان الدلالة اللغوية للكلام فيذكر أن الكلام يطلق على ستة أشياء هى الخط و الاشارة المفهمة، و ما يفهم من الحال، و التكليم، و ما فى النفس من المعانى، و اللفظ و إن كان غير صالح للسكوت عليه، و بازاء كل عنصر من هذه العناصر يفيض فى الشرح و الاستشهاد بالأقوال شعرا و نثرا، ثم يحدّ الكلام فى الاصطلاح و يذكر أن أحسن الحدود أنه «قول مفيد مقصود»، و يناقش ما يتصل بهذا الحد بأسلوبه كما يستشهد بغيره «۲»، و كل ذلك يتصل بتعريف الكلام فى اللغة و الاصطلاح، أما تعريف الكلمة فيتناوله بعد أن يذكر قوله: «و عندنا الكلمة قول مفرد»، و يذكر بيتين بعده نص على أنهما و هذا الشطر من زياداته على الألفية، و هنا يبدأ ببيان ما تطلق عليه «الكلمة» فى اللغة و الاصطلاح، ثم يشرح البيتين اللذين يحد بهما الاسم و الفعل و الحرف.

و لا تفتأ بين حين و آخر ترى مزج السيوطى الدرس النحوى الذى يعنى بوضع القواعد و الضوابط و مناقشة الحدود و المصطلحات و العلل بما أفاده من درس اللغة و النظر فى صيغها و أبنيتها و وصف ظواهرها، و محاولة حصر بعض الفصائل اللغوية، فحين يتحدث عما يلزم البناء على الكسر يذكر من بين ذلك ما كان على وزن «فعال» و هو اسم فعل أمر كنزال و دراك، أو فعال و هو علم مؤنث كحذام و قطام، و فعال و هو نسب للمؤنث مثل يا خباث، حين يتحدث عن هذه الصيغة يذكر أن الصغانى قد ألف كتابا فيما ورد من فعال المبنى على الكسر من الأنواع الثلاثة فى اللغة، و أنها بلغت مائة و ثلاثين لفظة، و قد أوردها (۱) المطالع السعيدة ورقة ۵ ص ۱۰.

(۲) المطالع السعيدة ورقة ۵، ۶ ص ۱۰- ۱۲.

السيوطى مصنفة بحسب الأقسام السابقة «۱».

و هذا الاتجاه نحو الحصر اللغوى فى مثل هذه الحالات لا نكاد نجده فى كتب النحو المعروفة لدينا، و هناك عديد من الأمثلة يلاحظها القارئ بالشرح تفيد و تؤكد هذا الاتجاه عنده من ذلك ما ذكره فى المثنى من ألفاظ التغليب التى تصلح للتجريد و لا يصح عطف مثلها عليها كالقمرين للشمس و القمر، و العمرين لأبى بكر و عمر، و العمرين لعمرو بن جابر و بدر بن عمر ... إلى آخر ما أورده محاولا حصره فى اللغة «۲»، و حين تحدث عن الأعلام الأعجمية تطرف إلى كيفية معرفة عجمة الاسم و هو ما سبق أن عرضه بالمزهر ببحث المعرب «۳».

و يتضح فى هذا الشرح تأثره بالنحاة المتأخرين لا سيما نحاة مصر الذين سبقوه بقليل فقد تأثر بأبى حيان و نقل عنه كثيرا، كما تأثر غاية التأثر بابن هشام، و له اختيارات يميل فيها إلى ما ينسب لهما، و هذا يدلنا على تأثر نحاة مصر المتأخرين بمذهب الأندلسيين، و اتجاه النحو فى مصر وجهة ذات طابع خاص يحس بها من ينظر فى كتب هذه الطائفة من النحاة، و سنبين ذلك بعد.

و قد أفاد فى شرحه بما قام به ابن هشام فى مصنفاته فنراه مثلا يتبعه فى تقسيم المبنى و يصرح بذلك قائلا: «اعلم أنى سلكت فى هذه الألفية أحسن المسالك، و أوردت فيها محاسن كل كتاب، و قد قسم ابن هشام فى الشذور المبنى تقسيما غريبا لم يسبق إليه و جعله على أقسام، و قد تبعته على ذلك الباب» «۴»، بيد أن أسلوب السيوطى فيما عرضه يتميز بالوضوح و السلاسة و الإيجاز و كثرة الأمثلة، على حين يكثر ابن هشام فى هذا الباب من الاستطراد.

و بالرغم من كثرة النقول التى تعود السيوطى أن يوردها فى مصنفاته فاننا (۱) المطالع السعيدة ورقة ۱۰ ص ۱۹.

(۲) المطالع السعيدة ورقة ۱۳ ص ۲۵.

(۳) المطالع السعيدة ورقة ۱۸ ص ۳۶.

(۴) المطالع السعيدة ورقة ۸ ص ۱۶، شذور الذهب ص ۶۸ و ما بعدها.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۲

نحس هنا بصفة خاصة انتقاءه لهذه النقول و انتقاده لها، و وضوح موقفه منها، أو نقدها من حيث صحتها، فحين ينقل عن البدر الدماميني رأيا فى «غير» منسوبا للسيرافى لا يلبث أن يذكر أنه رأى فى كلام السيرافى ما يخالفه «۱».

و إذا كان ضيق المكان يحتم علينا أن نجمل حكمنا على هذا الشرح، فانه لا يسعنا بعد ما قدمنا من أوصافه إلا أن نقرر أنه من أبسط الشروح النحوية و أوفاها، و أكثرها وضوحا و استيفاء، مع ما يتميز به من تناول كثير من المسائل التى أغفلها النحويون و بالرغم من حرصه على ذكر كثير من العلل النحوية فانه يوردها بأسلوب واضح قريب المأخذ.

۶- شرح ألفية ابن مالك،

يسمى «النّهجة المرضية فى شرح الألفية» سبق لنا أن بينا فى حديثنا عن الحياة الثقافية فى مصر عناية القوم بالمتون و الشروح، و ذكرنا أن مما حظى بتوفر الشراح عليه منظومة ابن مالك المعروفة بالألفية، و قد ترسم السيوطى خطى هذا العرف السائد فى عصره، فتناول هذه المنظومة التى شرحها من قبل كبار النحاة، و أشهر شراح الألفية قبل السيوطى ابن عقيل (۷۶۹ ه) و يمتاز شرحه بالسهولة و الوضوح و البعد عن التعقيد، و قد تتبع فى شرحه نظم ابن مالك بالبيان منبها فى قليل من الأحيان على ما يخالفه، و فى أكثر الأحيان يوافق ابن مالك و يدفع عنه هجوم ابنه عليه، و قد عاصره ابن هشام (۷۶۱ ه) الذى ألف كتابه «أوضح المسالك» و لم يلتزم فيه بنص الألفية بل تناول موضوعاتها، و نبه فى حديثه على ما يوافق ابن مالك فيه و ما يخالفه، و قد نص فى مقدمته على ذلك فى قوله: «و ربما خالفته فى تفصيله و ترتيبه» «۲».

و ثمة شروح أخرى سبقت السيوطى و شروح لحقته كشرح الأشمونى (۹۲۹ ه)، و لو لا ضيق المقام لتناولنا بعضها بالمقارنة بشرح السيوطى، و إنما نكتفى بأن نبين ما تميز به شرحه، و يمتاز هذا الشرح بالتوسط بين الايجاز و الإطناب، و يعمد فيه صاحبه إلى بيان مقصود الناظم بعباراته الواضحة مع (۱) المطالع السعيدة ورقة ۱۰ ص ۲۰.

(۲) شرح أوضح المسالك المسمى بمنار السالك ج ۱ ص ۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۳

إكثار من الأمثلة، منبها فى بعض الأحيان على بعض ما فات الناظم، و لكنه بصفة عامة لا يخالف الناظم إلا قليلا.

و قد عبر السيوطى عن منهجه فى شرحه بقوله: إنه شرح «يبين مراد ناظمها، و يهدى الطالب إلى معالمها، و لأبحاث منها ريح التحقيق تفوح، و جامع لنكت لم يسبقه إليها غيره من الشروح» «۱».

و قد كتب هذا الشرح قبل أن يكتب شرحه على ألفيته التى حاكى بها ألفية ابن مالك و حاول فيها الاستدراك عليه، و لذلك نلاحظ التشابه الكبير بين الشرحين، و يمكن أن نقول إنه فى شرحه المتأخر قد أفاد من شرحه لألفية ابن مالك، و لهذا فان شرحه المسمى بالمطالع السعيدة جاء فى صورة أقوى و أوضح و أكثر دقة من شرحه على ألفية ابن مالك، و سبب ذلك قيامه به بعد أن استحصدت قوته و قويت ملكته بحيث أفاد من جهوده السابقة، و لا يغض هذا من شأن شرحه على الألفية.

۷- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع:

يعدّ أجمع كتب السيوطى فى النحو، و من أجمع الكتب النحوية على الاطلاق ان لم يكن أجمعها و أوفاها، فقد احتوى كثيرا من المسائل التى أغفلتها الكتب النحوية كما حرص على ذكر الآراء المختلفة و الأقوال المتنوعة، و لا يكاد يترك موضوعا إلا بعد استيفائه و ذكر جميع الآراء فيه، و بالرغم من حشده بكثير من الأقوال فشخصية صاحبه تبدو واضحة فى عرض الموضوع و تلخيصه و نسبة الأقوال و اختيار أرجحها و تعليلاته لاختياراته المتنوعة.

و مما يدل على ما بذل السيوطى فيه من جهد قوله فى مقدمته: «و جمعته من نحو مائة مصنف فلا غرو أن لقبته جمع الجوامع» «۲».

و قد قسم كتابه إلى مقدمات ثم سبعة كتب، و هو نفس التقسيم الذى اتبعه (۱) النّهجة المرضية ص ۲.

(۲) همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ۱ ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۴

فى «المطالع السعيدة»، و قد نص هنا أيضا على ما ذكره هناك من أنه حذا فى هذا الترتيب حذو كتب الأصول، و فى جعله سبعة أقسام مناسبة لطيفة مأخوذة من حديث ابن حبان «إن اللّه وتر يحب الوتر ... الحديث» «۱».

و قد درج فى كتابه على أن يورد نص متنه منبها عليه بأنه الأصل ثم يتناوله بالشرح، أى أنه يفصل بين المتن و الشرح، و استمر على ذلك إلى بداية الكتاب الثالث فى المجرورات «۲»، فعدل عن هذه الطريقة إلى طريقة المزج و قد نبه على ذلك بما يوضح طريقة شرحه فى سائر الكتاب بقوله: «و اعلم أنى لما شرعت فى شرحه كنت بدأت أولا بشرح النصف الثانى فكتبت من أول الكتاب الثالث إلى أثناء جمع التكسير على طريقة المزج، ثم بدا لى أن أغير الأسلوب، فشرحت من أوله على النمط المتقدم، و كان فى نيتى الاستمرار على هذه الطريقة إلى آخر الكتاب، و الغاء القطعة التى كتبتها أولا ممزوجة، ثم لما ضاق الزمن عن ذلك أبقيت كل قطعة على حكمها، و ضممت هذه القطعة إلى تلك و وصلت بينهما، و لا يضر كون الشرح على أسلوبين نصفه بلا مزج، و نصفه ممزوج، و نعود هناك إن شاء اللّه إلى تكملة بقية الكتاب من جمع التكسير إلى آخره على طريقة أوله» «۳».

و هذا الكتاب يمثل بحق نهاية التدرج فى التأليف النحوى، فهو يعد مجسما لعلم النحو بما آل إليه أمره فى البيئة المصرية فى أواخر عهد ازدهارها و نشاطها، و قد احتوى جهود السابقين و أفاد من تجاربهم و درسهم، و عرض به صاحبه محصلة الدرس النحوى بمدارسه السابقة و نحاته المتعددين عرضا متأثرا بالبيئة التى نشأ فيها، و بما آل إليه أمر الدرس النحوى فيها، و بطبيعة هذه البيئة و خصائصها، و ما تفرضه من الوضوح و البسط و حسن التنسيق فى التأليف و ما تؤديه بوصفها وارثة علوم الأجيال السالفة، قائمة على حفظها و تمثلها و حسن تعهدها. (۱) همع الهوامع ج ۱ ص ۳.

(۲) المصدر السابق ج ۲ ص ۱۹.

(۳) نفس المصدر ج ۲ ص ۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۵

۸- النكت على الألفية لابن مالك، و الكافية و الشافية لابن الحاجب، و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام:

(مخطوط ضخم الحجم يقع فى ۳۲۸ ورقة أى يستغرق ۶۵۶ صفحة، بدار الكتب برقم ۵۸۱۵ ه).

يعد هذا الكتاب دراسة نقدية لهذه المؤلفات النحوية، و لكن هذا النقد يتسم بروح العصر و طابعه، و لذلك فهو حريص على انتقاد التعريفات و الحدود النحوية و المقارنة بينها فى محاولة للوصول إلى أكثرها جمعا و منعا، أو أصحها و أدقها و أنسبها من وجهة نظر السيوطى.

و قد وصف السيوطى عمله و منهجه و نظام كتابه بقوله: إنه «نكت حررتها على كتب فى علم العربية عم النفع بها و كثر تداولها و هى ... أذكر ما يرد على العبارة مع جوابه إن كان، و أنبه على ما اختلف فيه كلام مصنفيها فى سائر كتبهم المختصرة كالتسهيل و الكافية الكبرى و العمدة و سبك المنظوم لابن مالك، و الوافية لابن الحاجب و القطر الجامع لابن هشام، و أشيع فى الكلام بأقصر عبارة، و ألخص فيه متفرقات كلام شراح هذه الكتب، و ما وقفت عليه من تعاليق ابن هشام على الألفية و التسهيل معزوا إليه، و أشير فيه إلى مقاصد الشرح الوجيز الذى وضعته على الألفية، و اتبع فيه ترتيب الألفية فى المسائل و الأبواب» «۱».

و يتسم الكتاب بطابع الملاحظات الدقيقة التى ينبه عليها السيوطى، و تدل تسميته بالنكت على ذلك، فهو لا يفتأ يفضل عبارة مؤلف على عبارة مؤلف آخر، و لا يفتأ يفضل حدا من الحدود النحوية لمصنف على ما ذكره مصنف آخر معللا ذلك تعليلا يبين أوجه النقص و الكمال، و تبدو شخصية السيوطى واضحة فى مناقشة هؤلاء الأئمة من النحاة، و تظهر ثقته بعلمه و أقواله، فهو مثلا بعد أن تناول باب «الكلام و ما يتألف منه» و انتقد حدود النحاة السابقين نقدا مفصلا لا يلبث أن يقول: «إذا علمت ما تقدم تقريره فى هذا الباب علمت حسن قولى فى ألفيتى التى سميتها الفريدة: (۱) النكت ورقة ۱ ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۶

كلامنا لفظ مفيد يقصد و عندنا الكلمة قول مفرد» «۱»

ثم يورد أبيات هذا الباب التى ذكرها هناك إلى آخرها منبها بذلك على ما تحراه من الدقة و الصواب فى الحد و العبارة الأمر الذى لم يتسنّ لأئمة النحاة من قبله.

و فى بعض الأحيان يوجه السيوطى نقده إلى ابن الحاجب و ابن مالك و ابن هشام جميعا و فى أخرى يخص بالنقد أحدهم، فهو مثلا يضع فصلا باسم «أفعال المقاربة» ثم يقول: «هكذا ترجم الثلاثة و فيه أمران: أن فى الترجمة بذلك تغليبا لأن من أفعال الباب ما هو للرجاء، و ما هو للشروع، قلت: و ان الأولى أن يترجم بكاد و أخواتها مناسبة لسائر النواسخ» «۲»، و الأمر الثانى ينتقد فيه وضع ابن مالك هذا الباب عقب بابى التعجب و نعم و بئس فى كتابه العمدة، و كان الحق أن يوضع فى النواسخ.

و لا يقتصر نقده فى كتابه على الحدود النحوية و العبارات بل يتجاوزه إلى تقسيمات هؤلاء المصنفين و آرائهم النحوية فى أحيان كثيرة، فقد تعقب فى باب أفعال المقاربة تصنيف هؤلاء المؤلفين لهذه الأفعال و انتقدهم فى كثير من المواضع، و خص بالنقد صاحب الكافية، و من بين ما وجهه إليه اعتباره «كرب» من أفعال الشروع، و المشهور خلافه، كما انتقده فى كونه لم يذكر فى أفعال الشروع سوى ثلاثة أو خمسة ... و غير ذلك من وجوه النقد «۳».

و الواقع أن هذا المؤلف يدل على شخصية السيوطى النحوية و اعتداده البالغ بآرائه، و حسن مناقشته و تعليله الذى لم ينس فيه أن يعتمد على النقول مؤيدا أفكاره و لكن هذه النقول لا تطغى على شخصيته كما عهد عليه كثيرا، بل يسوقها للاستدلال و الاحتجاج لما يريده.

و قد استغرق الكتاب جهدا كبيرا من صاحبه، و قد عبر عن ذلك فى آخره (۱) النكت ورقة ۲۶ ص ۵۲.

(۲) المصدر السابق ورقة ۹۹ ص ۱۹۹.

(۳) نفس المصدر ورقة ۱۰۰ ص ۲۰۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۷

حيث ذكر أنه ابتدأه سنة ۸۶۷ ه، فكتب منه إلى نهاية المعرب و المبنى، ثم عاود الكتابة عام ۸۷۶ ه، فكتب من حروف الجر إلى آخر عطف البيان، ثم فتر العزم عنه إلى سنة ۸۸۵ ه فكتب مما بعد المعرب و المبنى إلى حروف الجر، و قد أتمه بصفة كاملة عام ۸۹۵ ه «۱»، و قد اختتمه بمنظومة من سبعة أبيات تبين اعتداده به و الجهد الذى بذله يقول فيها «۲»:

ثلاثين عاما ظلت أرقب جمعه و أجمع فيه ما تفرق فى النقل

يحرر كتبا عم فى الناس نفعها و سارت بها الركبان فى الوعر و السهل

يقيد اطلاقا و يوضح مبهما و يفتح أغلاقا لما كان فى قفل

و كم فيه من نقل عزيز وجوده يعز على من رام إلا على مثلى

فدونك تأليفا مفيدا محررا من الناس لم يسمح بذا أحد قبلى

و قد عرف هذا الكتاب فى عصر السيوطى و من بعده، فالصبان فى حاشيته ينقل عنه فى بعض الأحيان «۳»، و يستدرك بنقوله عنه أحيانا ما فات الأشمونى شارح الألفية «۴»، أو ما لم يوفق فيه الناظم «۵».

۹- الفتح القريب على مغنى اللبيب:

حاشية له على المغنى لم أقف عليها، و قد ذكرها بكتابه الذى خصصه لشرح شواهد المغنى فى قوله: «فإن لنا حاشية على مغنى اللبيب لابن هشام مسماة بالفتح القريب، أودعتها من الفوائد و الفرائد و الغرائب و الزوائد ما لو رامه أحد غيرى لم يكن له إلى ذلك سبيل و لا فيه نصيب» «۶».

و قد ذكر السيوطى هذا المصنف بحسن المحاضرة، و ذكره صاحب هدية العارفين و قد خلط سركيس فى معجمه بين هذا الشرح أو هذه الحاشية و بين (۱) النكت ورقة ۳۲۷ ص ۶۵۵.

(۲) المصدر السابق ورقة ۳۲۸ ص ۶۵۶.

(۳) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج ۱ ص ۵۳.

(۴) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج ۱ ص ۶۲.

(۵) المصدر السابق ج ۱ ص ۹۶.

(۶) شرح شواهد المغنى ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۸

شرح الشواهد الذى سنعرف به بعد، و هما كما حدد السيوطى كتابان مستقلان، و لم أتمكن من الوقوف على هذا المصنف مطبوعا أو مخطوطا.

۱۰- شرح شواهد المغنى:

كان السيوطى فى شرحه على المغنى قد تناول الشواهد على وجه مختصر، ثم خطر له- كما حكى عن نفسه- أن يفرد الكلام على الشواهد، و هو يوضح منهجه و يحدده تحديدا واضحا اتبعه و التزم به فى كتابه بقوله: «أورد أولا البيت المستشهد به، ثم أتبعه بتسمية قائله، و السبب الذى لأجله قيلت القصيدة، ثم أورد من القصيدة أبياتا استحسنها، إمّا لكونها مستشهدا بها فى مواضع أخر من الكتاب، فأوردها ليعلم أن الجميع من قصيدة واحدة، أو لكونها مستشهدا بها فى غيره من كتب العربية و البيان، أو لكونها مستعذبة النظر مستحسنة المعنى لاشتمالها على حكمة أو مثل أو نادرة أو وصف بليغ أو نحو ذلك، و إن كان البيت من مقطوعة و هى ما لم يزد على عشرة أبيات ذكرتها بكمالها، و قد أذكر قصيدة بكمالها لقلة أبياتها و كونها مما يستحسن كقصيدة السموأل التى أولها: إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه، أو لكون المصنف استشهد بكثير من أبياتها كقصيدة الأعشى التى أولها: أ لم تغتمض عيناك ليلة أرمدا، ثم أتبع ما أورده من الاستشهادات العربية و النكت الشعرية، و ما يتعلق بها من فائدة و نادرة، و أتبع ذلك بالتعريف بقائلها و ذكر نسبه و قبيلته و عصره، و هل هو جاهلى أو مخضرم أو إسلامى؟ مراعيا فى كل ذلك الطريق الأوسط لا مجحفا فى الاختصار، و لا مبالغا فى الاطناب و الاكثار» «۱».

و قد التزم السيوطى بهذا المنهج الذى اختطه لنفسه التزاما دقيقا، و نبه فى مقدمته كذلك على جملة صالحة من شروح الدواوين و كتب الأدب و اللغة التى اعتمد عليها فى شرحه.

و الواقع أن هذا الشرح يعبر عن ذوق السيوطى الأدبى فى اختيار ما يستحسنه من الأشعار، فهو حريص على إيراد الجيد من الشعر من القصائد التى تؤخذ (۱) شرح الشواهد المغنى ص ۲، ۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۲۹

منها الشواهد، و فى بعض الأحيان يدفعه كلفه الأدبى إلى إيراد قصة تتصل من قريب أو من بعيد بما هو فيه ليذكر بعض ما يستحسن من الشعر، ثم يأخذ فى شرحه و بيان معانيه، أو نقل ما يتصل به من أخبار، و لذلك فالشواهد الأولى لا تخطى بعنايته و كأنه إنما يوردها لتكون سببا يتوصل به إلى إنشاد ما يستعذب من الشعر و يقع اختياره فى أكثر الأحيان على أبيات النسيب و الغزل الرقيق.

و فضلا عن ذلك فهو دراسة لهذه المادة اللغوية التى استخرجت منها المقاييس النحوية و تناول لمعظم الشواهد التى وردت بكتب النحاة.

۱۱- الشمعة المضية فى علم العربية:

(مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ۱۲۷ نحو، فى ثمانى صفحات بخط جميل).

يعدّ هذا المصنف متنا موجزا يبدو أنه وضعه للمبتدئين فى علم النحو، و كذلك فقد حاول أن يعرف فيه بكثير من المصطلحات النحوية موجزا بعض الأحكام، و قد فاته بالطبع كثير من المصطلحات دون أن يشير إليها، فهى لا تعدو أن تكون عجالة سريعة تمس بعض أطراف الأبواب النحوية، تناول فيها الكلام و الاعراب و المعرفة و النكرة و الأفعال ثم تحدث عن بقية الأبواب تحت اسم المرفوعات و المنصوبات و المجرورات ثم اختتم المتن بالحديث عن التوابع، و يبين لنا إيجازه الشديد الذى اتبعه فى هذا المتن حديثه عن الأفعال و ما يتصل ببنائها و إعرابها فى قوله: «الأفعال ماض مفتوح، و أمر ساكن، و مضارع فى أوله أحد حروف نأيت مرفوع إذا جرّد عن ناصب و هو لن و إذن و كى ظاهرة و أن كذا، أو مضمرة بعد اللام و حتى و أو، و جازم و هو لم و لمّا و لام الأمر و لا فى النهى، و إن و إذ ما و من و مهما و أىّ و متى و أيان و أينما و أنى و حيثما و كيفما للشرط» «۱».

۱۲- الموشح فى علم النحو:

(مخطوط بدار الكتب برقم ۱۹۱ نحو بالخزانة التيمورية، و ثمة نسخة أخرى، و عدد صفحاته سبع صفحات من المقطع الكبير). (۱) الشمعة المضية ص ۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۰

ابتدأ السيوطى موشحه النحوى بقوله:

إلى اله الأنام من نحلا أفضاله كلّ آمل أملا أرغب

ثم صلى على نبيه و بين فضل علم النحو، و شرع فى حد الكلام بقوله:

فحدنا للكلام قد نقلا قصد مفيد للقصد قد شملا كاشرب

ثم تتبع فى عجل المعرب و المبنى و النكرة و المعرفة ثم تناول المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات فالمجزومات، ثم تحدث عن التوابع بنفس الايجاز الذى اتبعه فى المتن السابق، بيد أنه هنا يتحدث عن المجزومات أكثر تفصيلا من حديثه فى متن الشمعة، و هنا يحتم عليه النظم و الايجاز الشديد أن يعرض لمعالم الموضوعات دون تفصيل كبير، كما يبدو نظمه غير مبين للمعنى فى نفسه فى بعض الأحيان.

تلك أهم مؤلفات السيوطى فى النحو و يتضح منها الجهد العظيم الذى أسداه إلى هذا العلم و المقدرة الفائقة على تمثل مسائله و تصنيفها و دراستها، كما توضح موقفه من المدارس النحوية السابقة و من النحاة السابقين.

و إذا كان النحو يعنى بربط مسائله بالحياة العامة من نواحيها المختلفة حيث يستفيد منه المشرع و الفقيه و المتناول للنصوص و كاتب الديوان، و قد اتضحت بعض مظاهر هذا المفهوم فى مؤلفات السيوطى السابقة، فإن له مجموعة من الآثار تمثل هذا المفهوم، أى دراسة النصوص نحويا أو بعبارة أخرى العناية بالجانب التطبيقى فى دراسة النحو، و تتمثل فى إبراز وظيفة النحو فى فهم النصوص باعتباره عنصرا من أهم عناصر المعنى الكلى، و هذه الآثار تتمثل فى الفتاوى النحوية التى أفتاها، و فى ثلاث رسائل أوردها بكتاب الحاوى.

الفتاوى النحوية:

و الفتاوى النحوية تطلعنا على تقدير السيوطى و أهل عصره لوظيفة النحو و أهميته فى فهم النصوص أو ما يمكن أن نطلق عليه وصل النحو بالحياة، فهى مجموعة من الأسئلة التى وردت إلى السيوطى نثرا أو نظما و أجاب عنها معللا

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۱

أجوبته بعلل مقنعة و هى تنيف على عشرين مسألة «۱»، توضح عناية السيوطى بدراسة النصوص و توجيهها نحويا بحيث يتفق الإعراب أو التحليل النحوى للنصوص مع المعنى السياقى الذى يفهم من عناصر و قرائن متعدّدة، و كأنه ينبه على أهمية السياق فى توجيه الإعراب حتى لا يكون التحليل الخاطئ سببا فى توجيه خاطئ للمعنى.

فمنها أحاديث طلب إليه ضبط نصوصها فضبطها و وجه ضبطه، أو طلب إليه إعرابها و توجيه قوله، فقد سئل- مثلا- عن «الجنة» فى قوله صلى اللّه عليه و سلم: «من شهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه و الجنة حق و النار حق»، هل الجنة بالرفع أو النصب؟ فأجاب بأنه «بالنصب لا يجوز غيره لأنه الذى يستقيم به المعنى و لا ينافى هذا قول النحاة: يجوز الرفع بعد استكمال الخبر لأنه حيث جاز أن يكون مستأنفا، و الاستئناف هنا يخل بالمعنى إذ يصير المراد الإخبار بأن الجنة حق، و ليس مرادا، و إنما المراد إدخاله فى المشهود به فتعين النصب» «۲».

و من هذه المسائل أبيات من منظومات علمية فى العروض، أو نصوص من كتب فقهية أو نصوص شعرية أو نصوص من خطب أو

أقوال تفوه بها بعض أهل العلم فى عصره. و لم تقتصر فتاواه على الناحية الاعرابية بل تناولت بنية الألفاظ و بعض المسائل الأخرى.

و نلاحظ على إجابات السيوطى أنها أجوبة قاطعة- فى الغالب- يقطع فيها بصحة رأى واحد و يعلل مذهبه تعليلا واضحا محكما يعتمد أولا- على المعنى و يضع فى الاعتبار الأصول النحوية، و لا- يغرب فى تعليلاته، و يحاول وضع قواعد دقيقة للنظر فى النصوص و توجيهها، حيث ينبغى أن يكون الإعراب مناسبا للمعنى الذى يفهم من عناصر و قرائن متعدّدة، فالإعراب أحد عناصر الوصول إلى المعنى و ليس هو جميع العناصر.

و تبين لنا هذه الفتاوى بعض معالم مذهب السيوطى النحوى، و قد تبينت فى (۱) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۶۱- ۴۷۵.

(۲) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۶۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۲

إحداها موقفه من الاحتجاج بالحديث فى اللغة، و المعروف أن النحاة الأقدمين لم يستشهدوا بالحديث نظرا لوفرة المادّة اللغوية التى انصرفوا إليها و منها البادية التى كانت معينا لا ينضب من اللغة المنطوقة الفصيحة إلى منتصف القرن الرابع الهجرى، أما المتأخرون من النحاة فتنوعت مواقفهم، فمنهم من يجيز الاحتجاج مطلقا كابن مالك، و منهم من يمنعه مطلقا كأبى حيان، و منهم من يتوسط بين المذهبين كالشاطبى فيقيد الاحتجاج بأحاديث لها شروط معينة تضمن سلامتها.

و قد وقف السيوطى موقفا وسطا يبدو منه أنه يبيح الاحتجاج بالحديث فى نفس الوقت الذى يضع فيه اعتبارا لما حدث لبعض الأحاديث من تحريف من قبل الرواة يجعلها غير مقبولة فى الاحتجاج، فقد أجاب عن حديث: «كما تكونوا يولى عليكم» حيث سئل عن حذف النون دون ناصب أو جازم بتخريجه على ثلاثة أوجه: «أحدها أنه على لغة من يحذف النون دون ناصب و جازم كقول الشاعر:

أبيت أسرى و تبيتى تدلكى، و خرج على هذه اللغة من الحديث قوله صلى اللّه عليه و سلم:

«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، و لا تؤمنوا حتى تحابوا»، الثانى: و هو رأى الكوفيين و المبرد أنه منصوب أورده شاهدا على مذهبهم أن «كما» تنصب و عدوها من نواصب المضارع و هو مذهب ضعيف، و الثالث: أنه من تغيير الرواة» «۱».

و إذا كان السيوطى هنا يتردد بين تأويل هذا الحديث و توجيهه و بين نفى صحة عربيته فهذا يعنى أنه لا يحتج بالأحاديث مطلقا و إنما يقف فيها موقفا وسطا، و لو كان ممن يحتجون بها مطلقا لاكتفى بذكر الوجهين الأول و الثانى أو بأحدهما، فالنحاة إنما يتأولون من النصوص ما هو معتمد عندهم فى الاحتجاج.

و نستطيع أن نلمح مظاهر الاتساق فى مذهب السيوطى النحوى من اتفاق أقواله و تعاضدها فى كتبه المتنوعة، و فى إحدى هذه الفتاوى ينتقد تعريف اللفظ بأنه «الصوت المشتمل على بعض الحروف» لأنه تعريف غير جامع يخرج عنه الحرف الواحد كواو العطف وفائه و باء الجر و لامه، و الأحسن تعريف اللفظ بأنه (۱) الحاوى للفتاوى ج ۲ ص ۴۷۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۳

«الصوت المعتمد على مقطع» «۱» و قد ذكر هنا أنه عبر به فى شرحه على الألفية، و قد سبق لنا الاشارة إلى هذا الحد.

رسائل الحاوى:

اشارة

للسيوطى بكتابه «الحاوى» أربع رسائل نحوية ذكر منها ثلاثا بين أسماء مؤلفاته التى أوردها عقب ترجمته، و الرسالة التى لم يذكرها

هى «ألوية النصر فى خصيصى بالقصر».

و تتميز هذه الرسائل بأنها تعالج المشاكل النحوية المتصلة بالنصوص اللغوية المختلفة، فمثلها مثل فتاواه، بيد أنه هنا يتوسع فى بسط البحث و مناقشة مسائله، و يعرض لكثير من الدقائق التى تتصل بالأصول النحوية، و طريقة فهم النصوص فهما سليما، و كيفية تخريجها على القواعد النحوية تخريجا يعين على إدراك المعنى و لا يكون سبيلا إلى إيهامه أو تغييره أو الاخلال به، و هذه الرسائل تؤكد ما قلناه من عناية نحاة البيئة المصرية بالربط بين النحو و الحياة حيث يستعينون به على تفهم الأحاديث و كتب الفقه و العبارات المأثورة و سائر النصوص المختلفة التى تهمهم فى حياتهم، و سنعرف هنا بهذه الرسائل باعتبارها أدلة على الفكرة السابقة، و لما بها من بعض الملاحظات التى سنتبينها.

۱- فجر الثمد فى إعراب أكمل الحمد «۲»:

تعقب السيوطى فى هذه الرسالة ما أفتى به شيخه الكافيجى عام ۸۷۴ ه، من ترجيح جرّ «أكمل» فى قول القائل: «الحمد للّه أكمل الحمد» على أن اللفظ وصف سببىّ محول أصله: أكمل حمده، فحول بالاضافة، و هو نظير قولك:

«مررت بالرجل قائم الأب» فأصله «مررت برجل قائم أبوه»، و قد أفتى السيوطى بأن «المتعين فى هذا التركيب النصب و لا يجوز الجر، و وجهه أنه نائب مناب المصدر المحذوف الذى هو فى الأصل وصف له تقديره حمدا أكمل الحمد»، و قد علل رأيه بعلل نحوية واضحة تدعم صحة ما ذهب إليه، و بين (۱) المصدر السابق ج ۲ ص ۴۷۰.

(۲) طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۴۷۶- ۴۷۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۴

أن ما مثل به الكافيجى و هو «مررت بالرجل قائم الأب» يخالف العربية من وجوه أربعة عدّدها، و الذى يعنينا أن السيوطى فى فتواه و تخريج النصوص على القواعد النحوية يضع المعنى و السياق الثقافى فى اعتباره و يستدل به فى إثبات رأيه فهو يقول: «و أما امتناع الجر فيكاد يكون بديهيا لا- يقام عليه دليل فان «أكمل» صفة للحمد قطعا لا للّه، أما أولا فلأن أوصافه تعالى توقيفية، و لم يرد هذا الوصف فيها، و أما ثانيا فلأن الأصل عدم إطلاق أفعل التفضيل فى حق اللّه إلا- ما ورد مثل أكبر، و أحسن الخالقين لما يشعر بالمشاركة، و أما ثالثا: فلأن المقصود وصف الحمد المثبت بالأكملية و البلوغ نهاية التمام، لا وصف اللّه بذلك، و أما رابعا فلأن العلماء عبروا بما يدل على أنه وصف للحمد لا للّه، أ لا ترى إلى قول النووى فى المنهاج أحمده أبلغ حمد و أكمله و أزكاه و أشمله، فأتى بالجميع صفات للحمد و مصادر له».

و الذى نريد أن ننبه عليه من ذلك هو أن السيوطى كان يضع فى اعتباره الأول استقامة المعنى و صحته إلى جانب الأصول النحوية، فلكل منهما اعتباره و لكنه كان يقدم اعتبار المعنى على غيره من الاعتبارات، و هذا مناسب لما سبق أن عرفناه عنه من ميله إلى الوضوح و البساطة و البعد عن التعقيد و ما يستتبعه من الفلسفة العقلية المجردة التى تبعد عن الواقع اللغوى، كما نرى عنايته بربط النحو بالحياة عن طريق النظر فى النصوص المختلفة.

۲- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر «۱»:

سبق أن أشرت إلى هذه الرسالة مثالا لما كان يحدث بين السيوطى و بين خصمه السخاوى، و هى تؤكد ما نقوله عن الربط بين النحو و الحياة فهى تتصل بضبط كلمة «خصيصى» التى صححها السيوطى موجها القول إلى من قرأ عليه بالشيخونية «و يخصنا بخصيصى

زمرة نبينا و جماعته» حيث قرأ القارئ بالياء الساكنة معتبرا الكلمة مثناة مضافة لما بعدها.

و قد قرر السيوطى مؤكدا رأيه أن أئمة اللغة و العربية، قد أطبقوا على أن (۱) طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۷۸- ۴۷۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۵

«خصيصى» بألف القصر، و قد تمد شذوذا فيقال «خصيصاء»، و قد أورد عددا كبيرا ممن نص على هذا القول من أئمة اللغة كسيبويه و السيرافى و القالى و ابن دريد و غيرهم، و قرر أنه لم يرد «خصيص» البتة حتى يقال فى تثنيته «خصيصان» و ذكر أن ابن دريد قد قرر أنه ليس لمولد أن يبنى «فعّيلا» إلا- ما بنت العرب و تكلمت به، و لو أجيز ذلك لقلب أكثر الكلام. و هكذا يؤيد السيوطى الوقوف عند السماع فى بناء «فعّيل»، و لا يبيح فيه القياس.

۳- الزّند الورى فى الجوانب عن السؤال السكندرى «۱»:

تتناول هذه الرسالة البحث فى قوله صلى اللّه عليه و سلم: «و الذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ أو نصرانىّ، ثم يموت و لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا- كان من أصحاب النار»، حيث يتضح بجلاء ما قلناه من تقدير السيوطى صحة المعنى و استقامته و تقديمها على بعض الأصول النحوية التى قد لا يفهم بواسطتها المقصود من العبارة و تكون سببا فى تحريف المعنى، ذلك أن الإعراب الصحيح ينبغى أن يكون مناسبا للمعنى خادما له باعتباره أحد عناصره، و للمعنى عناصر كثيرة منها السياق المقامى و الثقافى.

و الرسالة تعطى صورة للصراع بين فهم المعنى و أدائه و بين بعض الأصول النحوية، و قد عبر عن ذلك السيوطى فى قوله: «و قد أشكل هذا الحديث على بعض الناس من جهة تنزيل المقصود منه على القواعد النحوية، فإن المقصود من الحديث أنه من سمع بنبينا عليه الصلاة و السلام ممن شملته بعثته العامة، ثم مات غير مؤمن بما أرسل به كان من أصحاب النار، و فى تنزيل لفظ الحديث على هذا المقصود قلق كما سيأتى، و هذا الاشكال يعرض كثيرا فى غير لفظ الحديث أيضا». و هنا تتضح هذه الفجوة التى حدثت بين اللغة و بين بعض الأصول النحوية المجردة التى أقيم بعضها نتيجة فلسفة عقلية بعيدة عن الواقع اللغوى، و قد تنبه السيوطى لهذه الفجوة بصدد مجموعة من الأمثلة الأخرى التى ساقها فى رسالته من باب الاستثناء أيضا، و يعرض لبعض التخريجات النحوية (۱) طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۸۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۶

المحتملة فى الحديث، و قد رجح كون الجملة الواقعة بعد «إلا» حالا، و علل رأيه باطراد الحالية فى جميع الأمثلة المشابهة، و قد حاول أن ينتصر للفكرة الصائبة التى ترى أن القواعد النحوية ينبغى أن تتصل باللغة و واقعها لا أن تنبثق عن العقل، فأنكر على من يخالفه فيما قرره قائلا: «و كم من قاعدة نحوية قدّرت و لم يبال بمخالفتها للقواعد العقلية فإن كلا من النحو و الفقه معقول من منقول كما ذكر ابن جنى، فتارة يلاحظ فيها الأمر العقلى و تارة يلاحظ فيها الأمر النقلى» «۱».

و هكذا فإن السيوطى قد توصل إلى ما تنادى به علماء اللغات فى عصرنا الحديث من أن منطق اللغة يخالف منطق العقل، و أن فى تحكيم العقل فى اللغة ضروبا من التعسف، و أنّه قد بات من المقرر فساد إقامة الفلسفة اللغوية على أساس المنطق العقلى.

۴- رفع السنة فى نصب الزّنة «۲»:

سئل السيوطى عن وجه النصب فى قوله صلى اللّه عليه و سلم: «سبحان اللّه و بحمده زنة عرشه، و رضا نفسه، و عدد خلقه، و مداد

كلماته»، فأجاب بأن هذه الكلمات الأربع منصوبات على تقدير الظرف، و التقدير: قدر زنة عرشه، و كذا البواقى فلما حذف الظرف قام المضاف إليه مقامه فى إعرابه، و نص على أن هذا الاعراب هو المتجه المطرد السالم من الانتفاض.

و لما كان السؤال يستفسر عن جواز النصب على المصدر أو الحال أو على حذف الخافض فقد بحث السيوطى هذه الحالات و بين عدم إمكانها لفساد التقدير، و ذكر أن نزع الخافض قريب من المصدر، و حاول أن يعضد وجهة نظره بكثير من الأمثلة و الشواهد المناظرة التى تدل على انتصاب كلمة «قدر»، أو ما فى معناها على الظرفية، ثم جواز حذفها و إقامة المضاف إليه مقامها.

و نلحظ أيضا سير السيوطى على نفس منهجه السابق فى تقدير المعنى، فالمعنى هو الذى يحدد الاعراب و يوجهه، و لذلك يميل إلى ترجيح إعراب واحد به (۱) الرسالة السابقة ج ۲ ص ۴۸۴.

(۲) الحاوى ج ۲ ص ۴۸۵- ۴۹۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۷

يكمل المعنى و يستقيم و يتضح، و قد نبه على بعض الوجوه الممكنة فى الاعراب غير ذلك بيد أنه وصفها بأنها «لا يعول عليها و العمدة الأول»، أى نصب هذه الكلمات على الظرفية.

بقية الآثار:

ثمة مجموعة من آثار السيوطى النحوية فضلا عما قدمناه جلّها لم يصل إلينا، و بعضها تضمنته آثاره السابقة، و كثير من هذه الآثار مسائل جزئية أو مختصرات، و بعضها توحى أسماؤه بضخامته، و أرى أن أسرد هذه الآثار لنختتم بها ما يتصل بهذا الموضوع، و ننتقل إلى موضوع آخر.

۱- المصاعد العلية فى القواعد النحوية: ذكره بين مؤلفاته فى ترجمته بحسن المحاضرة، و هو نفس الباب الأول من كتاب الأشباه و النظائر الذى تحدث فيه عن القواعد و الأصول التى ترد إليها الجزئيات و الفروع و هو يشمل الجزء الأول من الكتاب، و قد نص عليه فى حسن المحاضرة لأنه إلى ذلك الحين الذى كتب فيه الترجمة لم يكن قد أتم كتاب الأشباه و النظائر الذى ضمن فيه هذا المؤلف و غيره على ما يبدو، و يؤيد ما نقول أنه لم يذكر كتاب الأشباه و النظائر بين مؤلفاته، مما يدل على تأخر تصنيفه.

۲- مختصر الملحة فى الاعراب: (ذكرت بحسن المحاضرة و كشف الظنون، و هى منظومة، و لم أقف عليها).

۳- شرح الملحة (ذكرت بحسن المحاضرة و هدية العارفين).

۴- شرح كافية ابن مالك (ذكرها بحسن المحاضرة).

۵- در التاج فى إعراب مشكل المنهاج (ذكر بحسن المحاضرة و هدية العارفين).

۶- مسألة: ضربى زيدا قائما (ذكرت بحسن المحاضرة).

۷- المسلسلة الموشحة (ذكرت بحسن المحاضرة، و قد ضمنها فى كتابه الأشباه و النظائر فى الفن الثالث و هو بناء المسائل بعضها على بعض، و الذى سماه هناك

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۸

سلسلة الذهب فى البناء من كلام العرب، و قد قال فى مقدمة الأشباه و النظائر:

«و قد ألفت فيه قديما تأليفا لطيفا يسمى بالسلسلة» «۱».

۸- شذا العرف فى إثبات المعنى للحرف (ذكره بحسن المحاضرة).

۹- التوشيح على التوضيح (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۰- السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۱- حاشية على شرح الشذور (ذكرها بحسن المحاضرة).

۱۲- شرح القصيدة الكافية فى التصريف (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۳- قطر الندى فى ورود الهمزة للندا (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۴- شرح تصريف العزى (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۵- تعريف الأعجم بحروف المعجم (ذكره بحسن المحاضرة).

۱۶- نكت على شرح الشواهد للعينى (ذكره بحسن المحاضرة). (۱) الأشباه و النظائر ج ۱ ص ۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۳۹

السيوطى و علم أصول النحو

رأينا أن السيوطى قد وضع أصولا لنقد الرواية اللغوية تحاكى أصول المحدّثين و هو عمل يعد من مبتكراته، و قد حاول تصنيف المادة اللغوية تصنيفا يضاهى تصنيف المحدثين و قد استطاع أن يتناول بالبحث النظرى فى أصول اللغة بعض المسائل التى لم تكن قد استقرت الاستقرار الكافى، أو الأصول التى لم تحظ إلى ذلك الحين بأن توضع فى إطار محكم منظم كما هو الحال لدى أهل الحديث.

و نحن هنا بصدد محاولة رائعة قام بها السيوطى فيما يتصل بالنحو، فقد حاول فى كتابه «الاقتراح» أن يقيم بناء شامخا يمثل أصول النحو، و يكون المنهج الذى يتبعه النحاة فى استنباطهم و استقرائهم، و معبرا عما سلكوه فى درس النحو من قبل.

و الواقع أن المنهج النحوى أو مجموعة القواعد و النظم التى يتبعها النحويون فى الاستقراء و الاستنباط ظلت إلى وقت متأخر عرفا غير مكتوب، يلاحظه النحاة و يشيرون إلى التزامه و اتباعه فى عبارات قليلة مبتسرة، و لم يعمد أحد إلى وضع هذه النظم و القواعد فى إطار علم معين.

و البحث فى الأصول و هو يعنى البحث فى المناهج يأتى متأخرا بعد استقرار العرف العلمى الذى يدرج عليه أوائل الباحثين فى علم من العلوم، هكذا كان الحال فى العلوم الاسلامية، فوضع أصول الحديث إنما جاء بعد أن قامت أجيال متعاقبة من العلماء برواية الحديث و التحرج فى روايته، و كان لهم عرف ملتزم، و عبارات متداولة لم تلبث أن أخذت تتجمع شيئا فشيئا، حتى وضع منها المتأخرون علما فى نقد الرواية.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۰

و قد عرف الاجتهاد الفقهى منذ عصر الصحابة، و وجد كثير من الفقهاء الذين استنبطوا كثيرا من الأحكام، و عملوا بالقياس، و كانت لهم طرق متمايزة فى الاستدلال و الاستنباط، و كانت هذه الطرق و الأصول بمثابة العرف الذى يحرص عليه الفقهاء و يشيرون إليه فى عبارات مختصرة، و لم يتح لهذه الأصول أن تتخذ شكلها العلمى التنظيرى الوافر إلا بعد أن أملى الشافعى (۲۰۴ ه) رسالته التى أحاط فيها بجوانب هذا العلم، و لذلك فقد اشتهر الشافعى بأنه واضع علم الأصول، و ليس يعنى هذا أنه مخترع هذه الأدلة أو الموضوعات، و لكن يعنى أنه أول من استطاع أن يتجرد لصياغة هذه الأفكار المتعارف عليها فى إطار نظرى محدود يكون بمثابة تخطيط يترسمه الفقيه فى اجتهاده الفقهى.

إذا كان هذا ما حدث فى علمى الحديث و الفقه فهو نفس ما حدث فى البيئة النحوية. لقد وجد النحاة منذ وقت مبكر، و تمت الملاحظات النحوية، و استطاع النحو أن يتخذ شكلا متكاملا فى كتاب سيبويه، و قد تعارف النحاة فى استقرائهم و استنباطهم و وضع مقاييسهم على عرف محدد التزموا به سواء فيما يتصل بمن يأخذون عنهم أم بالمادة اللغوية أم بطريقة استخراج القوانين، و بالرغم من وضع الضوابط النحوية منذ وقت مبكر فإن التجرد لبحث هذا المنهج النحوى لم يبدأ التفكير فيه إلا بعد وقت طويل. ذلك أن القدماء

كـانت عنايتهم بالتطبيق أغلب من عنايتهم بالتنظير، و العنايـة بالتطبيق أو الجوانب العمليـة من البحث هو ما تـدعو إليه الحاجـة فى أول الأمر، ثم يأتى التنظير فى المراحل التالية.

و قـد قـدر لأـصول الفقه أن توضع منـذ وقت مبكر كمـا رأينـا، و قـد أخـذ علم الأصول طريقه فى التـدرج شـيئا فشـيئا، و وضـعت فيه التقسـيمات و التفريعات المختلفـة، بيـد أننا ننظر فى البيئـة اللغوية فلا نرى من حاول وضع أصول للنحو، حتى إذا ما قدر لهذه البيئة أن تتجه إلى هذه الوجهة فإنها تقوم بصـنيعها مترسمة خطى البيئة الفقهية فى أصولها، فيأتى ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى و يحاول أن يضع بعض الأصول النحويـة فى كتابه الـذى ذكر أنه وضـعه نتيجـة لأنه لم ير «أحـدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۱

و الفقه» «۱»، و قد أشار ابن جنى إلى عمل قام به أبو الحسن الأخفش (۲۱۰ ه) يعد ممهدا لما قام به ابن جنى.

و قـد ربط النحويون بين أصولهم و بين أصول الفقه، و عبارة ابن جنى الآنفـة، تـدل على شـروعه فى إقامـة الأصول النحويـة على نمط الأصول الفقهية، و تأثره بأصول الفقه واضح فى حديثه عن القياس و الاستحسان و الاجماع، و فى حديثه المسهب عن العلل النحوية و هـل هى أقرب إلى علل المتكلمين أم إلى علل المتفقهين؟، و قـد اسـتمر تأثر أصول النحو بأصول الفقه بعـد ابن جنى فظهر هـذا الأثر عند ابن الأنبارى كما ظهر عند السيوطى.

و الواقع- و هو مـا سـبق أن نبهت إليه فى بحثى عن القيـاس- أنه كـان على هؤلاـء النحاة حين حاولوا رسم منهـج للنحو أى حين قاموا بوضع أصول للنحو أن ينظروا إلى القياس النحوى الـذى قامت عليه الأحكام النحويـة فيحـددوا ما ينبغى أن يقاس عليه، ثم كان عليهم أن يرسـموا للمجتهد فى اللغة طريقا واضـحة المعالم فى اسـتنباط الأحكام النحوية الناتجة عن الاستقراء اللغوى، و ليس يهم بعد ذلك أن تجىء هـذه الأـصول موافقـة فى بعضـها لأـصول الفقه و مغايرة فى بعض، فالأهم أن يكون المنهـج معبرا عن الواقع الـذى يتناوله و يعيش فيه و يخطط له، مراعيا طبيعته و مقرراته، و أهدافه، فما الذى حدث لأصول النحو نتيجة ربطه بأصول الفقه؟

لقد نتج عن هذا الربط أمران يتصل أولهما بموضوع أصول النحو التى روعى فيها أن تطابق التقسـيمات المتعارف عليها عند الفقهاء، و الثانى: تطور التأليف فى أصول النحو تبعا لتطور التأليف فى أصول الفقه، و هو ما سـنلاحظه عنـد المقارنـة بين وضع السـيوطى لأصول النحو و بين ما قام به سابقوه و أهمهم ابن جنى (۳۹۲ ه)، و ابن الأنبارى (۵۷۷ ه)، و قد استمر الربط بين أصول النحويين و أصول الفقه منـذ بـدايات الحـديث فى أصول النحو على يـد ابن جنى و قليل من سابقيه، إلى نهاية مراحل التأليف فى أصول النحو عند السـيوطى.

(۱) ابن جنى: الخصائص ج ۱ ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۲

و قـد بينت فى بحثى عن القيـاس معـالم التـأثير و دوافعه التى أدت إلى تـأثر أصول النحو بـأصول الفقه، و لاـ أرى لزاما أن أعيـد هـذا الحـديث فإنما أبغى هنا شـيئا آخر هو بيان الـدور الـذى قام به السـيوطى فى أصول النحو، و إذا كان هـذا ما نهـدف إليه فقد كان من الضـرورى أن نبين الارتباط بين أصول النحو و بين أصول الفقه و فيما قـدمناه غناء، و ضـرورة ذلك تنبع من أن تـدرج أصول الفقه و تطور التأليف فيه أحدث أثره فى أصول النحو.

و لبيان دور السيوطى نرى لزاما أن نتبين الجهود التى سبقته ليتضح بالمقارنة بين عمله و عمل السابقين معالم دوره و حدوده.

و أهم من تحـدث عن أصول النحو قبل السـيوطى ابن جنى فى القرن الرابع، و يبدو أنه كان مسـبوقا ببعض المحاولات التى قام بها أبو الحسن الأـخفش فى كتـابه المقـاييس. بالإضافـة إلى الإشـارات و العبـارات الموجزة المتنـاثرة المبثوثـة فى كتب النحو و أهمّها كتاب سيبويه و الشروح عليه، بيد أنها لا تمثل تنظيرا كافيا أو مناسبا لأصول النحو.

و يظهر بعد ابن جنى ابن الأنبارى فى القرن السادس، و لا نجد غيرهما من النحويين الذين سـبقوا السيوطى من حاول أن يتناول أصول

النحو بصفة عامة كصنيعهما و أهم ما هنالك غير ذلك طرق بعض الموضوعات التى تتصل بأصول النحو كبحث العلل النحوية و قد درسها الزجاجى (۳۳۷ ه)، فى كتابه الايضاح و يبدو أنه أول من أفرد للتصنيف فى العلل، و هو مسبوق بكثير من الأبحاث فى العلة النحوية، فهم ينسبون إلى ابن أبى إسحاق أنه «أول من بعج النحو و مدّ القياس و العلل» «۱» ثم بحث الخليل العلل النحوية و قرر أنه اعتلّ بما يرى أنه علة لما علل و ربما يسنح لغيره ما هو علة أخرى أليق «۲»، فهو بذلك يجعل العلل النحوية أمرا عقليا اجتهاديا، و قد انفسح المجال بذلك أمام النحاة فى محاولة استخراج العلل النحوية إلى أن صنف فيها الزجاجى مؤلفه. (۱) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ص ۱۳.

(۲) الزجاجى: الايضاح فى علل النحو ص ۶۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۳

و فى حديث الزجاجى عن العلل نستطيع إدراك تطور دراسة العلل النحوية عند النحاة حيث يورد الزجاجى بصدد بعض المسائل ما احتج به أوائل النحاة كالخليل و سيبويه، ثم ما احتج به من بعدهم، و نلمس من هذا الحديث تعقد دراسة العلل شيئا فشيئا بعد بساطتها على ضوء ما ثقف النحاة من الفقه و علم الكلام و ما مارسوه من أساليب الجدل.

و قد قسم الزجاجى فى كتابه العلل النحوية إلى ثلاثة أقسام «۱»: العلل التعليمية، و العلل القياسية، و العلل الجدلية، فالعلل التعليمية و تسمى بالعلل الأولى هى التى يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب فعلة نصب «زيدا» فى «إن زيدا قائم» هو مجيء «إن» قبلها لأنها تنصب الاسم و ترفع الخبر ليس غير، و علة رفع «زيد» فى «قام زيد» أنه فاعل.

و العلل القياسية هى العلل الثوانى التى تأتى بعد العلل الأولى كأن يسأل سائل عن العلة فى نصب «إن» لفظة «زيدا»، فيجيب النحاة بأنها هى و أخواتها أشبهت الفعل المتعدى إلى مفعول به واحد فعملت عمله، و تلاها منصوب كأنه مفعول مقدم و مرفوع كأنه فاعل مؤخر، فهى من هنا تشبه من الأفعال ما قدّم مفعوله على فاعله.

و العلل الجدلية و تسمى بالعلل الثوالث هى كل ما يأتى من العلل بعد ذلك، فكل ما يعتلّ به فى باب «إنّ» بعد ما قدمنا هو من قبيل العلل الثوالث، كأن يسأل سائل: بأى الأفعال شبهت «إن» و أخواتها: أ بالماضية أم المستقبلة؟ أو يسأل آخر لما ذا لم يجز فى «إن» و أخواتها أن يتقدم مرفوعها على منصوبها كما يحدث ذلك فى الفعل؟ فكل ما يعتلّ به النحاة جوابا عن هذه الأسئلة و نحوها هو من قبيل العلل الثوالث.

و لا- يخفى أن العلل التعليمية هى التى تمس الحاجات العملية لدارس النحو و الناطقين باللغة، أما العلل الثوانى و الثوالث فليست إلا من قبيل الفلسفة اللغوية التى تحاول تعليل ما هو كائن بالفعل فى اللغة بعلل يخترعها النحاة بعد (۱) المصدر السابق ص ۶۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۴

طول النظر و التأمل و هذه الفلسفة تحاول جاهدة تلمس وجوه الحكمة فى أوضاع اللغة، و لذلك فهى لا تفيد الحاجات العملية للناطقين، و قد كانت سببا فى ثورة ابن مضاء القرطبى الذى دعا إلى إسقاط هذه العلل من النحو «۱».

و قد تطور درس العلل النحوية بعد الزجاجى، فأسهب ابن جنى فى الحديث عنها و تبعه ابن الأنبارى، و نجد فى كتابه «الانصاف» كثيرا من الأمثلة لهذه العلل الثوانى و الثوالث التى تعقد درسها شيئا فشيئا، و نرى بعد ذلك صورة لما آل إليه أمر هذه العلل النحوية التى حاول بعض المتأخرين حصرها فى أربع و عشرين علة «۲»، و هى علل يقصد منها تعليل الصور النحوية بربطها بأسبابها و حمل بعضها على بعض على نحو ما يصنع الفقهاء «۳».

و نعود ثانية إلى تفصيل الجهد الذى قام به ابن جنى و ابن الأنبارى، ثم ننظر فى عمل السيوطى.

الواقع أن ابن جنى بالرغم من ضخامة كتابه الخصائص الذى ذكر فى أوله أنه وضعه فى أصول النحو فإنه خارج فى أكثر أبوابه عن «الأصول» بالمعنى الذى تقرر فيما بعد و قد تناول فيه بعض أدلة النحو فتحدث عن السماع و الاجماع و القياس، و تناول العلل النحوية

بحديث مفصل، بيد أن كثيرا من مباحث الكتاب تخرج عن مباحث علم الأصول و تتناول موضوعات أخرى متصلة باللغة، بل إن حديث ابن جنى عن الموضوعات التى أشرنا إليها لم يكن حديثا مركزا، و بالرغم من وقوفه على كثير من الحقائق الهامة فى الأصول فإن كتابته تعد بداية لمن بعده، و تأتى أهميته من أنه أول من تناول بالبحث المسهب بعض المسائل التى عرفت فى علم أصول النحو معتمدا على أوليات قام بها أبو الحسن الأخفش و من قبله الخليل و سيبويه، و يعد وصف السيوطى لعمل ابن جنى فى الأصول أصدق الأوصاف حيث يذكر أنه «وضعه فى هذا المعنى و سماه أصول النحو لكن أكثره خارج عن هذا المعنى، و ليس مرتبا، و فيه الغث و السمين (۱) ابن مضاء القرطبى: الرد على النحاة ص ۱۵۱.

(۲) الاقتراح ص ۴۷، ۴۸.

(۳) د. سيد خليل: مصر فى تاريخ النحو، مقال بمجلة كلية الآداب مجلد ۱۳ ص ۶۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۵

و الاستطرادات» «۱».

و من الطبيعى أن تكون أولية التأليف غير متكاملة و غير متناسقة، و هذا شأن جميع العلوم فلا عجب أن يختلف متناولو أصول النحو بعد ابن جنى عنه، و يكتسب حديثهم نوعا من التقسيم و التنظيم الذى نلاحظه دائما فى تدرج العلوم و نموها حيث تتدرج الملاحظات شيئا فشيئا لتأخذ شكل القوانين أو الأصول الثابتة المقررة، و تستقر للعلم بعض المصطلحات و يتحدد معناها.

فإذا ما نظرنا فى صنيع ابن الأنبارى (۵۷۷ ه) و لا نعرف من تكلم بعد ابن جنى فى أصول النحو قبله وجدنا ذلك العلم قد أخذ يستقر شيئا من الاستقرار، و قد حمل ابن الأنبارى النحو و أصوله على الفقه و أصوله، فتأثر بصنيع الفقهاء و الأصوليين، و حاول تطبيق ذلك فى اللغة، فإذا كانت هناك مسائل فى الخلاف معروفة بين الفقهاء فإن ما يناظرها فى البيئة النحوية هو مسائل الخلاف بين البصريين و الكوفيين التى رتبها مؤلفها على نمط المسائل الخلافية بين الشافعى و أبى حنيفة، و هذه محاولة لا نشاء فن الخلاف فى النحو كما هو معروف لدى الفقهاء، كما تأثر ابن الأنبارى أيضا بعلمى الكلام و الفقه فى وضع فن «الجدل» الاعرابى فى كتابه الاغراب فى جدل الاعراب، و بعض مسائله تتصل بمباحث أصول النحو.

أما علم أصول النحو فقد ترك ابن الأنبارى فيه كتابه «لمع الأدلة» الذى حاول فيه وضع الأصول النحوية على نمط الأصول الفقهية، بيد أنه قد تكلم بايجاز شديد فى جميع موضوعات أصول النحو، و قد قسم كتابه تقسيما أكثر ملاءمة للأصول، و أكثر مشابهة لتقسيمات أصول الفقه مما وجدناه عند ابن جنى، و قد جعل كتابه فى ثلاثين فصلا، و لا يهولنك ذلك فأغلب هذه الفصول لا يتجاوز صفحة واحدة و كان يحسن به أن يسميها مسائل بدلا من تسميتها بالفصول، و قد تناول فى هذه الأقسام تعريف أصول النحو فحده بأنه «أدلة النحو التى تفرعت منها فروعه و أصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التى (۱) الاقتراح ص ۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۶

تنوعت عنها جملته و تفصيله» «۱»، كما بين فائدته، ثم قسم هذه الأدلة إلى أقسام ثلاثة هى النقل و القياس و استصحاب الحال، و تناول النقل و تقسيمه إلى متواتر و آحاد و شروط كل منهما، و ما يتصل بنقد الرواية و عدالة الرواة، ثم انتقل إلى الحديث عن القياس فى الفصل العاشر و احتج لثبوته فى النحو، و سنتبين أن كثيرا من الحديث عن القياس إنما هو حديث نظرى عقلى مستمد من الفقه و أصوله بعيد عن اللغة و طبيعتها و مقتضياتها، ثم تناول أقسام القياس و هى أقسام شابهت أقسام القياس الفقهى، و لم تحك الواقع اللغوى، ثم تحدث عن العلة و شروطها و جواز التعليل بعلتين و أمثال هذه المسائل التى نجدها عند الأصوليين، ثم تناول وجوه الاستدلال فذكر الاستدلال بالتقسيم و الاستدلال الأولى و الاستدلال ببيان العلة ثم تحدث عن الاستحسان و تعارض الأدلة، و استصحاب الحال، و الاستدلال بعدم الدليل.

و نلاحظ على تقسيمات ابن الأنبارى أنها مستقاة مما وصل إليه علم الأصول الفقهى فى عهده حيث تميزت هذه الأقسام، و اتضحت و

أفاض فى الحديث عنها الأصوليون، و قد حاول ابن الأنبارى نقلها من البيئة الفقهية إلى البيئة النحوية، فأفلح فى كثير من الجوانب، و تعسف و أخفق فى جوانب غير قليلة حيث بدت بحوثه غير معبرة عن الواقع اللغوى و غير مستقاة من المسلك النحوى الأصيل الذى اختطه أئمة النحو و اللغة و سلكوه فى العصر الأول، و حينئذ فإنها لا تعدو أن تكون حديثا نظريا عقليا يعتمد على منطق ذهنى مجرّد بعيد عن اللغة.

و أتى السيوطى و رأى انصراف القوم- فى عصره- عن أصول النحو و التأليف فيه، كما أنه لم يسبقه على مدى قرون طويلة غير هذين الرجلين اللذين لم يتمكنا من إرساء بناء قوى لعلم أصول النحو يكون بالنسبة للنحو كأصول الفقه بالنسبة للفقه، و كل ما أثر عن غيرهما إنما هو شذرات متناثرة و عبارات مقتضبة فى ثنايا كتب اللغة و النحو و الأدب. و قد نظر السيوطى فى صنيع القوم قبله و حاول الافادة منه بما يناسب علم الأصول نافيا عنه ما هو خارج عنه، و يصف عمله وصفا دقيقا بقوله: «و اعلم أنى قد استمددت فى هذا الكتاب كثيرا من (۱) لمع الأدلة فى أصول النحو ص ۸۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۷

كتاب الخصائص لابن جنى فإنه وضعه فى هذا المعنى، و ليس مرتبا و فيه الغث و السمين و الاستطرادات، فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة و أرشقها، و أوضحها معزوا إليه، و ضممت إليه نفائس أخر ظفرت بها فى متفرقات كتب اللغة و العربية و الأدب و أصول الفقه، و بدائع استخرجتها بفكرى و رتبته على نحو ترتيب أصول الفقه فى الأبواب و الفصول و التراجم» «۱».

و لم يغفل السيوطى الحديث عن ابن الأنبارى الذى سبقه فى هذا الميدان، فقد ذكر كتابيه فى الأصول و الجدل، و بين موضوعات الفصول التى تناولها الكتابان، ثم بين إفادته منهما بقوله: «و قد أخذت من الكتاب الأول- يقصد لمع الأدلة فى أصول النحو- اللباب، و أدخلته معزوا إليه فى خلل هذا الكتاب، و ضممت خلاصة الثانى فى مباحث العلة، و ضممت إليه من كتاب الانصاف فى مباحث الخلاف جملة و لم أنقل من كتبه حرفا إلا مقرونا بالعزو إليه ليعرف مقام كتابى من كتابه» «۲».

و توضح لنا العبارة الأخيرة إدراك السيوطى أن أهم من تناول أصول النحو قبله ابن الأنبارى، و أنه أراد بكتابه أن يفوق صنيع سابقه.

و يتميز عمل السيوطى عن سابقيه بما يأتى:

أولا: الفهم الدقيق و المحدد لعلم أصول النحو، و موضوعه و أهدافه، فقد حدّه بأنه «علم يبحث فيه عن أدلة النحو الاجمالية من حيث هى أدلته، و كيفية الاستدلال بها، و حال المستدلّ» «۳»، و هو حد أكثر بيانا و تفصيلا من حد ابن الأنبارى الذى ذكر أن «أصول النحو أدلة النحو التى تفرعت منها فروعه و فصوله» «۴».

و قد حدد ابن جنى أدلة النحو بثلاثة أدلة هى السماع و الاجماع و القياس، و حددها ابن الأنبارى بأنها النقل و القياس و استصحاب الحال، فخلص السيوطى من ذلك إلى تحديدها بأربعة هى السماع و الاجماع و القياس (۱) الاقتراح ص ۲.

(۲) الاقتراح ص ۴.

(۳) المصدر السابق ص ۴.

(۴) لمع الأدلة ص ۸۰.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۸

و الاستصحاب، و ذكر أن هناك أدلة أخرى تأتى فى مرتبة دون ذلك.

و قد بين السيوطى معنى الأدلة الاجمالية و بين أن الأدلة الاجمالية هى التى يتناولها بالبحث علم الأصول، أما الأدلة التفصيلية كدليل جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار و أمثال ذلك فمجاله علم النحو نفسه، و ليس من مباحث أصوله.

و بين أن قوله: من حيث هى أدلته «بيان لجهة البحث عنها أى البحث عن القرآن بأنه حجة فى النحو لأنه أفصح الكلام سواء كان متواترا أم آحادا، و عن السنة كذلك بشرطها الآتى، و عن كلام من يوثق بعربيته كذلك، و عن اجتماع أهل البلدين كذلك، أى أن

كلا مما ذكر يجوز الاحتجاج به دون غيره، و عن القياس و ما يجوز من العلل فيه و ما لا يجوز» «۱».

ثم شرح معنى كيفية الاستدلال مبينا أنه عند تعارض الأدلة و نحوه «كتقديم السماع على القياس و اللغة الحجازية على التميمية إلا لمانع، و أقوى العلتين على أضعفهما، و أخف الأقبحين على أشدهما قبحا» «۱»، ثم بين معنى قوله «و حال المستدل» بأنه يتناول البحث فى المستنبط للمسائل من الأدلة المذكورة: صفاته و شروطه و ما يتبع ذلك «۱».

ثانيا: ترتيب الكتاب بحسب ما يقتضيه علم الأصول، و هو ما لم يقم به ابن جنى فكتابه يحوى ما يتصل بالأصول و ما هو خارج عنها، كما أن ابن الأنبارى لم يوفق فى ترتيب كتابه، و أهم ما يميز كتاب السيوطى ترتيبه الموافق للموضوع، فإذا كان علم الأصول يبحث عن الأدلة الاجمالية و كيفية الاستدلال بها و حال المستدل، فقد تناول السيوطى كلا من هذه الأدلة فى فصل مستقل سماه كتابا، فالكتاب الأول فى السماع، و الثانى فى الاجماع، و الثالث فى القياس، و الرابع فى الاستصحاب و الخامس فى أدلة شتى، و السادس فى التعارض و الترجيح، و السابع فى أحوال مستنبط النحو.

و يعد هذا الترتيب على هذا النسق أو فى ترتيب و أكثره دقة فيما يتصل بأصول (۱) الاقتراح ص ۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۴۹

النحو، و هو ما لم يتنبه إليه ابن الأنبارى الذى ألف فى الأصول من قبل.

و الواقع أن التدرج التاريخى و استقرار علم أصول الفقه بحيث درج الفقهاء على أن يبدءوا مؤلفاتهم بالمقدمات اللغوية التى تهم الأصوليين، ثم يتحدثون بعد ذلك عن الأصول الأربعة القرآن و السنة و الاجماع و القياس ثم يتبعون ذلك ببقية الأدلة، هو الذى حدا بالسيوطى إلى أن يرتب كتابه على النحو الذى انتهى إليه الفقهاء فى أصولهم، و لعل هذا الترتيب لم يكن قد استقر عند وضع ابن الأنبارى كتابه، و قد عبر السيوطى عن سبقه و ابتكاره فى هذا الكتاب قائلا: إن «جمعه و ترتيبه صنع مخترع، و تأصيله و تبويبه وضع مبتدع» «۱».

ثالثا: المقدمات التى قدم بها السيوطى لكتابه لم يتناولها ابن الأنبارى، و قد تشتت و تفرق بعضها فى مباحث ابن جنى، بينما جمعها السيوطى و جعلها بمثابة المقدمات لهذا الكتاب، و قد تناول فيها باختصار شديد يبين فهمه أنها مقدمات لهذا العلم و ليست من أصوله، تناول فيها حدود النحو و اللغة و القول فى نشأة اللغة و مناسبة الألفاظ للمعانى، و الدلالات النحوية، كما تناول الحكم النحوى و قسمه كتقسيم الفقهاء للحكم الفقهى إلى واجب و ممنوع و حسن و قبيح و خلاف الأولى و جائز على السواء «فالواجب كرفع الفاعل و تأخيره عن الفعل، و جر المضاف إليه و تنكير الحال و التمييز و نحو ذلك، و الممنوع كأضداد ذلك، و الحسن كرفع المضارع الواقع جزاء بعد شرط ماض، و القبيح كرفعه بعد شرط المضارع، و خلاف الأولى تقديم الفاعل فى نحو «ضرب غلامه زيدا»، و الجائز على السواء كحذف المبتدأ أو الخبر و إثباته حيث لا مانع من الحذف و لا مقتضى له» «۱».

و هذا التقسيم تحت هذه المصطلحات الأصولية لا نجده عند ابن جنى و لا عند ابن الأنبارى، و قد قسمه أيضا إلى رخصة و غيرها، فالرخصة ما جاز استعماله لضرورة الشعر و تتفاوت الضرورة حسنا و قبحا، و قد بين السيوطى مراتب الحسن و القبح فى الضرورة الشعرية ممثلا بالأمثلة «۳». (۱) الاقتراح ص ۱۰.

(۳) الاقتراح ص ۱۱، ۱۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۰

كما تحدث عن تعلق الحكم بشيئين فصاعدا، و هو نفس ما تحدث عنه ابن الأنبارى فى جواز تعليل الحكم بعلتين «۱»، و قد بحثه السيوطى فى مباحث العلة بيد أنه فى المقدمات عنى بما يتعلق به الحكم من أشياء قد يجوز أن تجتمع كمسوغات الابتداء بالنكرة فكل منها مسوغ على انفراده، و لا يمتنع اجتماع اثنين فأكثر، و منها ما لا يجوز اجتماعه كالتنوين مع الاضافة فهما خاصتان للأسماء و لا يجوز اجتماعهما، و قد أورد هنا أيضا بعض الأمثلة لكلا النوعين.

ثم يتحدث عن العربى و العجمى من الكلام فيتضح من حديثه أنه يطلق على المعرب اسم العجمى متابعا أبا حيان الذى قال: «العجمى عندنا هو كل ما نقل إلى اللسان العربى من لسان غيره» «۲»، ثم لخص السيوطى كيفية معرفة عجمة الاسم، و يعد ذلك خلاصة حديثه عنه فى كتابه المزهر.

ثم نقل السيوطى تقسيم الألفاظ إلى واجب و ممتنع و جائز و هو تقسيم عقلى نظرى لا تدفع إليه الحاجة اللغوية الحقيقية، و إنما يدفع إليه الكلف بتصنيف ظواهر اللغة أو ألفاظها تحت أقسام و بمصطلحات فقهية.

رابعا: تناول السيوطى الأدلة النحوية بالبحث التفصيلى من الناحية التى حددها و التى يعنى بها علم الأصول و هى البحث فى حجية هذه الأدلة و كيفية الاستدلال بها، فعقد الكتاب الأول للسماع و هو المصدر الذى اعتمد عليه النحاة و قد حدده بأنه «ما ثبت فى كلام للسماع و هو المصدر الذى اعتمد عليه النحاة و قد حدده بأنه «ما ثبت فى كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام اللّه تعالى و هو القرآن، و كلام نبيه صلى اللّه عليه و سلم، و كلام العرب قبل بعثته، و فى زمنه و بعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما و نثرا عن مسلم أو كافر» «۳».

ثم أخذ فى تفصيل الحديث عن حجية كل نوع من أنواع المادة اللغوية، و لم يقم ابن جنى و لا ابن الأنبارى بمثل هذا العمل، و لم نجده عند غير السيوطى إلا فى بعض إشارات يسيرة و مقتضبة استطاع السيوطى أن يجمعها و أن يدخلها ضمن حديثه، فضم شملها بعد تفرق فى كتب اللغويين، و قد نظّم هذا الفصل (۱) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ۱۱۷.

(۲) الاقتراح ص ۲۳.

(۳) الاقتراح ص ۱۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۱

تنظيما دقيقا ضم خلاصة المنقول عن القدماء فيما يتصل بالمادة اللغوية و كيفية الاحتجاج بها، و من يوثق به و من لا يوثق، و كيفية تصنيفها، و أحوال الناطقين، و ما لا يجوز الاحتجاج به.

و فى بقية فصول الكتاب نرى للسيوطى ابتكارات جديدة تنم عن فهم عميق لنصوص السابقين و محاولة لتهذيب علم أصول النحو و تحديد مسائله تحديدا قاطعا فنراه يقرر القاعدة فى أحيان كثيرة ثم يورد من النقول ما يدل عليها.

و قد استطاع بعمله هذا أن يجمع خلاصة أقوال السابقين و أن يتمثلها ثم يرتبها ترتيبا يتناسب مع علم الأصول مضيفا إليها بعض أفكاره، كما استطاع أن يضم إليها مباحث جديدة أغفلها من تحدث فى أصول النحو قبله، و مما أغفله ابن جنى و ابن الأنبارى معا فضلا عما قدمنا البحث عن أحوال مستنبط النحو الذى عقد له السيوطى الفصل السابع من كتابة «۱».

و يعد كتاب السيوطى من هذه الناحية أهم الكتب التى تناولت أصول النحو، بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن أصول النحو بالمعنى العلمى الدقيق لم يوضع فيها غير كتاب السيوطى.

و نستطيع من خلال هذا الكتاب تبين المنهج النحوى بصورة جلية، و الفروق بين البصريين و الكوفيين فى المنهج.

كما نستطيع تبين مواقف السيوطى من بعض القضايا الهامة فى الأصول فله موقف حاسم تجاه الاحتجاج بالقرآن الكريم و قراءاته حيث ذهب إلى أن: «كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا، و قد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل و لو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه، و إن لم يجز القياس عليه، كما يحتج بالمجمع على وروده و مخالفته القياس فى ذلك الوارد بعينه و لا يقاس عليه نحو «استحوذ»، و ما ذكرته من الاحتجاج بالقراءات الشاذة لا أعلم فيه خلافا بين النحاة، و إن اختلف فى الاحتجاج بها فى الفقه، (۱) الاقتراح ص ۸۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۲

و من ثم احتج على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بقراءة: «فبذلك فلتفرحوا»، كما احتج على إدخالها على

المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة: «و لنحمل خطاياكم»، و احتج على صحة قول من قال: ان «اللّه» أصله «لاه» بما قرئ شاذا: «و هو الذى فى السماء لاه و فى الأرض لاه» «۱».

و قد خطأ السيوطى قوما من النحاة كانوا يعيبون على عاصم و حمزة و ابن عامر قراءات بعيدة فى العربية، و ذلك لأن معول ثبوت القراءات إنما هو على الرواية و ليس على موافقة الأصول النحوية «۲».

و الذى نلاحظه أن موقف المتقدمين من النحاة فيه غير قليل من التعسف تجاه الاحتجاج بالقراءات القرآنية لا سيما ما خالف القواعد النحوية، و نلاحظ تغير النظرة عند المتأخرين الذين جوزوا بعض الاستعمالات مستندين إلى بعض القراءات كاعتماد ابن مالك على قراءة ابن عامر «قتل أولادهم شركائهم» فى تقرير جواز الفصل بين المضاف و المضاف إليه بمعمول المضاف، و هى القراءة التى أنكرها البصريون و الزمخشرى «۳» و قد تبع المتأخرين من النحاة ابن مالك فيما ذهب إليه، و هناك أمثلة أخرى تدل على تغير موقف المتأخرين من النحاة عن موقف المتقدمين على النحو الذى بيناه.

و يتخذ السيوطى موقفا وسطا فى الاحتجاج بألفاظ الحديث الشريف و تراكيبه بين المجيزين مطلقا و المانعين مطلقا و قد عبر عن ذلك بقوله: «و أما كلامه صلى اللّه عليه و سلم فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروى، و ذلك نادر جدا» «۴».

و قد نقل عنه هذا الرأى البغدادى فى مقدمة خزانة الأدب «۵»، و قد رأينا اتساق موقف السيوطى مع ما قرره فى أصوله فى تناوله لبعض الأحاديث و فى كتبه النحوية المختلفة. و فيما يتصل بكلام العرب الذين يحتج بهم تبع السيوطى (۱) الاقتراح ص ۱۵، ۱۶.

(۲) الاقتراح ص ۱۶.

(۳) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ج ۲ ص ۲۷۶، حاشية الصبان ج ۲ ص ۲۷.

(۴) الاقتراح ص ۱۶.

(۵) خزانة الأدب ج ۱ ص ۲۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۳

التحديد المتعارف عليه عند اللغويين و هو اختتام الشعراء الذين يحتج بهم بابن هرمه، بيد أنه زاد على هذه المادة اللغوية مصنفات الامام الشافعى و هو ما لم يشر إليه أحد من النحاة قبله، و قد اعتمد فى ذلك على قول ابن حنبل: كلام الشافعى فى اللغة حجة «۱»، و قد وجدنا محقق رسالة الشافعى فى عصرنا يعتمد على هذا القول محاولا استخراج بعض الأقيسة النحوية الجديدة من استقراء أسلوب الشافعى و عباراته.

و يتسم موقف السيوطى فى بعض الأحيان بالتساهل فى قبول المرويات فهو لا ينتقد موقف الزمخشرى الذى احتج فى تفسيره ببيت لأبى تمام بل يقره فى ذلك «۲»، حيث ذهب الزمخشرى إلى أن أبا تمام و إن كان محدثا لا يحتج بشعره فى اللغة إلا أنه من علماء اللغة فنجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، و يبرر السيوطى ذلك بأن ما تقرر من إجماعهم على أنه لا يحتج بكلام المولدين و المحدثين فى اللغة و العربية خاص بغير أئمة اللغة و رواتها.

و قد قوبل مسلك الزمخشرى السابق بانكار شديد لدى النحاة، و قد ردّ البغدادى على تعليله بأن «قبول الرواية مبنى على الضبط و الوثوق، و اعتبار القول مبنى على معرفة أوضاع اللغة العربية و الاحاطة بقوانينها، و من البين أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية» «۳».

على أن ما ساد فى البيئة النحوية هو عدم الاحتجاج بأقوال المولدين سواء أ كانوا من رواة اللغة و علمائها أم من غيرهم، و ما أجازه السيوطى لم يطبقه أحد من النحاة. و قد اعتمد البغدادى فى حديثه عن اللغة التى يصح الاستشهاد بها فى كثير من الأحيان على ما أورده السيوطى بكتابه، و إن أغفل العزو فى النقل إليه.

بيد أننا للانصاف نأخذ على السيوطى و سابقيه ابن الأنبارى و ابن جنى أن (۱) الاقتراح ص ۲۰.

(۲) الاقتراح ص ۲۶، ۲۷.

(۳) خزانة الأدب ج ۱ ص ۲۱.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۴

ربطهم أصول النحو بأصول الفقه قد ساقهم إلى بحث بعض المسائل بأسماء أى مصطلحات فقهية ليس لها واقع فعلى فى اللغة، أو تناول أخرى بطريقة عقلية جدلية لا تتصل أيضا باللغة، و هم بذلك قد وضعوا فى أصول النحو ما ليس منه، و أهم هذه المسائل التى دخلت أصول النحو أثرا من آثار أصول الفقه ما يأتى:

۱- بعض المسائل المتصلة بالقياس، و التى ضخم بها هؤلاء بحث القياس دون حاجة داعية إليه فى اللغة، حيث أرادوا أن يكون للنحو قياس شبيه بالقياس الفقهى يحدونه بأنه «حمل فرع على أصل بعلة و إجراء حكم الأصل على الفرع»، أو «إلحاق الفرع بالأصل بجامع»، أو «حمل غير المنقول على المنقول إذا كان فى معناه» أو غير ذلك من الحدود التى تطابق حد القياس الأصولى «۱».

و إذا كان الأصوليون قد حددوا أركان القياس بأربعة أركان هى الأصل و الفرع و العلة الجامعة و الحكم فقد نقل ابن الأنبارى و تبعه السيوطى هذا التحديد إلى القياس النحوى، و مثل ابن الأنبارى لهذا القياس قائلا: «و ذلك مثل أن تركب قياسا فى الدلالة على رفع ما لم يسمّ فاعله فتقول: اسم أسند الفعل إليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعا قياسا على الفاعل، فالأصل هو الفاعل و الفرع هو ما لم يسمّ فاعله، و العلة الجامعة هى الاسناد و الحكم هو الرفع، و الأصل فى الرفع أن يكون للأصل الذى هو الفاعل، و إنما أجرى على الفرع الذى هو ما لم يسمّ فاعله بالعلة الجامعة التى هى الاسناد، و على هذا النحو تركيب قياس كل قياس من أقيسة النحو» «۲»، و قد نقل السيوطى هذا النص عن ابن الأنبارى خلال حديثه عن القياس «۳»، و لم يعقب عليه بما يبين أنه نوع مخالف للقياس النحوى الحقيقى الذى تستخرج به الأحكام النحوية، فالواقع أن القياس بهذا المعنى حادث من العرب أنفسهم، و نحن لم نستخرج الحكم النحوى عن طريقه، فالرفع فى نائب الفاعل إنما استفدناه عن طريق (۱) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ۹۳، السيوطى: الاقتراح ص ۳۸.

(۲) ابن الأنبارى: لمع الأدلة ص ۹۳.

(۳) الاقتراح ص ۳۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۵

استقراء المنقول عن العرب إذ استفاض عنهم رفع الاسم مع الفعل المبنى للمجهول بصورة تبين أنهم يريدون لهذا الاسم الرفع فى كل موضع، فالقياس السابق قياس متكلف مصنوع لا يفيد إثبات الحكم و إنما يحاول تعليل ما جاء عن العرب، فهو ليس إلا ضربا من ضروب التعليل التى تحاول تلمس الحكمة و استخراجها من صور اللغة و أوضاعها.

و بالرغم من أن السيوطى لم يفض فى الحديث عن هذا النوع من القياس فإننا نأخذ عليه وضع هذا النقل بين بحثه المستفيض الذى تناول به القياس اللغوى الحقيقى مبينا شروطه و أحكامه.

و مما أدخله السيوطى فى القياس اللغوى تأثرا بأصول الفقه و ليس له ثمرة عملية تقسيمه القياس إلى أربعة أقسام: «حمل فرع على أصل، و حمل أصل على فرع، و حمل نظير على نظير، و حمل ضد على ضد، و ينبغى أن يسمى الأول و الثالث قياس المساوى، و الثانى قياس الأولى و الرابع قياس الأدون» «۱»، و قد مثل له بأمثلة تدلنا على أنه لم يكن ينبغى أن يوضع مع مبحث القياس الحقيقى الذى تستنبط به الأحكام النحوية، و إنما مكانه الفلسفة النحوية التى تحاول تعليل الصور اللغوية و ارتباطها بعضها ببعض، حيث يحاول هؤلاء النحاة التدليل على أن اللغة تسير فى ذلك مراعية منهجا قياسيا معروفا. فهى ليست غير محاولات لإقامة أشكال قياسية مما هو كائن فى اللغة، و لا تفيدنا أحكاما نلحق بها ما لم يسمع بما سمع أو نحو ذلك مما هو شأن القياس النحوى الحقيقى.

و استخراج هذه الأشكال القياسية أشبه ما يكون بصنيع الفقهاء الذين يتلمسون ضروبا من هذه الأقيسة فى نصوص الكتاب و السنة، و يستدلون بذلك على حجية استخدام القياس فيما بعد أصلا من أصول التشريع «۲».

۲- بعض ما يتعلق بالعلل النحوية، و نلاحظ أن دراسة العلل النحوية عند (۱) الاقتراح ص ۴۲.

(۲) ابن القيم: إعلام الموقعين ج ۱ ص ۱۱۴- ۱۷۲.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۶

ابن جنى و ابن الأنبارى و السيوطى متأثرة بالعلة الفقهية و العلة الكلامية، و قد طرقوا لذلك نفس الموضوعات التى طرقها الفقهاء من قبلهم، و بدا أن بعض ما يفيضون فيه لا يعبر عن واقع اللغة كحديث ابن الأنبارى عن الحكم فى محل النص و ثبوته: أ بالنص أم بالعلة «۱»؟، و قد نقل عنه السيوطى ذلك، بينما لا نرى لهذا المبحث ثمرة عملية فى اللغة، و حديث السيوطى عن مسالك العلة «۲»، الذى أفاض فى بحثه و ترسم فيه خطى الفقهاء، و قد سبقه ابن جنى ببحث مستفيض فى العلل النحوية.

۳- اعتبار ابن جنى الاجماع دليلا من أدلة النحو، و تابعه السيوطى فى ذلك، و قد عده السيوطى الدليل الثانى بعد السماع، و هم يريدون به إجماع نحاة البلدين، و ليس هنا برهان واقعى يمكن أن نستند إليه فى اعتبار الاجماع حجة فى اللغة، و بالرغم من شعور ابن جنى و السيوطى بذلك فإنهما تأثرا بالفقه و ترسما له قد اعتباره من أدلة النحو، و زاد السيوطى بأن جعله الدليل الثانى، و خصص له الفصل الثانى من كتابه «۳».

و بالرغم مما شاب كتاب الاقتراح من الخلط بين نوعى القياس، و من تناول بعض المسائل التى لا تعبر عن الواقع اللغوى السليم، و لا تؤدى إليه فائدة، فإننا نجد فيه كذلك تعبيرا عن المنهج النحوى بحيث يعد أهم الكتب التى تمثل علم أصول النحو فى نهاية تدرجه عند القدماء.

و قد تناوله ابن علان بشرح كبير نلاحظ فيه أنه لم يخالف السيوطى فى غالب أقواله، بل يدل حديثه أثناء الشرح على إكباره الشديد له، فهو يذكر عن السيوطى أنه «مخض لبان علم العربية حتى أخرج بحسن صنيعه هذه الزيادة فجعلها أصلا لما تفرعت عنه و خرجت منه، و قد تدرك العناية الأخير فينال ما يجبر و صمة التأخير» «۴».

و هو يريد بقوله أن عمله قد فاق به المتقدمين، و أبدع فيه ما لم يبدعوا. (۱) لمع الأدلة ص ۱۲۱، الاقتراح ص ۵۱.

(۲) الاقتراح ص ۵۸.

(۳) الاقتراح ص ۳۵.

(۴) شرح ابن علان على الاقتراح (مخطوط) ص ۵، ۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۷

مذهبه النحوى

السيوطى نحوى متأخر نشأ فى البيئة المصرية التى سبق لنا الحديث عن معالمها الثقافية و الاجتماعية و السياسية، و لقد كانت هذه البيئة. وارثة الحضارة الاسلامية بصفة عامة كما بينا، و قد آل إليها ذلك التراث الثقافى الذى ازدهر فى الأمصار الاسلامية المختلفة، فقامت هذه البيئة على تمثله و حفظه و دراسته و تنميته.

كان طبيعيا أن تتأثر دراسة النحو فى مصر بهذا التراث الذى قامت على حفظه، و نحن نعرف أن هذه البيئة قد سبقتها بيئات أخرى توفرت على دراسة النحو.

و قد درج الباحثون على تسمية هذه البيئات النحوية بالمدارس، بالرغم مما فى هذه التسمية من بعض التجوز حيث نلاحظ الفروق الفردية فى بعض الأحيان أكثر ظهورا من الفروق المدرسية، فالأخفش البصرى مثلا نراه يوافق الكوفيين فى كثير من آرائه، و يخالف البصريين سلفه و خلفه، كما نرى الفراء الكوفى يتابع سيبويه فى أحيان غير قليلة، على حين يتابع المبرد الكسائى فى أحيان أخرى، و بالرغم من ذلك فلا بأس أن نتناول هذه البيئات أو المدارس بالتعريف بمميزاتها العامة لنخلص إلى البيئة المصرية التى ورثت هذه

الدراسات و كان السيوطى أحد نحاتها.

و قد وضع النحو العربى بالبصرة، و كان للخليل و سيبويه الفضل فى إرساء أركانه، و وضع أصوله، و ليس من المبالغة أن نقول: ان جهود النحاة بعد سيبويه تدور فى محوره أو مجاله و تعتمد عليه، و الكوفيون الذين عاصروه و استمروا بعده قد أفادوا من جهوده التى نقلها إليهم تلميذه الأخفش، و ربما يكون بحث هذه الطبقة من النحاة و تبين آرائها النحوية أكثر تشويقا و جدوى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۸

من بحث المتأخرين الذين ورثوا علم النحو بعد أن نضج و كاد يحترق.

و يمكننا أن نجمل ما امتازت به المدرسة البصرية التى وضع أوائلها النحو و استمرت جهودها متضافرة حقبة من الزمن حتى أواخر القرن الثالث الهجرى فيما يأتى:

۱- التثبت فى المادة اللغوية التى يحتج بها، و تحديد القبائل، فليس كل ما يروى يصح الاستشهاد به، و قد أنكروا على الكوفيين اعتمادهم على الأعراب المقيمين فى سواد الكوفة و هجاهم اليزيدى البصرى منكرا عليهم ما يحتجون به «۱».

۲- يقيم البصريون أقيستهم على الكثير الشائع عن العرب، و يغفلون القليل و الشاذ، و من ثم وصفوا بأنهم «أصح قياسا لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع و لا يقيسون على الشاذ» «۲».

۳- أنهم لا يعولون على قياس التمثيل و هو القياس عند انعدام الشاهد أى انعدام المنقول و ذلك بقياس باب على باب آخر الا فيما ندر.

فمذهب البصريين يتسم بالتنظيم و محاولة تعميم الأقيسة و طردها، و هو كذلك يمثل مذهب اللغويين المتشددين الذين لا يبيحون القياس إلا على ما ورد بكثرة و يمنعون القياس على الأمثلة القليلة، و يقفون فيما ورد منها على السماع، و تمثل العقلية البصرية العقلية العلمية الصحيحة التى تحاول وضع القوانين المطردة، و نجد لديها القدرة على التعميم و التعريف و وضع القواعد و المصطلحات العلمية، و هذا هو السر فى سيطرة النحو البصرى على المدارس النحوية التالية:

فإذا ما اتجهنا نحو بيئة الكوفة و مذهبها رأينا نظرة أخرى فى اللغة و أساليبها، فأهم خصائصهم:

۱- أنهم أقل تثبتا و تشددا فى قبول المادة اللغوية التى تتخذ مصدرا للقياس، (۱) ابن الأنبارى: نزهة الألباء ص ۵۵.

(۲) الاقتراح ص ۸۴.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۵۹

كما أن الأعراب الذين سمعوا منهم متهمون فى نظر البصريين، يضاف إلى ذلك أنهم وقفوا على قدر أكبر من المادة اللغوية لما عرف عنهم من عنايتهم القديمة برواية الأشعار فهم كما وصفوا «أوسع رواية» «۱». كما أنهم كانوا أكثر عناية بالقراءات القرآنية و ربما كان ذلك سببا فى كونهم أكثر توسّعا فى القياس.

۲- أنهم أكثر توسعا فى القياس و إباحة له، و لذلك فهم يقيسون على القليل و على ما يعده البصريون شاذا لا يجوز القياس عليه، قال الأندلسى: «الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا، و بوبوا عليه بخلاف البصريين» «۲».

۳- أنهم يعولون أكثر من البصريين على قياس التمثيل و هو القياس على ما لم يرد به نقل كإجازتهم «قام زيد لكن عمرو» مع أنه لم يرد به نقل قياسا على ما ورد فى باب آخر و هو «بل» من نحو «قام زيد بل عمرو»، و قد منع البصريون ذلك «۳».

تلك أهم الخصائص التى ميزت كل مدرسة عن صاحبتها، و يتضح منها أن الاختلاف بين المدرستين ينحصر فى كمية الاستقراء، و كمية المادة اللغوية، ثم فى قبول هذه المادة تبعا لاعتبارات نقد الرواية، ثم الاختلاف فى المذهب النحوى القياسى الذى يبيح القياس على القليل أو لا يرضى إلا بالكثير المستفيض، و يتضح من ذلك أن عقلية البصريين أكثر جنوحا إلى التنظيم و طرد الأقيسة.

و قد عللت كلتا المدرستين ما استنبطته من أقيسة نحوية. و خالفت به المدرسة الأخرى بعلل عقلية و نقلية تدل فى كثير من الأحيان

على فهم عميق للأسرار اللغوية و التركيبية لا سيما ما نراه من هذه العلل فى كتاب سيبويه قبل أن يتعقد التعليل و تتشعب به السبل، أى عند ما كان موصول الأسباب باللغة و ظواهرها و خصائصها غير مشترط فى التجريد العقلى. (۱) الاقتراح ص ۸۴.

(۲) الاقتراح ص ۸۴.

(۳) همع الهوامع ج ۲ ص ۱۳۷.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۰

و لم يبق أمام المدارس التالية فى الغالب سوى الترجيح بين المدرستين السالفتين و اختيار ما يتجه منه فى أنظار النحاة، أو استخراج بعض الأقيسة الجديدة بناء على إعادة النظر فى بعض الاستقراءات، أو استحضار مادة لغوية جديدة.

فإذا نظرنا فى عمل البغداديين الذين عرفتهم بغداد منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وجدناهم يمزجون بين المذهبين السابقين بعد أن مرّ عليهم حين من الدهر ينتصر كل منهم لمذهب من المذاهب، و لذلك فالطبقة الأولى من البغداديين يغلب على رجالها التحيز إما إلى مدرسة البصرة أو إلى مدرسة الكوفة، و كأنها بذلك ليست غير امتداد لهاتين المدرستين، و قد كان ذلك نتيجة لانتقال رجال المدرستين السابقتين إلى بغداد، فقد انتقل إليها المبرد شيخ البصريين، و ثعلب شيخ الكوفيين.

و أشهر من عرف من البغداديين بممالأة البصريين و نصرتهم أبو إسحاق الزجاج (۳۱۰ ه) و قصته مع ثعلب و انتقاده كتاب الفصيح انتصافا لسيبويه مشهورة و متناقلة فى الكتب «۱»، و ابن السراج (۳۱۶ ه)، و الزجاجى (۳۳۷ ه)، و ممن غلبت عليهم النزعة الكوفية أبو موسى الحامض (۳۰۵ ه)، و أبو بكر بن الأنبارى (۳۲۷ ه)، و هناك علماء جمعوا بين النزعتين كابن كيسان (۲۹۹ ه)، و الأخفش الصغير (۳۱۵ ه).

و لم يلبث أن قوى اتجاه الجامعين بين النزعتين دون تعصب، مما أدى إلى المزج بينهما و الترجيح و التفضيل فنشأ مذهب جديد يعتمد على الترجيح و النظر فى المذهبين السابقين مع زيادات و فروق قليلة و هو المذهب البغدادى، و قد كانت البادية إلى ذلك الحين لا تزال معينا لا ينضب للمادة اللغوية الأصلية مما أدى إلى استقراء مادة جديدة كانت ذات أثر فى استخلاص بعض الأقيسة التى لم تعرف من قبل أو ترجيح بعضها على بعض.

و هناك قواعد ركن فيها البغداديون إلى المذهب الكوفى، و أخرى ركنوا فيها (۱) السيوطى: المزهر ج ۱ ص ۲۰۲- ۲۰۷، و قد نقلها عن معجم الأدباء لياقوت.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۱

إلى مذهب البصريين، و جانب ثالث استدركوه على المذهبين «۱».

و من الملاحظ أن مذهب البغداديين فى أول أمره كان ينزع منزع الكوفة لغلبة الكوفيين على بغداد و ارتفاع شأنهم فيها، نظرا لصلاتهم القوية بالدولة فى حين أن المتأخرين من البغداديين قد فضلوا المذهب البصرى، و يتضح ذلك عند أبى على الفارسى و ابن جنى اللذين قد ينسبان نفسيهما فى بعض الأحيان إلى البصريين كما يظل ذلك شأن من خلفهم كابن الشجرى (۵۴۲ ه)، و تلميذه ابن الأنبارى (۵۷۷ ه)، الذى يتضح فى إنصافه تفضيله للمذهب البصرى.

فإذا ما يممنا وجوهنا ناحية المغرب وجدنا بيئة الأندلس التى بدأ النشاط النحوى فيها خافتا، و كان فى أول أمره تابعا لما يحدث بالمشرق، و معتمدا عليه، و لم تلبث دراسة النحو بالأندلس أن أخذت تستقل بطابع يميزها عن تبعيتها للمشرق فمنذ أواخر القرن الخامس ازدهرت هذه الدراسة، و عكف النحاة على ما لديهم من مادة لغوية يستقرءونها، و ينظرون فيما أنتجته المدارس الثلاث السابقة فيرجحون بينها، و يختارون ما يتجه عندهم، و يزيدون ما تؤديه لهم استقراءاتهم الجديدة لا سيما أن المادة اللغوية قد أصبحت فى ذلك الحين بالمشرق و المغرب مقصورة على ما روى و حفظ فى بطون الكتب حيث نضب معين البادية منذ تنادى العلماء فى منتصف القرن الرابع الهجرى بوجوب ترك الأخذ عن أهل الوبر كما ترك الأخذ عن أهل المدر «۲».

و قد عرفت الأندلس كثيرا من الأعلام الذين حملوا لواء النحو بها كالأعلم الشنتمرى (۴۷۶ ه)، و ابن السيد البطليوس (۵۲۱ ه)، و السهيلى (۵۸۱ ه)، و غيرهم، و أهمهم على الاطلاق ابن مالك (۶۷۲ ه) و أبو حيان (۷۴۵ ه)، و الشاطبى (۷۹۰ ه)، و قد رحل بعضهم إلى المشرق و أثر فى نحاة البيئة المصرية إلى حد كبير.

و قد توسع ابن مالك فى الاستشهاد بالحديث و أباح ذلك مطلقا، و قد أنكر (۱) محمد الطنطاوى: نشأة النحو ص ۱۴۶، ۱۴۸.

(۲) ابن جنى: الخصائص ج ۲ ص ۵.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۲

عليه هذا الاتجاه، فى حين أنكر أبو حيان الاستشهاد بالحديث مطلقا، و توسط الشاطبى فأباح الاستشهاد فى الأحاديث التى يعلم أن العناية فيها متجهة إلى نقلها بألفاظها.

و قد أحدث ابن مالك لفتة نحوية شغلت القوم بمنظومته التى وضعها و توفر على شرحها معظم النحاة من بعده، و كان له اختيارات من مذاهب البصريين و الكوفيين و البغداديين و سابقيه من الأندلسيين، بالاضافة إلى اجتهاده الفردى، و قد وقف موقفا جديدا تجاه الشاذ الذى يجعله الكوفيون أساسا صالحا للقياس عليه، و يمنع البصريون القياس عليه و يعمدون إلى تأويله و لو كان فى ذلك من التكلف غير قليل، أما ابن مالك فانه «يحكم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس و لا تأويل بل يقول إنه شاذ أو ضرورة ... قال ابن هشام: و هذه الطريقة طريقة المحققين و هى أحسن الطريقين» «۱».

لذلك لقى مسلك ابن مالك استحسانا من النحاة المتأخرين و منهم السيوطى، و قد أثر الأندلسيون بصفة عامة، و ابن مالك بصفة خاصة فى البيئة المصرية حيث رحل كثير منهم إلى مصر أو إلى الشام، و أقاموا عاكفين على الدرس بعد أن أخذت دولة الأندلس فى الذبول.

و يهمنا الحديث عن البيئة المصرية فى عصر المماليك الذى ظهر السيوطى فى أواخره، و النشاط النحوى فى هذا العصر متميز عنه فى العصور السابقة، فبالرغم مما عرفته مصر من ألوان هذا النشاط قبل ذلك، و من ظهوره كثير من النحاة بها فانهم فى الغالب كانوا تابعين للمدارس الثلاث الأول مع ترجيح بين آرائها، و بعض اجتهادات خاصة.

و قد وفد على مصر فى القرنين السابع و الثامن للهجرة بعض نحاة المغرب و الأندلس الذين أحدثوا بالبلاد نشاطا كبيرا، و نبغ على أيديهم أئمة النحو فى مصر، فمنهم ابن معط المغربى (۶۲۸ ه) صاحب المنظومة التى أشار إليها ابن مالك، و ابن مالك و أبو حيان و غيرهم، و لا تلبث البيئة المصرية فى ذلك الحين (۱) الاقتراح ص ۸۶.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۳

أن تصبح ملاذ علماء المشرق و المغرب بعد سقوط بغداد و ايذان شمس الأندلس بالمغيب.

و تنشط الدراسة النحوية، و يرى العلماء بالبلاد أن عليهم مسئولية القيام على تراث المشرق و المغرب.

و نلاحظ أن بعض النّابهين من نحاة مصر قد جمع بين دراسة الأصول و دراسة النحو كابن الحاجب (۶۴۶ ه) و غيره، و قد وصل هؤلاء جميعا النحو بغيره من العلوم التى درسوها، و حاولوا الافادة منه فى دراسة النصوص، و هذا الاتجاه و ان كان أصيلا فى طبيعة البحث النحوى فان المصريين قد توسعوا فيه «۱».

و أهم نحوى ظهر فى مصر بعد ذلك ابن هشام (۷۶۱ ه)، و قد خلف مصنفات عديدة أهمها «المغنى»، و قد اختط منهجه معتمدا على الترجيح بين البصريين و الكوفيين و من تبعهم من النحاة، و اختيار الأصلح فى نظره، و كانت له قدرة كبيرة على التعليل و التخريج، و كثيرا ما يبتكر آراء جديدة لم يسبق إليها لا سيما فى توجيهاته الاعرابية، و الجدير بالذكر أن السيوطى كان يقول عن نفسه: إنه لم يظهر بمصر بعد ابن هشام من يستحق أن يوصف بالاجتهاد فى العربية غيرى. و كان ابن هشام يميل إلى المذهب البصرى. و أكثر المتأخرين ترجيحا للمذهب الكوفى و متابعة له ابن مالك، و قد خالفه أغلب نحاة مصر الذين ناصروا فى كثير من الأحيان آراء

سيبويه و المدرسة البصرية، و نلاحظ ذلك لدى ابن عقيل فى شرحه على الألفية.

ظهر السيوطى فى أوج ازدهار النشاط النحوى مسبوقا بهذا الركام الضخم من المؤلفات النحوية، و قد آل إلى بيئته تراث البيئات السالفة، و قد تأثر السيوطى بالنحاة السابقين له لا سيما الذين أثروا فى البيئة المصرية كابن مالك و أبى حيان، و بنحاة هذه البيئة كابن هشام، و قد تابع السيوطى عرف النحويين فى عصره فى تصنيف مؤلفاته، فقد درجوا على شرح منظومة ابن مالك فأفرد لها شرحا، كما راجت لديهم مصنفات ابن الحاجب و ابن مالك و ابن هشام و قد كان (۱) د. سيد خليل: مصر فى تاريخ النحو ص ۶۹، مقال بمجلة كلية الآداب مجلد ۱۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۴

كتاب «النكت» الذى وضعه السيوطى استجابة لهذا الاتجاه، بيد أن السيوطى قد ظهرت شخصيته الواعية و عقليته النحوية المحددة فى هذا الكتاب إلى أكبر حد.

و لم يكتف السيوطى بأن يعكف على دراسة كتب المتأخرين من الأندلسيين و المصريين، و ينتقدها أو يشرحها، و لكنه أراد- كما هو شأن العصر- أن يصنف فى النحو موسوعة تشمل جميع أبوابه و مباحثه، و قد فعل ذلك بنجاح فى كتاب «جمع الجوامع» الذى شرحه «بهمع الهوامع»، و مصنفات السيوطى التى عرضنا لها آنفا تبين لنا جهوده الخصبة و الوفيرة فى الدرس النحوى.

على أن هذه الكتب تمثل بحق ذلك العصر الذى عنى بالجمع و الترتيب و التنسيق، و تنويع المصنفات ما بين مختصر و مطول و متن و شرح و منظوم و منثور و موشح. و لكن ذلك لا يعنى انصراف عنايته إلى النواحى الشكلية دون المضمون، و لا يغض ذلك منه نحويا كبيرا عرفته البيئة المصرية، و أسهم بدور كبير فى العمل النحوى.

و الحقيقة أنه إنصافا لهؤلاء النحاة ينبغى أن نقول إن النحويين جميعا بعد الخليل و سيبويه لم يكن إبداعهم و ابتكارهم إلا فى حدود ضيقة إذا ما قورنت بصنيع الرجلين من قبل، و يمكن أن نقول: إن النحاة جميعا بعد مدرستى الكوفة و البصرة قد قلت لديهم الابتكارات النحوية و أصبحت مذاهبهم فى غالبها ترجيحا لآراء احدى المدرستين السالفتين، و مع ذلك فلا يمنع هذا من تناول كل منهم منفردا لبيان مقدار جهوده و استيضاح منهجه و الوقوف على اجتهاداته.

و يتميز السيوطى بتقصى الموضوعات النحوية التى يعرض لها، و محاولة استيفاء جزئياتها و الاستدراك على النحاة بعض ما فاتهم، كما أنه فى منهجه يتبع ما تميزت به المدرسة المصرية فى التخير من آراء المدارس السابقة مع شىء من التغليب لمذاهب الأندلسيين، و يتخير من آراء النحاة السابقين عموما ما تتجه علله، و تستبين براهينه، و من حين إلى آخر نظفر بآراء خاصة له أو مفاهيم جديدة تجاه بعض المسائل.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۵

فمن اختيارات السيوطى أن الأسماء قبل تركيبها فى الجمل لا مبنية و لا معربة، و البناء رأى ابن الحاجب و ابن مالك، و الاعراب رأى الزمخشرى، و القول بالواسطة رأى أبى حيان و اختيار السيوطى «۱».

و قد يخالف السيوطى سيبويه و الجمهور و يرجح آراء غيرهم كاختياره إعراب «أىّ» الموصولة فى جميع حالاتها فى حين يذهب سيبويه و الجمهور إلى بنائها على الضم إذا أضيفت و حذف صدر صلتها مستدلين بقوله تعالى: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا، و قد تبع فى ذلك الأخفش و الزجاج و احتج لرأيه يقول الجرمى: «خرجت من الخندق يعنى خندق البصرة حتى صرت إلى مكة لم أسمع أحدا يقول: اضرب أيّهم أفضل بل كلهم ينصب و لا يضم»، و ببعض القراءات التى نصبتها، و يؤكد قوة إعرابها ما ذهب إليه ابن مالك و احتج به السيوطى من أنها تعرب فى باب الشرط و الاستفهام «۲»، و إعرابها أيضا استظهر السيوطى أنه قول الخليل و يونس «۳» و الكوفيين.

و من المتفق عليه فى الممنوع من الصرف أنه يجر بالكسرة إذا أضيف أو دخلت عليه «ال» و اختلف: هل هو مصروف فى هذه الحالة

أم أنه باق على منعه من الصرف؟، و قد رجح السيوطى رأى السيرافى و الزجاج فى كونه مصروفا لأنه دخله خاصية من خواص الاسم فضعف فيه شبه الفعل «۴».

و يختار السيوطى رأى الكوفيين الذى يتوسع فى القياس و هو إجازة بناء سداس و مسدس و سباع و مسبع و ثمان و مثمن و تساع و متسع قياسا على المسموع من ذلك و هو أحاد و موحد إلى خماس و مخمس، و عشار و معشر «۵».

و قد تبع السيوطى ابن هشام فى تقسيم المبنيات و تناول البناء على الفتح و هو (۱) المطالع السعيدة (مخطوط) ص ۱۶، همع الهوامع ج ۱ ص ۱۹.

(۲) المطالع السعيدة ص ۲۱.

(۳) همع الهوامع ج ۱ ص ۹۱.

(۴) المطالع السعيدة ص ۴۸.

(۵) المطالع السعيدة ص ۲۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۶

اسم «لا» النافية للجنس إذا كان مفردا، و على الياء إذا كان اسم «لا» مثنى أو جمع مذكر سالما «۱»، و لكن السيوطى قد انفرد دون ابن هشام و دون النحويين بقوله: ان المثنى قد يبنى على الألف نيابة عن الفتحة على لغة بلحارث بن كعب كقوله صلى اللّه عليه و سلم: «لا وتران فى ليلة» «۱»، و قد احتج كما نرى بهذا الحديث و هو يتبع فى ذلك منهج المتأخرين فى إمكان اعتبار الحديث حجه، و يتفق مع مذهبه الذى سبق لنا أن شرحنا أصوله، و قد قوى السيوطى اللغة التى تلزم المثنى الألف فى حالات الاعراب الثلاث فذكر أنها «لغة معروفة عزيت لكنانة و بنى الحارث بن كعب و بنى العنبر و بنى الهجين و بطون من ربيعة، و بكر بن وائل، و زبيد و خثعم و همدان، و مزادة و عذرة و خرج عليها قوله تعالى: إِنْ هذانِ لَساحِرانِ و قوله صلى اللّه عليه و سلم: «لا وتران فى ليلة»، و أنشد عليها قوله: تزود منا بين أذناه طعنة، و قوله: قد بلغا فى المجد غايتاها «۳».

و يتميز السيوطى بجمعه للآراء المختلفة و حكمه عليها فى أحيان كثيرة مبينا أصحها و أشهرها و أضعفها، و ينعت كل رأى بما يبين موقفه منه، فهو يورد أقوالا شتى فى إعراب الأسماء الستة فيذكر أن أشهرها قول قطرب و الزيادى و الزجاجى من البصريين و هشام من الكوفيين بأنها معربة بالحروف، بينما يذكر أن أصح هذه الآراء رأى سيبويه و جمهور البصريين و بعض المتأخرين كابن مالك و أبى حيان و ابن هشام الذين يذهبون إلى أنها معربة بحركات مقدرة فى الحروف، و أنها أتبع فيها ما قبل الآخر للآخر، و قد ذكر السيوطى اعتلالهم لمذهبهم «۴».

و حين يضعف السيوطى رأيا من الآراء لغرابته و عدم إمكان اتجاهه فانه ينعته بالزعم كقوله: «زعم الزجاج أن المثنى مبنى لتضمنه معنى الحرف و هو العاطف» «۵»، و قوله: «و زعم الأخفش بناء جمع المؤنث نصبا و غير المتصرف جرا» «۵». (۱) ابن هشام: شذور الذهب ص ۸۳، ۸۴، السيوطى: المطالع السعيدة ص ۱۸.

(۳) همع الهوامع ج ۱ ص ۴۰.

(۴) همع الهوامع ج ۱ ص ۲۳۴.

(۵) همع الهوامع ج ۱ ص ۳۸، ج ۱ ص ۱۹.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۷

و أنكر السيوطى على الكوفيين و جماعة من النحويين كالأخفش و أبى حاتم و النحاس و ابن مضاء عدّهم «لا- سيما» من أدوات الاستثناء لأن ما بعدها يشارك ما قبلها فى الحكم و لعدم صلاحية «إلا» مكانها بخلاف سائر الأدوات «۱».

و قد خالف ما شاع عند كثير من النحويين من أن نفى «كاد» إثبات لخبرها، و إثباتها نفى للخبر مستدلين على ذلك بقوله تعالى:

فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ و قد ذبحوا، و بقوله: يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ و لم يضىء، و ذهب إلى أن «التحقيق أنها كسائر الأفعال نفيها نفى، و إثباتها اثبات، إلا أن معناها المقاربة لا وقوع الفعل فنفيها نفى لمقاربة الفعل و يلزم منه نفى الفعل ضرورة أن من لم يقارب الفعل لم يقع منه الفعل، و إثباتها إثبات لمقاربة الفعل و لا يلزم من مقاربته وقوعه فقولك: «كاد زيد يقوم» معناه قارب القيام و لم يقم و منه «يكاد زيتها يضىء» أى يقارب الاضاءة إلا أنه لم يضىء، و قولك: «لم يكد زيد يقوم معناه لم يقارب القيام فضلا عن أن يصدر منه» «۲».

و إذا كان ما يذهب إليه السيوطى فى هذا الرأى متجها فى الشواهد و الأمثلة التى أوردها فانه لم يتجه فى قوله تعالى: فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ و قد أجاب عنها بأنها محمولة على وقتين، أى فذبحوها بعد تكرار الأمر عليهم بذبحها، و ما كادوا يذبحونها قبل ذلك و لا قاربوا الذبح «۲».

و قد خطأ السيوطى ابن هشام و أبا حيان فيما نقلاه و اقراه من أن «لو» التى ترد للتمنى تحتاج إلى جواب، و الأصح أنه لا جواب لها «۴».

و قد خالف معظم النحاة متقدميهم و المتأخرين فيما ذهب إليه من إعراب «الآن» لأنه «لم يثبت لبنائه علة معتبرة، فهو منصوب على الظرفية، و إن دخلته «من» جر «و خروجه عن الظرفية غير ثابت» «۵».

و عنده أن الأصح جواز تعدد الخبر و النعت و هو رأى الجمهور خلافا لابن عصفور و كثير من المغاربة «۶». (۱) نفس المصدر السابق.

(۲) همع الهوامع ج ۱ ص ۱۳۲.

(۴) همع الهوامع ج ۲ ص ۶۶.

(۵) همع الهوامع ج ۱ ص ۲۰۸.

(۶) المصدر السابق ج ۱ ص ۱۰۸.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۸

و يمضى السيوطى فى التخير من آراء النحاة السابقين ما تستقيم حجته و تتضح علته مؤثرا من الآراء ما هو قريب من العقل بعيد عن التأويل و التقدير الذى يوغل أحيانا فى الاغراب، كما يحرص قبل ذلك على دقة المعنى و سلامته فهو محك الصحة و الخطأ عنده، فنراه مثلا- يذهب فى تخريج «لا- أبا لك» إلى أن «أبا» مفردة جاءت على لغة القصر و المجرور باللام هو الخبر، و قد تبع فى ذلك الفارسى و ابن الطراوة، و قد اختار هذا الرأى «لسلامته من التأويل و الزيادة و الحذف و كلها خلاف الأصل» «۱»، و هو بذلك يخالف رأى الجمهور الذى يذهب إلى أنها مضافة إلى المجرور باللام الزائدة.

و يهتدى السيوطى باستقراء المادة اللغوية فى بعض الأحيان إلى ما يخالف أقوال النحاة السابقين أو يصحح أحكامهم، فقد رد ما ذهب إليه ابن مالك و ابن الصائغ من أن النداء بالهمزة قليل و ذكر أنه وقف لذلك على أكثر من ثلاثمائة شاهد، و أنه أفردها بتأليف «۲»، و هو ما سماه بقطر الندا فى ورود الهمزة للندا.

و يعلل السيوطى اختياراته و آراءه بعلل قوية واضحة تراعى سلامة المعنى، و هى علل قريبة المأخذ بعيدة عن التكلف، و يؤثر من الأحكام ما يدفع اللبس عن الأساليب فقد أجاز النحاة تنوين المنادى المبنى فى الضرورة ثم اختلفوا فى أن الأولى بقاء ضمه أو نصبه و الأول مذهب الخليل و سيبويه و المازنى علما كان أو نكرة مقصودة، و الثانى رأى أبى عمرو و غيره، و اختيار ابن مالك بقاء الضم فى العلم و النصب فى النكرة المقصودة لأن شبهها بالمضمر أضعف، و خالف السيوطى ابن مالك و اختار العكس أى «النصب فى العلم لعدم الالباس فيه، و الضم فى النكرة المعينة لئلا يلتبس بالنكرة غير المقصودة إذ لا فارق حينئذ إلا الحركة لاستوائهما فى التنوين «۳»، و قد نبه السيوطى إلى أنه انفرد بهذا الرأى دون سائر النحويين، و هو كما ذكرنا يميل إلى دفع اللبس فى الأساليب، و الباسها ثوبا

من الوضوح و الجلاء، و تجنّب اللبس من الاعتبارات الهامّة التى تراعيها اللغة و تحرص عليها فى كثير من أوضاعها، و لذلك فإن تعليل السيوطى لاختياره (۱) همع الهوامع ج ۱ ص ۱۴۵.

(۲) همع الهوامع ج ۱ ص ۱۷۲.

(۳) همع الهوامع ج ۱ ص ۱۷۳.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۶۹

بتجنب اللبس يبدو مقبولا متفقا مع المنطق اللغوىّ السليم.

تلك نماذج من اختيارات السيوطى و آرائه الخاصة و تعليلاته أردت بها أن ألقى الضوء على مذهبه النحوى، و هو فى الحقيقة نحوى مصرى يجرى فى اتجاه مدرسته متخيرا من الآراء المختلفة ما تستقيم حججه و براهينه، و نراه يستشهد فى أحيان غير قليلة بالحديث الشريف، و موقفه كما ذكرنا موقف وسط فى الاحتجاج بالحديث، و يورد فى أحيان أخرى الأحاديث أمثلة يوضح بها الأحكام التى سبق تقريرها، و بالرغم مما قرره نظريا من أن ما يحتج به من الحديث نادر جدا فانه يميل إلى ذكر كثير من الشواهد الحديثيّة عند التطبيق و لكنه لا ينسى أن يعضدها بشواهد أخرى من المادة اللغوية المعتمدة فى الاحتجاج قرآنا أو شعرا أو نثرا.

و نستطيع أن نقول ان السيوطى فى دراساته النحوية قد استطاع أن يلائم بين منهجه الذى غلب عليه الطابع النقلى و بين المنهج العقلى الاستنباطى، فهو يحشد معظم الآراء النحوية و لكنه يختار أحدها و يعلل اختياره بالحجج و البراهين المعتمدة على الأصول النحوية و اللغوية المقررة، و لا يعبأ بمخالفة مشاهير النحاة إذا أداه اجتهاده إلى مخالفتهم، و قد كان صادقا حينما ذكر عن نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد فى العربية و أنه ليس بعد ابن هشام نحوى مثله، هذا الحكم لا نستطيع بعد ما قدمنا أن ننكره على السيوطى.

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۱

خاتمة

و بعد، فلقد عنيت فى هذا البحث ببيان دور السيوطى فى حياة الدرس اللغوى، و مكانه فى تاريخ هذا الدرس، و أثره فيه، و قد فرض ذلك علىّ أن أتناول بالدراسة شخصيته و حياته و منهجه الفكرى و أصول هذا المنهج، و قد أردت أن أقيم هذه الدراسة على أساس من دراسة البيئة المصرية بعامة و بيئة القاهرة بخاصة فى الفترة التى عاش فيها السيوطى، و من هنا بدأت بتحديد الاطار السياسى و الاجتماعى لهذه البيئة و نبهت إلى أهم الظواهر الاجتماعية التى تركت أثرها فى حياة المجتمع و حياة أفراده و عقولهم كمظاهر نشاطها فى هذه الفترة، و وصفت وصفا دقيقا نظم الدراسة و مثلت لأنواع المراكز العلمية بعد تقسيمها تقسيما دقيقا، و نبهت إلى عوامل نشاط هذه الحركة و بواعثها، ثم أشرت إلى جملة من الملاحظات الهامة التى لاحظتها فيما يتصل بالتأليف و المؤلفات، و قد بينتها بالتفصيل لأنها تفسر لنا ألوان مؤلفات السيوطى التى حاول فيها أن يجارى أشكال التأليف المتنوعة فى عصره، كما تأثر بطابعها، و أهم ملاحظاتى على التأليف اتجاه جانب كبير من المؤلفات اتجاها موسوعيا فرضته ظروف البيئة السياسية و الاجتماعية نتيجة الاحساس بقيامها على صيانة التراث و حفظه، و تقديرها ما منيت به من خسارة على أيدى الغزاة من المغول، ثم شيوع التقليد فى المؤلفات و ظاهرة المتون و الشروح و المنظومات التعليمية و الاكمالات و التذييلات.

و بالرغم من أن النواحى الشكلية فى التأليف قد حظيت بعناية بالغة فان ذلك لم يقض على العناية بالقيمة العلمية و ان كان قد أثر فيها بطبيعة الحال.

على أن هذا العصر يتميز إلى حد كبير بنضج العلوم و استقرار المصطلحات العلمية و تنسيق الأفكار و الموضوعات و ترتيبها، و قد تعاقبت جهود شتى خلال

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۲

هـذه الفترة نلحظ لديها العناية التامة بالتنسيق و التنظيم، و لا ينفى ذلك درايتها التامة بالنواحى العلمية و الموضوعية، و ما أسـهمت به فى تدرج حياة العلوم المختلفة.

و قـد ظهرت العنايـة بالناحيـة الشـكلية فى الأدب بصـورة جليـة فى حرص الشـعراء و الكتـاب على البـديع و إسـرافهم فى اسـتخدام المحسـنات اللفظيـة على حساب المعنى فى كثير من الأحيان، و قد نبهت على أساليب التعبير فى الشعر و النثر، و الأنواع الأدبية النثرية التى وجدت أمثلة لها فى انتاج السيوطى العلمى و الأدبى فهو صورة لهذا العصر تشرب بثقافته، و امتزجت نفسه بروحه، فتأثر به بطريقة ما ثم أثر فيه.

و قـد تنـاولت حياة السـيوطى بالدراسـة، و كان قصـدى تحديـد المراحل المتميزة فى حياته، و هى أربع مراحل تبـدأ الأولى بولادته و تسـتمر فترة حفظه القرآن و دراسته بعض المختصرات و الكتب المتعارف عليها فى البيئة المصرية آنذاك فى الفقه و النحو و غيرهما ثم تلقيه بعض العلوم و تنتهى بحصوله على إجازة بتدريس العربية حين كان فى السابعة عشرة من عمره، و الثانية تبدأ منذ ذلك الحين الـذى أمكنه فيه أن يتخذ طريقه فى الحياة العملية مع اسـتمراره فى الطلب و الدرس إلى حين بلوغه السابعة و العشـرين و حصوله على إجازة بالتـدريس و الافتاء و تصـديره، و منذ ذلك التاريخ تألق نجم السـيوطى بالحياة العامة بالقاهرة، و تميزت حياته العلمية و العملية بحركـة غير عاديـة و نشاط واسع، و قـد تولى خلالها عددا من الوظائف، و فى المرحلة الثالثة يتجه الرجل إلى الهدوء و حب العزلة مع عكوف على البحث و الانتاج، و عـدم انقطاع عن المشاركة فى الحياة العامة، و تتمثل هذه الفترة فى المدة التى قضاها شـيخا للبيبرسـية كبرى الخوانق فى عصـره، و المرحلـة الأخيرة فى حياته تتسم بالعزلـة التامـة و الانقطاع إلى العبادة و التأليف و تبدأ من عام (۹۰۶ ه) و تسـتمر خمسة أعوام إلى أن وافاه أجله، و قد نبهت فى عرضـى لمراحل حياته و تحديدها على بعض الأوهام التى وقعت للمترجمين له من القدماء و المحدثين.

و قد ألقيت الضوء على صلته بالمجتمع و مكانه فيه لما وجدت له من آثار

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۳

و فتـاوى تنـاول فيهـا مجتمعه بالنقـد و العلاج و ترك بها أثرا واضـحا فى حياة المجتمع، و قـد جرت عليه مكانته العلميـة و الاجتماعية خصومـات عنيفـة لمست أثرهـا فى كثير من كتابـاته، و قـد ألقيت الضوء عليها لما لها من صـلة بتحديـد شخصـيته و خلقه، ثم تناولت بالدراسة شـخصه و خلقه و أمانته العلمية، و كان ذلك مقدمة لما قصدت إليه من دراسة منهجه فى التفكير و أصول هذا المنهج، و قد تبين لى أن الرجل بالرغم من تعـدد جوانبه العلميـة فان بعض العلوم قـد طبعت عقليته و وجهتها، و أولها علوم الحديث التى اسـتنفذت جلّ اهتمامه، و ترك فيها أكبر قدر من آثاره، و عايشـها أطول مدة من حياته حيث مكث بالشيخونية مدرسا للحديث مدة طويلة، و قد كان لعلوم الحـديث أثرها فى غلبة المنهج النقلى على طريقته فى التأليف و البحث فى معظم ميادين المعرفة فهو حريص على ذكر من ينقـل عنه و على ذكر أسـماء المصادر التى يسـتمد منها نقوله مع تحرج شديـد و أمانـة بالغـة يـدركها من يتتبع هـذه النقول، و هو فى تلخيصه أيضا حريص على أن يلتزم ألفاظ المنقول عنهم إلى أكبر حد.

و الجانب الثانى الذى أثر فى السـيوطى هو سـلوكه مسلك التصوف علما و عملا، و قد عرف الصوفية بتساهل فى قبول الرواية، و كأن منهجه كـان يتنـازعه مؤثران أحـدهما ينظر إلى الروايـة و النقول نظرة علميـة جادة، و الآخر يميل إلى قبولها و الاستئناس بها و بـذلك نستطيع تفسير جانب من النقول التى تساهل فى قبولها.

و العلم الثالث الذى ترك أثرا فى منهجه هو الفقه، الذى بلغ فيه درجة الاجتهاد المطلق، و الفقه يطبع عقل صاحبه بالطابع العملى الذى يلمس الواقع و يحس به، و يحاول إدراك حاجات الناس فى الحياة و يبحث لهم عن حكم اللّه تعالى فيما يسـتجد من أحداث، و على الفقيه أن يعمل عقله و فكره فى النصوص و الأدلة فى محاولة استنباط الحكم و الوقوف عليه، فهو كما قالوا: «معقول من منقول».

و قـد تركت هـذه العلوم أثرهـا فى منهـج السـيوطى و طبعت عقليته بطـابع يغلب عليه المنهـج النقلى الـذى يعنى أولا بالنقـد الخارجى

للنقول من حيث ثبوتها

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۴

و صحتها ثم يعنى بعد ذلك بترتيبها و تنسيقها، ثم يكون اهتمامه الأخير بنقدها و التعليق عليها و مخالفتها أو موافقتها، ثم إنه قد يتساهل فى إيراد بعض الأخبار و الروايات الضعيفة مع نصه على درجتها من الصحة و الحسن و الضعف، و فى بعض الأحيان يغفل حكمه عليها من حيث الوثوق.

على أن منهج السيوطى الذى غلب عليه فى معظم دراساته يمكن أن نصفه باجمال بأنه يقوم على محاولة استقصاء أكبر قدر من النقول التى بحثت الموضوع من قبل و اختيار أخصرها و أوفاها، ثم جمعها و ترتيبها ترتيبا يراعى التاريخية و الموضوعية فى كثير من الأحيان، و قد لا يلتزم بهما فى بعض الأحيان، ثم يتبع نقوله بكثير من الأمثلة التى يجتهد فى جمعها و يراها موافقة لما ساق من نقول، و قد يصرح باختياره لبعض الأقوال، و قد يسرد موضوعا بأكمله دون أن يصرح بمذهبه أو رأيه، و فى بعض الأحيان نجد له آراء مبتكرة، فان كان يميل إلى ترجيح أحد الآراء التى نقلها أو إلى اختياره اجتهد فى ذكر النقول التى تسند مذهبه.

و يعنى السيوطى فى مصنفاته بالاستدراك على من قبله ممن طرق نفس الموضوعات و يحاول الاضافة إلى ما قدموا، و قد يكون ذلك سببا فى التحكم أو التعسف فى بعض الأحيان، كما يغفل فى أحيان غير قليلة التنبيه على التعارض بين النقول التى يوردها.

و يظهر بوضوح اجتهاده العقلى فى دراسته للنحو و الفقه و قد قالوا ان النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول.

و قد حاولت أن ألقى الضوء على الجانب الأدبى عند السيوطى بغية تبين ملامح أسلوبه و خصائصه مع التعريف بالأنواع الأدبية التى ترك فيها آثارا، كما عرفت به شاعرا تبلغ مقدرته النظمية أوجها فى نظم العلوم، فله منظومات فى شتى ألوان المعرفة، و فى الموضوعات و المسائل الجافة.

و قد بحثت آثار السيوطى بصفة عامة و وجدت اختلاف المصادر القديمة و الحديثة فى تقدير عددها، و قد حصرت منها ستمائة مصنف بها جانب من

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۵

المطولات و بعض المنظومات، و بعضها متوسط الحجم، و بينها عدد كبير من الرسائل الصغيرة، و له بعض المقامات، بعضها لا يتجاوز بضع صفحات، و قد وقفت على جانب كبير من هذه الآثار يمثل معظم ما وصل إلينا، و يمثل نماذج لجميع الأنواع السابقة.

و بعض كتب السيوطى لا سيما المطولات ألفها فى مراحل متفرقة يعاود النظر فيها بين الحين و الحين ثم يصدرها بعد أعوام طويلة من بداية شروعه فيها، و الجانب الأكبر منها لم يكن يستغرق وقتا طويلا، على أنه قد عرف بسرعة الكتابة و التأليف، و لم يكد يترك موضوعا دون أن يطرق أبوابه بقلمه، و قد نبهت على بعض النصوص التى زيدت على بعض كتب السيوطى، و ان كان ذلك لم يضعف عندى من وثاقة نسبة هذه الآثار جميعها إليه.

و بعد أن أرسيت فى الباب الأول الأسس التى يمكننى الاعتماد عليها فى بيان دور السيوطى فى حياة الدرس اللغوى اتجهت إلى بحث جهوده اللغوية، و بدأت بالحديث عن جهوده فى فقه اللغة و قصدت به تناول الجهود التى تتصل بمستويات الدّرس اللغوى غير النحوية، و لما كنت أهدف إلى بيان مكانه بين اللغويين، و مكان دراساته فى تاريخ الدرس اللغوى، فقد بدأت بإجمال الملامح الرئيسية لتدرج الدرس اللغوى و أنواع الدراسات التى سبق بها اللغويون و كانت مصدرا اعتمد عليه السيوطى، ثم تناولت بالدراسة آثاره اللغوية، و رتبتها ترتيبا موضوعيا لتعذر الترتيب التاريخى، و بعض هذه الآثار يمس عربية القرآن و هى تطلعنا على موقف السيوطى الذى يقبل وجود ألفاظ غير عربية فى القرآن الكريم، بل يتوسع فى إحصاء هذه الألفاظ، و يجتهد فى نقل أكبر عدد منها، و هو مخالف لرأى الشافعى و الطبرى و أبى عبيدة و ابن الطيب و ابن فارس و غيرهم، و قد ناقشت فكرة عربية القرآن بين المنكرين لوجود ألفاظ أعجمية و القائلين بوجودها، و من حاول التوفيق بين كلا المذهبين، و تبين لى أن أقرب هذه الآراء إلى الصواب رأى

الموفقين بين المذهبين كأبى عبيد القاسم بن سلام و غيره، كما نبهت على أن كثيرا من الألفاظ التى نقل السيوطى نسبتها إلى لغات غير العربية هى ألفاظ عربية و لا دلالة على عجمتها لا سيما ما نسب منها إلى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۶

بعض اللغات السامية، كما نبهت على عيوب منهجه النقلى الذى جعله ينسب بعض الألفاظ الواردة بالقرآن الكريم إلى بعض اللغات الأجنبية ثم لا يلبث حين يتناول «ما ورد فى القرآن ببعض لغات العرب» أن ينسب هذه الألفاظ إلى بعض اللهجات العربية، و هكذا تتعارض نقوله دون أن ينبه على هذا التعارض أو يتناوله بالدراسة.

و تناولت رسالته عن أصول الكلمات و بينت أهميتها فى درس التطور الدلالى، و أشرت إلى جهود القدماء و المحدثين حول فكرة التطور، و استنتجت من هذه الرسالة تنبه السيوطى لفكرة مادية اللغة فى نشأتها و هى الفكرة التى تجعل الدلالات الحسية أسبق فى الوجود من الدلالات المجردة.

ثم تناولت منظومة له فى أسماء الكلب و بعض الآثار الأخرى المناظرة حول موضوع الترادف و قد وجهت النقد إلى صنيع السيوطى فى بعض هذه الآثار و محاولته الجمع و التقصى دون مراعاة لما تفرضه طبيعة الموضوع و واقعه، و قد كان ذلك أثرا من آثار المنهج النقلى.

و درست «الاتباع» فى اللغة بصدد بعض الآثار، و رأيت أنه قد غلب عليه طابعه النقلى فلم يصرح بموقفه و لم يذكر تعليقا واحدا، و قد بينت أنه يقر هذه النقول و أنها تعبر عن رأيه، كما عرضت لموضوع «المشترك اللفظى» ثم قارنت شرحه لقصيدة كعب بن زهير بشرح ابن هشام و قد بينت ما امتاز به شرح السيوطى من عناية بالمعنى، و سهولة الأسلوب و وضوح العبارة، و يعد أفضل شروح هذه القصيدة، و تناولت بعض الآثار الأخرى بالدراسة، و قد بلغت جملة الآثار التى عرضتها ستة عشر تمكنت من الوقوف على تسعة منها تعد أهمها، و بعض الآثار الباقية حملت ما فيها على نظائره فى آثاره الأخرى أو فى كتابه المزهر، بعد أن تبين لى تشابه أبحاثه حول الموضوع الواحد إذا تناوله فى أماكن متفرقة من كتبه بحيث لا تكاد تختلف إلا فى مقدار الاسهاب أو الايجاز.

و قد بينت قيمة أهم آثاره اللغوية و هو كتابه «المزهر» الذى جمع شتات مباحث فقه اللغة، و لم يسبق السيوطى بمؤلف جامع مثل مؤلفه، و يتميز بوقوفه على دراسات الأصوليين الهامة للغة و الافادة منها، و يعد أجل الأعمال اللغوية التى

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۷

قام بها و التى أحجم عنها اللغويون من قبل بالرغم من غلبة الطابع النقلى عليه.

على أن أهم ما تفرد به السيوطى فى البحث اللغوى هو إقامة منهج لنقد الرواية اللغوية أو التنظير الوافر له، و هو ما أغفل اللغويون من قبل إفراده بالبحث، و ما تنبه إليه السيوطى نتيجة لتأثره بعلوم الحديث، و قد شرحت هذه المحاولة و قارنت الأصول التى وضعها السيوطى لنقد الرواية اللغوية بما وضع من قبل من أصول لنقد رواية الحديث عرفت باسم أصول الحديث و مصطلحه.

و بحثت مفهوم اللغة عند السيوطى، و هو المفهوم الذى حدده ابن جنى من قبل، و الذى ساد عند العرب بصفة عامة، و قد بينت إدراكهم لماهية اللغة من حيث كونها أصواتا يعبر بها عن المعانى و تقديرهم لهذه الصوتية، و ادراكهم لوظيفة اللغة فى المجتمع، و أثر هذا المفهوم فى دراساتهم.

و قد عرضت لمجموعة من مباحث السيوطى تحت عنوان «الألفاظ» و نبهت فيها على الآراء الصوتية القيمة التى عرفها العرب فى درسهم للغة بصدد دراسة الفصيح و المذموم من اللغات، و العيوب الصوتية، و قد رأيت محاولة السيوطى تصنيف ألفاظ اللغة على أساسين أولهما أساس صوتى، و الآخر يتصل بالرواية و أصول نقدها.

و بينت دور السيوطى فى بحث المعرب و المولد من الألفاظ، و وصلته بما قام به المجمعيون فى عصرنا، و أهم ما توصل إليه اللغويون القدماء فى بحث المعرب ما نقله السيوطى فى كيفية معرفة عجمة الاسم حيث يتصل ذلك بالخصائص الصوتية للغة العربية، فعجمة

الاسم تعرف بخروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو «ابريسم» أو أن يكون أوله نون ثم راء، أو أن يكون آخره زاى بعد دال، أو أن يجتمع فيه الصاد و الجيم أو الجيم و القاف، أو أن يكون خماسيا أو رباعيا عاريا من حروف الذلاقة و هى الباء و الراء و اللام و الميم و النون.

و قد بينت أهمية دراسته لمختلف اللغات و تداخلها فى الدرس اللغوى و تفسير بعض الظواهر اللغوية.

ثم عرضت لمجموعة أخرى من مباحثه تحت عنوان «الدلالة اللغوية» و قد

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۸

نبهت إلى أن بعض ما عده السيوطى بحثا فى اللغة من حيث المعنى، كان ألصق بمباحث اللفظ كالابدال و القلب و النحت، و قد أورد فيها آراء صوتية قيمة للغويين تشهد بصحتها الدراسات الحديثة.

و تناول الاشتقاق ببحث لخص فيه أقوال السابقين و قسمه تقسيما جامعا حاول به أن يستوعب الدراسات السابقة.

و يتصل بالتطور الدلالى بحثه فى الحقيقة و المجاز و الخاص و العام و المطلق و المقيد و يمتاز كتاب السيوطى باغترافه من منابع الأصوليين الذين درسوا هذه الموضوعات أدق و أوفى من درس اللغويين، و جمعه بين أقوالهم و أقوال اللغويين، و قد حاول أن يقسم ألفاظ اللغة باعتبار عموم الدلالة و خصوصها إلى خمسة أقسام، و هو تصنيف لم يسبق إليه، و هو يفيد إلى حد كبير فى دراسة التغير الدلالى، فقد وضع قسما لما وضع عاما و استعمل عاما أى لما لم يحدث فيه تغير دلالى كالسماء لكل ما علا و الصعيد لكل أرض مستوية، و الثانى ما وضع عاما ثم خص فى الاستعمال ببعض أفراده، و الثالث الألفاظ التى اعتراها تغيير نحو التعميم أى ما وضع خاصا ثم استعمل عاما، و الرابع ما وضع عاما و استعمل خاصا، و أفرد لبعض أفراده اسم يخصه، و الخامس ما وضع خاصا و استعمل خاصا، و يدل هذا المبحث على ابتكار السيوطى فى هذا التقسيم و عنايته بالتغير الدلالى، و جهده الصائب فى جمع الأمثلة و وضعها فى مواضعها، على أن مباحث الدلالة قد حظيت بعناية الأصوليين أكثر مما حظيت به عند اللغويين.

و قد وضع السيوطى تصنيفا مبتكرا لأبنية اللغة حاول به حصرها و ضبطها فى المبحث الذى سماه بالأشباه و النظائر.

و الحقيقة أننى قد خلصت من هذه المباحث إلى أن عبقرية السيوطى تتجلى فى الاستقصاء و التتبع الدقيق و حسن التصنيف و التقسيم و الترتيب، و هو بذلك يعبر عن الروح السائدة فى عصره و لكنه يبلغ مبلغا كبيرا.

و قد حاولت تبين موقفه من بعض القضايا اللغوية كالبحث فى نشأة اللغة، و المناسبة بين اللفظ و المعنى، و هو من اللغويين الذين يدافعون عن وجود مناسبة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۷۹

بين اللفظ و المعنى لكنها عندهم مناسبة غير ذاتية، و قد وجدت هذه الفكرة من المحدثين من يميل إليها، كما أشرت إلى جهده فى دراسة المعاجم اللغوية و عنايته فيها بناحية الثبوت و الوثاقة، كذلك دراسته لفكرة إثبات الأسماء بالقياس التى أنكرها متابعا المحققين من الأصوليين و اللغويين، و فيها دلالة على اتجاههم إلى أنّ الصلة بين اللفظ و المعنى عرفية و ليست عقلية.

و فى بحثى عن جهوده النحوية تبين لى أنه قد طرق بكتبه جميع أنوار الدراسات النحوية، فقد ألف فى أصول النحو، كما ألف فى سبب وضع علم النحو، كما كتب عددا من الكتب فى الفروع النحوية، و له إلى جانب ذلك فتاوى و دراسات تطبيقية تتناول النصوص.

و ليس تنوع مباحثه النحوية مقصورا على ناحية الموضوع، بل تنوعت مصنفاته من ناحية الشكل حيث حاول فيها أن يستوعب جميع الأشكال التأليفية المعروفة، فله شرح على ألفية ابن مالك، و له ألفية مستقلة و شرح عليها، ثم له متن مطول هو جمع الجوامع و شرح عليه هو همع الهوامع، و له موشح فى النحو، و شرح على المغنى و شرح لشواهده، و له دراسة نقدية نحوية قيمة لبعض الكتب النحوية التى اشتهرت فى عصره و هى كتابه «النكت»، و قد تناولت بالدراسة أهم هذه الكتب، و جانب منها لا يزال مخطوطا.

و الواقع أن شخصية السيوطى فى الدرس النحوى أكثر وضوحا منها فى فروع الدّرس اللغوى الأخرى و يتميز بأنه تنبه إلى وظيفة النحو فى الحياة و أهميته فى فهم النصوص القرآنية و الحديثية و الفقهية و الأدبية، و سائر النصوص، و يتضح ذلك فى فتاواه النحوية و فى بعض رسائله، على أن أهم أعمال السيوطى النحوية تتمثل فى كتابه «الاقتراح» الذى تناول فيه علم أصول النحو، و تأتى أهميته من أنه لم يحظ بعناية الباحثين فى النحو، فأهم المحاولات التى سبقت السيوطى فى ذلك ما قام به ابن جنى، و ما قام به ابن الأنبارى و قد بينت قيمة عمليهما، و خلصت إلى أن السيوطى قد تميز عمله عن سابقيه بالفهم الدقيق لعلم أصول النحو و موضوعه و أهدافه، و بحسن الترتيب الذى يراعى به موضوع العلم، و بزيادة بعض المباحث التى أغفلها سابقاه، و من ثم فان علم أصول النحو لم

يتحدد علما مكتوبا له أصوله و حدوده فى البيئة النحوية إلا بعمل السيوطى، و لم أنس أن أنتقد صنيع السيوطى و من سبقه من أصوليى النحاة و أنبه على بعض المآخذ التى أخذتها عليهم نتيجة ربطهم أصول النحو بأصول الفقه.

ثم حاولت فى ختام البحث تحديد المذهب النحوى له، و تبين لى أنه نحوى مصرى تأثر بروح المدرسة المصرية التى كان أفرادها يتخيرون من أقوال النحاة ما تستقيم لهم حجته كابن مالك و أبى حيان، و للسيوطى اختيارات يرجح فيها مذهب البصريين فى كثير من الأحيان، و مذهب الكوفيين فى أحيان أخرى، أو يرجح آراء بعض النحاة المتأخرين تبعا لما يمليه عليه اجتهاده اللغوى، و يعد السيوطى- بحق- أفضل نحوى أنجبته مصر بعد ابن هشام.

و الحمد للّه رب العالمين

ثبت المصادر و المراجع

أولا- أسماء مؤلفات السيوطى

أورد فيما يلى أسماء آثار السيوطى التى أشرت من قبل إلى أنى سأذكرها ضمن مسرد المصادر، و ما أشرت إلى أنه مطبوع أو مخطوط فهو من المصادر التى اعتمدت عليها فى البحث و تمكنت من الرجوع إليها، و ما لم أذكر ذلك فهو ما لم أتمكن من الوقوف عليه، و قد اعتمدت فى سرد ما لم أقف عليه من آثاره على ما ورد بحسن المحاضرة له، و كشف الظنون لحاجى خليفة، و هدية العارفين لاسماعيل البغدادى.

۱- أبواب السعادة فى أسباب الشهادة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۸۳۹ ب ضمن مجموعة مخطوطة).

۲- الابتهاج فى مشكل المنهاج (ذكره صاحب الهدية).

۳- إتحاف الفرقة برغو الخرقة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۱۹۱، ضمن مخطوط بدار الكتب برقم ۲۵ قولة، ورقة ۳۲۳).

۴- إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء (ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۲۴۱).

۵- الإتقان فى علوم القرآن (رجعت إلى طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة، نشر المكتبة التجارية، ۱۳۶۸ ه).

۶- إتمام الدراية لقراء النقاية (بهامش كتاب مفتاح العلوم للسكاكى- مطبعة التقدم العلمية بمصر).

۷- إتمام النعمة فى اختصاص الاسلام بهذه الأمة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۱۳).

۸- الأجر الجزل فى الغزل (ذكر بكشف الظنون).

۹- الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۹۳).

۱۰- الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۱- الأحاديث المنيفة فى السلطنة الشريفة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۲- أحاسن الاقتياس فى محاسن الاقتباس (ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

۱۳- الاحتفال بالأطفال (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۱۱، مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۲۷۳ ب، ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۱۴۸).

۱۴- إحياء الميت بفضائل أهل البيت (ضمن مخطوط (رقم ۲۵) قولة ورقة رقم ۷۴).

۱۵- الأخبار المأثورة فى الاطلاء بالنورة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۲۴، ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۱۱۳).

۱۶- الأخبار المروية فى سبب وضع علم العربية (رسالة طبعت ضمن مجموعة بعنوان التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية عام ۱۳۰۲ ه).

۱۷- أخبار الملائكة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۱۸- آداب الفتوى (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۱۹- آداب الملوك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۲۰- أدب القاضى على مذهب الشافعى (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۲۱- أدب المفرد فى الحديث (ذكر بهدية العارفين).

۲۲- اذكار الأذكار مختصر حلية الأبرار (ذكر بهدية العارفين).

۲۳- أربعون حديثا فى رفع اليدين فى الدعاء (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۴- أربعون حديثا فى فضل الجهاد (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۲۵- أربعون حديثا من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر (ذكر بحسن المحاضرة و كشف الظنون).

۲۶- الأرج فى الفرج (القاهرة، المطبعة الشرقية، ۱۳۱۸ ه).

۲۷- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۳

۲۸- إزالة الوهن عن مسألة الرهن (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۲۹- الازدهار فيما عقده الشعراء من الآثار (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۳۰- أزهار الآكام فى أخبار الأحكام (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۳۱- أزهار العروش فى أخبار الجيوش (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۳۲- الأزهار الفائحة على الفاتحة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۳۳- الأزهار الغضة فى حواشى الروضة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۴- الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۳۵- الأساس فى مناقب بنى العباس (ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۷۳).

۳۶- أسباب الاختلاف فى الفروع (ذكر بهدية العارفين).

۳۷- أسباب الحديث (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۳۸- إسبال الكساء على النساء (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۰۱۸۰ ب).

۳۹- اسجال الاهتداء بابطال الاعتداء (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۴۰- إسعاف الطلاب من مختصر الجامع الصغير بترتيب الشهاب (ذكر بهدية العارفين).

۴۱- إسعاف المبطأ برجال الموطأ (حيدرآباد ۱۳۲۰ ه).

۴۲- الأسئلة الوزيرية و أجوبتها (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۵۵۲).

۴۳- أسماء المهاجرين (مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۶۴ ج ضمن مجموعة).

۴۴- الأشباه و النظائر فى الفقه (مطبوع، مكة ۱۳۳۱ ه).

۴۵- الأشباه و النظائر فى النحو (حيدرآباد، طبعة دائرة المعارف النظامية ۱۳۱۶، ۱۳۱۷ ه).

۴۶- أطراف الأشراف بالاسراف عى الأطراف (ذكر بالهدية).

۴۷- الاعتماد و التوكل على ذى التكفل (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۴۸- أعذب المناهل فى حديث: من قال أنا عالم فهو جاهل (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۵، مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۸۳۹ ضمن مجموعة،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۴

ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۳۱۱).

۴۹- الإعراض و التولى عمن لا يحسن أن يصلى (ذكر بهدية العارفين).

۵۰- إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۵۱- الاعلام بحكم عيسى عليه السلام (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۷۷، مخطوط بدار الكتب برقم ۲۲۹۶۸ ب، ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۲۲۷).

۵۲- الأعلام الحسنى بمعانى الأسماء الحسنى (ذكر بالهدية).

۵۳- أعلام النصر فى إعلام سلطان العصر بمسألة البروز على شاطئ النهر (يبدو أنه لا يزيد على رسالته: الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر و منظومته النهر، انظر الحاوى ج ۲ ص ۲۲۶).

۵۴- إعمال الفكر فى فضل الذكر (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۰).

۵۵- إغاثة المستغيث فى حل بعض إشكالات الحديث (ذكر بالهدية).

۵۶- الإغضاء عن دعاء الأعضاء (ذكر بكشف الظنون).

۵۷- إفادة الخبر بنصه فى زيادة العمر و نقصه (ذكر بالهدية).

۵۸- الافصاح فى أسماء النكاح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۵۹- الإفصاح فى زوائد القاموس على الصحاح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۶۰- الافصاح على تلخيص المفتاح (ذكر بالهدية).

۶۱- الاقتراح فى علم أصول النحو (رجعت إلى طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد، الطبعة الثانية ۱۳۵۹ ه).

۶۲- الاقتناص فى مسألة التماص (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۶۳- آكام العقيان فى أحكام الخصيان (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۶۴- الاكليل فى استنباط التنزيل (مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ۳۵۹۱ ج).

۶۵- التقاط لقط المرجان فى أحكام الجان (ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۹۵).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۵

۶۶- إلقام الحجر لمن زكى سباب أبى بكر و عمر (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۶۷- الإلماع فى الإتباع (ذكر بكشف الظنون و بالهدية، و قد أشار إليه السيوطى فى المزهر بصدد حديثه عن الإتباع).

۶۸- ألوية النصر فى «خصيصى» بالقصر (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۷۸).

۶۹- أمالى على الدرة الفاخرة (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).

۷۰- الأمالى على القرآن (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).

۷۱- الأمالى المطلقة (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).

۷۲- الأناقة فى رتب الخلافة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۷۳- إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۶۴، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۵، حيدرآباد ۱۳۱۶ ه).

۷۴- الانتصار بالواحد القهار (ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).

۷۵- إنجاز الوعد بالمنتقى من طبقات ابن سعد (ذكر بالهدية).

۷۶- انشاب الكثب فى أنساب الكتب (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۷۷- الانصاف فى تمييز الأوقاف (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۴۰).

۷۸- أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۵۶۵ ب، نسخة أخرى برقم ۲۳۲۰۰ ب).

۷۹- الأنوار السنية فى تاريخ الخلفاء و الملوك لمصر السنية (ذكر بالهدية).

۸۰- الأوج فى خبر عوج (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۵۷۳، ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۱۰۴).

۸۱- الآية الكبرى فى شرح قصة الاسرا (دمشق- مطبعة الترقى ۱۳۵۰ ه).

۸۲- الايضاح فى علم النكاح (القاهرة، طبع حجر ۱۲۷۹ ه).

۸۳- الباحة فى السباحة (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۸۴- البارع فى اقطاع الشارع (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۹۸).

۸۵- البارق فى قطع يد السارق (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۸۶- الباهر فى حكم النبى صلى اللّه عليه و سلم فى الباطن و الظاهر (مطبعة حجازى بالقاهرة ۱۳۵۱ ه، بمخطوط قولة ورقة رقم ۴۹).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۶

۸۷- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ذكر بكشف الظنون و بالهدية و لم يذكر بحسن المحاضرة، و قد ذكر فى دائرة المعارف الاسلامية أنه تاريخ عام مطبوع بالقاهرة عام ۱۲۸۲ ه).

۸۸- البدر الذى انجلى فى مسألة الولا (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۷۴).

۸۹- البدور السافرة فى أمور الآخرة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۱۹۱ ب، و طبع بالهند ۱۳۱۱ ه).

۹۰- البحر الذى زخر فى شرح نظم الدرر (ذكر بالهدية).

۹۱- بذل العسجد لسؤال المسجد (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۳۸، و بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۷۵).

۹۲- بذل المجهود لخزانة محمود (ذكر بالهدية).

۹۳- بذل الهمة فى طلب براءة الذمة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۷۰، و بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۰۸).

۹۴- برد الظلال فى تكرار السؤال (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۹۵- البرق الوامض فى يائية ابن الفارض (مطبوع).

۹۶- بزوغ الهلال فى الخصال الموجبة للظلال (بمخطوط قولة رقم ۲۸۷).

۹۷- بسط الكف فى إتمام الصف (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۷۷، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۰۳).

۹۸- بشرى الكئيب بلقاء الحبيب (المطبعة الميمنية بالقاهرة ۱۳۰۹ ه، بمخطوط رقم «۲۵» قولة ورقة رقم ۱۲۴).

۹۹- بغية الرائد فى الذيل على مجمع الزوائد (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۱۰۰- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين و النحاة (الطبعة الأولى، القاهرة ۱۳۲۶ ه).

۱۰۱- بلبل الروضة (ضمن مجموعة مقامات له، مطبعة الجوائب، القسطنطينية عام ۱۲۹۸ ه).

۱۰۲- بلغة المحتاج فى مناسك الحاج (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۷

۱۰۳- بلوغ الأمنية فى الخانقاه الركنية (ذكر بكشف الظنون و الهدية).

۱۰۴- بلوغ المآرب فى قص الشارب (بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۱۲).

۱۰۵- بلوغ المآرب فى أخبار العقارب (ذكر بكشف الظنون و الهدية).

۱۰۶- بلوغ المأمول فى خدمة الرسول (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۰۴).

۱۰۷- البهجة المرضية فى شرح الألفية (رجعت إلى طبعة مؤرخة بعام ۱۲۷۲ ه، و لم يذكر بها مكان الطبع)، و يبدو أن صحة العنوان «النّهجة» بالنون، و ليس البهجة بالباء، و قد أوردته تبعا لعنوان المطبوع.

۱۰۸- بهجة الناظر و نزهة الخاطر (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۲ مجاميع).

۱۰۹- تأخير الظلامة إلى يوم القيامة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۲۷۲۹ ب، بمخطوط «۲۵» قولة ورقة رقم ۲۹۰).

۱۱۰- تاريخ الخلفاء (طبعة إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة ۱۳۵۱ ه).

۱۱۱- تأييد الحقيقة العلية و تشييد الطريقة الشاذلية (ذكر بحسن المحاضرة و كشف الظنون و الهدية).

۱۱۲- التبر الذائب فى الأفراد و الغرائب (ذكر بالهدية).

۱۱۳- التبرى من معرة المعرى (منظومة له فى أسماء الكلب رجعت إليها مطبوعة ضمن كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء، القاهرة ۱۳۸۵ ه- ۱۹۶۵ م).

۱۱۴- تبييض الصحيفة بمناقب الامام أبى حنيفة (حيدرآباد ۱۳۱۷ ه، الهند ۱۳۲۴ ه ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۱۸۷).

۱۱۵- التثبيت عند التبييت (منظومة له فى سؤال القبر، المطبعة الحسينية، القاهرة ۱۳۲۸ ه).

۱۱۶- التحبير فى علوم التفسير (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية، و يبدو أنه قد أدرجه فى كتاب الاتقان).

۱۱۷- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص (مطبعة المعاهد، القاهرة ۱۳۵۱ ه، طبع بعد ذلك بتحقيق الأستاذ محمد لطفى الصّبّاغ).

۱۱۸- تحرير المنقول و تهذيب الأصول (ذكر بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۸

۱۱۹- تحفة الآثار فى الأدعية و الأذكار (ذكر بالهدية).

۱۲۰- تحفة الأبرار بنكت الأذكار (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۲۱- تحفة الأنجاب بمسألة السنجاب (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۳).

۱۲۲- تحفة الجلساء برؤية اللّه تعالى للنساء (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۴۸).

۱۲۳- تحفة الحبيب بنحاة مغنى اللبيب (ذكر بالهدية).

۱۲۴- تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء (ذكر بالهية و حسن المحاضرة و كشف الظنون).

۱۲۵- تحفة الكرام بأخبار الأهرام (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۲۶- تحفة المجالس و أنس المجالس (مطبعة السعادة، القاهرة ۱۳۲۶ ه).

۱۲۷- تحفة المجتهدين فى أسماء المجددين (مخطوطة فى ورقة واحدة برقم ۸۲۶۰ ح بدار الكتب).

۱۲۸- تحفة المذاكر فى المنتقى من تاريخ ابن عساكر (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).

۱۲۹- تحفة النابه بتلخيص المتشابه (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۱۳۰- تحفة الناسك بنكت المناسك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۳۱- تحفة النجبا فى قولهم: هذا بسرا أطيب منه رطبا (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۳۲- تخريج أحاديث شرح العقائد (ذكر بحسن المحاضرة).

۱۳۳- تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى (القاهرة المطبعة الخيرية، مخطوط برقم ۷ مصطلح حديث- قولة بدار الكتب).

۱۳۴- تذكرة المؤتسى فيمن حدث و نسى (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۱۳۵- التذنيب فى الزوائد على التقريب (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۳۶- التذييل و التذنيب على نهاية الغريب (ذكر بالهدية).

۱۳۷- ترجمان القرآن فى التفسير المسند (القاهرة ۱۳۱۴ ه، عدة مجلدات).

۱۳۸- ترجمة النووى و البلقينى (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۱۳۹- تزيين الأرائك بإرسال النبى صلى اللّه عليه و سلم إلى الملائك (طبعت بالحاوى ج ۲

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۸۹

ص ۲۵۱، بمخطوط قولة ورقة رقم ۴۱).

۱۴۰- تزيين الممالك بمناقب الامام مالك (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۴۱- تشنيف الأسماع بأحكام السماع (ذكر بالهدية).

۱۴۲- تشنيف الأسماع بأحكام الاجماع (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۱۴۳- تشنيف السمع بتعديد السبع (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۴۴- تشييد الأركان فى ليس فى الامكان أبدع مما كان (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۱۴۵- التصحيح لصلاة التسبيح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۱۴۶- التضلع بمعنى التقنع (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۴۷- التطريف فى التصحيف (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۴۸- تعريف الأعجم بحروف المعجم (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۱۴۹- التعريف بآداب التأليف (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۲ مجاميع).

۱۵۰- تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۵۰۹).

۱۵۱- التعظيم و المنة فى أن أبوى النبى صلى اللّه عليه و سلم فى الجنة (الطبعة الأولى حيدرآباد ۱۳۱۷ ه، بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۴۳).

۱۵۲- تعقبات السيوطى على موضوعات ابن الجوزى (طبع حجر لاهور ۱۸۸۶ م).

۱۵۳- التعلل و الإطفاء لنار لا تطفأ (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۵۴- تعليقة على السنن الكبيرة (ذكر بالهدية).

۱۵۵- تعليق الشص فى حلق اللص (ذكر بالهدية).

۱۵۶- تفسير الجلالين (أكمل السيوطى العمل الذى قام به شيخه المحلى فى التفسير ففسر من أول البقرة إلى نهاية الإسراء، ثم وضع تفسير الفاتحة الطبعة الأولى القاهرة ۱۳۲۴ ه).

۱۵۷- تقدير أيام الدجال (بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۱۱۹).

۱۵۸- تقريب القريب فى الحديث (ذكر بحسن المحاضرهٔ و كشف الظنون و الهديهٔ).

۱۵۹- تقرير الاسناد فى تفسير الاجتهاد (ذكر بالهديهٔ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۰

۱۶۰- تلخيص الأربعين لابن حجر فى المتباين (ذكر بالهديهٔ).

۱۶۱- تمهيد الفرش فى الخصال الموجبهٔ لظل العرش (ذكر بحسن المحاضرهٔ و بالكشف).

۱۶۲- تناسق الدرر فى تناسب السور (ذكر بحسن المحاضرهٔ و بالهديهٔ).

۱۶۳- التنبيه بمن يبعثه اللّه على رأس كل مائهٔ (ذكر بالهديهٔ، و فكرته نفس ما ورد بمنظومته تحفهٔ المجتهدين بأسماء المجددين).

۱۶۴- تنبيه الغبى بتبرئهٔ ابن عربى (ذكر بالهديهٔ).

۱۶۵- تنزيه الاعتقاد عن الحلول و الاتحاد (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۳۶).

۱۶۶- تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۵۹، حيدرآباد ۱۳۱۶ ه، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۸۷).

۱۶۷- التنفيس فى الاعتذار عن ترك الافتاء و التدريس (تسمى المقامهٔ اللؤلؤيهٔ، رجعت إليها مخطوطهٔ بدار الكتب برقم ۲۱۱۷۴ ب).

۱۶۸- التنقيح فى مسألهٔ التصحيح (ذكر بكشف الظنون و الهديهٔ).

۱۶۹- تنوير الحلك فى إمكان رؤيهٔ النبى و الملك (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۳۷، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۳۰).

۱۷۰- تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (مطبعهٔ الحلبى ۱۳۴۹ ه).

۱۷۱- توجيه العزم فى اختصاص الاسم بالجر و الفعل بالجزم (ذكر بكشف الظنون و بالهديهٔ).

۱۷۲- التوشيح على التوضيح (ذكر بحسن المحاضرهٔ و الكشف و الهديهٔ).

۱۷۳- التوشيح على الجامع الصحيح للبخارى (ذكر بحسن المحاضرهٔ و الهديهٔ).

۱۷۴- توضيح المدرك فى تصحيح المستدرك (ذكر بالهديهٔ).

۱۷۵- تهذيب الأسماء (ذكر بالهديهٔ).

۱۷۶- التهذيب فى أسماء الذيب (ذكر بالكشف و بالهديهٔ).

۱۷۷- الثبوت فى ضبط ألفاظ القنوت (مخطوط برقم ۲۳۰۳۷ ب بدار الكتب).

۱۷۸- الثغور الباسمهٔ فى مناقب السيدهٔ فاطمهٔ (بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۷۸).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۱

۱۷۹- ثلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۱۷، بمخطوط «۲۵» قولهٔ ورقهٔ رقم ۲۷۸).

۱۸۰- الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير (الطبعهٔ الثالثهٔ بعنوان السراج المنير شرح على الجامع الصغير للشيخ على العزيزى الشافعى، ۱۳۷۷ ه- ۱۹۵۷ م القاهرهٔ).

۱۸۱- جامع المسانيد (ذكر بالهديهٔ).

۱۸۲- جامع الفرائض (ذكر بحسن المحاضرهٔ و بالهديهٔ).

۱۸۳- جرّ الذيل فى علم الخيل (ذكر بالكشف و بالهديهٔ).

۱۸۴- جزء فى السلام على سيد الأنام (ذكر بالهديهٔ).

۱۸۵- جزء فى السلام من سيد الأنام (بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۳۰).

۱۸۶- جزء فى صلاهٔ الضحى (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۸، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۲۰۷).

۱۸۷- جزء الوزير (ذكر بالهدية).

۱۸۸- جزء الهاشمى (ذكر بالهدية).

۱۸۹- جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۵ مجاميع).

۱۹۰- جمع الجوامع فى الحديث (كتاب ضخم قصد به السيوطى استيعاب الأحاديث النبوية، قسمه قسمين الأول ساق فيه لفظ الحديث بنصه يذكر من خرجه و من رواه، و الثانى جعل به الأحاديث الفعلية المحضة أو المشتملة على قول و فعل، و قد رتبه الشيخ علاء الدين الهندى على أبواب الفقه و أخرجه باسم كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال، و قد شرع مجمع البحوث الاسلامية أخيرا فى إخراج الكتاب، و قد صدر منه العدد الأول).

۱۹۱- جمع الجوامع فى النحو (انظر همع الهوامع).

۱۹۲- الجمع و التفريع فى أنواع البديع (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۹۳- جنى الجنان (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۹۴- الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۰۸).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۲

۱۹۵- الجواب الأرشد فى تنكير الأحد و تعريف الصمد (ذكر بالهدية).

۱۹۶- الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۱۴، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۸۳).

۱۹۷- الجواب الحزم عن حديث: التكبير جزم (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۳۵).

۱۹۸- الجواب الزكى عن قمامة ابن الكركى (ذكر بالكشف و بالهدية).

۱۹۹- الجواب المصيب عن اعتراض ابن الخطيب (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۰۰- جواب فى أسماء الملائكة (بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۷۷).

۲۰۱- جياد المسلسلات (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۰۲- حاطب ليل و جارف سيل (كتاب جمع فيه شيوخه و رتبهم على حروف المعجم، و قد ذكره بحسن المحاضرة، و ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۰۳- الحاوى للفتاوى (الطبعة الثالثة بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة- القاهرة- شوال ۱۳۷۸ ه، ۱۹۵۹ م).

۲۰۴- الحبائك فى أخبار الملائك (القاهرة مطبعة دار التأليف).

۲۰۵- الحبل الوثيق فى نصرة الصديق (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۰۴، بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۹۹).

۲۰۶- الحجج المبينة فى التفضيل بين مكة و المدينة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۰۷- حديقة الأديب و طريقة الأريب (ذكر بالهدية).

۲۰۸- الحرز المنيع فى أحكام الصلاة على الحبيب (القاهرة ۱۳۲۵ ه).

۲۰۹- حسن التخليص لتالى التلخيص (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۱۰- حسن التسليك فى حكم التشبيك (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۸).

۲۱۱- حسن التصريف فى عدم التحليف (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۸۵).

۲۱۲- حسن التعهد فى أحاديث التسمية و التشهد (ذكر بالهدية).

۲۱۳- حسن السمت فى الصمت (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۲۱۴- حسن السير فيما فى الفرس من أسماء الطير (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۱۵- حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة (مطبعة إدارة الوطن، القاهرة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۳

۱۲۹۹ ه).

۲۱۶- حسن المقصد فى عمل المولد (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۹۲، بمخطوط قولة ورقة رقم ۱).

۲۱۷- حسن النية فى خانقاه البيبرسية (ذكرت بالهدية).

۲۱۸- الحصر و الاشاعة لأشراط الساعة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۱۹- حصول الرفق بأصول الرزق (مخطوط برقم ۲۰۱۴۶ ب بدار الكتب ضمن مجموعة، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۱۷).

۲۲۰- حصول النوال فى أحاديث السؤال (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۲۱- الحظ الوافر من المغنم فى استدراك الكافر إذا أسلم (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۹، بمخطوط قولة ورقة رقم ۹۳).

۲۲۲- الحكم المشتهرة من عدد الحديث من الواحد إلى العشرة (ذكر بالهدية).

۲۲۳- الحكم الواردة على الأعداد الزائدة (ذكر بالهدية).

۲۲۴- حلّ عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۲۵- حلية الأولياء فى طبقاتهم (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۲۲۶- الحماسة (ذكر فى كشف الظنون أنها رسالة فى تفسير الألفاظ المتداولة).

۲۲۷- خادم النعل الشريف (ذكر بالكشف و الهدية).

۲۲۸- الخبر الدال على وجود القطب و الأوتاد و النجباء و الأبدال (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۱۷، بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۰۳).

۲۲۹- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب (تحقيق الدكتور محمد خليل هراس، القاهرة ۱۳۸۶ ه- ۱۹۶۷

م).

۲۳۰- الخلاصة فى نظم الروضة (ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۳۱- خمائل الزهر فى فضائل السور (ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۳۲- خواص الأسماء الحسنى (ذكر بكشف الظنون).

۲۳۳- داعى الفلاح فى أذكار المساء و الصباح (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۲۳۴- الدرارى فى أبناء السرارى (بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۶۵).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۴

۲۳۵- درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة (طبعت بكتاب حسن المحاضرة بالجزء الأول ص ۹۹- ۱۴۲).

۲۳۶- الدر المنظم فى الاسم الأعظم (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۱، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۱۹).

۲۳۷- الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور (نشر مكتبة الجعفرى، طهران ۱۳۷۷ ه، ۴ أجزاء فى ۴ مجلدات).

۲۳۸- الدرّ النثير فى تلخيص نهاية ابن الأثير (بهامش النهاية، المطبعة العثمانية، القاهرة ۱۳۱۱ ه).

۲۳۹- الدرّ النثير فى قراءة ابن كثير (ذكر بالهدية).

۲۴۰- درة التاج فى إعراب مشكل المنهاج (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۲۴۱- الدرة التاجيّة على الأسئلة الناجية (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۱۰۷).

۲۴۲- الدرة الفاخرة (ذكرت بالهدية و كشف الظنون).

۲۴۳- درج المعالى فى نصرة الغزالى على المنكر المتغالى (ذكرت بحسن المحاضرة).

۲۴۴- الدرج المنيفة فى الآباء الشريفة (الطبعة الأولى بدائرة المعارف النظامية، حيدرآباد ۱۳۱۶ ه).

۲۴۵- درر البحار فى الأحاديث القصار (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۴۶- الدرر الحسان فى البعث و نعيم الجنان (المطبعة العثمانية بالقاهرة ۱۳۱۰ ه).

۲۴۷- الدرر فى فضائل عمر الغرر (ذكر بالهدية).

۲۴۸- درر الكلم و غرر الحكم (بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۷۰).

۲۴۹- الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة (مخطوط بدار الكتب ضمن مجموعة برقم ۲۳۴۳۸ ب).

۲۵۰- دفع الأسى فى تلخيص إسبال الكساء (ذكر بالهدية).

۲۵۱- دفع التشنيع فى مسألة التسميع (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۲).

۲۵۲- دفع التعسف فى إخوة يوسف (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۴۸۰،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۵

بمخطوط قولة ورقة رقم ۹۱).

۲۵۳- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (مخطوط برقم ۱۱۳ حديث قولة بدار الكتب).

۲۵۴- ديوان الحيوان (مختصر حياة الحيوان للدميرى، مخطوط مصور برقم ۸۳ ب بدار الكتب).

۲۵۵- ديوان الخطب (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۵۶- ديوان الشعر (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۵۷- الدوران الفلكى على ابن الكركى (ذكر بالهدية، من مقاماته).

۲۵۸- ذم القضاء (ضمن مخطوط قولة).

۲۵۹- ذمّ زيارة الأمراء (ذكر بحسن المحاضرة).

۲۶۰- الذوق السليم و ضد ذلك المسلوب الذوق اللئيم (ضمن مخطوط بدار الكتب برقم ۳۴۸۷ ج).

۲۶۱- ذو الوشاحين (ذكر بالهدية).

۲۶۲- ذيل الإنباه عن قبائل الرواة لابن حجر (ذكر بالهدية).

۲۶۳- ذيل طبقات الحفاظ للذهبى (نشر مكتبة القدسى بدمشق ۱۳۴۷ ه).

۲۶۴- ذيل اللئالئ المصنوعة (القاهرة ۱۳۱۷ ه).

۲۶۵- الرحمة فى الطب و الحكمة (المطبعة السعيدية بالقاهرة).

۲۶۶- الرحلة الفيومية و المكية و الدمياطية (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۶۷- الرد على من أخلد إلى الأرض و جهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض (طبعة المطبعة الثعالبية بالجزائر ۱۳۲۵ ه- ۱۹۰۷ م).

۲۶۸- رسالة فى أسماء المدلسين (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۶۹- رسالة فى الأحاديث الواردة فى إثم من اغتصب شيئا من الأرض و طريق المسلمين (بمخطوط قولة ورقة ۲۹۲).

۲۷۰- رسالة فى سعادة أبوى النبى صلى اللّه عليه و سلم (بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۴۳).

۲۷۱- رسالة فيمن يؤتى أجره مرتين (بمخطوط قولة ورقة ۲۲۱).

۲۷۲- رسالة فى الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم (ذكرت بكشف الظنون و الهدية).

۲۷۳- رسالة تتعلق بالشمس و إلى أين تذهب بعد غروبها (بمخطوط قولة ورقة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۶

۳۶۴).

۲۷۴- رسالة هل البسملة فى القرآن أم لا (بمخطوط قولة ورقة ۲۷۱).

۲۷۵- رسالة فى الخمر و أوصافها (ذكرت بالهدية).

۲۷۶- رسالة فيمن عاش من الصحابة مائة و عشرين (تسمى ريح النسرين، ضمن مجموعة مخطوطة برقم ۴۳۶۴ ج بدار الكتب).

۲۷۷- رسالة فى أصول الفقه (طبعت ضمن مجموعة، بيروت ۱۳۲۴ ه).

۲۷۸- رسالة فى أصول الكلمات (طبعت ضمن مجموعة، مكتبة القدسى، دمشق ۱۳۴۸ ه).

۲۷۹- رسالة فى بيان مراتب الأرواح بعد الموت (و هى نفس الرسالة المسماة باللمعة فى أجوبة الأسئلة السبعة، ضمن مجموعة مخطوطة برقم ۳۴۸۹ ج).

۲۸۰- رسالة فى علم الخط (طبعت ضمن مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ۱۳۰۲ ه).

۲۸۱- رسالة فى موت فرعون على الاسلام (ضمن مجموعة مخطوطة برقم ۳۴۸۹ ج بدار الكتب).

۲۸۲- رسالة فى ذمّ علم المنطق و تعلمه (ضمن مجموعة مخطوطة برقم ۲۱۶۰۶ ب بدار الكتب).

۲۸۳- رشف الزلال من السحر الحلال (يسمى مقامة النساء، القاهرة طبع حجر بدون تاريخ).

۲۸۴- رصف اللآل فى وصف الهلال (طبعت ضمن مجموعة التحفة البهية و الطرفة الشهية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ۱۳۰۲ ه).

۲۸۵- رفع الباس عن بنى العباس (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية و الكشف).

۲۸۶- رفع الحذر عن قطع السدر (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۱۱۷).

۲۸۷- رفع الصوت بذبح الموت (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۱۸۱).

۲۸۸- رفع السنة فى نصب الزنة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۸۵).

۲۸۹- رفع شأن الحبشان (مخطوط بدار الكتب برقم ۹۸۹۹ ح).

۲۹۰- رفع الخصاصة فى شرح الخلاصة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۷

۲۹۱- رفع الباس و كشف الالتباس فى ضرب المثل من القرآن و الاقتباس (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۹۹).

۲۹۲- رفع منار الدين و هدم بناء المفسدين (ذكرت بالهدية، و قد لخصها فى رسالته هدم الجانى على البانى).

۲۹۳- الروض الأريض فى طهر المحيض (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۲۹۴- الروض الأنيق فى مسند الصديق (ذكر بالكشف و الهدية).

۲۹۵- الروض المكلل و الورد المعلل (ذكر بالكشف و الهدية).

۲۹۶- الرياض الأنيقة فى شرح أسماء خير الخليقة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۳۱۶ ب).

۲۹۷- رياض الطالبين (ذكر بالهدية).

۲۹۸- زاد المسير فى الفهرست الصغير (ذكر بالكشف و بالهدية).

۲۹۹- زيدة اللبق فى النوادر (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۰۰- الزجر بالهجر (ضمن مخطوط قولة ورقة رقم ۲۵۵).

۳۰۱- الزنجبيل القاطع فى وطء ذات البراقع (منظومة ذكرها صاحب كشف الظنون، و ذكرت بالهدية).

۳۰۲- الزند الورى فى الجواب عن السؤال السكندرى (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۸۰).

۳۰۳- الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۰۴- زهر الخمائل على الشمائل (ذكر بالهدية).

۳۰۵- زهر الربى على المجتبى (طبع مع كتاب سنن النسائى، القاهرة ۱۳۱۲ ه).

۳۰۶- زوائد الرجال على تهذيب الكمال (ذكر يحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۰۷- الزوائد على المال فى معرفة الرجال (ذكر بالهدية).

۳۰۸- زوائد نوادر الأصول للحكيم الترمذى (ذكر بحسن المحاضرة).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۸

۳۰۹- ساجعة الحرم (من مقاماته، ذكرت بالهدية).

۳۱۰- السبل الجلية فى الآباء العلية (الطبعة الأولى، حيدرآباد ۱۳۱۶ ه، و هو سادس مؤلف له فى موضوع أبوى النبى صلى اللّه عليه و سلم).

۳۱۱- سبل الهدى فى السير (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۱۲- السلاف فى التفضيل بين الصلاة و الطواف (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۱۳- السلالة فى تحقيق المقر و الاستحالة (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۱۴- السلسلة الموشحة فى العربية (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية، و أشار إليها فى كتابه الأشباه و النظائر).

۳۱۵- سلوة الفؤاد فى موت الأولاد (لعلها المقامة الولدية و هى مطبوعة مع مقامات السيوطى مطبعة الجوائب- القسطنطينية ۱۲۹۸ ه).

۳۱۶- السماح فى أخبار الرماح (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۱۷- سهام الاصابة فى الدعوات المستجابة (القاهرة ۱۳۰۷ ه).

۳۱۸- السهم المصيب فى نحر الخطيب (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۱۹- السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۲۰- السيف النظار فى الفرق بين الثبوت و الانكار (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۲۱- شافى العيى على مسند الشافعى (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۲۲- شدّ الأثواب فى سدّ الأبواب (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۵۳).

۳۲۳- شدّ الرحال فى ضبط الرجال (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۲۴- شدّ المطية للفضل بن غياث و عطية (ذكر بالهدية).

۳۲۵- شذا العرف فى إثبات المعنى للحرف (ذكر بحسن المحاضرة).

۳۲۶- شرح أبيات تلخيص المفتاح (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۲۷- شرح الاستعاذة و البسملة (أول مؤلفاته، ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۲۸- شرح الاضافة فى منصب الخلافة (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۲۹- شرح ألفية العراقى فى الحديث (مخطوط بدار الكتب برقم

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۳۹۹

۲۳۲۳۴ ب).

۳۳۰- شرح حديث الأربعين (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۳۱- شرح الحوقلة و الحيعلة (من أوائل مؤلفاته ذكر بالكشف و الهدية).

۳۳۲- شرح الروضة للنووى فى الفروع (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۳۳- شرح الشاطبية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۳۴- شرح شواهد المغنى (المطبعة البهية القاهرة ۱۳۲۲ ه).

۳۳۵- شرح الصدور بشرح أحوال الموتى فى القبور (القاهرة المطبعة الميمنية ۱۳۰۹ ه).

۳۳۶- شرح على نظم البديع فى مدح خير شفيع (القاهرة المطبعة الوهبية ۱۲۹۸ ه).

۳۳۷- شرح عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (القاهرة مطبعة شرف ۱۳۰۵ ه).

۳۳۸- شرح ضرورى التصريف لابن مالك (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۳۹- شرح فرائض الرحبية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۴۰- شرح قصيدة الكافية (ذكر بالهدية).

۳۴۱- شرح لمعة الاشراق فى الاشتقاق (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۴۲- شرح ملحة الاعراب (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۴۳- الشرف المحتم فيما من اللّه به على وليه سيدى أحمد الرفاعى من تقبيل يد النبى صلى اللّه عليه و سلم (المطبعة الأميرية القاهرة ۱۳۰۱ ه).

۳۴۴- شفاء العليل فى ذم الصاحب و الخليل (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف).

۳۴۵- شقائق الأترج فى دقائق الغنج (مخطوط بدار الكتب ضمن مجموعة برقم ۳۴۹۰ ج).

۳۴۶- الشماريخ فى علم التاريخ (ليدن ۱۳۱۲ ه- ۱۸۹۴ م).

۳۴۷- الشمعة المضية فى علم العربية (مخطوط بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ۱۲۷ نحو).

۳۴۸- الشهد فى النحو (منظومة ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۰

۳۴۹- شوارد الفوائد فى الضوابط و القواعد (ذكر بالهدية).

۳۵۰- شواهد الأبكار فى حاشية الأنوار (ذكر بالهدية).

۳۵۱- الصارم الهندكى فى عنق ابن الكركى (ذكر بالكشف و الهدية، و هو من مقاماته).

۳۵۲- الصواعق على النواعق (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۵۳- صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام (تحقيق الدكتور على سامى النشار الطبعة الأولى القاهرة ۱۹۴۶ م).

۳۵۴- ضرب الأسل فى جواز أن يضرب فى المواعظ و الخطب من الكتاب و السنة و المثل (ذكر بكشف الظنون و بالهدية).

۳۵۵- ضوء البدر فى إحياء ليلة عرفه و العيدين و نصف شعبان و ليلة القدر (ذكر بالهدية).

۳۵۶- ضوء الثريا فى مختصر طلوع الثريا (ذكر بالهدية).

۳۵۷- ضوء الشمعة فى عدد الجمعة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۹۹).

۳۵۸- الطب النبوى (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۱۵۷ ل).

۳۵۹- طبقات الأصوليين (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۶۰- طبقات البيانيين (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۶۱- طبقات التابعين (ذكر بالهدية).

۳۶۲- طبقات الحفاظ (جوتنجن ۱۸۳۸ م، مخطوط بالدار برقم ۲۳۲۶۲ ب).

۳۶۳- طبقات الخطاطين (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۳۶۴- طبقات الشعراء (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۶۵- طبقات الفرضيين (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۶۶- طبقات المفسرين (ليدن ۱۸۳۹ م).

۳۶۷- الطرثوث فى فوائد البرغوث (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۶۸- طرح السقط فى نظم اللقط (مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۶۴ ج ضمن مجموعة).

۳۶۹- طرز العمامة فى التفرقة بين المقامة و القمامة (ذكر بالكشف و الهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۱

۳۷۰- الطلعة الشمسية فى تبيين الجنسية (ذكر بالهدية).

۳۷۱- طلوع الثريا باظهار ما كان خفيا (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۱۶).

۳۷۲- طوق الحمامة (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۷۳- طى اللسان عن ذم الطيلسان (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۲۵۳۵ ب).

۳۷۴- الظفر بقلم الظفر (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۷۵- العجائب فى تفضيل المشارق على المغارب (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۷۶- العجاجة الزرنبية فى السلالة الزينبية (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۸۱).

۳۷۷- العذب المسلسل فى تصحيح الخلاف المرسل (ذكر بالكشف و الهدية).

۳۷۸- العرف الوردى فى أخبار المهدى (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۱۲۳).

۳۷۹- العشاريات (ثلاثة أحاديث عالية الاسناد، مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۶۴ ج ضمن مجموعة).

۳۸۰- عقود الجمان فى علمى المعانى و البيان (مطبوع بولاق ۱۲۹۳ ه).

۳۸۱- عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد (مخطوط برقم ۲۴۱۲۵ ب بدار الكتب).

۳۸۲- العناية فى معرفة أحاديث الهداية (ذكر بالكشف).

۳۸۳- العناية فى تخريج أحاديث الكفاية (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۸۴- عين الاصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۸۵- عين الاصابة فى مختصر أسد الغابة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۸۶- غاية الاحسان فى خلق الانسان (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۸۷- غرر الأنساب فى الرمى بالنشاب (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۸۸- الغنية فى مختصر الروضة (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۸۹- الفارق بين المصنف و السارق (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۹۰- الفانيد فى حلاوة الأسانيد (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۹۱- الفتاش على القشاش (ذكر بكشف الظنون، و هو فى الأحاديث الموضوعة).

۳۹۲- فائدة سورة الأنعام (ذكر بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۲

۳۹۳- فتح الجليل للعبد الذليل (فى الأنواع البديعية المستخرجة من قوله تعالى: اللّه ولى الذين آمنوا .. الآية، ذكر بحسن المحاضرة و

بالكشف و بالهدية).

۳۹۴- فتح الحى القيوم بشرح روضة الفهوم (ذكر بالكشف و بالهدية).

۳۹۵- فتح المطلب المبرور و برد الكبد المحرور فى الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۴۵۱).

۳۹۶- فتح المغالق من أنت تالق (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۲۹).

۳۹۷- فجر الثمد فى إعراب أكمل الحمد (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۴۷۶).

۳۹۸- الفتح القريب على مغنى اللبيب (حاشية له ذكرت بحسن المحاضرة و بالهدية).

۳۹۹- الفتح الكبير فى ضم الزيادات إلى الجامع الصغير (القاهرة ۱۳۲۰ ه).

۴۰۰- الفريدة (الألفية النحوية للسيوطى، طبعت بمطبعة الترقى ۱۳۳۲ ه).

۴۰۱- الفرائض الرحبية (ذكر صاحب الكشف أنها أرجوزة شرحها السيوطى شرحا ممزوجا).

۴۰۲- فصل الخطاب فى قتل الكلاب (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۴۰۳- فصل الكلام فى حكم السلام (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۴۰۴- فضل الأغوات (مطبوع).

۴۰۵- فضائل يوم الجمعة (يسمى اللمعة؛ بالحاوى ج ۱ ص ۹۳).

۴۰۶- فضائل ليلة النصف من شعبان (بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۳۱).

۴۰۷- فضائل المولد الشريف (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۶۳۲ ب).

۴۰۸- فضل الجلد عند فقد الولد (ثالث مؤلف له فى هذا الموضوع، ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۴۰۹- الفضل العميم فى إقطاع تميم (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۱۰- فضل القيام بالسلطنة (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۱۱- فطام اللسد فى أسماء الأسد (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۱۲- الفلك الدوار فى تفضيل الليل على النهار (ذكر بالكشف و الهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۳

۴۱۳- الفلك المشحون فى أنواع الفنون (قال فى كشف الظنون: «هو تذكرته فى خمسين مجلدا ذكره فى مؤلفاته»، و قد أشار السيوطى إلى الكتب التى أفادها من تذكرته فى مقدمة بغية الوعاة، كما ذكر اسم الكتاب بحسن المحاضرة).

۴۱۴- الفوائد البارزة و الكامنة فى النعم الظاهرة و الباطنة (ذكرت بالكشف و بالهدية).

۴۱۵- الفوائد الكامنة فى إيمان السيدة آمنة (ذكرت بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

۴۱۶- الفوائد المتكاثرة فى الأخبار المتواترة (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۱۷- الفوائد الممتازة فى صلاة الجنازة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۲۹).

۴۱۸- الفوز العظيم بلقاء الكريم (ذكرت بالكشف و الهدية).

۴۱۹- الفيض الجارى فى طرق الحديث العشارى (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۲۰- فيض القدير شرح الجامع الصغير (مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ۶ أجزاء فى ۶ مجلدات).

۴۲۱- القذاذة فى تحقيق محل الاستعاذة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۴۶۰، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۷۳).

۴۲۲- قدح الزند فى السلم فى القند (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۴۶).

۴۲۳- قطر الندا فى ورود الهمزة للندا (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۴۲۴- قطع الدابر من الفلک الدائر (ذکر بالکشف و الهدیة).

۴۲۵- قطع المجادلة عند تغییر المعاملة (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۱۴۹).

۴۲۶- قطف الأزهار فی کشف الأزهار (رسالة فی متشابه القرآن، ذکرت بالکشف).

۴۲۷- قطف الثمر فی موافقات عمر (منظومة له، طبعت بالحاوی ج ۲ ص ۵).

۴۲۸- قطف الزهر فی الرحلة الجامعة بین البر و البحر و النهر (ذکرت بالکشفا و الهدیة).

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۰۴

۴۲۹- قطف الورید من أمالی ابن درید (ذکرت بالکشف و الهدیة).

۴۳۰- قلائد الفوائد (منظومة أودعها بعض الفوائد العلمیة و النوادر ذکرت بحسن المحاضرة و بالکشف و الهدیة).

۴۳۱- قمع المعارض فی نصرة ابن الفارض (من مقاماته، ذکرت بالکشف و الهدیة).

۴۳۲- قوت المغتذی علی جامع الترمذی (مطبوع).

۴۳۳- القول الأشبه فی حدیث من عرف نفسه فقد عرف ربه (طبعت بالحاوی ج ۲ ص ۴۱۲، بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۰۰).

۴۳۴- القول الفصیح فی تعیین الذبیح (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۴۸۰، بمخطوط قولة ورقة رقم ۶).

۴۳۵- القول الحسن فی الذب عن السنن (ذکر بحسن المحاضرة).

۴۳۶- القول الجلی فی أحادیث الولی (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۵۶۰، بمخطوط قولة ورقة ۲۹۵، مخطوط برقم ۲۰۶۶۲ ب).

۴۳۷- القول المشرق فی تحریم الاشتغال بالمنطق (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۳۹۳).

۴۳۸- القول المجمل فی الرد علی المهمل (ذکر بحسن المحاضر و بالهدیة).

۴۳۹- القول المشید فی وقف المؤید (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۲۵۸).

۴۴۰- القول المضی فی الحنث فی المضی (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۳۱۴).

۴۴۱- الکافی فی زوائد المهذب علی الوافی (ذکر بالهدیة).

۴۴۲- الکاوی فی تاریخ السخاوی (من مقاماته، ذکرت بالکشف و الهدیة).

۴۴۳- الکر علی عبد البر (ذکر بالهدیة).

۴۴۴- کشف التلبیس عن قلب أهل التدلیس (ذکر بحسن المحاضرة و بالهدیة).

۴۴۵- کشف الریب فی الجیب (طبعت بالحاوی ج ۲ ص ۱۷۹، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۸۱).

۴۴۶- کشف الصلصلة عن وصف الزلزلة (ذکرت بحسن المحاضرة و بالهدیة).

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۰۵

۴۴۷- کشف الضبابة فی مسألة الاستنابة (طبعت بالحاوی ج ۱ ص ۲۴۴، مخطوط بدار الکتب برقم ۳۲ فقه شافعی ضمن مجموعة).

۴۴۸- کشف الطامة عن الدعاء بالمغفرة العامة (ذکر بالهدیة).

۴۴۹- کشف العمی فی مسألة الحمی (ذکر بالهدیة).

۴۵۰- کشف اللبس فی حدیث رد الشمس (ذکر بالهدیة).

۴۵۱- کشف المغطی بشرح الموطا (ذکر بحسن المحاضرة و بالهدیة، و لعله نفس کتابه تنویر الحوالک).

۴۵۲- کشف النقاب عن الألقاب (ذکر بحسن المحاضرة و بالهدیة).

۴۵۳- الکشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف (طبعت بالحاوی ج ۲ ص ۱۶۸، مخطوط بدار الکتب برقم ۲۳۰۳۲ ب).

۴۵۴- کفایة المحتاج فی معرفة الاختلاج (مطبوع بالقاهرة طبع حجر).

۴۵۵- كفاية المحسن فى وصف المؤمن (بمخطوط قولة ورقة رقم ۳۶۶).

۴۵۶- الكلام عن حديث ابن عباس: احفظ اللّه يحفظك) تصدير ألقاه لما ولى درس الحديث بالشيخونية، ذكر ذلك بحسن المحاضرة).

۴۵۷- الكلم الطيب و القول المختار فى المأثور من الدعوات و الأذكار (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۴۵۸- الكنز المدفون و الفلك المشحون (مطبعة الحلبى بالقاهرة ۱۹۳۹ م).

۴۵۹- كنه المراد فى شرح بانت سعاد (مخطوط بدار الكتب ۱۶۶۵۶ ز، نسخة أخرى برقم ۲۳۹ أدب).

۴۶۰- الكواكب السارية فى الأحاديث العشارية (سبق ذكر العشاريات).

۴۶۱- الكوكب الساطع فى نجم جمع الجوامع (ذكر بحسن المحاضرة بين كتب الأصول، و ذكر بالهدية).

۴۶۲- الكوكب المنير فى شرح الجامع الصغير (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۶۳- اللئالئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (الناشر المكتبة الحسينية، الطبعة الأولى، القاهرة ۱۳۵۲ ه).

۴۶۴- اللئالئ المكللة فى تفضيل الفلاة على المفضلة (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۶۵- لباب النقول فى أسباب النزول (احدى طبعاته بهامش تفسير الجلالين،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۶

و أخرى منفصلة بمطبعة الحلبى، القاهرة ۱۳۵۴ ه- ۱۹۳۵ م).

۴۶۶- لباب النقول فيما وقع فى القرآن من المعرب و المنقول (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۶۷- لب اللباب فى تحرير الأنساب (مطبوع بأوروبا، هناك طبعة بالأفست بمكتبة المثنى ببغداد).

۴۶۸- لبس اليلب فى الجواب عن إيراد حلب (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۷۳۰۲ بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۳).

۴۶۹- اللفظ الجوهرى فى رد خباط ابن الجوجرى (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۷۰- اللفظ المكرم بخصائص النبى المحترم (ذكر بالهدية).

۴۷۱- لقط المرجان فى أخبار الجان (اختصار لكتاب آكام المرجان للشبلى مخطوط برقم ۲۲۹۸۹ ب، و بمخطوط قولة ورقة رقم ۹۵).

۴۷۲- لم الأطراف و ضم الأتراف (رسالة فى الحديث ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۴۷۳- اللمع فى أسماء من وضع (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۴۷۴- لمعة الاشراق فى الاشتقاق (ذكر شرحها بحسن المحاضرة، و ذكرت بالكشف و الهدية).

۴۷۵- اللمعة فى أجوبة الأسئلة السبعة (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۰۲، بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۸۱).

۴۷۶- اللمعة فى تحرير الركعة لادراك الجمعة (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۹۳).

۴۷۷- اللمعة فى خصائص يوم الجمعة (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۱۱۰ ب، نسخة أخرى برقم ۹۵۳ فقه شافعى ضمن مجموعة).

۴۷۸- اللوامع المشرقة فى ذم الوحدة المطلقة (ذكر بالكشف و الهدية).

۴۷۹- اللوامع و البوارق فى الجوامع و الفوارق (ذكر بحسن المحاضرة بكتب الفقه، و بالهدية).

۴۸۰- ما رواه الأساطين فى عدم الدخول على السلاطين (ذكر بالهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۷

۴۸۱- ما رواه السادة فى الاتكاء على الوسادة (بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۸۴).

۴۸۲- ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية و الكشف، و قد ألفه بعد طاعون عام ۸۶۴ ه).

۴۸۳- الماهد لمسائل الزاهد (ذكرت بالكشف و الهدية، و هى تعليق على مقدمة من ستين مسألة فى أحكام الدين للزاهد شهاب

الدين أحمد).

۴۸۴- المباحث الزكية فى المسألة الدوركية (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۵۳).

۴۸۵- مباسم الملاح و مناسم الصباح فى مواسم النكاح (ذكرت بالكشف و الهدية).

۴۸۶- المثابة فى آثار الصحابة (ذكر بكشف الظنون).

۴۸۷- المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية و الفارسية و الهندية و التركية و الزنجية و النبطية و القبطية و السريانية و العبرانية و الرومية و البربرية (دمشق ۱۳۴۸ ه مطبعة الترقى).

۴۸۸- مجمع البحرين و مطلع البدرين فى التفسير (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۴۸۹- مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن (ذكر بالهدية).

۴۹۰- المحاضرات و المحاورات (ذكرت بالكشف و الهدية).

۴۹۱- مختصر الأحكام السلطانية للماوردى (ذكر بحسن المحاضرة و بالهدية).

۴۹۲- مختصر إحياء العلوم للغزالى (ذكر بالهدية).

۴۹۳- مختصر معجم البلدان لياقوت (ذكر بحسن المحاضرة).

۴۹۴- المدرج إلى المدرج (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۴۹۵- مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة و البقاع (مطبوع فى ۶ مجلدات).

۴۹۶- مراصد الطالع فى تناسب المطالع و المقاطع (فى فواتح السور و خواتيمها، ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

۴۹۷- المردّ فى كراهية السؤال و الردّ (بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۷۶).

۴۹۸- مرقاة الصعود إلى سنن أبى داود (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).

۴۹۹- المرقاة العلية فى شرح الأسماء النبوية (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۹۶۸ ب).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۸

۵۰۰- مرّ النسيم إلى ابن عبد الكريم (فى الفقه، ذكرت بالكشف و الهدية).

۵۰۱- المزدهى فى روضة المشتهى (ذكر بالهدية).

۵۰۲- المزهر فى علوم اللغة و أنواعها (تحقيق البجاوى و زميليه، القاهرة مطبعة دار إحياء الكتب العربية).

۵۰۳- المسارعة إلى المصارعة (رسالة فى الحديث ذكرت بكشف الظنون و بالهدية).

۵۰۴- مسالك الحنفا فى والدى المصطفى (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۵۳، طبعت بحيدرآباد ۱۳۱۶ ه).

۵۰۵- مسامرة السموع فى ضوء الشموع (بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۳۹).

۵۰۶- المستطرفة فى أحكام دخول الحشفة (ذكرت بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

۵۰۷- المستظرف فى أخبار الجوارى (ذكرت بالهدية).

۵۰۸- المسلسلات الكبرى (۸۵ حديثا، ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و بالهدية).

۵۰۹- مسند الصحابة الذين ماتوا فى زمن النبى صلى اللّه عليه و سلم (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۱۰- مشتهى العقول فى منتهى النقول (مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۵۰ ج ضمن مجموعة، مطبوع بالقاهرة ۱۲۷۶ ه).

۵۱۱- المشنف على ابن المصنف (تعليقه على شرح الألفية، ذكرت بالهدية).

۵۱۲- المصابيح فى صلاة التراويح (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۵۳۷).

۵۱۳- المصاعد العلية فى القواعد النحوية (أدرجه بكتابه الأشباه و النظائر، و هو يستغرق الجزء الأول من هذا الكتاب من طبعة

حيدرآباد ۱۳۱۷ ه).

۵۱۴- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة (مطبوع بهامش السنن، مخطوط برقم ۳۱۰۹۴ بدار الكتب).

۵۱۵- المضبوط فى أخبار أسيوط (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۱۶- المطالع السعيدة فى شرح الفريدة (مخطوط ضخم بدار الكتب بالخزانة التيمورية برقم ۵۸۱ نحو).

۵۱۷- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين (ضمن مجموعة مخطوطة برقم

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۰۹

۲۰۵۴۴ ب، بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۲۱).

۵۱۸- المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة (بمخطوط قولة ورقة رقم ۲۵۸).

۵۱۹- معترك الأقران فى مشترك القرآن (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية، طبع أخيرا).

۵۲۰- المعتصر فى تقرير عبارة المختصر (ذكر بكشف الظنون و الهدية، و هو تعليق على عبارات فى مختصر الشيخ خليل لم توجد فى غيره من كتب الفقه).

۵۲۱- مفاتيح الغيب (فى التفسير من أول «سبح» إلى آخر القرآن، ذكر بحسن المحاضرة و الكشف و الهدية).

۵۲۲- مفتاح الجنة فى الاعتصام بالسنة (ذكر بالكشف و الهدية و حسن المحاضرة).

۵۲۳- مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن (الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بالقاهرة ۱۳۲۶ ه- ۱۹۰۸ م).

۵۲۴- مقاطع الحجاز (ذكر بالكشف و الهدية و حسن المحاضرة).

۵۲۵- مقامات السيوطى (تسع و عشرون مقامة هى: ساجعة الحرم فى مكة و المدينة، و المقامة السندسية فى أبوى النبى- اللازوردية فى موت الأولاد- الذهبية فى الحمى- الكاوى فى تاريخ السخاوى- الطاعونية- المستنصرية- مقامة أولى الألباب- الحلف- الوردية فى الزهور- المسكية فى الرياحين- التفاحية فى الفواكه- الزمردية- الفستقية فى النقول- الياقوتية- بلبل الروضة- اللؤلؤية- البحرية- الدرية- الفتاش على القشاش- الاستنصار بالواحد القهار- الدوران الفلكى على ابن الكركى- ساحب سيف عى صاحب حيف- الكلاجية فى الأسئلة الناجية- قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض- الفارق بين المصنف و السارق- طرز العمامة فى التفرقة بين المقامة و القمامة- رشف الزلال من السحر الحلال- اللفظ الجوهرى فى رد خباط ابن الجوجرى، و قد طبع بعض هذه المقامات بالجوائب، القسطنطينية ۱۲۹۸ ه، و بعضها مخطوطات مفردة أو ضمن مجاميع، و بعضها طبع طبع حجر بالقاهرة

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۰

۱۲۷۵ ه).

۵۲۶- المقامة الأسيوطية و تسمى الأحاجى النحوية (ضمن مجموعة برقم ۳۲ مجاميع بدار الكتب).

۵۲۷- المكنون فى ترجمة ذى النون (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۲۸- الملاحن فى معنى المشاحن (بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۶۸).

۵۲۹- الملتقط من الدرر الكامنة (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۳۰- ملحة الاعراب (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف، و هى منظومة).

۵۳۱- مناقب السيدة فاطمة الزهراء رضى اللّه عنها (ذكر بكشف الظنون).

۵۳۲- مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا (مطبوع طبع حجر بالقاهرة بدون تاريخ).

۵۳۳- منبع الفوائد فى تركيب الضوابط و القواعد (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۳۴- منتهى الآمال فى شرح حديث: إنما الأعمال (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۲۳۸ ب).

۵۳۵- المنجلى فى تطور الولى (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۳۳۵، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ ۲۹۶).

۵۳۶- المنجم فى المعجم (ذكر بالهديهٔ).

۵۳۷- المنحهٔ فى السبحهٔ (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۳۶، مخطوط بدار الكتب برقم ۴۳۶۴ ج).

۵۳۸- منع الثوران عن الدوران (ذكرت بالكشف و الهديهٔ).

۵۳۹- المنقح الظريف فى الموشح الشريف (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۴۰- منهاج السنهٔ و مفتاح الجنهٔ (ذكر بحسن المحاضرهٔ و بالكشف و الهديهٔ).

۵۴۱- المنهج السوى فى ترجمهٔ النووى (مخطوط برقم ۳۱۵۷ ل بدار الكتب).

۵۴۲- منهل اللطائف فى الكنافهٔ و القطائف (ذكر بكشف الظنون).

۵۴۳- المنى فى الكنى (ذكر بحسن المحاضرهٔ و بالكشف و الهديهٔ).

۵۴۴- موائد الفوائد (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۴۵- المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب (مخطوط بدار الكتب بالخزانهٔ التيموريهٔ، نسختان برقم ۲۸۵، ۲۸۶ لغهٔ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۱

۵۴۶- الموشح فى النحو (مخطوط بدار الكتب بالخزانهٔ التيموريهٔ، نسختان برقم ۱۹۱، ۷۰۷ نحو).

۵۴۷- ميدان الفرسان فى شواهد القرآن (ذكر بالهديهٔ).

۵۴۸- ميزان المعدلهٔ فى شأن البسملهٔ (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۵۰۷، ۱۶۵۰۷ ب، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۲۷۱).

۵۴۹- ناسخ القرآن و منسوخه (ذكر بالهديهٔ، و هو أحد مباحث كتابه الإتقان).

۵۵۰- النادريات من العشاريات (بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۳۰۲).

۵۵۱- نبذهٔ فى الكلام على حقيقهٔ القرآن (مخطوط برقم ۳۴۹۰ ج ضمن مجموعهٔ).

۵۵۲- نتيجهٔ الفكر فى الجهر بالذكر (طبعت بالحاوى ج ۲ ص ۲۳، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۳۱۳).

۵۵۳- نثر الهميان فى وفيات الأعيان (ذكر بالهديهٔ).

۵۵۴- نثل الكنان فى الخشكنان (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۵۵- النجح فى الاجابهٔ إلى الصلح (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۵۶- نزول الرحمهٔ فى التحدث بالنعمهٔ (بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۲۷۳).

۵۵۷- نزههٔ الاخوان و تحفهٔ الخلان (ذكر بالكشف الظنون و الهديهٔ).

۵۵۸- نزههٔ جلساء فى أشعار النساء (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۵۹- نزههٔ العمر فى التفضيل بين البيض و السمر (دمشق ۱۳۴۹ ه، بمخطوط قولهٔ ورقهٔ رقم ۲۶۷).

۵۶۰- نزههٔ المتأمل و مرشد المتأهل (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۳۵۲۸ ب).

۵۶۱- نزههٔ النديم (ذكر بالكشف و الهديهٔ).

۵۶۲- نشر العبير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير (ذكر بالهديهٔ و حسن المحاضرهٔ).

۵۶۳- نشر العلمين المنيفين فى إحياء الأبوين الشريفين (حيدرآباد الطبعهٔ الأولى ۱۳۱۶ ه).

۵۶۴- النصيحهٔ فيما ورد من الأدعيهٔ الصحيحهٔ (ذكر بالهديهٔ).

۵۶۵- نظام البلور فى أسماء السنّور (ذكر بكشف الظنون و الهديهٔ).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۲

۵۶۶- النظم البديع فى مدح خير شفيع (انظر شرح نظم البديع).

۵۶۷- نظم الدرر فى علم الأثر (ألفية فى الحديث ذكرها صاحب الكشف، و ذكرت بالهدية، و شرحها بكتابه البحر الذى زخر).

۵۶۸- نظم العقيان فى أعيان الأعيان (نشر فيليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية ۱۹۲۷ م).

۵۶۹- نفح الطيب من أسئلة الخطيب (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۷۰- النفخة المسكية و التحفة المكية (ألفه بمكة فى يوم واحد (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۷۱- النقاية فى موضوعات العلوم (مختصر فى أربعة عشر علما، شرحه و سمى الشرح إتمام الدراية).

۵۷۲- النقول المشرقة فى مسألة النفقة (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۷۳- النكت البديعات على الموضوعات (ذكر بحسن المحاضرة و الهدية).

۵۷۴- النكت على الألفية لابن مالك و الكافية و الشافية لابن الحاجب و شذور الذهب و نزهة الطرف لابن هشام (مخطوط بدار الكتب برقم ۵۸۱۵ ه).

۵۷۵- النكت اللوامع على المختصر و المنهاج و جمع الجوامع (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۷۶- النكت على النزهة (ذكر بالهدية).

۵۷۷- نواضر الأيك فى ال ... (مخطوط بدار الكتب برقم ۳۸۰۹ ج).

۵۷۸- نواهد الأبكار و شوارد الأفكار على تفسير البيضاوى (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۷۹- نور الحديقة (منظومة له، ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۵۸۰- نور الشقيق فى العقيق (ذكر بالهدية).

۵۸۱- النهجة السوية فى الأسماء النبوية (مختصر للرياض الأنيقة، ذكره صاحب الكشف و ذكر بالهدية).

۵۸۲- النهر لمن برز على شاطئ النهر (منظومة طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۲۲۶).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۳

۵۸۳- الوافى فى شرح التنبيه (ذكر بالهدية).

۵۸۴- الوجه النضر فى نبوة الخضر (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۸۵- الوجه الناضر فيما يقتضيه الناظر فى الوقف (ذكر بالهدية).

۵۸۶- الوجيز فى طبقات الفقهاء الشافعية (ذكر بالهدية).

۵۸۷- الوديك فى فضل الديك (مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۶۲۰ ب).

۵۸۸- الورقات فى الوفيات (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۸۹- الوسائل إلى معرفة الأوائل (ذكر بالكشف).

۵۹۰- الوشاح فى معرفة النكاح (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۹۱- وصول الأمانى بأصول التهانى (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۲۱، بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۰۹، مخطوط بدار الكتب برقم ۲۱۶۰۶ ب).

۵۹۲- الوفية فى مختصر الألفية (ذكر بالكشف و الهدية).

۵۹۳- وقع الأسل فى ضرب المثل (بمخطوط قولة ورقة رقم ۱۵۳).

۵۹۴- الهبة السنية فى الهيئة السنية (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۵۹۵- هدم الجانى على البانى (طبعت بالحاوى ج ۱ ص ۱۷۷).

۵۹۶- همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية (الطبعة الأولى بمطبعة السعادة القاهرة ۱۳۲۷ ه).

۵۹۷- اليد البسطى فى تعيين الصلاة الوسطى (ذكرت بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۵۹۸- الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع (ذكر بحسن المحاضرة و بالكشف و الهدية).

۵۹۹- اليواقيت الثمينة فى صفات السمينة (مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ۳۲ ضمن مجموعة).

۶۰۰- اليواقيت فى حروف «إذن» فى قولهم لاها اللّه اذن (ذكر بالكشف و الهدية).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۴

ثانيا: المصادر العربية و المترجمة (لغير السيوطى)

إبراهيم أنيس:

۱- دلالة الألفاظ (مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ۱۹۵۸ م).

۲- من أسرار اللغة (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ۱۳۷۰ ه- ۱۹۵۱ م).

ابن الأنبارى (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن الأنبارى المتوفى عام ۵۷۷ ه) ۳- الاغراب فى جدل الاعراب (تحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ۱۳۷۷ ه- ۱۹۵۷ م).

۴- الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الجزء الأول الطبعة الأولى ۱۳۶۴ ه، الجزء الثانى الطبعة الثانية بمطبعة حجازى ۱۹۵۳ م).

۵- لمع الأدلة فى أصول النحو (تحقيق الأفغانى، مطبعة الجامعة السورية دمشق ۱۳۷۷ ه- ۱۹۵۷ م).

۶- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى، مطبعة المعارف- بغداد ۱۹۵۹ م).

إبراهيم الباجورى:

۷- حاشية الاسعاد على بانت سعاد (طبعت بهامش شرح ابن هشام على بانت سعاد، مطبعة الحلبى- القاهرة ۱۳۴۹ ه).

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى المتوفى عام ۹۳۰ ه) ۸- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، المعروف بتاريخ مصر (الأجزاء من

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۵

۱- ۳ الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ۱۳۱۱ ه، الجزء الرابع: الطبعة الثانية تحقيق محمد مصطفى- القاهرة ۱۳۷۹ ه).

ابن بطوطة (أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد المعروف بابن بطوطة، المتوفى عام ۷۷۹ ه) ۹- رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار (نشر المكتبة التجارية، القاهرة ۱۳۷۷ ه- ۱۹۵۸ م).

ابن جنى (أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى ببغداد سنة ۳۹۲ ه) ۱۰- الخصائص (تحقيق الأستاذ محمد على النجار، طبع دار الكتب، القاهرة ۱۳۷۱ ه- ۱۹۵۲ م إلى ۱۳۷۶ ه- ۱۹۵۶ م).

ابن حجر العسقلانى (أحمد بن حجر المتوفى سنة ۸۵۲ ه) ۱۱- شرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر (تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر).

۱۲- فتح البارى بشرح صحيح البخارى (الناشر عبد الرحمن محمد، طبع المطبعة البهية، القاهرة ۱۳۴۸ ه و ما بعدها).

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ۸۰۸ ه) ۱۳- المقدمة (مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة).

ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى المتوفى عام ۳۱۱ ه) ۱۴- جمهرة اللغة (الطبعة الأولى، حيدرآباد ۱۳۴۴ ه- ۱۳۴۵ ه).

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى المتوفى عام ۸۰۹ ه) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى المتوفى عام ۸۰۹ ه) ۱۵- الانتصار لواسطة عقد الأمصار (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية عام ۱۳۰۹ ه).

ابن سلام (محمد بن سلام الجمحى عام ۲۳۱ ه) ۱۶- طبقات فحول الشعراء (تحقيق الأستاذ محمود شاكر، دار المعارف بالقاهرة).

ابن سيدة (أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المتوفى عام ۴۵۸ ه).

۱۷- المخصص (طبع المطبعة الأميرية ببولاق سنة ۱۳۱۶ ه، ۱۷ جزء).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۶

ابن الصلاح (أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المتوفى عام ۶۴۲ ه) ۱۸- المقدمة فى علوم الحديث (طبع و نشر شرف الدين الكتبى، بمباى، الهند ۱۳۵۷ ه).

ابن عقيل (بهاء الدين عبد اللّه بن عقيل المتوفى عام ۷۶۹ ه) ۱۹- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، الطبعة الثانية عشرة، صفر ۱۳۸۱ ه- يولية ۱۹۶۱ م).

ابن علان (محمد على بن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان المتوفى بالقاهرة عام ۱۰۵۷ ه) ۲۰- شرح على الاقتراح للسيوطى (مخطوط بدار الكتب المصرية بالخزانة التيمورية برقم ۶۶۶ نحو).

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى عام ۱۰۸۹ ه) ۲۱- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (نشر مكتبة القدسى بالقاهرة عام ۱۳۵۱ ه).

ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى عام ۳۹۵ ه) ۲۲- الصاحبى فى فقه اللغة و سنن العرب فى كلامها (الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة ۱۳۲۸ ه- ۱۹۱۰ م).

۲۳- معجم مقاييس اللغة (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ۱۳۶۶ ه).

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أبى بكر المتوفى عام ۷۵۱ ه) ۲۴- إعلام الموقعين عن رب العالمين (نشر إدارة الطباعة المنيرية).

ابن مضاء القرطبى (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى عام ۵۹۲ ه) ۲۵- الرد على النحاة (تحقيق الدكتور شوقى ضيف، نشر دار الفكر العربى القاهرة ۱۳۶۶ ه- ۱۹۴۷ م).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۷

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم بن منظور المتوفى عام ۷۱۱ ه) ۲۶- لسان العرب.

ابن النديم (محمد بن إسحاق المتوفى سنة ۳۸۵ ه) ۳۷- الفهرست (الناشر المكتبة التجارية- المطبعة الرحمانية، القاهرة).

ابن هشام (أبو محمد جمال الدين عبد اللّه بن يوسف المتوفى سنة ۷۶۱ ه) ۲۸- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (شرح محمد عبد العزيز النجار بعنوان منار السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة الفجالة، القاهرة ۱۹۵۳ م- ۱۹۵۴ م).

۲۹- شرح شذور الذهب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثامنة، ۱۳۸۰ ه- ۱۹۶۰ م- نشر المكتبة التجارية).

۳۰- شرح على قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير (مطبعة الحلبى- القاهرة ۱۳۴۹ ه).

۳۱- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، مطبعة السعادة).

أبو الطيب اللغوى (عبد الواحد بن على الحلبى المتوفى عام ۳۵۱ ه) ۳۲- شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة (تحقيق محمد عبد الجواد طبع دار المعارف بالقاهرة).

۳۳- مراتب النحويين (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع و نشر مكتبة نهضة مصر، القاهرة ۱۹۵۵ م).

أبو على القالى (اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى المتوفى سنة ۳۵۶ ه) ۳۴- الأمالى (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق ۱۳۲۴

ه).

۳۵- ذيل الأمالى و النوادر (المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ۱۳۲۴ ه).

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى المتوفى عام ۷۷۴ ه) ۳۶- مختصر تاريخ البشر (طبع القسطنطينية عام ۱۲۸۶ ه).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۸

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى المتوفى عام ۸۷۴ ه) ۳۷- حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور (طبع جامعة كاليفورنيا ۱۹۳۰ م).

۳۸- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية ۱۳۴۹ ه- ۱۹۳۰ م، و ما بعدها).

أحمد تيمور ۳۹- قبر الامام السيوطى و تحقيق موضعه (المطبعة السلفية و مكتبتها، القاهرة ۱۳۴۶ ه).

أحمد أمين ۴۰- ضحى الاسلام (الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة ۱۳۵۷ ه- ۱۹۳۸ م).

الأزهرى (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المتوفى عام ۳۷۰ ه) ۴۱- تهذيب اللغة (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة).

إسماعيل البغدادى ۴۲- هدية العارفين: أسماء المؤلفين و آثار المصنفين (طبع وكالة المعارف المطبعة البهية، استامبول ۱۹۵۱ م).

الأشمونى (أبو الحسين على بن محمد المتوفى عام ۹۲۹ ه) ۴۳- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (طبع و نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

أمين الخولى ۴۴- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية (مطابع دار الكتاب المصرى، ألقيت عام ۱۹۵۸ م و نشرها معهد الدراسات العربية العالية).

۴۵- مناهج تجديد فى النحو و البلاغة و التفسير و الأدب (دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة ۱۹۶۱ م).

۴۶- تعليق على مادة «أصول» بدائرة المعارف الاسلامية «الترجمة العربية».

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۱۹

بروكلمان (كارل) ۴۷- تاريخ الأدب العربى (نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الناشر جامعة الدول العربية، دار المعارف، القاهرة، ۱۹۶۱ م).

البغدادى (عبد القادر بن عمر البغدادى المتوفى عام ۱۰۹۳ ه) ۴۸- خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب (الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة ۱۳۴۷ ه- ۱۳۵۱ ه).

الثعالبى (أبو منصور عبد اللّه أو عبد الملك بن محمد المتوفى عام ۴۲۹ ه) ۴۹- ثمار القلوب فى المضاف و المنسوب (القاهرة، مطبعة الظاهر عام ۱۳۲۶ ه- ۱۹۰۸ م).

۵۰- فقه اللغة و سر العربية (نشر المكتبة التجارية، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة).

الجرجانى (القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ۳۶۶ ه) ۵۱- الوساطة بين المتنبى و خصومه (تحقيق أبو الفضل إبراهيم و البجاوى، الطبعة الثالثة، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

جورجى زيدان ۵۲- تاريخ آداب اللغة العربية (طبعة دار الهلال، مراجعة الدكتور شوقى ضيف، القاهرة).

الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد المتوفى عام ۵۳۹ ه) ۵۳- المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم (تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، مطبعة دار الكتب، القاهرة ۱۳۶۱ ه).

الجوهرى (اسماعيل بن حماد المتوفى عام ۳۹۳ ه أو ۴۰۰ ه) ۵۴- الصحاح (بتصحيح الشيخ نصر الهورينى).

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد اللّه المتوفى عام ۱۰۶۷ ه) ۵۵- كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون (طبع وكالة المعارف

الحلبية).

الحريرى (أبو محمد القاسم بن على المتوفى عام ۴۱۶ ه) ۵۶- درة الغواص فى أوهام الخواص (طبع ليبزج ۱۸۷۱ م).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۰

حسين نصار (دكتور) ۵۷- المعجم العربى: نشأته و تطوره (طبع دار الكتاب العربى، القاهرة ۱۳۷۵ ه- ۱۹۵۶ م).

الخطيب البغدادى (أبو بكر أحمد بن على بن ثابت المتوفى عام ۴۶۳ ه) ۵۸- الكفاية فى علم الرواية (طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد ۱۳۵۷ ه).

خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى عام ۸۷۳ ه) ۵۹- زيدة كشف الممالك و بيان الطرق و المسالك (طبع باريس ۱۸۹۴ م).

الداوديّ (محمد بن على بن أحمد الداوديّ المالكى المتوفى عام ۹۴۵ ه) ۶۱- طبقات المفسرين (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ۱۶۸ تاريخ، متوسط الحجم يحتوى على ۳۴۴ ورقة، فعدد صفحاته ۶۸۸ صفحة).

الذهبى (أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ۷۴۸ ه) ۶۱- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال (تحقيق البجاوى، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ۱۳۸۲ ه- ۱۹۶۳ م).

الزجاجى (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق المتوفى سنة ۳۳۷ ه) ۶۲- الايضاح فى علل النحو (الناشر مكتبة دار العروبة، القاهرة ۱۳۷۸ ه- ۱۹۵۹ م).

الزركلى (خير الدين) ۶۳- الأعلام (الطبعة الثانية ۱۳۷۳ ه- ۱۳۷۸ ه، مطبعة كوستاتسوماس).

الزمخشرى (جار اللّه محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ۵۳۸ ه) ۶۴- أساس البلاغة (طبع دار الكتب ۱۳۴۱ ه- ۱۹۲۲ م بالقاهرة).

۶۵- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل فى وجوه التأويل (الطبعة الأولى، القاهرة ۱۳۴۳ ه).

۶۶- المفصل فى علم العربية (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازى بالقاهرة).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۱

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى عام ۹۰۲ ه) ۶۷- التبر المسبوك فى ذيل السلوك (طبع المطبعة الأمبرية ببولاق سنة ۱۸۹۶ م).

۶۸- الذيل على رفع الإصر عن قضاة مصر (الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة ۱۹۶۶ م).

۶۹- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (الناشر مكتبة القدسى، القاهرة ۱۳۵۳ ه، ۱۳۵۴ ه و ما بعدها).

سعيد عاشور (دكتور) ۷۰- العصر المماليكى فى مصر و الشام (الطبعة الأولى، دار النهضة العربية القاهرة ۱۹۶۵ م).

۷۱- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ۱۹۶۲ م).

السكاكى (أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على المتوفى عام ۶۲۶ ه) ۷۲- مفتاح العلوم (مطبعة التقدم العلمية بمصر).

سليمان الجمل ۷۳- حاشية الجمل على الجلالين المسماة بالفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (طبعت مع تفسير الجلالين، مطبعة مصطفى محمد القاهرة ۱۳۵۲ ه- ۱۹۳۳ م).

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المتوفى حوالى ۱۸۰ ه) ۷۴- الكتاب (طبعة باريس ۱۸۸۱ م- ۱۸۸۵ م، طبعة بولاق ۱۳۱۶ ه، طبعة هارون ۱۳۸۵ ه، ۱۳۸۸ ه).

السيد خليل (دكتور) ۷۵- التصور اللغوى عند العرب (مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية المجلد الرابع عشر ۱۹۶۰ م).

۷۶- اللغة بين الأدب و التشريع (مقال بمجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، المجلد الثالث عشر ۱۹۵۹ م).

۷۷- مصر فى تاريخ النحو (مقال بمجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية،

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۲

المجلد الثالث عشر ۱۹۵۹ م).

السيد خليل (دكتور) ۷۸- الليث بن سعيد فقيه مصر (الناشر دار المعارف بمصر ۱۹۶۹ م).

الشافعى (الامام محمد بن إدريس الشافعى المتوفى عام ۲۰۴ ه).

۷۹- الرسالة (تحقيق الشيخ أحمد شاكر، مطبعة الحلبى، القاهرة ۱۳۵۸ ه- ۱۹۴۰ م).

الشعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على المتوفى عام ۹۷۳ ه) ۸۰- لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار أو الطبقات الكبرى (المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ۱۳۱۶ ه).

۸۱- ذيل الطبقات الكبرى، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ۴۹۳ تاريخ متوسط الحجم، عدد أوراقه ۱۳۹ ورقة، فصفحاته ۲۵۸ صفحة).

الشوكانى (القاضى محمد بن على الشوكانى المتوفى عام ۱۲۵۰ ه) ۸۲- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ۱۳۴۸ ه).

شوقى ضيق (دكتور) ۸۳- المدارس النحوية (دار المعارف بمصر ۱۹۶۸ م).

الصبان (محمد بن على الصبان المتوفى سنة ۱۲۰۶ ه) ۸۴- حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (طبع و نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة).

صبحى الصالح (دكتور) ۸۵- دراسات فى فقه اللغة (مطبعة جامعة دمشق ۱۳۷۹ ه- ۱۹۶۰ م).

عبد اللطيف حمزة (دكتور) ۸۶- الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة).

۸۷- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى و المملوكى الأول (الطبعة الأولى، دار الفكر العربى).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۳

عبد المتعال الصعيدى ۸۸- المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر (مكتبة الآداب بالجماميز).

عبد الوهاب حمودة ۸۹- صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى (الدار المصرية للتأليف و الترجمة القاهرة ۱۹۶۵ م).

عبد الوهاب عزام (دكتور) ۹۰- مجالس السلطان الغورى فى القرن العاشر الهجرى (مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة ۱۳۶۰ ه- ۱۹۴۱ م).

العيدروسى (شمس الشموس محيى الدين عبد القادر بن شيخ المتوفى عام ۱۰۳۸ ه) ۹۱- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر (تحقيق محمد رشيد الصفار المكتبة العربية ببغداد، ۱۳۵۳ ه- ۱۹۳۴ م).

على عبد الواحد وافى (دكتور) ۹۲- علم اللغة (الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ۱۳۶۳ ه- ۱۹۴۴ م).

الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد المتوفى سنة ۵۰۵ ه) ۹۴- المستصفى من علم الأصول (الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق القاهرة ۱۳۲۲ ه- ۱۳۲۴ ه).

فك (يوهان) ۹۵- العربية: دراسات فى اللغة و اللهجات و الأساليب (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، نشر مكتبة الخانجى، القاهرة ۱۳۷۰ ه).

قندريس (جوزيف) ۹۶- اللغة (ترجمة د. عبد الحميد الدواخلى- محمد القصاص، نشر الأنجلو المصرية، ۱۳۷۰ ه- ۱۹۵۰ م).

الفيروزآبادى (محمد بن يعقوب بن محمد المتوفى سنة ۸۱۷ ه).

۹۷- القاموس المحيط (المطبعة و المكتبة الحسينية بمصر).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۴

القرطبى (أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى عام ۶۷۱ ه).

۹۸- الجامع الأحكام القرآن (الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ۱۳۷۲ ه- ۱۹۵۲ م).

القلقشندى (أبو العباس أحمد المتوفى عام ۸۲۱ ه).

۹۹- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (المطبعة الأميرية ۱۳۳۱ ه و ما بعدها).

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ۲۸۵ ه) ۱۰۰- الكامل فى اللغة و الأدب (المكتبة التجارية بالقاهرة).

مجمع اللغة العربية ۱۰۱- مجلة مجمع اللغة العربية (الأجزاء من ۱- ۲۲).

۱۰۲- محاضر جلسات مجمع اللغة العربية (أدوار الانعقاد المختلفة).

۱۰۳- مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة و العشرين (أخرجها: محمد خلف اللّه أحمد- محمد شوقى أمين، ۱۳۸۲ ه- ۱۹۶۳ م).

محمد صديق حسن خان ۱۰۴- البلغة فى أصول اللغة (مطبعة الجوائب- القسطنطينية ۱۲۹۶ ه).

محمد الطنطاوى ۱۰۵- نشأة النحو تاريخ أشهر النحاة (الطبعة الرابعة- مطبعة وادى الملوك، القاهرة ۱۳۷۴ ه- ۱۹۵۴ م).

محمد بن نظام الدين الأنصارى ۱۰۶- فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (طبع مع كتاب المستصفى للغزالى الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق، ۱۳۲۲ ه- ۱۳۲۴ ه).

محمود السعران (دكتور) ۱۰۷- علم اللغة: مقدمة للقارئ الربى (دار المعارف بمصر، فرع الاسكندرية ۱۹۶۲ م).

۱۰۸- اللغة و المجتمع: رأى و منهج (المطبعة الأهلية، بن غازى ۱۹۵۸ م).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۵

محمود رزق سليم ۱۰۹- عصر سلاطين المماليك و نتاجه العلمى و الأدبى (الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، المجلد الثانى ۱۳۶۶ ه، المجلد الثالث ۱۳۶۸ ه).

مصطفى الشهابى ۱۱۰- المصطلحات العلمية فى اللغة العربية فى القديم و الحديث (نشر معهد الدراسات العربية العالمية، ۱۹۵۵ م).

مصطفى صادق الرافعى ۱۱۱- تاريخ آداب العرب (تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الطبعة الثالثة ۱۳۷۳ ه- ۱۹۵۳ م).

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المتوفى سنة ۸۴۵ ه) ۱۱۲- البيان و الاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب (تحقيق د. عبد المجيد عابدين، طبع و نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ۱۹۶۱ م).

۱۱۳- الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار (مطبعة النيل بالقاهرة عام ۱۳۲۶ ه).

۱۱۴- السلوك لمعرفة دول الملوك (الطبعة الثانية القاهرة ۱۹۵۷ م).

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۲۶

ثالثا: المصادر الأجنبية

۱- nodnoL,« egaugnaL » (dranoeL) dleifmoolB ۱۹۶۲

۲- llirB,« rutarettiLnehchs ibrAreDethcihceG »: nnamlekcorB ۳ ,۱۹۳۸-

.(: «scitsiugni LlareneGnIesruoC ,niksiaBedaW :ybhc nerFehtmorfdetal -snarT kroYweN dnanedeF (erussuaSeD

۴- acinatirBaideapo lcycnEehT

۵- malsIfoaideapolc ycnEehT

۶-

nodnoL ,«nig -irOdnatnem poleveDerutaNstI :egaugnaL» :(ottO)nesrepseJ, ۱۹۵۹.

-۵

hceepS foydutseht otnoitcudortnInA :egaugnaL» :(drawdE)ripaS.

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۲۷

مسرد محتویات البحث

الموضوع الصفحة تصدیر ۳ المقدمة ۵- ۱۴ الباب الأول عصر السیوطی و حیاته و آثاره ۱۵- ۱۷۲ الفصل الأول: الحیاة السیاسیة و الاجتماعیة ۱۷- ۵۴ سقوط بغداد ۱۷ انتقال مرکز الثقل السیاسی و الحضاری للمسلمین إلی القاهرة ۲۰ انتقال الخلافة إلی القاهرة ۲۱ ممیزات العصر السیاسیة ۲۲ السلاطین فی عهد السیوطی، و ممیزات هذه الفترة ۲۳ الخلافة و الخلفاء المعاصرون له ۲۸ نظم الحکم ۳۰ القضاء ۳۱ الحسبة ۳۲ الحیاة الاجتماعیة ۳۴- ۵۴ بناء المجتمع ۳۴ المماليک ۳۴ أرباب القلم ۳۶ طوائف المجتمع الأخری ۳۸ الحیاة فی المدن ۴۳

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۲۸

الموضوع الصفحة القلق الاقتصادی ۴۵ المجاعات و الأوبئة ۴۷ التصوف و المجتمع ۴۹ الفصل الثانی: الحیاة الثقافیة ۵۵- ۹۰ نشاط الحرکة العلمیة ۵۵ دور العلم ۵۹ المدارس ۵۹ المدرسة الصلاحیة و مدرسة السلطان حسن ۶۰ مدرسة صرغتمش ۶۰ خزائن الکتب ۶۱ الخوانق و الربط و الزوایا ۶۱ خانقاه سعید السعداء ۶۲ خانقاه شیخو ۶۳ الخانقاه البیبرسیة ۶۵ المراکز العلمیة الممثلة فی المساجد ۶۶ جامع عمرو ۶۷ جامع ابن طولون ۶۸ الجامع الأزهر ۶۸ عوامل نشاط الحرکة العلمیة ۶۹ نتائج نشاط الحرکة العلمیة ۷۳ نشاط التألیف ۷۴ منهج التألیف فی العصر- الاتجاه الموسوعی ۷۵ التقلید ۷۶ المتون و الشروح ۷۷ الاکمالات و التذییلات ۸۰ تنظیم العلوم و استقرار المصطلحات ۸۱

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۲۹

الموضوع الصفحة العنایة بتاریخ مصر ۸۲ الحیاة الأدبیة ۸۴- ۹۰ الشعر ۸۴ النثر و أنواعه و خصائصه ۸۶ الخطبة ۸۷ الرسائل ۸۸ المقامة ۸۹ الفصل الثالث: حیاته و ثقافته و آثاره ۹۱- ۱۷۲ مولده و نسبه ۹۱ نسبته ۹۲ والده ۹۲ نشأته و حیاته العلمیة و العملیة ۹۴- ۱۲۱ نشأته ۹۴ دراسته ۹۵ شیوخه ۹۷ مراحل حیاته ۱۰۴- ۱۲۱ مشارکته فی الحیاة العامة ۱۰۴ المرحلة الثانیة ۱۰۴ المرحلة الثالثة ۱۰۵ العزلة الأولی ۱۰۶ مشیخة البیبرسیة ۱۰۹ ولایة القضاء ۱۱۰ حادثة الصوفیة ۱۱۲ اختفاء السیوطی ۱۱۴ العزلة الأخیرة ۱۱۶ وفاته ۱۱۹

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۰

الموضوع الصفحة قبره ۱۲۰ مکانه فی المجتمع ۱۲۲ - ۱۴۲ السیوطی بین أنصاره و خصومه ۱۲۶ انتقادات السخاوی ۱۲۷ هجوم السیوطی علی خصومه ۱۲۷ دعوی الاجتهاد ۱۳۳ الشوکانی ینتصر للسیوطی من بعده ۱۳۷ خلقه و شخصیته ۱۳۸ منهجه فی التفکیر و أصول هذا المنهج ۱۴۳- ۱۶۵ بلوغ درجة الاجتهاد ۱۴۴ فکرة المبعوثیة و دلالاتها ۱۴۵ السیوطی و علوم الحدیث ۱۴۹ السیوطی و التصوف ۱۵۳ السیوطی الفقیه ۱۵۷ السیوطی و الأدب ۱۵۸ السیوطی و الشعر ۱۶۲ آثار السیوطی ۱۶۶- ۱۷۲ الباب الثانی جهوده اللغویة ۱۷۳- ۳۷۰ تقدیم ۱۷۵ الفصل الأول: فقه اللغة أو: الدراسات اللغویة غیر النحو و الصرف ۱۷۹- ۳۱۰ مراحل حیاة الدرس اللغوی و تدرجه قبل السیوطی، و أنواع الدراسات التی اعتمد علیها ۱۷۹ آثاره اللغویة و مکانها من حیاة الدرس اللغوی ۱۹۰- ۲۳۳

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۱

الموضوع الصفحة ۱- کتاب المتوکلی فیما ورد فی القرآن باللغة الحبشیة ... الخ ۱۹۰ قضیة عربیة ألفاظ القرآن بین الآراء المختلفة ۱۹۱ ملاحظات نقدیة علی منهج الکتاب و موضوعه ۱۹۴ ۲- المهذب فیما ورد فی القرآن من المعرب ۲۰۰ ۳- بعض الأبحاث اللغویة

المتصلة بالقرآن الکریم ۲۰۲ غریب القرآن ۲۰۲ ما فی القرآن بغیر لغة الحجاز ۲۰۳ الخاص و العام ۲۰۴ ۴- رسالة فی أصول الکلمات ۲۰۵ مکان الرسالة من درس التطور الدلالی ۲۰۵ ملاحظات علی الرسالة و موضوعها ۲۰۷ ۵- التبری من معرة المعری ۲۰۷ المنظومة و قضیة الترادف فی اللغة ۲۰۷ ۶- التهذیب فی أسماء الذیب ۲۱۱ ۷- فطام اللسد فی أسماء الأسد ۲۱۱ ۸- الافصاح فی أسماء النکاح ۲۱۱ ۹- الافصاح فی زوائد القاموس علی الصحاح ۲۱۲ ۱۰- الالماع فی الاتباع ۲۱۲ الإتباع فی اللغة، و درس السیوطی له ۲۱۳ ۱۱- حسن السیر فیما فی الفرس من أسماء الطیر ۲۱۴ صلة الرسالة بالمشترک اللفظی ۲۱۴ المشترک اللفظی بین القدماء و المحدثین ۲۱۵ ۱۲- غایة الاحسان فی خلق الانسان ۲۱۵ ۱۳- شرح قصیدة بانت سعاد ۲۱۶

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۲

الموضوع الصفحة مقارنة عمل السیوطی بما قام به ابن هشام و الباجوری ۲۱۸ ۱۴- الریاض الأنیقة فی شرح أسماء خیر الخلیقة ۲۱۹ ۱۵- الشماریخ فی علم التاریخ ۲۲۰ ۱۶- المزهر فی علوم اللغة و أنواعها ۲۲۲ منهج السیوطی فی المزهر ۲۲۳ مصادر الکتاب ۲۲۴ نقول السیوطی ۲۲۶ ترتیب النقول ۲۲۷ منهجه فی النقل ۲۲۹ وضع أصول لنقد الروایة اللغویة ۲۳۳- ۲۶۵ نقد روایة الحدیث و تدرجها ۲۳۳ روایة اللغة و الأدب ۲۳۶ تدرج نقد الروایة قبل السیوطی ۲۳۶ محاولة السیوطی ۲۳۸ منهج نقد الروایة و دور السیوطی فی تحدیده ۲۴۰ المرحلة الأولی: النقد الخارجی ۲۴۰ أ- رواة اللغة ۲۴۰ آداب اللغوی ۲۴۵ کتابة اللغة ۲۴۶ الطبقات و الحفاظ و الثقات و الضعفاء ۲۴۶ الکنی و الألقاب و الأنساب ۲۴۸ المؤتلف و المختلف ۲۴۹ تواریخ الرواة میلادا و وفاة ۲۵۰ ب- الأسانید ۲۵۱ الصحیح ۲۵۳

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۳

الموضوع الصفحة المتواتر و الآحاد ۲۵۴ اتصال السند- المرسل- المجهول ۲۵۵ الأفراد ۲۵۶ المجهول ناقله و المجهول قائله ۲۵۷ طرق السماع و الروایة ۲۵۸ صیغ الأخذ و التحمل ۲۵۸ المصنوع من اللغة ۲۱۲ المرحلة الثانیة: النقد الداخلی أو نقد المتن ۲۱۲ مفهوم اللغة عند السیوطی ۲۶۶- ۲۶۹ الألفاظ ۲۷۰- ۲۸۰ الآراء الصوتیة للقدماء فی بحث الفصیح و عنایة السیوطی بها ۲۷۰ الاعتبار الصوتی فی تصنیف الألفاظ ۲۷۱ الاعتبار الصوتی و درس المستعمل و المهمل ۲۷۴ المعرّب ۲۷۴ المولد ۲۷۶ الألفاظ الاسلامیة و مباحث الدلالة ۲۷۸ اللهجات العربیة ۲۷۹ المعنی أو الدلالة اللغویة ۲۸۱- ۲۹۱ علم الدلالة الحدیث ۲۸۱ خصائص اللغة ۲۸۲ بعض ما یتصل بمباحث الصوت و وضع بمباحث المعنی عند السیوطی ۲۸۲ الابدال ۲۸۲ القلب و النحت ۲۸۴ الاشتقاق و مباحث الدلالة ۲۸۵

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۴

الموضوع الصفحة مباحث تتصل بالتغیر الدلالی: الحقیقة و المجاز ۲۸۶ الخاص و العام ۲۸۸ المطلق و المقید ۲۸۹ التضاد فی اللغة ۲۹۰ ضبط اللغة ۲۹۲- ۲۹۳ نشأة اللغة ۲۹۴- ۲۹۶ الصلة بین اللفظ و المعنی ۲۹۷- ۳۰۱ الوضع اللغوی ۳۰۲- ۳۰۴ المعاجم اللغویة ۳۰۵- ۳۰۷ إثبات الأسماء بالقیاس ۳۰۸- ۳۱۰ الفصل الثانی: النحو ۳۱۱- ۳۷۰ تقدیم ۳۱۱ آثاره النحویة ۳۱۳- ۳۳۸ أنواع الآثار شکلا و مضمونا ۳۱۳ ۱- الأخبار المرویة فی سبب وضع علم العربیة ۳۱۳ ۲- الأشباه و النظائر ۳۱۴ ۳- الاقتراح ۳۱۶ ۴- الفریدة: الألفیة النحویة للسیوطی ۳۱۷ ۵- المطالع السعیدة فی شرح الفریدة ۳۱۸ ۶- شرح ألفیة ابن مالک ۳۲۲ ۷- جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع ۳۲۳ ۸- النکت علی الألفیة لابن مالک و الکافیة ۳۲۵ ۹- الفتح القریب علی مغنی اللبیب ۳۲۷ ۱۰- شرح شواهد المغنی ۳۲۸ ۱۱- الشمعة المضیة فی علم العربیة ۳۲۹ ۱۲- الموشح فی علم النحو ۳۲۹

جلال الدین السیوطی عصره و حیاته و آثاره و جهوده فی الدرس اللغوی، ص: ۴۳۵

الموضوع الصفحة الفتاوی النحویة ۳۳۰ رسائل الحاوی ۳۳۳ ۱- فجر الثمد فی إعراب أکمل الحمد ۳۳۳ ۲- ألویة النصر فی «خصیصی» بالقصر ۳۳۴ ۳- الزند الوری فی الجواب عن السؤال السکندری ۳۳۵ ۴- رفع السنة فی نصب الزنة ۳۳۶ بقیة الآثار ۳۳۷ السیوطی و علم أصول النحو ۳۳۹- ۳۵۶ البحث فی الأصول فی العلوم الاسلامیة ۳۳۹ ربط أصول النحو بأصول الفقه ۳۴۱ الجهود التی

سبقت السيوطى فى وضع أصول للنحو ۳۴۲ العلل النحوية و تطور دراستها ۳۴۳ مقارنة الجهود السابقة بعمل السيوطى ۳۴۴ مميزات عمل السيوطى ۳۴۷ موقفه من الاحتجاج بالقراءات القرآنية ۳۵۱ موقفه من الاحتجاج بالحديث الشريف ۳۵۲ موقفه من الاحتجاج بكلام العرب ۳۵۳ نقد صنيع السيوطى و سابقيه فى علم أصول النحو ۳۵۴ مذهبه النحوى ۳۵۷- ۳۷۰ المدارس النحوية السابقة و خصائصها و أثرها فى المدرسة المصرية ۳۵۸ تأثر السيوطى بالمذاهب السابقة و بالبيئة المصرية ۳۶۳ اختياراته و آراؤه الخاصة و تعليلاته، و خصائص مذهبه ۳۶۵ خاتمة ۳۷۱- ۳۸۰

جلال الدين السيوطى عصره و حياته و آثاره و جهوده فى الدرس اللغوى، ص: ۴۳۶

الموضوع الصفحة مسرد المصادر و المراجع ۳۸۱- ۴۲۶ أولا- أسماء مؤلفات السيوطى ۳۸۱- ۴۱۳ ثانيا: أسماء الكتب العربية و المترجمة لغير السيوطى ۴۱۴- ۴۲۵ ثالثا: المصادر الأجنبية ۴۲۶ مسرد الموضوعات ۴۲۷-

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹